القسم الثاني

العِرَاق

الفصل الأوّل

السياسة والمجتمع

١

البويهيون والسلاجقة والخلفاء العباسيون

البويهيون[1] أسرة فارسية تُنْسب إلى بُويه، وهو فارسي ديلمي، ويقال إنه كان صَيَّاداً على بحر قزوين، وكان أبناؤه علي والحسن وأحمد من حوله يَحْتطِبون. ونراهم حين صار إليهم الملك ينسبهم المؤرخون- مَلقاً لهم يبدو- إلى الملك الساساني بهرام جور. ومهما يكن فقد التحق بويه وأبناؤه بخدمة ما كان بن كاكي، حتى إذا انتصر عليه مَرْداويج الزياري صاحب جرجان تحولوا إليه، وأيدوه في حروبه ضد الدولة العلوية الزيدية بطبرستان، فولى عليا الكرج في الجنوب الشرقي من همذان سنة ٣٢٠ للهجرة، ولم يلبث على أن استولى على فارس وأرجان واتخذ شيراز مقراً له. وقتل مرداويج في سنة ٣٢٣ فاستولى هو وأخوه الحسن على أصْفهان والري اللتين كانتا تابعتين له وتولى الحسن شئونها وشئون بلاد الجبل، واستولى أخوهما أحمد على كرمان، وظل يتقدم تدريجاً نحو الغرب حتى استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ ومضى يتقدم حتى استولى على واسط. وفي هذه الأثناء كانت المجاعة تهدد بغداد، وكان الجند الأتراك ثائرين على الخليفة وقواده لعجزه عن دفع رواتبهم، فوجد أحمد الأبواب جميعها مفتوحة إلى بغداد فدخلها في جمادي الأولى سنة ٣٣٤. ورحب به الخليفة المستكفي منقذاً ومخلِّصاً، ومنحه إمرة الأمراء ولقبه معز الدولة،

---

(١) انظر الدولة البويهية تجارب الأمم لمسكويه وذيله لأبي شجاع والمنتظم لابن الجوزي وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغزي بردي وأحسن التقاسيم للمقسي في مواضع متفرقة وابن خلكان في تراجم أمرائها وكذلك الجزء الثاني من كتاب اليتيمة للثعالبي وابن طباطبا (الفخري في الآداب السلطانية) والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ص٢٧ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص٢٤٤ وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ومادة بني بويه في دائرة المعارف الإسلامية.

ولقَّب أخاه عليها صاحب فارس وشيراز عماد الدوّلة والحسن صاحب بلاد الجيل ركن الدولة، وضربت ألقابهم على السكة، وذُكرت أسماؤهم وألقابهم مع الخليفة في خطبة الجمعة. ومن حينئذ بالغ البويهيون في الألقاب الفخمة يُضفونها على أنفسهم وعلى وزرائهم.. ولم يكد الشهر التالي لدخول معز الدولة بغداد يتقدم حتى خُلع المستكفي وسُلمت عيناه، وولى الخلافة بعده ابن عمه المطيع لله، ولم يكن له ولا لمن تلاه من الخلفاء العباسيين في عهد البويهيين حَوْل ولا طَوْل ولا سلطان إلا ما كان من ذكر أسمائهم في خطبة الجمعة وعلى السكة المضروبة. وكأنما أصبحوا مجرد صنائع في أيدي البويهيين يسبغون عليهم الرواتب بالمقدار الذي يريدون.

وظل معز الدولة يلي شئون بغداد والعراق والأهواز وكَرْمان إلى أن توفي سنة ٣٥٦ وخلفه ابنه عز الدولة بَخْتيار، وكان شديد البأس شجاعاً يمسك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك، وتزوج الخليفة الطائع ابنته شاه زمان في سنة ٣٦٤ على صداق قدره مائة ألف دينار. وكانت ولاية فارس قد صارت إلى ابن عمه عضد الدولة ابن ركن الدولة منذ وفاة عمه عماد الدولة سنة ٣٣٨ للهجرة إذ لم يترك ولداً. فآلت ولايته إلى أخيه ركن الدولة، فمنحها ابنه عضد الدولة. وتوفيِّ ركن الدولة سنة ٣٦٥ وجعل لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرَّرجان وشيراز، ولأخيه مؤيد الدولة الريَّ وأصفهان، ولأخيهما فخر الدولة هَمذان والدِّينور، وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه، ولم تلبث الأمور أن ساءت بينه وبين بختيار ابن عمه معز الدولة، فاشتبكا في حروب، قُتل فيها بختيار في شوال سنة ٣٦٧. وبذلك دخلت بغداد وما تبعها من العراق في حوزة عضد الدولة منذ هذا التاريخ.

وعضد الدولة هو أعظم ملوك بني بويه، إذ بلغ سلطانه من سعة الملك ما لم يبلغه أحد من أسرته وهو أول من خُطب له- فيما يقال- على منابر بغداد بعد الخلفاء وأول من لُقِّب بشاهنشاه (ملك الملوك) في الإسلام وأصبح البويهيون بعده يلقبون بهذا اللقب، وكانت فيه قسوة شديدة، ومما يصور ذلك رميه بابن بقية الوزير تحت أرجل الفيلة حين سلَّمه إليه بختيار لأمور ساءته، فقتلته بأرجلها كَرْمان وصحراء جزيرة العرب، ورفع عن قوافل الحجاج لجباية واحتفر لهم الآبار في سُبلهم إلى مكة وأدار على مدينة الرسول (صلى الله

عليـه وآلــه وسـلم) سـوراً حـصيناً، وأمـر بعـمارة منـازل بغـداد وأسـواقها وابتـداء بعـمارة المساجد، وألـزم أصـحاب العقـارات تـشييد بيـوتهم وأقـرض مـن قـصرت يـداه مـن بيـت المـال وخاصة من كانـت بيـوتهم تقـع عـلى شـاطئ دجلـة، وعُنـى بالبـساتين فـامتلأت خرابـات بغـداد بـالزهر والخـضرة، وجلـب إلى بغـداد الغـروس في سـائر الـبلاد، وعُنـى بجـداولها وجـسورها، وأنـشأ سـوقاً للبـزَّازين. وبنـى مارسـتانا كبـيراً ببغـداد، وأجـرى الرواتـب عـلى العـلاء مـن كـل صنف، وكان عادلاً سيوسـاً يحـسن اختيـار ولاتـه وعمالـه، وكانـت جراياتـه متـصلة عـلى الفقـراء والمساكين. غـير أن مـدة حكمـه لبغـداد والعـراق لم تطـل، فقـد تـوفى سـنة ٣٧٢، وكـأنهما لم تـنعما بحكمـه إلا خمـس سـنوات متـصلة. وكـان قـد قـسم مملكتـه بـين أبنائـه الثلاثـة: شرف الدولـة وصمـصام الدولـة وبهـاء الدولـة، وهـو تقـسيم أثبتـت الأيـام دائـماً أنـه نـذير بـضياع الدولـة واختـلال شـئونها. وتـولى شـئون بغـداد والعـراق صمـصام الدولـة يعاونـه وزيـره أبـو عبـد الله بـن سَـعْدان صـاحب أبي حيـان، ولم يـنجح أمـر صمـصام الدولـة وغلـب عليـه أخـوه شرف الدولـة سـنة ٣٧٦ وقهـره وحبـسه وأخـذ بغـداد منـه، ويتـوفىَّ شرف الدولـة سـنة ٣٧٩ بعـد أن عهد بالملك لأخيه بهاء الدولة وضـياء الملـة الـذي ظـل حـاكماً لبغـداد والعـراق حتـى وفاتـه سـنة ٤٠٣ وكـان- كـما يقـول المؤرخـون- ظالمـاً غـشوماً سـفاكاً للـدماء، وقـد قـبض عـلى الخليفـة الطائع سنة ٣٨١ وخلعه مـن الخلافـة، وولاهـا القـادر بـالله، ولم يكـن في ملـوك بنـي بويـه أظلـم منه ولا أقـبح سـيرة، ويقـال إنـه جمـع مـن المـال مـا لم يجمعـه أحـد. وتوزعـت الدولـة بعـده بـين أبنائه الأربعة: مـشّرف الدولـة وقـوام الدولـة وجـلال الدولـة وأبي شـجاع سـلطان الدولـة وهـو الذي ولى بغداد بعد أبيـه بعهـد منـه، وظـل يـلي شـئون ولايتـه حتـى سـنة ٤١٢ حـين عظـم أمـر أخيه مـشرف الدولـة وعلـت كفَّتـه، فخُطـب لـه ببغـدادَ في المحـرم وخوطـب بشاهنـشاه. ويـدور العـام، فيـتم الـصلح بـين الأخـوين، ويعـود ذكـر سـلطان الدولـة إلى الخطبـة، ويتـوفى سـلطان الدولـة في سـنة ٤١٥ ولا يلبـث أخـوه مـشرف الدولـة أن يتـوفى بعـده في سـنة ٤١٦ وتـصبح بغـداد خالـصة هـي والعـراق لأخـيهما جـلال الدولـة، ويـستوزر أبـا سـعيد بـن مـاكولا، ويلقبـه علم الدين سـعد الدولـة أمـين الملـة شرف الملـك، ممـا يـصور مـدى تغـالي البـويهيين في الألقـاب. ويطـول حكـم جـلال الدولـة حتـى وفاتـه سـنة ٤٣٥ ويختـل الحكـم في أيامـه ويختـل الـسلطان

حتى يبلغ من ذلك أن يتولى العيارون واللصوص على بغداد سنة ٤٢٦ ويفعلون بها أفعالاً قبيحة، واختلّت الشئون المالية، وبلغ من سوء اختلالها أن باع جلال الدولة ثيابه وماعون بيته وآلاته في الأسواق، وخلت داره- كما يقول ابن الجوزي- من الحجّاب والفراشين والبوابين. وخلفه أبو كاليجار بن سلطان الدولة حاكم فارس والأهواز، وكان شجاعاً فاتكا مشغولاً باللهو، وفي عهده أخذ المدُّ السلجوقي يزداد حتى شمل أكثر إيران، مما جعله يموت غماًّ سنة ٤٤٠ ويخلفه ابنه أبو نصر الملقب بالملك الرحيم، وبلغ من ضعفه أن جرَّده أحد قواده الأتراك، ويسمى البساسير، من سلطانه كله، وأحسَّ الخليفة العباسي القائم بأمر الله بخطره، وعرف أنه يكاتب سِرًّا الخليفة المستنصر الفاطمي بمصر، وأنه يدبر أمر خطيراً. وكانت الدولة السلجوقية قد أخذ يعظم شأنها في خراسان بقيادة طُغْرُلْبك ودانت لها خراسان وشطر كبير من إيران، فكتب إليه الخليفة يستنهضه إلى المسير إلى بغداد سنة ٤٤٦، وأمر أن يذكر اسم طغرل في الخطبة وعلى النقود قبل اسم الملك الرحيم. ولم يلبث أن دخل بغداد وقضى نهائياً على الدولة البيويهية.

والسلاجقة[1] شعبة من الآتراك الغُزِّ الذين أخذوا يُغيرون بقيادة زعيمهم سَلْجوق منذ سنة ٤٢٠ للهجرة على حدود إيران الشمالية والشرقية، جاءوا من التركستان إلى بلاد ما وراء النهر، وكانوا يقضون مشتاهم بالقرب من بخاري ومصيفهم بالقرب من سمرقند. وقد اعتنق سلجوق الإسلام السنى وتبعته قبيلته. ويقال إن السلطان محموداً الغزنوي دعاهم إلى الإقامة في الأقاليم المحيطة ببخاري، غير أنه عاد فتوجَّس منهم شراً، مما جعله يأمر بالقبض على إسرائيل بن سلجوق، وحَبسه في قلعة ببلاد الهند، ظل بها حتى مات. وتوفي محمود. وفكر السلاجقة في الثأر فأنقضّوا على بخاري. وهزموا جيوش مسعود بن

(١) أنظر في السلاجقة تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن خلدون وابن تغرى بردي في مواضع متفرقة وكتاب راحة الصدور في تاريخ الدولة السلجوقية للراوندي ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي والدكتور عبد النعيم حسنين (طبع القاهرة) ومجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة نشر هوتسما بليدن وتاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهاني (مختصر البنداري) ووفيات الأعيان لابن خلكان في تراجم سلاطينهم وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي (ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي) وسلاجقة إيران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين (طبع القاهرة) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٧١ ومادة السلاجقة في دائرة المعارف الإسلامية.

محمود. وأعلن طُغْرُلْبَك نفسه ملكاً على خراسان في صيف سنة ٤٣٠ للهجرة، ودانت له مرو ونيسابور، ولم يلبث مسعود أن توفي سنة ٤٣٢ فتمكنوا من الاستيلاء على بقية خراسان واستولوا على طَبَرِستان وسِجِسْتان وهَراة وبُسْت وأخذ طُغْرُل يولِّي أبناء أسرته وعمومته على البلاد، واتخذ الرَّيَّ حاضرة له. واستنجد به الخليفة القائم بأمر الله كي يضبط بغداد على نحو ما أسلفنا، فدخلها في سنة ٤٤٧ وهرب منها البساسيري، وخلع عليه الخليفة خلعاً سنية وأجلسه على العرش إلى جواره، وألبسه حلة فاخرة، وكان البساسيري قد فرَّ إلى الشمال فتعقبه طُغْرُلْبَك حتى الموصل، واضطر أن يتركه إلى حرب أخ لأمه يسمى إبراهيم بن يَنال خرج عليه في همذان، وعرف البساسيري كيف يستغل الفرصة، فوضع يده في يد أحد الأمراء بني عُقَيْل، وهو قريش بن بدران، واستوليا على بغداد وأمر الخطباء على منابرها بذكر اسم المستنصر الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة، وكذلك صنعا بما استوليا عليه من المدن. وأخرج البساسيري الخليفة من بغداد إلى عانة من مدن الجزيرة، ولكن طغرل لم يلبث أن عاد إلى بغداد وأعاد إليها الخليفة وقضى على هذه الفتنة قضاء مبرماً، مما جعل الخليفة يلقبه بلقب ملك الشرق والغرب.

وطُغْرُل هو أول ملوك الدولة السِّلْجوقية العظام، وكان شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازماً حريصاً على أداء واجباته الدينية، وتوفِّي بمدينة الرَّيِّ سنة ٤٥٥ فخلفه ابن أخليه ألْب أرْسلان بن جُغْرى بَك، كان اسمه بالعربية محمداً، ولُقِّبَ بالملك العادل، ويقال إنه أول من لُقب بالسلطان من بني سَلْجوق، وذُكر على منابر بغداد، وكان شجاعاً مطاعاً، وهو أعدل بني سلجوق في الرعية، وقد وسع حدود مملكته من الصين شرقاً إلى الشام غرباً، وقد استولى على ما بيد الفاطميين من البلاد حتى دمشق، وقاد حملات مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها "رومانوس ديوجين" سنة ٤٦٢ في موقعة دمَّر فيها الجيش الرومي تدميراً. ويقال إن جليشه لم يكن يزيد على خمسة عشر ألف محارب بينما كان الجيش الرومي في تلك الموقعة يتألف من مائتي ألف رجل من يونان وأرمن وقوقاز وروس وغيرهم. وفَدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار، وعقد معه ألب أرسلان معاهدة لمدة خمسين سنة، على أن تلبيه جنود الروم إذا طلبها، وأن تُرَدَّ إلى أسرى المسلمين حرياتهم.

وكان مدبِّر مملكته وزيرَه نظام الملك، وكان حصيفاً وافر العقل، وسياسياً حكيماً بصيراً بتدبير الأمور، محباً للعلم، وقد بعث في دولته نهضة علمية أسس لها مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية، أقامها في كثير من البلدان، وعُني خاصة بمدرسته النظامية ببغداد واستقدم لها العلماء من نَيْسابور وغيرها وفي مقدمتهم أبو إسحق الشيرازي والغزالي وغيرهما من كبار العلماء. وخلف ألب أرْسلان حين توفى سنة ٤٦٥ ملكشاه ابنه، وكان شاباً في الثامنة عشرة من عمره، فأحكم له نظام الملك شئون دولته وفرَّق البلاد على أولاده، وجعل مرجعهم إلى ملكشاه. وكان مظفراً، استولت جيوشه على كثير من البلاد، حتى قيل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين، فكانت مملكته تشتمل على جميع بلاد ما وراء النهر وإيران والعراق وبلاد الروم والجزيرة والشام، وكان ملكه يمتدّ من مدينة كاشْغر– وهي أقصى مدينة للترك– إلى بيت المقدس طولاً– كما يقول ابن تغرى بردِي– ومن بحر قزوين والقسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً.

وكان من أحسن الملوك سيرة، وبالمثل كان وزيره نظام الملك، ويروي أنه لما تسلطن خرج عليه عمه "قاورد بك" صاحب كَرْمان، فحاربه وأخذه أسيراً فلما مثل بين يديه قال له: أمراؤك كاتبوني وأبرز له مكاتبات فأخذها ملكشاه وأعطاها إلى وزيره نظام الملك، فتناولها منه وألقاها في موقد نار كان بين يدي ملكشاه فاحترقت. فسكنت قلوب الأمراء وبذلوا الطاعة، وثبت ملكه بهذا الصنيع الجميل لنظام الملك. وكان ملكشاه مولعاً بالعمائر، فعمرَّ الأسوار والقناطر وحفر الأنهار، وأبطل المكوس في جميع بلاده، وأقام مصانع الماء بطريق مكة وأنفق عليها أموالاً طائلة، وهو الذي عمَّر جامع السطلان ببغداد سنة ٤٨٥ وكان الطرق في أيامه آمنة، تسير القوافل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في مملكته وليس معها خفير.

وتزوج الخليفة المقتدى بابنته سنة ٤٨٠. ويقول ابن خلكان: كان اليمن والبركة مقرونين بناصيته، وكان إذا دخل بغداد أو أصبهان أو أي بلد من البلاد دخل مع عدد لا يحصى لكثرته، فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله. ويتكسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير. وكان ينفق الأموال الكثيرة على المدارس

والرباطات. وتوفي ببغداد في شوال سنة ٤٨٥ وحُمل تابوته إلى أصبهان ودفن في مدرسة موقوفة على الشافعية والحنفية. وبه ينتهي عهد السلاجقة العظام، وخلفه ابنه بَرْ كْيارُوق، وكان أخوه السلطان سِنْجَر نائبه على خراسان، ودخل في حروب مع أخيه محمد صاحب أذربيجان، وكانت كفته دائماً الراجحة، وحاربه عمه تُتُش صاحب دمشق، وقُتل في بعض المعارك، ودَّوخ الإسماعيلية الباطنية في إيران، وقتل منهم كثيرين، وكان عالي الهمة إلا أنه كان مولعاً بالشراب والإدمان عليه وتوفي سنة ٤٩٨. وخلفه أخوه محمد، وله وقائع مع الإسماعيلية وانتصارات متوالية استولى فيها على بعض حصونهم، ويقول ابن خلكان: "له الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة والبر بالفقراء والأيتام والحرب للطائفة الملحدة (يريد الإسماعيلية) والنظر في أمور الرعية". وتوفي سنة ٥١١. وقام بالملك بعده ابنه محمود وهو يؤمئذ في سن الحُلم، وكان قوي المعرفة بالعربية حافظاً للأشعار والأمثال عارفاً بالتواريخ والسِّيَر شديد الميل إلى أهل العلم والخير، وهو ممدوح حَيْص بَيْص الشاعر المشهور، ويقول ابن خلكان إن السلطنة ضعفت في أواخر أيامه وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفته الْقُاعي أو الشَّرابي، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها في حاجته.

وتوفي سنة ٥٢٥ بعد أن عهد لابنه داود وهو صغير في المهد، ولما كان لا يصلح لصغره تولى السلطنة عمه طُغْرل، وتوفي سنة ٥٢٧ فصارت إلى أخيه مسعود. وكان قد سلمه أبوه إلى أتابكة الموصل: مودود ثم آق سنقر تم جوش بك، وكان شجاعاً، غير أنه أقبل على الاشتغال باللذات، وطالت أيامه حتى سنة ٥٤٧ وقتل من الأمراء خلقاً كثراً، وممن قتلهم الخليفتان لعهده المسترشد بالله والراشد. وفي هذا ما يدل على أن السلاجقة استهانوا بخلفاء بني العباس ولم يَدعوا لهم حوْلاً ولا طولاً، إذ استخلصوا منهم كل شيء حتى حق الحياة. ويقول ابن خلكان لم تقم للسلاجقة بعد مسعود راية، وكأنه يختم دولتهم في العراق أو قل كأن قتله للخليفتين المسترشد والراشد كان إيذاناً بانتهاء الدولة السلجوقية، وأقيم بعده في الملك ابن أخيه ملكشاه بن محمود، ولم يلبث أن توفي بعد خمسة أشهر من حكمه.

ولابد أن نلاحظ أنه منذ انتهاء عهد السلاجقة العظام بموت ملكشاه سنة ٤٨٥ أخذ البيت السلجوقي يضعف لصغر السلاطين الذين كانوا يعتلون العرش وهم أحداث. وابتدع السلاجقة نظام الاتابكة، وهم قواد يتولون تربية أبنائهم، وكانوا يجعلونهم معهم حين يولونهم بعض الإمارات فيصبحون هم الحكام الحقيقيين، وليس ذلك فحسب، فكثير ما تنافسوا فيما بينهم، فكان كل منهم يريد أن يفوز لأميره الذي في رعايته بالسلطنة، وبذلك حمل الإخوة وأبناء الأعمام السيوف وشهرها بعضهم في وجوه بعض، مما جعل عهود بركياروق ومحمد وابنه محمود ومسعود حروباً متصلة، وبذلك ضعفت الدولة أو أخذت في الضعف سريعاً.

وكانت تُمْنَحُ لبعض هؤلاء الأتابكة بلدان وإقطاعات تقطها الدولة لهم، حتى يساعدوها بما تحتاج إليه من مال وجُنْد. وانتهز بعض هؤلاء الأتابكة الفرصة فاستقلوا ببلدانهم وجعلوها وراثية في أسرهم. نذكر منهم الأرتقيين أو الدولة الأرتقية في ديار بكر والجزيرة وبلدانها مَيَّافارقين وآمِد وحصن كَيْفا وحَرَّان ومارْدين، كما نذكر منهم بنى زنكي في الموصل ولهم الفضل الأكبر في القضاء على الصليبيين فإن "زنكي" الملقب بعماد الدين هو الذي افتتح سلسلة دَحْرهم وطردهم من ديارنا باستيلائه على "الرُّهَا" من جوسلين الصليبي، وبذلك سقطت أولى ممالكهم، وتبعه ابنه نور الدين يمحقهم محقاً في الشام وحين علا نجم صلاح الدين وتبعته الشام ترك للأسرة الموصل وبلدانها سِنْار وغيرها.

على كل حال كان طبيعيا أن نهبط الدولة السلجوقية بعد صعود ويأفل نجمها، وقد حاول محمد شاه بن محمود السلجوقي في سنة ٥٥٢ الاستيلاء على بغداد غير أنه أرغم على فك الحصار، أرغمه الخليفة المقتفي وجنوده، ولم يستطع الساجقة بعد ذلك العودة إلى بغداد، بل انحازوا إلى همذان حيث توالى فيها سلاطينهم إلى حي. وعاد إلى بغداد وما يتبعها من البلدان جنوبي الموصل استقلالها، وردت إلى الخلفاء حرياتهم وسلطانهم وللمقتفي[١] (٥٣٢-٥٥٥هـ) الفضل في عودة صولجان الحكم إلى أيدي الخلفاء العباسيين.

---

(١) انظر في المقتفى والخلفاء العباسيين التالين تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن تغرى بردي وابن خلدون والبداية والنهاية لابن كثير والعبر في خبر من غير للذهبى (طبع الكويت) وخلاصة الذهب المسبوك للإربلي (طبع بغداد) ومآثر الإنافة

وظلوا قابضين عليه حتى الغزو المغولي أو التتاري سنة ٦٥٦ وكان المتقي عالماً أديباً دمث الأخلاق.

وخلفه ابنه المستنجد (٥٥٥-٥٦٦هـ) وكان عادلاً محبوباً في الرعية أزال المظالم والمكوس، وولي الخلافة بعده ابنه المستضيء (٥٦٦-٥٧٥هـ) وكان حسن السيرة أسقط المكوس والضرائب في أيام خلافته، وفي أيامه أعاد صلاح الدين الخطبة باسمه في مصر والثغور الشامية، وانقطعت دولة الفاطميين من مصر وأعمالها، وبذلك عاد للأمة اجتماعها على خليفة واحد. وخلفه ابنه الناصر (٥٧٥-٦٢٢هـ) وفي عهده سحق صلاح الدين الصليبيين في الشام واستولى منهم على بيت المقدس وغيره من البلدان والحصون. واستطاع عبد الجبار البغدادي في أيامه أن يحول جماعة الفتاك الذين كانوا يرهبون الناس في بغداد وينهبون الأموال إلى جماعة كبيرة للفتوة والبسالة، واتخذ لهم سراويل مخصوصة، وبذلك أحالهم إلى جماعة حربية، واستنفر فئات منهم كثيرة لجهاد الصليبيين في الشام مع الأيوبيين، ورعى الناصر الجماعة خير رعاية، وانضم إليها ولبس سراويلها، وأرسل بها إلى ولاته كي يلبسوها ويصبحوا من فتيان الأمة المجاهدين. وممن أرسلها إليهم الملك العادل أخو صلاح الدين وأبناؤه، فلبسوها، ولبسها شهاب الدين صاحب غزنه والهند.

ويتولى الخلافة بعد الناصر ابنه الظاهر، ولا يدور العام حتى يتوفى، ويخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣-٦٤٠هـ) وكان شغوفاً بالعلم فأسس مدرسته المستنصرية المشهورة. ونشر السنن وكف الفتن. وأخذ سيل المغول أو التتار يتعاظم في عهده ويكتسح خوارزم وإيران وتمتد بعض سيوله إلى ديار بكر والجزيرة. وولي الخلافة بعده ابنه المستعصم (٦٤٠-٦٥٦هـ) وكان ضعيفاً جاهلاً بتدبير الملك، استوزر مؤيد الدين بن العلقمي، وكان رافضياً حريصاً على زوال الدولة، فكاتب هولاكو وأرسل إليه أخاه وغلامه، وسهل عليه فتح العراق وأخذ بغداد.

في معالم الخلافة للقلقشندي وتاريخ الخلفاء للسيوطي (طبع القاهرة) وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني ترجمه إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد (طبع القاهرة) وتاريخ العراق في العصر العباسي الأخير للدكتور بدري محمد فهد (طبع بغداد).

وسارع هولاكو، وهاجم بغداد، ولقيه العسكر والبغداديون على مرحلتين من بغداد، وسرعان ما انكسروا وأخذتهم السيوف، وأشار ابن العلقمة على المستعصم أن يخرج للقاء هولاكو ومفاوضته، فقتله خنقاً، ودخل التتار بغداد وظلوا يعملون السيف في أهلها أربعة وثلاثين يوماً، حتى بلغ عدد القتلى نحو ثمانمائةألف، وخربتْ بغداد خرابًا لا حد له، وأحرقت بها كتب العلم والأدب، وانقضت الخلافة العباسية منها وزالت أيامها، ورثاها الشعراء مراثي كثيرة من مثل مرثية الشيخ تقي الدينالتنوخي، وفيها يقول:

يا زائرين إلى الزَّوْراء لا تَفِدوا   فما بذاك الحِمى والدارِ ديَّارُ

وذاق ابن العلقمي الذل والهوان من التتار، كما ذاقهما أيضاً من مالأهما من حكام الموصل والجزيرة، وفي مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ. وكان الأمير الزنكي أستاذه الملقب بالملك القاهر صاحب الموصل قد توفي سنة ٦١٥ وخلفه ابنه نور الدين وسنه عشر سنوات، وكان قد جعل بدر الدين لؤلؤاً أتابكا له، ولم يلبث نور الدين أن توفي، فأقام لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين، وله من العمر ثلاث سنوات، ومازال يعمل على تثبيت سلطانه، حتى ملك الموصل في سنة ٦٣٠ وأزال منها الأسرة الزنكية. وما إن تدافعت أمواج التتار نحو أذربيجان حتى أخذ يمدهم بما يحتاجون إليه من الزاد والعتاد منذ سنة ٦٣٤ وما إن علم بتقدم هولاكو نحو بغداد حتى أعد جيشاً لمساعدته بقيادة ابنه إسماعيل إلا أن الجيش تأخر قليلاً، فما كان من هولاكو إلا أن حز رأس إسماعيل وأرسل بها إلى أبيه، فذهب إليه هلعاً فزعاً يحمل الهدايا، وتوفي بدر الدين في سنة ٦٥٧. ولم يلبث هولاكو أن اجتاح الموصل بجيوشه، وقتل حاكمها الصالح بن بدر الدين لؤلؤ، فلم تنفعه لا هو ولا أبوه خياناتها المتكررة، وأصبحت العراق كلها في حوزة التتار.

٢

الدول: المغولية والتركمانية والصفوية والعثمانية

المغول أو التتار قبائل رُحَّل كانت تستوطن منغوليا على حدود الصين، واستطاع أحد أبنائها وهو جنكزخان أن يجمعها تحت لوائه، وأن يفتح بها الصين وبكين، حتى إذا تم له ذلك وجه جموعه نحو فارس فاستولت على بخاري ومملكة خوارزم وزخفت سيولها إلى الري وهمذان، مستولية على شمالي فارس فيما بين سنتي ٦١٦ و٦٢٥ للهجرة وتوفي في السنة الأخيرة بالصين. وخلفه ابنه أوكدي (٦٢٥-٦٣٩) الذي استطاع أن يخضع روسيا وبولندة لحكمه، وخلفه ابنه كيوك حتى وفاته سنة ٦٤٦ وولي بعده ابن عمه منكو، وهو الذي أرسل بأخيه هولاكو إلى إيران، فقضى فيها على الإسماعيلية الحشاشين، وأخذ يعمل على الاستقلال بإيران مع تبعيته لأخيه، ولم يكتف بها، فقد امتدت مطامعه إلى العراق وبغداد، ولم يلبث أن خرَّب بغداد المدينة التاريخية العظيمة كما أسلفنا سنة ٦٥٦، واتخذ هولاكو لقب (إيل خان) أو تابع الخان وهو لقب ورثه عنه خلفاؤه على إيران والعراق مما جعل جولتهم تسمى الدولة الإيلخانية، بينما انتسب المد المغولي الثاني في إيران والعراق إلى تيمورلنك، مما جعل دولته هو وأبنائه تسمى الدولة التيمورية، وبذلك تنقسم الدولة المغولية إلى دولتين: الدولة الإيلخانية والدولة التيمورية.

الدولة المغولية الإيلخانية(١)

تنتسب هذه الدولة إلى هولاكو (إيلخان) الذي أطبقت جموعه على بغداد والعراق في سنة ٦٥٦ ومضت إلى الشمال فاستولت على ديار بكر والجزيرة وأخذت تعد العدة

(١) انظر في هذه الدولة تاريخ ابن كثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة والجزء الثاني من دول الإسلام للذهبي (طبع حيدر آباد) وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني (الترجمة العربية) ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري والجزء الرابع من صبح الأعشى وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون (ترجمة الشواربي) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان وإيران: ماضيها وحاضرها لدونالدولير ص٦٥ والعراق في عهد المغول الإيلخانيين لجعفر خصباك (طبع بغداد).

للاستيلاء على الديار الشامية والمصرية. ومضوا في سنة ٦٥٨ يستولون على حلب وبلدان الشام، وسلمت لهم دمشق، وسقطوا إلى فلسطين في الجنوب، فلقيهم الجيش المصري بقيادة قطز والظاهر بيبرس في عين جالون بالقرب من نابلس، فمزق جموعهم تمزيقاً، وقُتل قائدهم، وكانت مجزرة عظيمة لهم حتى إنه لم يسلم منهم إلا فلول قليلة ولت الأدبار، وتبعها الظاهر بيبرس إلى أطراف الشام في الشمال. وبذلك رُدَّ سيلهم عن الشام ومصر إلى غير مآب. ولم يملك هولاكو – كما قدمنا – ملكاً مستقلاً فقد كان نائباً عن أخيه منكو، ولم يضرب باسمه مستقلاً سكة درهمٍ ولا دينار، بل كانت تضرب باسم أخيه. وكان وثنياً كأجداده وقومه، غير أنه كان يعطف على النصارى إرضاء لزوجته النصرانية: "دفوز خاتون" ومات سنة ٦٦٣ وقيل سنة ٦٦٤ وخلفه على العراق وإيران ابنه " أَبْغَا ".

ولما ملك أضاف اسمه إلى الخان الأكبر في بكين ووجه أخاه منكوتمر بالعساكر إلى الشام للاستيلاء عليها، فالتقى مع الجيوش المصرية الشامية عند حمص " بقيادة قلاوون وهزم هزيمة منكرة فلما بلغت الهزيمة أبغا سنة ٦٨٠ رجع إلى همذان فمات بها غماً وكمدا. وخلفه منكوتمر، وكان نصرانياً، ولم يلبث أن مات بنفس الكمد والغم. وملك بعدهما أخوهما بوكدار بن هولاكو سنة ٦٨١ وأسلم وحسن إسلامه، وتسمى أحمد، وبنى بممالكه الجوامع والمساجد وصالح السلطان الملك المنصور قلاوون الذي فرح بإسلامه. وحاول أن يحمل عسكره على الإسلام فقتلوه سنة ٦٨٣ وملك بعده ابن أخيه "أرغون بن أبغا" حتى سنة ٦٩٠ وكان سفاكاً للدماء شديد الوطأة، وولى الملك بعده أخوه " كيختو " فأفحش في الفسق بنساء المغول وبناتهم فوثب عليه ابن عمله بيدو بن طرغاي بن هولاكو وقتله سنة ٦٩٣ ولم يلبث أن قُتل بدوره في أواخر هذه السنة، وملك بعده غازان بن أرغون ابن أبغا بن هولاكو، وأسلم في سنة أربع وتسعين، وتسمى محمودًا، واحتفل بإسلامه ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس، وأسلم غالب جنده وعساكره، وفشا الدين الحنيف بإسلامه في ممالك التتار، وقد اختار المذهب السني.

وهو أجل ملوك المغول من بنيت هولاكو، ودخلت جيوشه الشام في سنة ٦٩٩ وتمت لها الغلبة على جيوش الناصر محمد بن قلاوون، وملك الشام، ولا نمضي إلى سنة ٧٠٢

حتى يكيل له الناصر محمد بن قلاوون الصاع صاعين، إذ تنشب بينهما الحرب بالقرب من دمشق، ويدمر فيها جيش المغول أو التتار تدميراً، وظلت الصرخات والنياحات في ديارهم- حين بلغهم الخبر- شهرين. واغتم غازان غماً عظيماً، ويقال إنه لم يصل إليه من جيشه إلا واحد من كل عشرة انتخبهم للحرب. وكان من قبله منذ هولاكو يحكمون باسم الخان الكبير في بكين، فاتخذ لنفسه صفة الحاكم بإرادة الله، وكان الخراج يفرض قبله حسب أهواء الجباة من حكام المغول فأمر بأن تمسح الأراضي وأن يتخذ ذلك أساساً في فرض الضرائب حتى لا يظلم أحد، وأصلح النظام النقدي في الدولة وجعله نقداً معدنياً صحيح الوزن والقيمة، وأعاد للشريعة الإسلامية سلطانها وقوتها.

وكان يتخذ تبريز حاضرة له فزينها بالمساجد ودور العلم وشيد بها مرصداً فلكياً عظيماً، وتوفي سنة ٧٠٣ وولى الملك بعده أخوه " خدابندا " والعامة تسمية " خربندا " وكان سنياً ثم أصبح شيعياً غالياً وأظهر الرفض في بلاده سنة ٧٠٩ وأمر الخطباء أن لا يذكروا في خطبهم إلا علي بن أبي طالب وولديه وأهل البيت، وتوفي سنة ٧١٦.

وخلفه بو سعيد ابنه، وكان يعتنق المذهب الحنفي وكان ملكاً جليلاً مهاباً حصيفاً، وكان يجيد ضرب العود والموسيقى وصنف في ذلك، وكان حسن السيرة، أبطل عدة مكوس في مملكته وأراق الخمور في بلاده ومنع الناس من شربها وهدم الكنائس. وكانت بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مودة بعد وحشة، ومكاتبات ومراسلات، توفي سنة ٧٣٦. وهو آخر ملوك المغول المهمين من بيت هولاكو، وبوفاته تفرقت المملكة بأيدي حكام مختلفين، وأصبحوا شبيهين بملوك الطوائف من الفرس. وفي مسالك الأبصار بعد ذلك بوسعيد: "ثم هم (أي التتار في إيران والعراق) بعده في دهياء مظلمة وعمياء مقتمة، لا يفضي ليلهم إلى صباح، ولا فرقتهم إلى اجتماع، ولإفسادهم إلى صلاح، وفي كل ناحية هاتف، يدعى باسمه، وخائف أخذ جانباً إلى قسمه، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً تقول من أبناء الخان أو القان، وتنسبه إلى فلان، ثم يضمحل أمره عن قريب، ولا تتحقق دعوته حتى يدعى فلا يجيب، وما ذلك من الدهر بعجيب". وفي سنة ٧٤٠ صارت بغداد

والعراق بيد الشيخ حسن الكبير، وهو الحسن بن الحسين بن أقبغا، كان جده رفيقاً لهولاكو. وتوفي سنة ٧٥٧.

وملك بغداد والعراق بعده ابنه أويس، وهو سبط أرغون بن أبغا أو ابن ابنته، وكان حسن السيرة عادلاً محباً للفقراء والعلماء توفي سنة ٧٧٦ وخلفه ابنه السلطان الملك المعز حسين، وكان قد ولاه مكانه في أواخر أيامه، وكانت العراق في عهده مطمئنة معمورة، وقتله أخوه أحمد سنة ٧٨٤ وتولى الملك بعده، وتلقب بالسلطان غياث الدين، وكان ظالماً سفاكاً للدماء أسرف في قتل أمرائه وبالغ في ظلم الرعية وانهمك في الفجور والفساد، فكاتب أهل بغداد تيمورلنك بعد استيلائه على مدينة تبريز يحثونه على المسير إلى بغداد، فتوجه إليها بعساكره سنة ٧٩٥ واستولى عليها وفر أحمد بن أويس إلى الديار الشامية، مستغيثاً بالسلطان برقوق صاحب الشام ومصر وكان تيمور قد فارقها فأعانه على استردادها في السنة التالية، وسنرى في حديثنا عن تيمورلنك وأسرته ما كان من أمره.

الدولتان: المغولية التيمورية(١) والتركمانية

قاد الموجه المغولية الثانية تيمورلنك المولود في " كش " من بلدان ما وراء النهر، وهو ينحدر من سلالة جنكزخان، وكانت ولادته سنة ٧٣٦ للهجرة، وكان أبوه والياً لكش وأعمالها، وكان طموحه واسعاً، فعمل على جمع زمام الأمور في يده لا في كش وحدها، بل في كل بلاد ما وراء النهر بحيث أصبحت لسنة ٧٧٠ جميعاً في قبضته، ثم أخذ يعد العدة للانقضاض على خراسان واستولى عليها سنة ٧٨٢ ومضى في سنة ٧٨٤ يستولى على مازندران وسجستان وجرجان، ولم يلبث أن استولى على فارس وأذربيجان سنة ٧٨٨ وأخذ يفتح البلدان في شمالي العراق، حتى إذا كان شهر شوال سنة ٧٩٥ حاصر بغداد، وهرب منه أحمد بن أويس إلى السلطان برقوق في

(١) انظر في تيمور وحكام بغداد بعده أحمد بن أويس والتركمان ابن عربشاه في كتابه "عجائب المقدور في نوائب تيمور" وابن تغري بدي في الجزءين الثاني عشر والثالث عشر وخاصة في ١٢/ ٢٥٤ حيث عقد لتيمورلنك ترجمة طويلة وبالمثل عقد لأحمد بن أويس ترجمة في المنهل الصافي ١/ ٢٣٢، وراجع تاريخ ابن خلدون والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية في تيمور وأوزون حسن التركماني، وإيران: ماضيها وحاضرها لدونالدولبر.

الشام وخرب تيمور غالب العراق ومدنه: بغداد والبصرة والكوفة، وقصد الشام في سنة ٧٩٨ ورجع خائفاً من الظاهر برقوق إلى سمرقند عاصمته وكانت جيوشه قد تغلغلت في روسيا واستولى على موسكو، وسار إلى الهند في سنة ٨٠٠ وعبر نهر السند واستولى على دلهي بعد أن قتل من أهلها ثمانين ألفاً، وكان أحمد بن أويس قد عاد إلى بغداد بمعونة المصريين، ومثله قرا يوسف عاد إلى نيابته على الرها في الجزيرة. وبلغ تيمور موت السلطان الظاهر برقوق صاحب مصر والشام وموت برهان الدين أحمد صاحب سيواس بالجنوب الغربي من آسيا الصغرى، فرأى أن الظفر بمملكتيهما أصبح قريبٌ، وكاد أن يطير بموتهما فرحاً، فاستناب بالهند من يثب به من أمرائه، وعاد إلى سمرقند. ثم خرج منها مسرعاً في أوائل سنة ٨٠٢ ومضى إلى تبريز فاستخلف فيها ابنه ميران شاه. وكان أحمد بن أويس قد سار مع أمرائه ورعيته سيرة سيئة، فقاتلوه وخرج منهزماً واستنجد بالأمير قرا يوسف التركماني صاحب تبريز والرها وديار بكر، وعاد معه إلى بغداد. وصيف تيمور في بلاده ثم مضى إلى سيواس فاستولى عليها أول سنة ٨٠٣ وخربها ومحا رسومها. ثم قصد الديار الشامية، واستولى على حلب بعد أن أعمل السيف في جنودها وأهلها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى، وعمل تيمور - فيما يقال - من رءوس القتلى منائر عدة ترتفع عن الأرض عشرة أذرع تهديداً ووعيداً. ورحل عن حلب بعد أن تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها، وكان ابنه ميران شاه قد أخذ حماة وأشعل النار بها وأصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون، وقتلوا الأطفال على صدور الأمهات، واتجه إلى دمشق وواقعته جنود السلطان فرج بن برقوق ولم تثبت طويلاً، ولم يلبث أنوقع مع أهل دمشق صلحاً، ودخلها هو وجنوده وغدر بهم فأشعل جنوده بها النار، فاحترقت وسقطت بعض سقوف الجامع الأموي، وصارت أطلالاً بالية ورسوماً دائرة كما يقول المؤرخون. وأقام هو وجنوده عليها ثمانين يوماً، ثم رحل عنها في شعبان سنة ٨٠٣ وظل انسحابه مع جنوده من الشام، وأوهم أنه يريد سمرقند وهو إنما يريد بغداد، وكان أحمد بن أويس قد استناب عنه فيها أميراً يسمى فرجاً، واتجه هو وقرا يوسف صاحب الرها نحو آسيا الصغرى، فندب تيمور بعض قواده لأخذ بغداد، ثم تبعه وحاصر بغداد حتى أخذها عنوة في يوم عيد النحر أو العيد الأضحى من نفس السنة، ووضع السيف في البغداديين، حتى سالت الدماء أنهاراً، ويقال إنه

قتل من أهلها نحو مائة ألف إنسان، وبنى من رءوسهم- على عادته كلما دخل مدينة عنوة- مآذن كثيرة.

ثم رحل من بغداد إلى الشمال متجهاً إلى يسيا الصغرى وحَرْب بايزيد العثماني، وانضم إلى جيشه التركمان في قَيْسارية وسيواس وتقدم نحو سهل أنقرة وكاتب مَنْ مع بايزيد من التتار وأنه أولى بأن ينضموا إليه لأنهم من أبناء جلدته، فوعدوه أن ينضموا إليه حين تدور رحي الحرب بينه وبين بايزيد، وكان بايزيد قد نكل ببعض أمراء السلاجقة واستولى على بلدانهم، فانضموا إلى تيمورلنك. والتقى الجيشان في الشمال الشرقي من أنقرة في التاسع عشر من ذي الحجة عام ٨٠٤ وانفض عن بايزيد جنوده التتار منضمين إلى تيمور كما وعدوه وكانوا معظم عسكره، وتلاهم ولده عثمان الذي عاد بجنده إلى مدينة بروسة، ولم يبق مع بايزيد إلا نحو خمسة آلاف فارس، فثبت بهم إلى أن أخذ أسيراً على بعد ميل من أنقرة وكان قد حاول الفرار، وأكرمه تيمور، وأسف لموته في شعبان سنة ٨٠٥ وأذن بدفنه تكريماً له في جامع بروسة.

وعاد تيمور سمرقند عاصمته، واستقبل فيها كثيراً من السفراء من بينهم سفير ملك قَشْتالة. وزَيَّن عاصمته بالقصور الفخمة مستعيناً بمن جلبهم إليها من بَنَّائي الفرس وغيرهم، وكان يعطف بوصفه مسلماً على العلماء ورجال الدين من الصوفية وخاصة دراويش الطريقة النَّقْشَبندية وقد استطاع فعلاً أن يتعيد مملكة جِنْكِزْخان من موسكو إلى نهر الكنج ومن حدود الصين حتى سوريا ورأى مقتدياً بسلفه أن يستولى على الصين، فأرسل إليها حملة في سنة ٨٠٧ غير أنه لم يلبث أن مرض وتوفي في شعبان من نفس السنة بإحدى المدن فيما وراء النهر، ونُقل إلى عاصمته ودفن بها في ضريح فخم لا يزال قائماً بها إلى اليوم.

وتوزعت إمبراطوريته بين ولديه: شاه رخ وميران شاه، وكان للأول النصيب الأكبر فحكم خراسان وسجستان وما وراء النهر وإيران، وحكم ميران شاه العراق وأذربيجان والكَرج أو جورجيا، وكان يخضع لسلطان أخيه، ولم يلبث أن قُتل في حربه مع قرايوسف التركماني صاحب تبريز سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م فدخلت بلاده في حوزة أخيه، فأصبح

يحكم كـل مملكـة أبيـه تيمورلنـك مـا عـدا الـشام والعـراق وعربـستان، وقـد بـسط سـلطانه عـلى الـصين والهنـد، وعـاش طـويلاً حتـى سـنة ٨٥٠هــ/ ١٤٤٧م وكـان يرعـى العلـوم والآداب في مملكته الواسعة.

وخلفه ابنه أُلُغ بك وكان عَالمـاً فلكيـاً واهـتم برعايـة الأدبـين الفـارسي والتركـي غـير أنـه قتـل بعـد سـنتين بيـد ابنـه عبـد اللطيـف. وينتـاب الدولـة التيموريـة اضـمحلال سريـع، وتقاتـل الإخوة وأبنـاء العـم، ويـستولى عـلى صـولجان الحكـم بوسـعيد سـنة ٨٥٤هــ- ١٤٥٠م ويـستقر زمام الحكـم في يـده ويقتـل في حـرب طاحنـة مـع أوزون حـسن صـاحب ديـار بكـر وأرمينيـة في سـنة ٨٧٤هــ/ ١٤٦٩ وتعـود المملكـة إلى الإضـطراب. وقـد اسـتطاع شـيباني زعـيم الأوزبـك في سنة ٩٠٦هــ/ ١٥٠٠م خلـع بـابر حفيـد أبي سـعيد عـن عرشـه في سـمرقند، فهـاجر إلى الهنـد وأسس بها دولة المغول العظام.

وأما العراق وبغـداد فعادتـا بعـد وفـاة تيمـور إلى أحمـد بـن أويـس وتنـشب حـرب بينـه وبـين قرايوسـف الـتركماني صـاحب تبريـز ويخّـر في ميـدانها صريعـاً سـنة ٨١٣ وتقـع العـراق وبغـداد في قبــضة التركمانيــين بزعامــة قرايوســف حتــى وفاتــه ســنة ٨٢٣ ويتــوارثها عنــه أبنــاؤه وأحفـاده، وفي أيـامهم ودولـتهم عمَّهـا الخـراب لفـساد حكمهـم حتـى ليقـول ابـن تغـرى بـردي: لا أعلـم في طوائـف الـتركمان أقـبح طريقـة ولا أسـوأ سـيرة مـن أولاد قرايوسـف وينــزعها مـنهم في سـنة ٨٧٢هــ/ ١٤٦٧م أوزون حـسن المـار ذكـره وكـان تركمانيـاً واسـع الطموح، فوضع نـصب عينيـه إنـشاء دولـة قويـة لا يكتفـي فيهـا بمقـر حكمـه وهـو ديـار بكـر، بل تتـسع لتـشمل أرمينيـة وإيـران والعـراق، ودخـل في حـروب طويلـة مـع العثمانيـين. وفي هـذه الأثنـاء كانـت أسرة صـوفية في أردبيـل قـد أخـذ نفوذهـا يتـسع منـذ عهـد مؤسـسها الـشيخ إسحق صفي الـدين، وبلـغ حفيـده خوجـا عـلى مـن الـشهرة بـالتقوى مـا جعـل تيمورلنـك بعـد انتصاره عـلى بايزيـد العـثماني يقـف أردبيـل وضـواحيها عليـه وعـلى عقبـه. وسرعـان مـا تحولـت إلى مـا يـشبه إقطاعـاً لهـم، وعقـد أحـد أحفـاده المـسمى حيـدراً صـلة وثيقـة بينـه وبـين أوزون حـسن، وزوَّجـه أوزون ابنتـه مارثـا وأنجـب منهـا ابنـه إسـماعيل الـذي أتـيح لـه أن ينـشئ لأسرته الصفوية دولة وطيدة في إيران.

الدولة الصفوية(١)

كان حيدر بعيد النظر، فأعاد تنظيم طريقة آبائه الصوفية الشيعية على أسس جديدة، متخذاً لها شعاراً للرأس، أوبعبارة أخرى عمامة سُمِّيت تاج حيدر الأحمر، وهي عمامة ذات اثنتي عشر ذؤابة رمزاً إلى أن صاحبها شيعي إمامي اثنى عشري. وما وافت سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٧٨٣م حتى بدأ حملاته الحربية، فقاتل الجراكسة واستبك في سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م في حرب مع صهره يعقوب بن اوزون حسن وسقط قتيلاً في المعركة، وتوفي يعقوب بعده بنحو سنتين وتصارع أولاده واشتبكوا في حروب دامية، مما أتاح الفرصة لأبناء حيدر كي يعود لهم نفوذهم من جديد.

وتطورت الظروف سريعاً، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن العاشر الهجري حتى نجد إسماعيل بن حيدر يخرج بعد وفاة أخوين له كانا أكبر منه للمطالبة بثأر أبيه، ويمد سلطانه تدريجاً على شيروان وأَذْرَبيجان ويأخذ في تأسيس دولة فارسية وطنية ويستولى على تَبْرِيز في ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م ويتوج فيها ملكاً (شاه) على إيران. وأعلن أن العقيدة الشيعية الإمامية الأثنى عشرية مذهب الدولة الرسمي. ولم يكتف بذلك فقد أكره الرعية على سب أبي بكر وعمر وعثمان. وأخذ يُعِدُّ العدة لمنازلة مراد خان التركماني صاحب بغداد والعواقر، وكان قد هزم أخاه أُلُونْد هزيمة ساحقة في أذربيجان واستولى منه على فارس، وما توافى سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م حتى يستولى من مراد على بغداد والعراق، ويفّر مراد آخر سلاطين التركمان إلى السلطان سليم العثماني. ومضى في سنة ٩١٦هـ/ ١٥١١ إلى الشرق لمحاربة شيباني زعيم الأوزبك والتقيا قرب مَرْو، ودارت الدوائر على شيباني وجنده وسقط صريعاً في الحرب، وبذلك اتسعت مملكة إسماعيل، حتى امتدت من هراة شرقاً إلى بغداد غرباً، ووضح للعيان أنه لابد من الاصطدام بين دولة الشاه إسماعيل الصفوي الشيعي الإمامي وبين دولة السلطان سليم العثماني السني، وخاصة أن الشاه

(١) انظر في الدولة الصفوية تاريخ الموصل لصايغ وتاريخ بغداد وتاريخ الدولة الفارسية في العراق لنعمان الأعظمي وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن لونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ الشعوب الإسلامية ليروكلمان، وإيران: ماضيها وحاضرها لدونالدولبر.

إسماعيل كان قد بالغ في اضطهاد أهل السنة، مما جعل السلطان سليماً يدعو إلى الجهاد ضد الشاه والشيعة. والتقى الجيشان الصفوي والعثماني بالقرب من تبريز بوادي جالداران في المحرم سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م ومني الشاه بهزيمة منكرة، وفَتحت عاصمته "تبريز" أبوابها للسلطان سليم، واضطَّر الشاه إسماعيل إلى أن يعقد معه صلحاً، ولم يفكر بعد ذلك في حرب العثمانيين إلى أن توفي سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م وخلفه ابنه طهماسب وهو في العاشر من عمره، وطالت مدته في الحكم اثنين وخمسين عاماً امتلأت بالحروب المتصلة ضد أعدائه الشيبانيين في الشرق والعثمانيين في الغرب. واستطاع ذو الفقار خان رئيس قبيلة كردية أن يزحف على بغداد ويقتل حاكمها من قبل طهماسب سنة ٩٣٠ وتظل في حوزته حتى سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م إذ استعادها طهماسب ومضى في اضطهاد أهل السنة مما جعل السلطان سليمان العثماني يوجه في أواخر سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م حملة إلى تبريز، فتستولى عليها، ويتجه هو إلى بغداد فيدخلها في أول المحرم سنة ٩٤١. وبذلك ينتهي عهد الدولة الصفوية في العراق.

الدولة العثمانية(١)

تم للسلطان سليمان العثماني الاستيلاء على العراق وبغداد في سنة ٩٤١ ورفرف العلم العثماني على البصرة في سنة ٩٤٦ وبذلك أصبح العراق جميعه ولاية عثمانية، بل قل ولايات عثمانية، إذ قُسِّم إلى أربع ولايات. ولاية البصرة، وولاية بغداد، وولاية شَهْرزور، وولاية الموصل. وفي حقب متفاوته عُدَّت الأحساء والبحرين ولاية خامسة، وارتبطتا بالبصرة حيناً وببغداد حيناً آخر. وقسمت كل ولاية إلى ألوية، على رأس كل لواء سنجق

(١) انظر في الدولة العثمانية بالعراق تاريخ بغداد وتاريخ البصرة لنعمان الأعظمي وعشائر العراق لعباس العزاوي (طبع بغداد) والبلاد العربية والدولة العثمانية للحصرى (طبع القاهرة) وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن لونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان. والمماليك في العراق لأحمد على الصوفي (طبع الموصل) والعراق: دراسة في تطوره السياسي لفيليب إيرلند ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وإمارة العمادية للدملوجي (طبع الموصل) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠-١٩١٨ الجزء الأول- للدكتور عبد الكريم محمود غرايبة (طبع دمشق).

أو أمير لواء. وان الوالي يُعَدُّ الرئيس للسلطة التنفيذية مع الإشراف على الشئون الإدارية، وكان يعاونه عدد من الموظفين، في مقدمتهم "الكنخدا" وهو مدير مكتبه الخاص وكثيراً ما كان يخلفه بعد وفاته، و"الدفتر دار" وهو مدير الخزانة ومدبِّر الشئون المالية. وكانت هناك دواوين مختلفة، أهمها ديوان الروزنامه أي ديوان الدفتر اليومي، وكان به كثير من الكتَّاب أو كما كانوا يسمونهم أصحاب الأقلام.

وكان يوجد بجانب الوالي قاض كبير يتبع قاضي القضاة في الأناضول، وكان للقاضي نواب كثيرون في كل ولاية يضطلعون بمهمة القضاء. ويشرف القاضي على تنفيذ القوانين حسب الشريعة الإسلامية كما يشرف على تنفيذ أوامر الدولة العثمانية.

وكانت توجد بجانب الوالي قوة عسكرية أساسية تحمي المدن والقلاع، وتُعَدَّ فرعاً من الإنكشارية جند الدولة العثمانية الذين كانت تأسرهم في حروبها بأوربا، وهم لا يزالون علمانا وتربِّيهم تربية عسكرية، وكانوا يُمْنحون إقطاعيات، وكثيراً ما توارثوها أو وقفوها، فلم تُرَدّ إلى الدولة. وكانوا كثيراً ما يؤذُون الناس في بغداد والعراق ويتعدَّون عليهم. وكان يوجد بجانبهم للولاة جند يحصلون عليهم بطريق الأسْر أو الشراء.

ويمر حكم الدولة العثمانية للعراق بثلاثة أدوار: الدور الأول يبتدئ من سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م إلى سنة ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م وأهم الأحداث في هذا العهد فتن الجند كما حدث في ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م فقد ثاروا على والي بغداد بزعامة ضابط يسمى بكراً برتبة سوباشي وقتلوا الوالي يوسف باشا وتولى بكر مقاليد الحكم وحاربته الدولة، فاستعان ضدها بشاه إيران عباس الصفوي، وسرعان ما احتل هذا الشاه بغداد سنة ١٠٣٣هـ/ إنقاذ مواطنيهم فشهدوا لكثيرين منهم بأنهم شيعة.

وسارع الشاه إلى احتلال بقية العراق، غير أن البصرة استعصت عليه، إذ دافع عنها حكامها من آل أفراسياب وكانوا قد أتاحوا لها استقلالاً ذاتياً عن العثمانيين من ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٧م إلى ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٨م للهجرة وقد دافعوا عن مدينتهم أمام جيوش عباس الصفوي دفاعاً مجيداً فارتدت عنها. وظلت بغداد وبقية العراف مع الإيرانيين نحو خمسة عشر عاماً إلى أن استرجعها العثمانيون بقيادة السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨هـ/

١٦٣٨م وفي هذه الأثناء سمح حكام البصرة للبرتغاليين بتأسيس وكالة تجارية لهم فيها سنة ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م وبالمثل سمحوا للإنجليز في سنة ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م بتأسيس وكالة تجارية لهم، وأغلقت سنة ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨.

وينتهي الدور الأول لحكم العثمانيين العراق سنة ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م كما مر بنا، ويبتدئ دور ثان سُمي دور المماليك، وفيه تعرَّضت العراق لخطر إيراني كبير، أدى إلى أن يتسلم صولجان الحكم فيها حسن باشا وابنه أحمد باشا ومماليكهما الذين أخذوهما بضرب من التربية يشبه صنيع الدولة في إستانبول بالإنكشارية، وكان حسن باشا قد تدرج في مناصب الدولة إلى أن أصبح وزيراً وولي بعض الولايات، ثم نقل إلى بغداد في سنة ١١١٦ فعمل على الاستقلال بها واتخاذ هؤلاء المماليك سنداً له. وكانت الدولة حينئذ مشغولة بحروبها في أوروبا مع الروس والبلقان، فتركت لحسن باشا وابنه أحمد ومماليكهما إدارة بغداد والعراق.

وطبيعي أن تصبح المناصب العليا فيهما وقفاً على المماليك. وقد آل إليهم حكمها بعد وفاة حسن باشا وابنه، وكان الوالي منهم إذا وثق بأحد المماليك زوجة ابنته واتخذه "كتخدا" أو أمير للأمراء، حتى إذا توفي خلفه في الحكم. وإذا عرفنا أنه حكم بغداد حينئذ عشرة من الولاة كان سبعة منهم من هؤلاء المماليك عرفنا أنه جدير بهذا الدور حقاً أن يسمى دور المماليك، وآخرهم داود باشا. وكانوا في سبيل الوصول إلى أريكة الحكم يكثرون من التآمر، مما زاد الأمن في بغداد والعراق اضطراباً على اضطراب وفساداً على فساد.

ولما ساءت الأمور وتفاقم سوُها رأى الباب العالي في سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م أنه لابد من رد الأمور إلى نصابها في العراق، فأرسل حملة تأديبية أسرت داود باشا وقضت على حكم هؤلاء المماليك قضاء نهائياً. وبذلك تدخل بغداد والعراق في الدور الثالث من أدوار الحكم العثماني الذي أظلَّ البلاد حتى سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م. ويمكن أن ندخل الشطر الأكبر من هذا الدور في حقب العصر الحديث في العراق، إذ هبَّ جماعة من المصلحين في

تركيا يحاولون إصلاح أداة الحكم الفاسدة، واضطر السلطان عبد المجيد أن يصدر أمراً بإلغاء الاحتكارات والمصادرات وتحديد الضرائب على أسس قومية من العدالة.

وكان ذلك إيذاناً بعصر جديد في تركيا والولايات التابعة لها في العراق وغير العراق، غير أن الولاة الذين تعاقبوا على العراق حتى سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م لم يصدروا عن ذلك في حكمهم، فظل الظلام والفساد مخيِّمين عليها إلى أن وليها مدحت باشا في السنة آنفة الذكر، وكان معروفاً بنتزعته الإصلاحية وما قام به من خدمات عظيمة في ولايته على بلغاريا. ولم يكد يستلم مقاليد الولاية في العراق حتى نهض فيها بإصلاحات كثيرة في إدارة الحكم، فألغى نظام الالتزام ورد الأرض على الفلاحين العراقيين نظير أقساط محدودة، وأنشأ مطبعة لطبع الجريدة الرسمية وطبع الكتب، كما أنشأ طائفة من المدارس المهنية والعلمية النظرية، وبنى مستشفى كبيراً، ومد بها خطاً للبرق، وأصلح نظام الموازين والنقود بحيث تعد ولايته بحق البدء الحقيقي للعصر الحديث في العراق. وقد ظل العثمانيون في العراق وبغداد قبله نحو ثلاثة قرون ونصف لم يعنوا فيها أي عناية بإصلاحات اجتماعية أو تعليمية أو اقتصادية.

٣

المجتمع

كان المجتمع في بغداد والعراق يتألف من ثلاث طبقات: طبقة أروستقراطية، على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم ويتلوهما حواشيهما من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين والإقطاعيين، ويدخل في هذه الطبقة بعض التجار الرأسماليين. وطبقة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والصناع والقضاة والعلماء ورجال الحسبة، وطبقة دنيا هي طبقة العامة من الزراع والخدم والرقيق وأصحاب الحرف. ويسلك أهل الذمة في الطبقتين الأخيرتين عادة، إلا من ارتفع منهم إلى الوزارة، وكان ذلك يحدث نادراً كما حدث في عهد عضد الدولة، فقد اتخذ له وزيراً نصرانياً، هو نصر بن هرون، الذي ترك له تدبير شئون فارس بينما كان وزيره المدبر لشئون بغداد والعراق المطهر بن عبد الله.

وكانت الطبقة الأولى تعيش في رخاء بل في ترف، لكثرة ما كان يُصَبُّ في حجورها من الأموال، عن طريق الضرائب التي كانت تؤخذ من الناس وكانت متعددة، فهناك ضرائب الزكاة على الزروع، وهناك ضرائب الصادرات والواردات التي تجبى على البضائع المنقولة وتسمى المكوس، وهناك ضرائب على الأسواق واحلوانيت. وأهم من ذلك الضرائب أو الأموال التي كانت تؤخذ من أصحاب الإقطاعات وقد توسع فيها البويهيون ثم من خَلَفهم من السلاجقة والمسئولين على البلاد، إذ منحوها لكبار القواد، حتى قد يمنحونهم قرى بِرُمَّتها. وهذه الإقطاعات العسكرية هي التي كانت شائعة، وإحدى اثنتين إما أن تكون إقطاع تمليك يورث وعلى أصحابه دفع العُشْر للدولة، وإما إقطاع يُسْتَغَلُّ طالما كان صاحبه حياً، وكأنه كان منحة تُعْطَى للقواد بدلاً من رواتبهم. وكان كبار الموظفين والأثرياء من التجار وغيرهم يمتلكون الضياع ويدفعون عنها العُشْر ويُلْزَمُون بإصلاح القنوات التي تمرُّ بأرضهم. وطبيعي أن كانت هناك ضِياعُ سلطانية للخليفة وللأمير البويهي وللحاكم لبغداد. وكانت هناك أراضي موقوفة لأغراض٢ دينية كالإنفاق على المساجد أو على الجهاد أو على الفقراء أو على الحرمين. وكان القاضي هو الذي يشرف على

إدارة الأراضي الموقوفة. وحدث أن صادر عضد الدولة أراضي السواد الموقوفة [١]، غير أن من بعده أعادوها إلى الوقف. وكان الوزراء كثيراً ما تصادَر أموالهم حتى بعد وفاتهم كما حدث للمهلبي [٢] وزير معز الدولة البويهي. وكانوا يصادرون أحياناً تركة بعض الإقطاعيين ذوي الثراء. ويُرْوَى أنه في سنة ٣٥١ توفِّي رجل اسمه دَعْلج تاركاً ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب فاستولى عليها معز الدولة، ولم يمسّ أي مسِّ ما خلّفه من أوقاف.

على كل حال كانت موارد الدولة كثيرة، ومن أجل ذلك تعددت الدواوين التي يُخْزَنُ فيها المال أو يجلب إليها مثل ديوان الإقطاع، وديوان الخراج، وديوان الأوقاف، وديوان الجوالي أو الجزية التي كانت مفروضة على أهل الذمة، وديوان الخلافة الذي كان يُنْفق على القصر ومماليكه وحجّابه وخدمه وحرسه وكانوا يُعَدُّون بالمئات، وديوان التركات وكانت تؤخذ عليها ضريبة، ومن ليس له وارث كانت الدول تستولى على تركته. ثم ديوان الزمام وهو الذي يشرف على مالية الدولة ونفقاتها وكل ما يتصل بشئونها المالية من رواتب ومن إعداد للجيوش. وكان الخلفاء العباسيون ينثرون الأموال نثراً على حواشيهم وفي أعْراسهم، كما حدث في زواج الخليفة الطائع لابنة بَخْتيار، وكان صداقها مائة [٣] ألف دينار. واتسع هذا الاحتفال بزواج الخلفاء من بنات الأمراء السلاجقة، ويُرْوَى أنه حين تزوج الخليفة المقتدى بنتاً للسلطان ملكشاه نُقل جهازها على ١٣٠ بعيراً في موكب كبير كانت تُدَقّ فيه الطبول والبوقات وتنثر الأموال على الرعية [٤]. وبالمثل حين زُفّت الخاتون ابنة ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله سنة ٥٠٤ زُيِّنَتْ بغداد، وقد حمل جهازها ١٦٢ بعيراً و٢٧ بغلاً [٥] سارت في شوارع بغداد بينما جماهير الناس رجالاً ونساء يرقصون ويغنون مبتهجين. وكانت قصور الخلفاء تكتظ بالتحق وأواني الذهب والفضة، ويُرْوَى أنه حدث حريق في أواخر سنة ٦٥١ بدار الخلافة، فاستُخْرج بعد إطفائه ن تلك الأواني ما تزيد

---

(١) أبو شجاع ص ٧١.

(٢) مسكويه ٦/ ٢٥٨.

(٣) ابن خلكان (طبع دار صادر ببيروت) ١/ ٣٦٧.

(٤) المنتظم لابن الجوزي ٩*٣٦ وانظر كتاب العامة البدري فهد ص٢١٣.

(٥) النتظم ٩/ ١٦٥.

قيمته على مائتي ألف دينار، وسبقه حريق في سنة ٦٠١ فبلغ ما احترق بالدار فيه أكثر من نصف مليون دينار [١].

وكانت نساء الخلفاء وجواريهم يبالغن في زينتهن، حتى يقال إن زوجة الخليفة المستضيء كانت تزين نعالها باللآلئ الكبار [٢]، فما بالنا بما كانت تتخذه وراء ذلك من الحلى والجواهر. ويقال أيضاً إن جارية للمستنصر بالله بلغ من عنايتها بثيابها وزينتها أن صاحب ديوانها رصد ما أنفقته في شهر للزراكشة والصاغة والبزَّازين (تجار الملابس) والجوهريين، فإذا هو مائة ألف دينار ونحو خمسمائة ألف درهم [٣]. ويُرْوَى عن هذا الخليفة أنه نفح كبير حرسه علاء الدين الطيبرسي ليلة زفافه على ابنة الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مائة ألف دينار غير إقطاع كبير أهداه إليه [٤]، ويقال إنه أُحْصيت في عيد الفطر سنة ٦٢٦ الخلع التي وهبها الطيبرسي لمماليكه وأتباعه فبلغت ١٧٠٠ خلعة [٥]. فقصرُ الخلافة بل كلُّ حواشي القصر كانوا يعيشون في ترف شديد. وقل ذلك نفسه عن السلاطين وحواشيهم من البويهيين والسلاجقة والإيلخانيين ومن جاء بعدهم، وكانت الأموال تُصَبّ في حجورهم وينفقون منها كثيراً على ترفهم وبذخهم. ويقال إن ميزانية الدولة بلغت في عهد عضد الدولة نحو اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير. وكان يُعْنَى ببناء القصور وعمارتها، ويُرْوى أن ميزانية الدولة في عهد ملكشاه السلجوقي بلغت عشرين مليوناً من الدنانير [٦]، وكثير من الملايين المذكورة كان يتحول في قصورهم إلى ترف ما بعده ترف، وظل ذلك بقصور الخلفاء في العهد الأخير من الدولة العباسية كما مر بنا آنفا. ولا شك في أن شيئاً كثيراً من التدهور أصاب بغداد بعد الغزو المغولي، إذ أصبحت مع ما يتبعها من العراق

---

(١) دول الإسلام للذهبي (طبع حيدر آباد) ٢/ ٨٠.

(٢) انظر مضمار الحقائق وسر الخلائق لمحمد بن تقي الدين الأيوبي ١٢٣ - وراجع تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير للدكتور بدري فهد (طبع بغداد) ص٣٨٢.

(٣) مضمار الحقائق ١٨٣ وبدري فهد ص٣٨٢.

(٤) بدري فهد ص٢٥٢.

(٥) بدري فهد ص٣٨٣.

(٦) المنتظم ٩/ ٧.

ولاية ضمن ولايات متعددة يدبِّر شئونها الإيلخانيون ثم التيموريون ومن جاء بعدهم. ومعروف أن الإيلخانيين لم يتخذوا بغداد عاصمة لهم، بل كانت عاصمتهم تبريز ومدينة بنوها سموها السلطانية، وعاد حقاً إلى بغداد شيء من النشاط في عهد الشيخ حسن الكبير وأبنائه، بل قبل ذلك في عهد بوسعيد، ولكن على كل حال لم يعد لها مجدها القديم، بل سرعان ما تردت في هوة من فساد الحكم. وغزاها تيمورلنك وتولاها بعده أحمد بن أويس ثم قرايوسف وأبناؤه ثم أوزون حسن كما أسلفنا، وأصبحت إحدى الولايات في الدولتين الصفوية والعثمانية. وإذا كان ابن جبير زارها سنة ٥٨٠ وقال إنه ذهب أكير رسمها ولم يبق منها إلا شَهير اسمها وإنها أصبحت كالطلل الدارس والأثر الطامس [١] فإن ابن بطوطة حين زارها سنة ٧٢٨ في عهد بوسعيد الإيلخاني أعاد إلى الأذهان كلام ابن جبير، وعلق عليه بقول أبي تمام. قائلاً كأنه أطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها:

لقد أقام على بَغْدادَ ناعيها ... فلْيَبْكها لخراب الدَّهْر باكيها [٢]

وبدون شك كانت حيوية بغداد أقوى من الخراب الذي أصابها مع غزو هولاكو ومع خروج صولجان الحكم منها فقد ظلت لها مسحة غير قليلة من عراقتها، وظلت منزلاً للعلم والعلماء، بفضل ما كان يجبيه حكامها من حوض دجلة والفرات وما به من أشجار وزروع وثمار. وإذا كنا قد رأينا الخلفاء والحكام وحواشيهم يتنفسون حياة مترفة، فقد كان يتنفسها معهم الأشراف وكبار الموظفين والإقطاعيون والوزراء. وكان الأخيرون خاصة يدبرون شئون الدولة وتصير إليهم أموالها، فأثرى منهم كثير ثراء فاحشاً، وغرقوا في الترف والنعيم. ويلقانا في أول العصر المهلبي وزير البويهيين، وكان يشتهر بمآدبه وكثرة ما كان يقدِّم فيها من أصناف الطعام والحلوى، وقالوا إنه كان "إذا أراد أن يأكل شيئاً بمعلقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى، حتى ينال الكفاية، لئلا يعيد الملعقة إلى فيه

---

(١) رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) ص٢١٧.

(٢) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية) ١/ ١٣٩.

دفعة ثانية" (١). وفي هذا الخبر ما يدل على مدى الترف وما دخله من تعقيد في الوسائل، فاللون من الطعام لا يؤكل بملعقة واحدة وإنما يؤكل بملاعق كثيرة. وأبعد من هذا الخبر دلالة على الترف الذي غرق فيه بعض الناس وكثرة ما كانوا ينفقون فيه ما يروي عن المهلبي أيضاً من أنه "ابتيع له في ثلاثة أيام وَرْدٌ بألف دينار فُرشت به مجالسه وطُرح منه كمية كبيرة بركة عظيمة كانت في داره، ولها فوَّارات عجيبة يطرح الورد في مائها وينفضه" (٢) وإذا كان يَشْتَري من الورد وحده في ثلاثة أيام بألف دينار كي يزين به مجلسه وبركة قصره، فماذا اشترى لهذا القصر من السجاجيد والبسط والطنافس والستور وأنواع الوسائد والديباج والتحف. لابد أنه اشترى من ذلك كله بمئات الألوف. ولم يكن هذا شأنه وحده، بل كان أيضاً شأن الوزراء جميعاً وكبار الإقطاعيين والتجار. واشتهر بمجالس أنسه التي كان يعقدها بقصره ليلتين في كل أسبوع، ويقول ابن خلكان: "كان يجتمع فيها عنده ندماؤه من الفقهاء والقضاة على أطراح الحشمة والتبسُّط في القصف والخلاعة، وهم القاضي أبو بكر ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وغيرهم، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها وكذلك كان المهلبي. فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذَّ سماع الغناء وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعُقار وتقلبوا في أعطاف العيش، بين الخفة والطيش، ووُضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب فيه ألف مثقال، مملوء شراباً قُطْرُبُلِيًّا أو عُكْبَريا، فيغمس لحيته فيه، بل يَنْقعها حتى تتشرب أكثره ويرشّ بعضهم بعضاً، ويرقصون بأجمعهم، وعليهم الثياب المصَّبغات ومخانق المنثور، فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التوقر والتحفظ بأبهة القضاء وخشمة المشايخ الكبراء" (٣)

وظل هذا الترف طويلاً في مجالس الوزراء والسلاطين والأمراء، واشتهر عضد الدولة بمجالس أنسه في بغداد وغير بغداد وما كان بها من السماع وغناء الجواري والمغنين وألوان الفاكهة والرياحين وأقداح الشراب، ويقال إنه غُنِّي يوماً بأبيات للخليفة المطيع لله وكان

---

(١) معجم الأدباء ٥/ ١٥٣ وانظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٢٧٩.

(٢) معجم الأدباء ٩/ ١٣٨.

(٣) ابن خلكان ٣/ ٣٦٦.

قد لحنها، فلم يعجبه لحنه (١) وكأن الخلفاء وأبناء الخلفاء كانوا لا يزالون يضعون الألحان لبعض الأغاني كما مر بنا في العصر العباسي الأول. وبدون ريب كان يعيش هذه المعيشة المترفة التي لا تخلو من خمر وغير خمر كبار القواد ورؤساء الدواوين والإقطاعيون وكبار التجار والموظفون. ويعرض محمد بن أحمد أبي المطهر الأزدري- في حكايته الطريفة عن أبي القاسم البغدادي التي تقص حياة شيخ طفيلي بغدادي في يوم ببغداد في القرن الخامس للهجرة- ما كانت تلبسه الطبقة المترفة من ملابس أنيقة مجلوبة من جميع البلدان العربية موشاة بديباج الذهب المنسوج وكأنما نُسجت من أزهار الربيع، ما يقول، يفوح منها العنبر والطيب. ويذكر بيوت هذه الطبقة فيقول إن سقوفها غشِّيت بالساج وزيِّنت تعاريجها بالآبنوس والعاج، مع الأروقة المليحة والأبهاء المشرفة العالية ومع الأواوين (جمع إيوان) وقد فُرشت بالطنافس والمخادّ المذهبة والأبسطة والمقاعد المموهة بالذهب والمطارح المحشوة بريش العصافير الهندية والديباج التُّسْتَرِيّ المقصَّب الذهبي. ثم يُفيض في القول في الأطعمة من كل صنف والأفواه والعطور وأنواع المسك والعنبر والعود المطيَّب وأدوات الزينة من الأمشاط وغير الأمشاط. ويوازن بين هذه الحياة المترفة وحياة الطبقة الوسطى والدنيا الخشنة، واصفاً أطعمتها ودورها. ويبدو أنهم كانوا يضيفون إلى كثير من الأطعمة أنواع الطِّيب وماء الورد والتفاح وحبَّ الرمان والزعفران، ويعرض أصنافاً كثيرة للحلوى، وطبيعي أن تكثر فيها العطور. ويقول إنه حين يُرْفَعُ الطعام يأتي فراش متهلل الوجه نظيف الثياب خفيف الروح بيده خِلال سلطاني مطيَّب. ويغسل الضيوف أيديهم، ويناولهم الفراش مناديل ألين من القزِّ وأنعم من الخزّ. ويطيل الوصف للوز والجوز المقشورين وأنواع الفواكه وما كانت تزيَّن به الموائد من الأزهار والأنوار، ويتحدث عن الخمور وكئوسها ودِنانها مطنباً مطيلاً. ويذكر ما في مجالس السَّراة من المغنين الذين يأخذون بمجامع القلوب، إذ يملأون الآذان سروراً ويقدحون في القلوب نوراً (٢).

---

(١) معجم الأدباء ١٧/ ١٠١ ومابعدها.

(٢) حكاية أبي القاسم البغدادي (نشر ميتز في هايدلبرج) ص٣٥-٤٦.

وكانت المغنيات يغنين في مجالس السلاطين والخلفاء من وراء ستارة، أما في مجالس السراة وعلية القوم والنوادي فكن يغنين دون ستارة غالباً، ويطيل ابن أبي المطهر الأزدي في الإشادة بمغنيات بغداد وَزمَّاراتها وطَبَّالاتها وصَنَّاجاتها ورقَّاصاتها وضاربات العود بها، ويصف إحداهن ممن يضربن على العود قائلاً: تدخل المجلس تعطره من نسيمها بالمسك والكافور والعنبر وتجري عليها غِلالةٌ جَرْىَ الماء ورداءُ قصبٍ مزين مرصّع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر وفي عنقها سُبْحة (عقد) من الحب الكبار بما يعادل ألف دينار، والجواري يحملن ذيول ثوبها. وتجلس وعلى وجهها إزار قصب أبيض رقيق وتبدو متنقِّبة لا يُرَى منها إلا المحاجر وأطراف الذوائب، وتُلْقى بحديث كزهر الجنان أو صوب الغمام أعذب من الماء الزلال، وأعلق بالنفوس من السحر الحلال، ثم تحسر النقاب وتتناول عوداً من ساج منقوشاً بالعاج وتجسّ أوتاره وتفتتح غناء- كما يقول أبو القاسم- أعذب من تيار الفرات وتُفَتِّه في مجاري الحلق تكسِّره في مجاري النَّفَس. يقول: وهناك لا تسمع إلا شهقة عالية، ومقلة باكية، وجَيْباً مشقوقاً، وفؤاداً يطير خفوقاً [١].

ولم نلم إلا بكلمات قليلة من وصف أبي القاسم لهذه الجارية المغنية، لندل على أن الغناء كان لا يزال مزدهراً ببغداد حتى القرن الخامس، ونظن أن هذا الازدهار ظل له طويلاً، وغاية ما في الأمر أنه لم يتح له عالم يؤلف فيه على نحو ما ألف أبو الفرج الأصفهاني كتابه الأغاني عن المغنين والمغنيات في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. وفي كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي في أوائل هذا العصر نص طويل [٢] يصور ازدهاراً عظيماً للغناء في زمنه ومدى تأثر الناس به وطربهم عند سماعه على لسان المغنيات والمغنين، ويحكي لنا كيف كان شخص يسمى البَرَداني يطرب طرباً شديداً حين يستمع إلى عَلْوة جارية ابن عَلُّوية، وهي تغنِّي بأبيات للسَّرِوىَ يقول فيها:

بِالوَرْدِ في وَجْنَتَيْكَ مَنْ لَطَمَكْ ... ومَنْ سَقَاكَ المُدام لِمْ ظَلَمَكْ

(١) حكاية أبي القاسم ص٥٠ وما بعدها.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٦٥- ١٨٣.

ويسترسل أبو حيان في وصف انفعال السامعين إزاء الغناء ببغداد في عصره، من مثل ابن فَهْم، وكان يَطْرب إذا اندفعتْ "نِهاية" جاربة ابن السُّلَمِيَ بشدْوها:

استودعُ اللهَ في بغدادَ لي قَمَراً بالكَرْخ من فَلَكِ الأَزْرارِ مَطْلَعُهُ
ودَّعتُه وبُودِّي لو يودِّعني صَفْوُ الحياة وأني لا أُودِّعُهُ

والبيتان من قصيدة أبي محمد علي بن زريق وسَنُنْشِدُ منها أبياتاً أخرى في الفصل الثالث. ولما سمعهما منها ضرب بنفسه الأرض وتمرّغ في التراب وهاج وأزبَد وتعفَّر شعره، وهيهات من الرجال من يَضْبطه ويُمْسكه ومَنْ يَجْسُرُ على الدنوِّ منه، فإنه يَعَضّ بنابه، ويَخْمِشُ بظرفه، ويَرْكُل برجله ويخرِّق المرقَّعة (رداء الصوفية) قطعة قطعة، ويلطم وجهه ألف لطمة، كأنه عبد الرازق المجنون بباب الطاق. وكثيرون كانوا يطربون طرب هذا الصوفي، فتنقلب حماليق عيونهم، ويسقطون مغشياً عليهم، ويرشون عليهم الكافور وماء الورد- كما يقول أبو حيان- ويقرءون في آذانهم آية الكرسي والمعَّذتين، ويقونهم رُقىً مختلفة، حتى يفيقوا من سكرتهم، منهم أبو الحسن الجرَّاحي قاضي الكَرْخ، فإنه كان إذا سمع الجارية "شُغْلة) وهي تغني أغنيتها:

لابد للمشتاق من ذكر الوطن	واليأس والسلوة من بعد الحزن

ابتلت شيبته بالدموع، مع شجن قد ثقب القلب وأوهن الروح وفتت الصخر وأذاب الحديد، يقول أبو حيان: " وهناك ترى- والله- أحداق الحاضرين باهتة، ودموعهم متحدرة، وشهيقهم قد علا رحمة له، ورقة عليه، ومساعدة لحاله. وهذه صورة إذا استولت على أهل المجس وجدت لها عدوى لا تملك، وغاية لا تدرك، لأنه قلما يخلو إنسان من صبوة أو صبابة، أو حسرة على فائت، أو فكر في متمني، أو خوف من قطيعة، أو رجاء لمنتظر، أو حزن على حال". ويسوق أبو حيان لنا صواً من طرب الشعراء حين سماع بعض الجواري أو المغنين، فهذا ابن نباتة يطرب على صوت جارية تسمى " خاطف " وهذا ابن حجاج يطرب على غناء قنوة البصرية، وهي جارته وعشيقته. ويذكر أبو حيان أن الطرب

كـان يأخـذ بـابن صـبر القـاضي كـل مأخـذ، حـين يـستمع إلى " درة " جاريـة أبي بكـر الجراحـي وهي تغني:

لستُ أَنْسيَ تلك الزيارةَ لما — طرقَتْنا وأقبلتْ تَتَثنَّى

كم ليالٍ بِتْنَا نَلذُّ ونَلْهو — ونُسَقَّى شرابَنا ونُغَنَّى

هجرتْنا فما إليها سبيلٌ — غَيْرَ أنا نقول: كانتْ وكُنّا

يقـول أبـو حيـان: " وإذا بلغـت: " كانـت وكنـا " رأيـب الجيـب مـشقوقاً، والـذيل مخروقـاً، والـدمع مـنهملاً، والبـال منخـذلاً، ومكتـوم الـسر في الهـوى باديـاً؛ ودليـل العـشق عـلى صـاحبه مناديـاً". ويعـرض علينـا أبـو حيـان صـوراً مختلفـة مـن طـرق الـصوفية مثـل المعلـم غـلام الحصري شيخ الـصوفية، ومثـل ابـن سـمعون أكـبر واعـظ شـهدته بغـداد في زمنـه، فـإن الطـرب كـان يقيمـه ويقعـده حـين يـستمع إلى ابـن بهلـول، وهـو يزلـزل الـدنيا بـصوته النـاعم وغنتـه الرخيمـة وظرفـه البـارع ودماثتـه الحلـوة. ويـذكر أبـو حيـان جاريـة كانـت تنـوح تـسمى حبابـه كانت في النـوح واحـدة لا أخـت لهـا وقـد تهالـك النـاس بـالعراق عـلى نوحهـا، يقـول: ورأيـت لها أختـا يقـال لهـا " صـبابة" كانـت في الحـسن والجـمال فوقهـا.. وزلزلـت هـذه بغـداد في وقتهـا، ولم يكـن للنـاس غـير حـديثها لنوادرهـا وحـاضر جوابهـا. ثـم يقـول أبـو حيـان في ختـام هـذا الفصل الطريف.

"ولـو ذكـرت هـذه الأطـراب مـن المـستمعين والأغـاني مـن الرجـال والـصبيان والجـواري والحرائر لأطلـت وأمللـت وزاحمـت كـل مـن صـنف كتابـاً في الأغـاني والألحـان. وعهـدي بهـذا الحديث سـنة سـتين وثلاثمائـة. وقـد أحـصيت- أنـا وجماعـة في الكـرخ- أربعمائـة وسـتين جاريـة في الجـانبين (جـانبي بغـداد الغـربي والـشرقي) ومائـةً وعـشرين حـرة يجمعـن بـين الحـسن والحـذق والظـرف والعـشرة. وهـذا سـوى مـن كنـا لا نظفـر بـه ولا نـصل إليـه لعزتـه وحرسـه ورقبائـه، وسـوى مـن كنـا نـسمعه ممـن لا يتظـاهر بالغنـاء وبالـضرب إلا إذا نـشط في وقـت أو ثمل (سكر) في حال، وخلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه".

ولا ريب في أنه كان بجوار أولئك المئات من المغنيات مئات من المغنين، وكم كنا نتمنى لو أن أبا حيان أطال وأمل وصنف في أغاني عصره كتاباً ككتاب أبي الفرج الأصبهاني، ولكنه لم يعن بذلك فخسر الشعر والغناء خسارة كبرى لأن معاصريه ومن جاءوا بعده لم يحاولوا التأليف في الأغاني والمغنيات والمغنين على غرار صنيع الأصبهاني. وأكبر الظن أن هذا الازدهار للغناء ظل حتى غزو التتار لبغداد، وبقيت منه أسراب في الحقب المغولية، إذ نجد ابن بطوطة حين زار بغداد سنة ٧٢٧ يذكر أنه رأى السلطان الإيلخاني بوسعيد في سفينة بدجلة يتنزه، وعن يمينه وشماله قوارب وسفن لأهل الطرب والغناء، ويذكر أيضاً أنه رأى هذا السلطان في أحد مواكب تنقله، ومع كل أمير من أمرائه عسكره وطبوله، وكان يتقدم الموكب الحجاب والنقباء ثم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل، كانوا يغنون في مجموعات بالتناوب، ولا يزالون يتداولون الغناء بينهم، حتى ينزل بوسعيد، فإذا ركب عادت المجاميع إلى الطرب والغناء.[1]

ولم تكن الطبقة الدنيا تنعم بالغناء نعيم الطبقة الأرستقراطية، والمظنون أن الطبقة الوسطى كانت تنعم به بعض الشيء، أما من وراءهم من عامة الناس فلم يكن لديهم من المال ما يجعلهم يأخذون بنصيب من هذا النعيم، إلا ما قد ينعمون به في الأعياد العامة، وعادة كانت بغداد تزين بالأعلام ذات الألوان الزاهية في عيدي الفطر والأضحى، ومع مواكب الحج في رحيلها وقدومها، وظل الاحتفال بذلك كله حتى نهاية هذا العصر، وكانوا يحتفلون بأعياد الفرس ويخرجون فيها للمتنزهات وسماع المغنين والمغنيات، وأهمها عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر، ويستمر ستة أيام ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر، ويأتي بعده عيد السذق، وهو يوافق عيد الميلاد، وفيه تشعل النار في السفن والزوارق بدجلة، وتخرج العامة للفرجة عليها وبأيديهم الشموع، ويلي هذا العيد عيد النيروز في أول الربيع، ويبتدئ في الحادي والعشرين من مارس ويستمر ستة أيام مثل عيد المهرجان. وبجانب ذلك كانوا يحتفلن بأعياد النصارى ويخرجون فيها للمتنزهات والأديرة، وكان لكل دير عيده.

---

(١) ابن بطوطة ١/ ١٤٣ وما بعدها.

ومن المحقق أن العامة كانت تعاني كثيراً من الضنك والضيق لكثرة الضرائب التي كانت تجبى منها وقلة ما كان يعود عليها من الكسب، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه أن الطبيب حين كان يدور من بيت إلى آخر لمعالجة العامة كان يأخذ أجراً له عن كل مريض ربع درهم (١)، ويذكر التنوخي أن رجلاً كان يستأجر حانوتاً بنصف درهم وزيدت إلى درهم (٢) والخبران من أخبارأوائل العصر في القرن الرابع الهجري، فما بالنا بما صارت إليه العامة بعد ذلك من بؤس وتعاسة، وهذا هو السبب في كثرة العيارين ببغداد طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين، ومن يقرأ أخبارهم يحس أنهم كانوا يستشعرون فكرة العدالة الاجتماعية، إذ يرون طائفة قليلة من الوزراء والقواد وكبار الموظفين والإقطاعيين والتجار الموسرين يتمتعون بل يتمرغون في الترف والنعيم وهم محرومون يتجرعون البؤس والمسغبة، وقد أشعلوا في شهر المحرم لسنة ٣٦٤ للهجرة ببغداد حريقاً عظيماً، واستفحل أمرهم حتى خافهم الجند وتلقبوا بالقواد وتسلطوا على بغداد وأخذوا الضرائب من الأسواق (٣)، ويذكر أبو حيان من قوادهم ابن كبرويه وأبا الدرد وأبا الذباب وأسود الزبد (٤). وعادوا إلى التسلط على بغداد سنة ٣٨٠ فنهبوها وعينوا عريفاً لهم في كل محلة (٥). وأخذ ينتظم مع الزمن في صفوفهم كثير من العلويين والعباسيين كما حدث في فتنتهم سنة ٣٩٢ مما يدل على أنهم كانوا ساخطين سخطاً شديداً على الأغنياء المترفين من رجال الدولة وغيرهم، وأنهم كانوا ينادون بفكرة العدالة الدينية. ونمضي في القرن السادس الهجري فنجد فتنهم تشتعل ببغداد من حين إلى حين، ويعظم شأنهم في عهد السلطان مسعود السلجوقي (٥٢٧-٥٤٧هـ) وينهبون بغداد مراراً. ومازالت فتنهم تنشب فيها طوال القرن السادس، حتى إذا كنا في عصر الخليفة الناصر (٥٧٥-٦٢٢هـ) وجدناه في سنة ٥٧٨ يستدعي شيخاً من بينهم عُرف بأن له أتباعاً كثيرين، فعرض عليه أن

---

(١) مسكوية ٢/ ١٩٨.

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي ٢/ ١٥٥.

(٣) انظر حوادث سنة ٣٦٤ في المنتظم وابن الأثير وابن تغري بردي.

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٣/ ١٦٠.

(٥) راجع في السنة المذكورة المنتظم وابن الأثير.

ينتظم معه ومع أتباعه في الفتوة، على أن تتجه وجهة صالحة، فلا تكون للإفساد ولا للنهب ولا للفتن، بل تكون فتوة فاضلة تقوم على المروءة وشرف النفس. وشرب الناصر من يد الشيخ عبد الجبار ماء الفتوة وهو ماء مملوح، وكأنه يشير عندهم إلى أنهم لا يشربون الخمر وأيضاً لبس الناصر سراويلها كما أسلفت وأخذ في تنظيم هذه الفتوة الشريفية، فدخل فيها أهل بغداد أفواجاً، وعمد إلى نشرها في الآفاق وطلب إلى الحكام أن يدخلوا فيها، ودخل كثير منهم، على هدي منشور فيها، أرسله إلى الآفاق يحض على الانتظام في سلكها، وكان ممن انتظم فيها شهاب الدين الغوري سلطان غزنة والهند، كما ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٦٠٢ وانتظم فيها السلطان العادل الأيوبي وأبناؤه كما مر بنا. وكان هذا عملاً جليلاً، لا لأنه أنقذ بغداد من العيارين والنهب والسلب المستمر فحسب، بل لأنه وجه شباب بغداد بل شباب الأمة إلى اتخاذ الفتوة الفاضلة درعاً في حروبهم مع أعدائهم من الصليبيين، وقد تحولت إلى نظام عظيم، كتب فيه العلماء كتباً، من أهمها كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادي المتوفى سنة ٦٤٢ وهو يوضح فيه حقيقتها ومنشأها ومنزلتها من الشريعة الإسلامية وشرائطها ومصطلحاتها على ألسنة الفتيان النبيلة[1]. غير أن بغداد لم تلبث أن اكتسحتها أمواج التتار هي والعراق، وحكمها الإيلخانيون ومن جاء بعدهم من التيموريين والتركمان والصفويين والعثمانيين، وأخذت أحوال أهلها هي والعراق عامة تزداد سوءاً من عصر إلى عصر، لكثرة ما كان يفرض على الناس في المدن والريف من الضرائب الفادحة.

ولم نتحدث عن أهل الذمة من المجوس والنصارى والصابئة واليهود، وكانوا يتمتعون بتسامح واسع نظير ما يدفعونه من الجزية، وكانت لا تتجاوز ديناراً للعامة وديناري للطبقة الوسطى وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء، وكانت أشبه بضريبة تؤخذ للدفاع الوطني، إذ لم يكن يؤديه إلا من يقدرون على حمل السلاح، فلا يؤديها النساء ولا الرهبان

(١) انظر في الفتوة وتنظيم الناصر لها كتاب الفتوة لابن المعمار (طبع بغداد) والمقدمة الطويلة التي كتبها الدكتور مصطفى جواد لهذا الكتاب. وانظر الفتوة والخليفة الناصر للمستشرق الألماني فرانزتيشنر في كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر).

ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس ولا ذوو العاهات. وكانت الدولة وخاصة في الحقبة البويهية تستخدم بعض النصارى في الدواوين واتخذ منهم عضد الدولة وزيراً- كما مر بنا- وكان منهم أطباء كثيرون في مختلف الحقب، أما اليهود فكانوا يشتغلون بأهون المهن، فكان منهم الصباغون والخرازون وأمثالها كالأساكفة.

وكان الرقيق كثيراً كثرة مفرطة، وكان من أجناس مختلفة، فمنه الإفريقي ومنه التركي الآسيوي ومنه الأوروبي وخاصة الصقلبي والرومي. وكانت له سوق رائجة في بغداد من قديم، وكانت التجارة فيه تدر أرباحاً طائلة على النخاسين، وكانت لهم حيل كثيرة يخدعون بها الناس عند شراء الجواري والرقيق بعامة، ومن أجل ذلك ألف ابن بطلان المتوفى بعد سنة ٤٥٥ للهجرة رسالة سماها " شراء الرقيق وتقليب العبيد" وفيها يصو حيل النخاسين في تحسين الجواري وطرق خداعهم في إزالة آثار الجدري والوشم والنمش من أجسادهن وصبغهن بألوان تخفى ما قد يكون من آثار البرص أو البهق وصبغ عيونهن بألوان تجعلها كحلاء أو زرقاء، ويصور بعض مقاييس الحسن في الجارية من أخمص قدمها إلى مفرق شعرها[١] وكانت المحظوظات منهن تجلب إلى دور الخلفاء والسلاطين، وكثير من الخلفاء كانوا من أبنائهن، فالقائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) كانت أمه قطر الندى جارية رومية[٢]، وابنه المقتدى (٤٦٧-٤٨٧هـ) كانت أمه جارية أرمنية[٣]، وكذلك كانت أم المستظهر (٤٨٧-٥١٢هـ) من الجواري[٤]. وكان منهن كثيرات في قصر الخلافة يخدمن زوجات الخلفاء أو يكن وصيفات لهن[٥].

وكانت الجارية المغنية تباع بأغلى الأثمان، وكان في بغداد بعض نوادٍ بها جوار مغنيات يختلف إليهن الشباب لسماع الغناء واللهو[٦]. واشتهر كثيرات منهن باللطف والظرف

(١) انظر رسالة شراء الرقيق وتقليب العبيد بين الرسائل التي نشرها عبد السلام هرون باسم نوادر المخطوطات.

(٢) المنتظم ٨/ ٥٨.

(٣) المنتظم ٨/ ٢٩١ و٩/ ٢٠٠.

(٤) المنتظم ٩/ ٨١.

(٥) المنتظم ٨/ ٢٣٠ والمستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي ٢٣.

(٦) أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي (طبع دمشق) ص٩٧.

والبديهة الحاضرة ونظم الشعر[١] وحب الأزهار ونقش الأبيات الرقيقة على الأردية والأكمام والعصائب والمناديل، وكان لذلك تأثير في رقي الأذواق ببغداد من قديم.

وكان شرب الخمر معتاداً في كثير من مجالس السلاطين والوزراء وسراة القوم، على نحو ما مر بنا عن المهلبي وزير معز الدولة البويهي، وحكوا عن ابنه عز الدولة بختيار أنه "كان يحب أن يقضي أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة والفِتاخ (العقبان)"[٢]. ومر حديثنا عن عضد الدولة البويهي ومجالس أنسه وطربه وشربه. وكان السلطان مسعود السلجوقي منهمكاً في اللذات والانعكاف على الخمور والراحات[٣]. ويكثر وصف الخمر على ألسنة الشعراء وفي حكاية أبي القاسم البغدادي وصف كثير لها في غير موضع، وفيه تُساق بعض أشعار الماجنين الكبيرين ببغداد في القرن الرابع الهجري: ابن حجاج وابن سكرة، وهما أكبر مجان بغداد- إن لم يكن كل البدان العربية- على مر التاريخ.

وكان الصيد لهواً عاماً للسلاطين والناس، وكان من أكبر هواته ملكشاه السلجوقي، ويقول ابن خلكان: " كان لهجاً بالصيد، حتى قيل إنه ضُبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف فتصدق بعشرة آلاف دينار. وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار.. وخرج مرة من الكوفة لتوديع الحجاج.. وصاد في طريقه وحشاً كثيراً، وبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء مما صاده[٤]". وكانت العامة تلهج بالصيد مما دفع الناصر إلى أن يجعله جزءاً من الفتوة، إذ اشترط فيها إحسان المنتسب إليها الرمي بالبندق، وكأنه كان يريد أن يمرن الشباب لا على الصيد من حيث هو وإنما على صيد أعداء العرب

---

(١) نفس المصدر ص٩٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٨/ ٣١.

(٢) مسكويه ٦/ ٣٨٦.

(٣) ابن خلكان ٥/ ٢٠٢.

(٤) ابن خلكان ٥/ ٢٨٤.

والإسلام، ولمعاصره الفتى عمر بن السفت مخمس طويل في وصف قوس البندق وإحكام الصيد[١].

واستمر من هواياتهم في هذا العصر اللعب بالنرد وكذلك اللعب بالشطرنج وفي حكاية أبي القاسم وصف طويل للشطرنج واللعب به. وكان من تسلياتهم القديمة مهارشة الديكة ولعبة خيال الظل، وكانوا يلعبون بالحمام ويتخذون له أبراجاً كبيرة، وكانوا يقامرون عليه، فيرسل كل حمامه، ومن جاء حمامه أولاً كسب الرهان، ومن أهم أنواعه الزاجل، وكانت الحكومات تستخدمه في البريد أو التراسل. وكان من ألعابهم سباق الخيل. وكانت الفروسية مهوى أفئدة الشباب، وخاصة أصحاب الفتوة فكانوا يتمرنون على استخدام السلاح سواء أكان ضرباً بالسيف أو رمياً بالنبل. وكان من العادات الشائعة الاحتفال بالختان وبختم القرآن وبالزواج وكان الفقراء يستعيرون لفتياتهم ولأنفسهم الملابس والحلي للظهور بالمظهر الكريم في حفل الزفاف. ومن المؤكد أنه ظل يجثم على صدر بغداد حزن كثيب منذ غزاها المغول حتى العصر الحديث.

(١) مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار ص٧٥.

٤

التشيع

يقوم التشيع على أساس نظرية في إمامة المسلمين يؤمن بها الشيعة جميعاً، وهي نظرية تعتمد على أن هذه الإمامة وراثية في علي بن أبي طالب وأبنائه المختارين للنهوض بالخلافة الشرعية للمسلمين من الوجهتين الدينية والدنيوية. ولذلك لا يسمون الحاكم الأعلى للمسلمين في رأيهم خليفة كما يسميه أهل السنة، وإنما يسمونه إماماً ليدل هذا اللقب على مكانته الدينية. والإمام الأول عندهم هو علي الذي اختاره الرسول (ص) في اعتقادهم، ليكون إمام المسلمين بعده، ويسمون ذلك وصية، إذ يقولون إن الرسول أوصى لعلي بالإمامة بجوار غدير خم بين مكة والمدينة. فهو وصي النبي وكل إمام بعده وصي لسلفه، عينه بعده صراحة وفقاً لترتيب إلهي. ويضيف الشيعة إلى ذلك أن الرسول (ص) بث علياً علوماً خصه بها، وهي علوم تجعل له- في عقيدتهم- قدسية وصفات روحية خاصة، وهي صفات وعلوم يرثها كل إمام عن سالفه.

والشيعة فرق كثيرة، ونقصر حديثنا على ثلاث منها عرفت بالعراق لهذا العصر، هي الإمامية الاثنا عشرية والزيدية والنصيرية. والأولى(١) هي التي يدين بها جمهور الشيعة في العراق حتى اليوم، أما الفرقتان الثانية والثالثة فعرفتا في بعض البيئات والمدن، ولم تعما في العراق إنما التي عمت الإمامية الاثنا عشرية، ولذلك ينبغي أن نفصل القول فيها بعض التفصيل. وعندهم أن إمامة علي وأبنائه من السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص) جزء لا يتجزأ من صحة العقيدة الإسلامية، يقول الكليني المتوفى سنة ٣٢٨ في كتابه الأصول من الجامع الكافي: " ليس بمسلم حقاً من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً وإمام عصره ومن لا يفوض أمره للإمام ويبذل نفسه في سبيله" والإمامية بذلك يجعلون من أركان الإسلام الأساسية- في عقيدتهم- الإيمان بالأئمة والانضواء تحت لواء إمام

(١) انظر في الإمامية الملل والنحل للشهرستاني وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمي والعقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين.

العصر[1] ويضفي الإمامية على الإمام صفات روحية قدسية أودعها الله فيه مع ما أودع من العلوم، وهي صفات يعلو بها على المستوى البشري للناس، بها يكون هادياً لهم وموجهاً، إذ ورثها عن الأئمة قبله، وورث معها المعارف والأحكام الإلهية، وكل ما يجد يعرفه عن طريق الإلهام بالقوة القدسية والمشيئة الإلهية. فكل علم له إنما هو من لدن الله وكل أمر إنما هو بتوجيه الله[2]. وطاعة الأئمة لذلك واجبة، إذ هم أبواب الله والسبل إليه والإدلاَّء عليه، وهم ذخيرة علمه وتراجمة وحية وأركان توحيده وخزان معرفته.. أمرهم أمر الله، ونهيهم نهيه، وطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته[3]. ومما يستدلون به على وجوب طاعتهم قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ) وأولو الأمر ليسوا هم- كما يدل ظاهر الآية- علماء الأمة المجتهدين، وإنما هم الأئمة. ويقولون إن الله أوجب طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله. وعلى هذا النحو يرتفع الشيعة الإمامية بأئمتهم عن الطبيعة البشرية إذ يجعلونهم معصومين عن الخطأ واقتراف الذنوب والآثام. وتعد هذه العصمة للأئمة من المبادئ الأساسية في العقيدة الإمامية، ويستدلون عليها باختيار الله لهم- على نحو ما تصور ذلك عقيدتهم- والله لا يختار لعباده في رأيهم إلا المعصومين[4].

ويؤمن الإمامية الاثنا عشرية بأن الأئمة اثنا عشر، ولذلك يسمون الاثنى عشرية، وهم- على الترتيب- علي بن بي طالب، فابنه الحسن، فأخوه الحسين، فابنه علي زين العابدين، فابنه محمد الباقر، فابنه جعفر الصادق، فابنه موسى الكاظم، فابنه علي الرضا، فابنه محمد الجود، فابنه علي الهادي، فابنه الحسن العسكري، فابنه محمد المهدي المولود سنة ٢٥٦ للهجرة، وقد اختفى عندما كان طفلاً. ويؤمن الإمامية بأن هذا الإمام حي وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، ويعيد سنن الرسول (صلى الله عليه وآله

---

(١) راجع الكليني ص١٠٥ و٣٦٨ وجولد تسيهر ص١٨١ وفي مواضع مختلفة.

(٢) راجع عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر (طبع القاهرة) ص٧٢ والكليني ص١٤٦ و١٤٨.

(٣) انظر المظفر ص٧٤.

(٤) انظر في عصمة الإمام لدى الاثنى عشرية جولد تسيهر ص١٨٨.

وسلم) ويسترد حق أسرته في الولاية على الأمة في يوم موعود به من الله، هو سر من الأسرار الإلهية. ويقولون إن هذا حقاً مخالف للمألوف أن يكون إماماً وهو قد رحل وعمره خمس سنوات وأن يظل قروناً متوالية حياً، ولكنها- كما يعتقدون- معجزة ستحقق، إذ يعود إليهم هذا المهدي المنتظر الذي يحرر- في عقيدتهم- العالم من مفاسده وشروره، ويشيع في الناس العدالة، وهو بذلك حي، وكل ما في الأمر أنه غائب خفي عن الأعين(١). وهو عندهم في أثناء غيابه واختفائه " قائم الزمان " يسير بين الأحياء ولا يرونه، ويرعى شئونهم، ويدبر مصالحهم(٢).

وتؤمن الإمامية الاثنا عشرية بنظرية الرجعة، إذ يعيد الله بعض الأموات إلى الدنيا ليقروا بين البشر نواميس العدالة الإلهية، ثم يعود بعد ذلك إلى الموت، وكأنها بعث موقوت في الدنيا، وهي طبعاً غير التناسخ، فالتناسخ انتقال الروح من بدن إلى بدن، أما الرجعة فمعاد جسماني في الدنيا بنفس الصورة والشخصية، ويستدلون على هذه الرجعة بما جاء على لسان عيسى عليه السلام في الذكر الحكيم: (وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ) وما جاء عن قصة أهل الكهف في القرآن الكريم، وأيضاً عن صاحب القصة في قوله تعالى: (فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ). غير أن فكرة الرجعة اختلطت بفكرة المهدي الذي سيأتي آخر الزمان ويتم على يديه الإصلاح المأمول، ويقول الشيخ المظفر: " على كل حال الرجعة ليست من الأصول التي يجب الاعتقاد بها، وإنما اعتقادنا بها كان تبعاً للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت عليهم السلام(٣)". وهو يلفتنا بذلك إلى أهمية الروايات المنسوبة إلى الأئمة في البيئة الإمامية فهي أقوى عندهم من كل برهان لأنهم في رأيهم معصومون منزهون عن الخطأ.

---

(١) انظر في نظرية المهدي الكتب الشيعية السابقة وجولد تسيهر ص١٩١ وما بعدها وراجع في الغيبة عقائد الإمامية للمظفر ص٨٠.

(٢) انظر جولد تسيهر ص١٩٦.

(٣) عقيدة الإمامية للمظفر ص٨٣ وما بعدها وراجع في عقيدة الرجعة لدى الاثنى عشرية جولد تسيهر ص١٩١.

وتلتقي العقيدة الإمامية مع الاعتزال في كثير من الأصول، فالإمامية كالمعتزلة يرون أن صفات الله قائمة بذاته، فهو عالم بذاته لا بعلم، وكذلك بقية صفاته، ويروون عن جعفر الصادق: " العلم ذت الله ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدرة[١]". وهم كالمعتزلة ينفون التشبيه عن الله، فهو منزه عن المكان والزمان والشبه بالمخلوقات، إذ ليس جسماً ولا عرضاً ولا جوهراً، وقد سلكوا مسلك المعتزلة في تأويل الآيات القرآنية التي قد تفيد مشابهة الذات العلية للمخلوقات في مثل (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) فمعنى اليد القدرة. وهم كالمعتزلة في إثبات العدل على الله، أما أفعال العباد فيقفون فيها موقفاً وسطاً بين المعتزلة والقائلين بالجبر، فهي بين بين، أو هي بين الاستطاعة والجبر. وظلت الصلة قوية بين الإمامية والاعتزال طوال العصر.

وقد أخذ المذهب الإمامي الاثنا عشري ينتشر في العراق منذ أوائل هذا العصر، إذ تحول صولجن الحكم إلى البويهيين وكانوا إمامية، ونرى حاكمهم الأول معز الدولة يأمر في سنة ٣٥١ بلعن معاوية وكبار الصحابة وكتب بعض الشيعة ذلك على حيطان المساجد، فمحا الكتابة أهل السنة[٢]. ولم يلبث معز الدولة أن أمر أهل بغداد بالاحتفال بيوم عاشوره في سنة ٣٥٢ وهو اليوم الذي استشهد فيه لحسين، وقد أصبح منذ هذا التاريخ أكبر عيد للشيعة، وفيه أمر معز الدولة أن تغلق الأسواق ويعطل البيع والشراء ولا يذبح القصابون ولا يطبخ الطباخون وأصحاب الحلوى، والجميع ينوحون ويبكون الحسين وينصبون القباب ويتخذون المسوح وتخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه مشقوقات الثياب ويدرن في بغداد نئحات لاطمات وجوههن على الحسين[٣]. وفي هذا اليوم يزار قبر الحسين بكربلاء، ويقام فيها عليه مأتم كبير كمأتم بغداد، ويقام أيضاً في المدن العراقية الأخرى. ولا يزال هذا المأتم إلى اليوم. وفيه يقام موكب كبير للنائحين ببغداد، وتتلى سيرة الحسين في البيوت والنوادي وتنشد مراث كثيرة فيه وفي أبيه وفي الأئمة المستشهدين،

---

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة للعامل (طبع النجف) ص٥٣ وانظر جولد تسيهر ص١٩٨ وما بعدها.

(٢) انظر ابن الأثير وأبا الفدا في حوادث عام ٣٥١.

(٣) المنتظم ٧/ ١٥ وابن الأثير وابن تغرى بردي في حوادث عام ٣٥٢.

يصور فيها الشعراء محن آل البيت على مر التاريخ. وبجنب هذا العيد الحزين عيد فرح وسرور فرضه أيضاً معز الدولة البويهي في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥٢ وهو عيد الغدير: غدير خم الذي يذهب الشيعة- كما أسلفنا- إلى أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عهد إلى علي بالخلافة قريباً منه وأنه قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاده. وقد أمر معز الدولة أن يستشعر الناس فيه الفرح ومظاهره من اتخاذ الزينة ونصب القباب وتعليق الثياب، وأشعلت النيران ليلاً وضربت الدبادب والبوقات[١]. ولم يلبث أهل السنة ببغداد أن اتخذوا لهم عيدين بإزاء العيدين السالفين، فجعلوا لهم عيداً بعد عيد الغدير بثمانية أيام، سموه عيد الغار، أحيوا فيه ذكرى اليوم الذي دخل فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبو بكر الصديق في غار حراء، وبالمثل جعلوا لهم عيداً بعد يوم عاشوراء بثمانية أيام أحيوا فيه ذكرى اليوم الذي قُتل فيه مصعب بن الزبير[٢].

واشتهر الكرخ في غربي بغداد بأنه كان حي الشيعة الإمامية[٣]، ويقول هلال الصابي إنهم لم يحتلوا باب الطاق إلا في أواخر القرن الرابع الهجري[٤]، وكان يقابلهم في القسم المواجه من بغداد أهل السنة وكان أكثرهم من الحنابلة، ولهم فتن كثيرة مع الشيعة تقصها كتب التاريخ. ويذكر ابن بطوطة في رحلته مدينة الحلة ويقل إن أهلها لزمنها في القرن الثامن إمامية اثنا عشرية[٥]، ومر بنا في حديثنا عن بني مزيد في الجزيرة العربية أنهم كانوا لعهدهم بالحلة في القرن الخامس رافضة، وقد يكون في ذلك ما يدل على اكتساح مذهب الإمامية لمذهب الإسماعيلية في العراق. ووصف ابن بطوطة كربلاء ومشهد الحسين بها، وقال إن "الروضة المقدسة داخله وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر، وعلى باب الروضة الحجب والقومة، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم، فيقبل

---

(١) ابن الأثير والمنتظم في حوادث عام ٣٥٢.

(٢) كتاب الوزرء للهلال بن المحسن الصابي ص ٣٧١.

(٣) انظر مدة كرخ في معجم البلدان لياقوت.

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ وانظر المنتظم في حوادث عام ٣٨٩.

(٥) رحلة ابن بطوطة ١/ ١٣٨.

العتبة الشريفة وهي من الفضة، وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة، وعلى الأبواب أستار الحرير"(١). وهي أول مرة يوصف فيها مشهد الحسين من داخله. وهو تحفة من التحف النفيسة بما يغطي الضريح ومئذنة المشهد من صفائح الذهب، وبالمثال مشهد أبيه علي في الكوفة. وتحض العقيدة الإمامية على زيارتها وزيارة قبور الأئمة بالعراق وإيران. وقد أتيح لتلك العقيدة في عهد إسماعيل الصفوي ودولته أن تصبح المذهب الرسمي للدولة في العراق وإيران. غير أن تلك الدولة لم تدم في العراق طويلاً.

وكان بجانب العقيدة الاثنى عشرية في العراق عقيدتان أخرين شيعيتان، إحدهما متطرفة غاية التطرف حتى ليتبرأ منها الشيعة الاثنا عشرية، والثانية معتدلة غاية الاعتدال، أما المتطرفة ففرقة النصيرية كان لها أتباع في مدينتي عانة والحديثة، وهم في الحق مسلمون اسماً فحسب، أما بعد ذلك فهم خارجون على الإسلام إذ عدو علي بن أبي طالب وأبنءه آلهة وعبدوهم من دون الله، واتخذوا لأنفسهم كتباً عدوا القرآن ثانوياً بالقياس إليه. وطبيعي، أن يرفضوا بعض أركان الشريعة الإسلامية، وقد أنزلوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) منزلة دون منزلة علي، كبرت كلمة تخرج من أفواههم الآثمة، ويقول جولد تسيهر إن عقيدتهم تحمل كثيراً من عناصر الوثنية الآسيوية القديمة(٢). وحرى بنا أن نلاحظ أنه كان يندس بين الإمامية بعض النصيرية وبعض الشيعة الغالين أو بعبارة أدق الرافضة، وخاصة من يرفعون علياً إلى مرتبة ربانية. ونجد أحد خطباء الشيعة ببغداد في عام ٤٢٠ للهجرة يدعو في خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيقول: " وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مكلم الجمجمة، ومحيي الأموات، البشري، الإلهي، مكلم فتية أصحاب الكهف(٣)". وكأنه يؤمن بأن علياً صورة جديدة لعيسى عليه السلام، اجتمع فيه اللاهوت والناسوت مما يتيح له في رأيه إحياء الموتى والخلود من أول الزمان. وهي نفس عقيدة النصيرية فيه إذ ذهبت إلى أن فيه جزءاً إلهياً وأنه

---

(١) ابن بطولة ١/ ١٣٩.

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسهير ص١٨٤، ٢٢١.

(٣) المنتظم في حوادث سنة ٤٢٠ وانظر الحضارة الإسلامية لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ١/ ٨٢.

كـان موجـوداً قبـل خلـق الـسموات والأرض، وأن الإلـه ظهـر بـصورته وخلـق بيديـه وأمـر بلسانه[١] إلى غير ذلك من كفر ما وراءه كفر.

وعلى عكس النصيرية كانت هناك فرقة معتدلة أشد الاعتدال، هي فرقة الزيدية التي نشأت في الكوفة على يد زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وقد ظل لها في هذا العصر أنصار عديدون في تلك المدينة، وكانوا لا يقصرون الإمامة على أشخاص معينين من أبناء الحسين كما ذهب الإمامية، بل يرونها حق كل علوى فاطمي مادام له من الاستعداد الروحي ما يؤهله للإمامة، وكانوا ينكرون فكرة الإمام الغائب التي آمنت بها الإمامية وما يطوى فيها من نظرية الرجعة وأيضاً فكرة العصمة، وأيضاً لم يضيفوا إلى الإمام فكرة العلم الباطني المتوارث وما يطوى فيها من صفات روحية قدسية تضفى على الإمام، فيكفي فيه أو قل يشترط فيه أن يكون فقيهاً، ولكن دون تصور علم لدني يهبط عليه، واشترطوا في الإمام أن يكون كريماً سمحاً عادلاً شجاعاً. ونهوا عن ذم الصحبة وأبي بكر وعمر، لأنهم لم يبايعوا علياً بالخلافة، وجوزوا إمامة المفضول من غير ذرية علي بن أبي طالب على الأفضل من ذريته. وعقيدتهم بذلك لا تبعد كثيراً عن عقيدة أهل السنة ولذلك كان يقال من قديم إنهم أكثر الفرق الشيعية إنصافاً واعتدالاً[٢].

---

(١) الملل والنحل للشهرستني بتحقيق محمد سيد كيلاني (نشر مكتبة مصطفى الحلبي) ١/ ١٨٨ وما بعدها.

(٢) الشهرستاني ١/ ١٥٤.

٥

الزهد والتصوف

كانت موجة الزهد في هذا العصر لا تقل حدة واتساعاً عنها في العصور السابقة، ومعروف أن القرآن دعا إليه مراراً كما دعا الرسول في أحاديثه النبوية إلى الزهد في عرض الحية الدنيا وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة، وبذلك كان الزهد من طوابع الحياة الإسلامية المستقرة في الأمة. وأخذت تتكون منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) طبقات كثيرة من الزهاد المتقشفين الذين ينبذون وراء ظهورهم مباهج الحياة ويتجردون لعبادة ربهم. ونراهم في هذا العصر بكل بلد من بلدان العالم الإسلامي يعدون بالعشرات بل بالمئات، ويمكن أن نسلك فيهم بصفة عامة طبقات الفقهاء، فمن يقرأ في طبقات الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة يجد المترجمين لهم يسوقون أخباراً كثيرة عن مدى ما كان يأخذ به الفقهاء من كل مذهب أنفسهم من التقشف وطمأنينة النفس القانعة ما يذكر من أن هذا الفقيه أو ذاك اعتكف في بيت الله خمسين سنة أو أنه صام حياته أو أنه صام خمساً وسبعين سنة. وتسوق كتب التاريخ أسماء زهاد كثيرين ومن يرجع إلى المنتظم لابن الجوزي وابن الأثير وابن تغرى بردي سيراهم يذكرون في وفيات السنوات أسماء كثرةٍ من الهاد، فمثلاً في سنة ٣٤٨ توفي جعفر بن حرب وكن في نعمة كبيرة، فاجتاز يوماً بموكبه، فسمع قارئاً يقرأ: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) فصاح: بلى والله قد آن، ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتى مات. وفي نفس السنة توفي عالم زاهد كان يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التي استفضلها. وفي سنة ٣٨٤ توفي أبو العباس عبد الله بن محمد، وكان قد ظل سبعين سنة ناسكاً عابداً لا يستند إلى حائط ولا إلى وسادة أو غيرها. وكانوا يكرهون في الزاهد أن يتولى عملاً للسلطان يكسب منه مالاً[١]،

---

(١) النجوم الزاهرة ٥/ ١١٧.

وكانوا إذا عرفوا أن طعام شخص من مال أخذه من السلطان امتنعوا من أكله[١]. وكانت موجة الزهد عامة فكثيراً ما نقرأ عن هذا الخليفة أو ذاك أنه كان زاهداً، وبذلك اشتهر الخلفاء القادر والمسترشد والقائم، ويقال عن الأخير إنه كان في وجهه أثر صفرة من قيام الليل[٢]. وكان من الوزراء وأبنائهم من يرجعون إلى أنفسهم فينصرفون عن الدنيا ومتاعها الزائل إلى عبادة الله وما عنده من الثواب الآجل، ويروى عن سليمان بن الوزير نظام الملك، وكان يتولى المدرسة النظامية التي بناها أبوه ببغداد، كما مر بنا، أنه كان يحضر مواعظ ابن الجوزي واعظ بغداد المشهور، فأخذه الوجد يوماً. فقام وأشهد ابن الجوزي والناس من حوله أنه قد أعتق جميع ما يملك من الرقيق، ووقف ما يملك على أعمال البر[٣]. ويبدو أن كثيرين كانوا يبالغون في الزهد، حتى ليفرضون على أنفسهم العبادة ليل نهار، بل حتى لينصرفون عن الحياة الزوجية ويمتنعون منها. وكل ذلك مغالاة في الزهد لا يرضاه الإسلام، الذي لا يريد للزاهد أن ينفصل عن المجتمع والحياة، وقد روي أن جماعة من الصحابة كانوا في سفر أثنوا للرسول عليه السلام على رفيق لهم كان لا يزال دعياً ربه في ركوبه مصلياً له في نزوله فقال لهم " فمن كان يكفيه علف بعيره وإصلاح طعامه؟ قالوا: كلنا، قال: فكلكم خير منه [٤]". فالزهد الإسلامي ينكر إهمال الشخص لشئونه الدنيوية، كما ينكر بقوة فكرة العزوبة المعروفة عند رهبان النصارى[٥]. ونرى ابن الجوزي يحمل حملة شعواء على الزهاد الذين يمتنعون عن الزواج ونظرائهم الذين يمضون الليل والنهار في العبادة والنسك وقد نحلت أجسامهم وشحبت ألوانهم ودقت عظامهم، حتى إنهم لا

---

(١) النجوم ٥/ ٥٧.

(٢) النجوم ٥/ ٩٨.

(٣) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (طبع بغداد) ص١٢٤ وانظر تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير لبدري فهد ص٣٩٧.

(٤) أعلام النبوة للماوردي (طبع القاهرة) ص١٥٣ وراجع طبقات ابن سعد ج٣ق١ ص٢٨٧ وج٤ق٢ ص٩.

(٥) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة (طبع دار الكتب المصرية) ٤/ ١٨ وروض الرياحين لليافعي (طبع القاهرة) ص٣٨.

يستطيعون الصلاة واقفين، بل يصلون من قعود. ويقول إن هذا كله مخالف للشريعة والسنة[1].

وكان طبيعياً أن يتحول كثير من الزهاد إلى متصوفة، لا يكتفون بالإعراض عن ملاذ الدنيا وطيباتها قانعين من الطعام بالكسرة ومن الثياب بالخرقة، لا يشغلهم مال ولا زوجات ولا أولاد. وقد أخذت تبنى لهم الرباطات والخانقاهات في العالم الإسلامي، تبنيها الدولة أحياناً، ويبنيها ذوو اليسار ابتغاء وجه الله أحياناً أخرى، وكان ما بها من طعام يأتي عن طريق الصدقات أو عن طريق ما يحبس عليها من الأوقاف، ولم يكن يسمح بالأكل من هذا الطعام إلا للعابد الناسك نسكاً لا يستطيع معه كسب قوته أو إلا إذا أصبح من الشيخوخة بحيث تقعده عن العمل، وبذلك لم يكن يؤذن لعاطل بالأكل من هذا الطعم. وكان في الأربطة والخانقاهات مجاميع من الشيوخ والشباب أصحاب الخلوة. وعادة كان لكل رباط شيخ كبير يصبح كل من فيه من أتباعه. والمحور الأساسي للتصوف هو محبة الله محبى يفنى فيها الصوفي المحب في الحقيقة المطلقة حقيقة الكائن الإلهي، وقد أخذ يتداخل غلو كثر في هذه العقيدة. ومر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أنه بلغ من غلو الحلاج في هذه العقيدة أن جرى على لسانه كلمات وأشعار كثيرة تصرح بفكرة الحلول من مثل قوله: " أنا الله وأن الحق " مما جعل الفقهاء يفتون بزندقته وقتله. غير أن هذا الغلو لم يمت بموت الجلاج، بل لقد رافقه غلو آخر عند بعض الصوفية لعله أكثر عنتاً إذ ذهب فريق منهم إلى أنه ينبغي أن يظهروا للناس أنهم لا يعملون بشرائع الإسلام وإن كانوا يعملون بها فعلاً، وهم المسمون بالملامتية أي المستحقين للوم، مبتغين من ذلك أن يكونوا محل احتقار وازدراء حتى يبلغوا مرتبة عليا من التصوف والانصراف عن الدني. وكثير من الصوفية أخذوا يعلنون أنه لا عبرة بأداء الفرائض الدينية أو كما يسمونها عمل الجوارح، إنما العبرة بعمل القلب. وكل هذا انحراف بالتصوف عن منهجه الصحيح.

وكان ذلك سبباً في أن تنشأ حرب عاصفة منذ أوائل هذا العصر بين الفقهاء من جانب والمتصوفة من جانب آخر، فكان الفقهاء يرونهم خارجين على الإسلام بما يشيعون من

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (طبع القاهرة) ص١٣٨.

أفكار الحلول وما يتصل بها وبما يأخذ بعضهم به أنفسهم من القعود عن أداء فرائض الإسلام، قاطعين بذلك كل سبب بينهم وبين دينهم الحنيف. وتفاقمت الحرب بين الطرفين بحيث أصبحت هناك ضرورة أن يوجد بعض المتصوفة المصلحين الذين يعيدون الأمر إلى نصابه، حتى لا يخرج التصوف عن حدود الشريعة. وسرعان ما ظهر أبو نصر السراج الصوفي الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ وألف كتابه " اللمع " وفيه ينكر على الصوفية كل انحراف فلسفي وشطح صوفي يؤدي إلى نظرية الحلول، كما ينكر تعطيل الفرائض الدينية ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من التصوف، فبدونها لا يتحقق له وجود. وحمل أفكاره تلميذه أبو عبد الرحمن السُّلمِيّ صاحب طبقات الصوفية، ولقَّنها بدوره تلميذه عبد الكريم القُشَيْري المتوفي سنة ٤٦٥ وقد ألف رسالة طويلة مشهورة رَأَبَ بها هذا الصدع الذي حدث بين الفقهاء والمتصوفة. ودوَّت الرسالة منذ عصره في العالم الإسلامي، وهو فيها يرسم مبادئ التصوف مبيناً أنها لا تناقض الدين الحنيف بل تتحد معه في وئام، ويعرض أعلام الصوفية مع طائفة من أقوالهم التي تربط بين التصوف والنهوض بفرائض الإسلام مع حملة شعواء على من يتخفون بالصوم والصلاة وأداء الفروض الدينية وعلى من لا يميِّزون بين الحلال والحرام مدَّعين أنه زالت عنهم أحكام الدين. وخلفه أبو حامد الغزالي حجة الإسلام المتوفي سنة ٥٠٥ فوصل بين التصوف والشريعة وصلاً وثيقاً لم يصبه وَهنٌ بعده، بحيث أصبح التصوف في صورته العامة سُنِّياًّ، وحقاً انفصلت عنه بعض أسراب فلسفية استمرت فيها فكرة الحلول، ولكنها أسراب فردية على نحو ما هو معروف عن ابن عربي وابن سبعين الأندلسيين. أما بعد ذلك فقد عم التصوف السني على نحو ما رسمه الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" وهو في النصف الأول منه يتحدث عن الفرائض الدينية والنوافل من مثل الذكر وتلاوة القرآن والتهجد والأدعية. ويبدأ الحديث في النصف الثاني بما ينبغي من صفاء القلب صفاء تقهر فيه النفس شهواتها وملاذها. ثم يتحدث عن صفات الكمال الروحي الذي يتطلبه الصوفي وما ينبغي له من التوبة والصبر ولاشكر والخوف والرجاء والزهد والتوكل والحب والإخلاص والمحاسبة والتفكر وتذكر الموت وما وراءه. وسنعود إلى الكتابة عن الغزالي والقشيري وأبي نصر السراج

الطوسي في القسم الخاص بإيران. وسرعان ما أصبح هذا التصوف السني القائم على أعمال الجوارح من الفرائض الدينية وأعمال القلب من الإخلاص وصدق المحبة الإلهية مطلب كثرة من الناس في العالم الإسلامي جميعه. والغزالي لا يضع أصوله فحسب، بل يُعِدّ العدة لكي تشيع الطرق الصوفية فيه، فقد تحدث في الجزء الثالث من الإحياء عن الشيخ الصوفي وتلميذه أو مريده، وقال إنه ينبغي أن يلزم شيخه لزوم الأعمى الماشي على شاطئ النهر لمن يقوده، ويقول: على الشيخ أني دفعه إلى خلوة والصمت والصوم والأرق مع دوام الذكر ومع التخلص من كل الشهوات. وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية في الظهور، ومن أقدمها الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ محي الدين أبي محمد عبد القادر (١) الجيلاني مولداً الحسيني نسباً المتوفي سنة ٥٦١ وقد ولد بجيلان سنة ٤٧١ وجاء إلى بغداد في شبابه ولزم حلقات الفقهاء والمحدِّثين، ثم أخذ يعظ الناس بعد سنة ٥٢٠ وبُنيت له مدرسة فلزمها وتكاثر الناس على سماع وعظه إلى أن لَّبى نداء ربه، ويقول عنه ابن تَغْرى بَرْدى: "كان مما جمع بين العلم والعمل أفتى ودرَّس ووعظ سنين، وكان محققاً صاحب لسان في التحقيق وبيان في الطريق، وهو أحد المشايخ الذين طنَّ ذكرهم في الشرق والغرب". وله كتابان مطبوعان يصوران طريقته هما سر الأسرار والغُنْية لطالبي طريق الحق، وهو فيهما يدعو إلى التمسك بالشريعة الإسلامية وأداء الفرائض الدينية مع الخلوص للمحبة الإلهية. وقد وُضعت في مناقبه كتب كثيرة، منها كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الرباني سيدي محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني، وهو مطبوع بالقاهرة.

ومن الطرق الصوفية العراقية التي ذاعت في العالم الإسلامي الطريقة الرفاعية المنسوبة إلى الشيخ الصالح العربي الأصل لأبي العباس أحمد (٢) بن أبي الحسن علي المعروف بالرفاعي" إمام وقته في الزهد والصلاح والعبادة" وقد شاعت طريقته في عصره وكثر

---

(١) انظر في الجيلاني الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٧١ وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي (طبع لاهور) ٥/ ٣٨١.

(٢) راجع في الرفاعي مرآة الزمان ٨/ ٣٧٠والشذرات ٤/ ٢٥٩ والنجوم الزاهرة ٦/ ٩٢ وطبقات السبكي (طبعة عيسى البابي الحلي) ٦/ ٢٣: وابن خلكان ١/ ١٧١ وطبقات الشعراني ١/ ١٤٠.

أتباعه. ويُقال إن شخصاً زاره في ليلة النصف من شعبان، فوجد عنده نحو مائة ألف إنسان "وكان متواضعاً مجّرداً من الدنيا". وكان مولده سنة ٥٠٠ ووفاته سنة ٥٧٨. ومن قوله: "سلكت كل طريق، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله والاقتداء بسنَّة سيدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)". وله كتاب سماه "حالة أهل الحقيقة مع الله" حققه وقدم له محمد نجيب خياطة، وهو مطبوع بحلب، وقد بناه الرفاعي على أحاديث نبوية، وكثير منها يتصل بالمحبة الربانية ومعرفة الله ووَصْف المتصوفة أهل الحقيقة، وقد سئل أحد أتباعه عن وِرْدِه، فقال: كان يصلي أربع ركعات بألف (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) ويستغفر كل يوم ألف مرة، واستغفاره أن يقول: (لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) عملت سوءاً وظلمت نفسي وأسرفت في أمري، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي، وتُبْ عليَّ، إنك أنت التواب الرحيم، يا حيّ، يا قيوم، لا إله إلا أنت"- ويقول ابن خلكان: لأتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حية والنزول في التنانير وهي تتضرَّم ناراً فيطفئونها، ومثل هذا وأشباهه.

وبجانب هاتين الطريقتين العراقيتين: الرفاعية والقادرية كان هناك أقطاب للصوفية كثيرون من أمثال المرتضى الشهرزوري، وشهاب الدين أبو حفص (١) عمر السُّهْرَوَرْدي البغدادي، وهو تلميذ عبد القادر الجيلاني، وله كتاب يسمى عوارف المعارف يوضح فيه ما يجب على المتصوف من أداء الفرائض الدينية ومتابعة السنة النبوية، ومن أطراف ما فيه الحديث عن المريد وشيخه وأنه ينزل منه منزلة الولد من أبيه. ويتحدث عن المدة التي يقطعها المريد حتى يتهيأ لانتظامه في طريقة شيخه ويصبح مُعَدًّا أو مهيَّأ لأن يخلع عليه "الخِرْقة" شعار الصوفية وهي ترمز رمزين: رمزاً إلى أن المريد تلاشت إرادته في إرادة شيخة، ورمزاً ثانياً إلى أنه قد تسلم منه الخرقة ويد الله ورسوله فوق يد شيخه وأنه قد تم له الإذن بانتظامه في الطريقة. ويقول السهروردي إن "المريد الصادق إذا دخل تحت حكم

---

(١) انظر في ترجمته ابن خلكان ٣/ ٤٤٦ وعبر الذهبي ٥/ ١٢٩ وطبقات الشافعية ٨/ ٣٣٨ ومرآة الزمان ٨/ ٦٧٩ والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٤.

الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج، وكلام الشيخ يلقح باطن المريد... وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال"[١]. ويتحدث السهرودى عن آداب الخلوة اللازمة للمتصوف، ويقول إن الخلوة تستغرق أربعين يوماً من كل عام، تُقْضَى في الصلاة والصيام، ويذكر أن الغرض منها تصفية النفس وإزالة الحجب البدنية، ولذلك ينبغي على المريد إذا أراد الخلوة أن يجرد نفسه من العالم ومن كل ملكه، ويصلي ركعتين ويتوب إلى الله توبة نصوحاً، ويبكي ويتضرع إليه ولا ينقطع عن ذكره طوال خلوته[٢]. وكان على المريد أن ينشر طريقة شيخه في المدن والقرى بكل ما يستطيع، وبذلك أمكن للطريقتين القادرية والرفاعية أن ينتشرا لا في العراق فحسب بل أيضاً في كل العال الإسلامي.

ومنذ القرن الخامس الهجري أخذ يشيع في التصوف وبين المتصوفة ما سُمِّي بالذكر، وهو أن يتقابل الصوفية في صفين ذاكرين الله مع التمايل يميناً وشمالاً، ويقوم بين الصفين منشد ينشد بعض الأشعار الصوفية أو الغزلية الوجدانية التي تدلع المحبة الإلهية في القلوب، وقد عَمَّ هذا الذكر عند القادرية والرفاعية وما نشأ بعهما من طرق صوفية. ولابُدَّ أن نلاحظ أنه أخذت تنشأ في الحقب المتأخرة من هذا العصر أو قل منذ أواسطه جماعات الدراويش، وهم صوفيون متجوِّلون كانوا يطوفون العالم الإسلامي، وأخذت تظهر بينهم في القرن الهجري وما بعده فرقتان اشتهرتا، هما النَّقْشَبْنْدية، وقد رعاها تيمورلنك في دولته، والبكطائية، وقد نشأت في جو الشيعة الإمامية، بدلالة تقديسها للأئمة العلويين، وهي تعتنق إلى حد ما نظرية الحلول، ويقال إن بعض معتنقيها لم يكونوا يهتمون بالشعائر الدينية، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت طريقة صوفية تقوم على التقشف، واشتهر عنها تقديس الأولياء.

---

(١) انظر كتابه عوارف المعارف (طبع دار الكتاب العربي ببيروت) ص٩٦، وينسب الكتاب خطأً إلى عمه عبد القاهر بن عبد الله السهروردي.

(٢) عوارف المعارف ص٢٢١.

وفـرق صـوفية كثـيرة أو قـل طـرق صـوفية كثـيرة أخـذت تتفـرع عـن الرفاعيـة والقادريـة بجانب طـرق جديـدة نـشأت بـدورها، وكـان لهـذه الطـرق وأتباعهـا مـن الـدراويش الـسائحين أو الجوالين أثر بعيـد في نـشر الإسـلام بـشرقي إفريقيـا وغربيهـا ووسـطها، وأيـضاً بالهنـد والملايـو وجـزر الهنـد الـشرقية، وكـان لهـم دور عظـيم في أن تظـل للعـالم الإسـلامي وحدتـه عـلى الـرغم مـن توزعـه بـين دول شـتى، وكـذلك كـان لهـم دور عظـيم في بـث الـروح الدينيـة في نفـوس العامة على مر الحقب حتى اليوم.

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظلت الحركة العلمية ناشطة وبخاصة في أوائل العصر وقبل الغزو التتاري، فكانت هناك الكتاتيب للصِّبْية يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من القرآن الكريم والشعر والحساب، وكان الصبي لا يبلغ التاسعة إلا وقد حفظ القرآن واستظهر بعض مقامات بديع الزمان الهمذاني، وحلت محلها منذ أوائل القرن الخامس مقامات الحريري. وكان يستظهر أيضاً بعض قصائد الشعراء المشهورين وخاصة أبا تمام والبحتري والمتنبي. وكان الناشئة يتحولون من الكتاتيب إلى المساجد، حيث حلقات العلماء من القراء والمفسرين والمحدِّثين والفقهاء والمتكلمين واللغويين والنحويين والمؤرخين ومَنْ يشدون بعض علوم الأوائل، فكانت المساجد في بغداد تحل محل التعليم الثانوي والجامعات في عصرنا، وبالمثل في البصرة والموصل وغيرهما من بلدان العراق. وكان الأستاذ عادة يستند في المسجد إلى أسطوانة، ويقعد الطلاب من حوله، وقد يجلس على مقعد عالٍ والطلاب يستديرون حوله. وكان يملي على الطلاب محاضراته، وهم يكتبون، وإذا تكاثروا اتخذ مستملياً يردِّد كلامه حتى تسمعه الصفوف الخلفية. وكان المؤلف أو المحاضر يعيد أحياناً ما ألَّفه على طلابه، وهم يعارضون نسخهم على قراءته. وقد يعنُّ له أن يدخل في القراءة الثانية شيئاً من التصحيح أو التهذيب على ما صنَّفه، فكان الطلاب يدخلونه على نسخهم، ومن خير ما يصور ذلك ما يُرْوَى عن عالم لغوي يسمى أبا عمر المطِّرز من أنه أملى كتابه الياقوت في اللغة على الطلاب بمسجد المنصور ببغداد سنة ٣٢٦ ثم عاد فقرأه على طلابه مضيفاً بعض التصحيحات والزيادات. وعاد مرة ثانية، فأدخل عليه زيادات وتصحيحات جديدة،

واعتمد العرضة الأخيرة للكتاب سنة ٣٣١- وبها نشرة تلاميذه(١). وكان جامع المنصور ببغداد يشبه كبيرة، وكان كل أستاذ نابغ يتمنى أن تكون له فيه حلقة، ويصوَّر ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى عن الخطيب البغدادي حافظ بغداد- المتوفي سنة ٤٦٣- من أنه حين حجَّ شرب من ماء زمزم ثلاث مرات، وسأل الله ثلاث حاجات: الأولى أن يحدِّث بكتابه "تاريخ بغداد" والثانية أن يُملى على الطلاب بجامع المنصور، والثالثة أن يُدْفَن إذا مات عند قبر بشر الحافي. وتحققت له الأمنيات الثلاث(٢). وكان الأساتذة والشيوخ في المساجد أحياناً لا يُمْلون مؤلفات لهم، بل يشرحون بعض كتب مشهورة للطلاب وقد يعمدون إلى إملاء شروح لهم على بعض المختصرات. واتسع ذلك منذ القرن السابع الهجري بحيث نستطيع أن نسمي القرون التالية في العصر قرون الشروح، وقد تُشْرح الشروح بما يسمى حاشية، وقد توضع على الحواشي ملاحظات تسمَّى تقارير.

وأخذت تظهر أواخر القرن الرابع الهجري بجانب المساجد دور للعلم، عادة يكون فيها مقاعد للطلاب، وقد يحاضرهم العلماء، وتُلْحَقُ بها مكتبات ضخمة على نحو ما يحدثنا المؤرخون عن دار للعلم، أسسها الوزير سابوربن أردشير في سنة ٣٨٣ للهجرة بالكرخ غربي بغداد، ووقفها على العلماء واشترى لها ك تباً كثيرة، بلت عشرة آلاف وأربعمائة مجلد كان معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الموثَّقة التي كان يملكها علماء وثقات مشهورون، وكان بها مائة مصحف نفيس(٣). وأسس الشريف الرضي الشاعر المشهور نقيب العلويين المتوفي ببغداد سنة ٤٠٦ داراً للعلم فتحها للطلاب ورصد لهم جميع ما يحتاجون إليه(٤).

---

(١) الفهرست لاين النديم (طبع القاهرة) ص١١٩. وراجع إنباه الرواة ٣/ ١٧٥.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي (الطبعة الثانية بتحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي) ٤/ ٥٣.

(٣) المنتظم وابن الأثير والنجوم الزاهرة في حوادث سنة ٣٨٣ وأشار أبو العلاء إلى هذه الدار في قصيدة مشهورة له وانظر شروح سقط الزند ص١٢٣٩.

(٤) ديوان الشريف الرضي طبعة سنة ١٣٠٧ ببيروت ص٣.

وحين خلفت الدولة السلجوقية دولة بني بويه وأصبح الوزير نظام الملك مدبِّر لحكم في زمن ألْب أرْسلان السلجوقي عُني ببناء طائفة من المدارس في بلدان مختلفة في العراق وإيران، لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر مذهب الشافعي في الفقه ومذهب الأشعري في علم الكلام، وكان منها ثلاث بناها في بغداد والموصل والبصرة [1] وقف عليها أوقافاً كثيرة، وبنى فيها للأساتذة مساكن، وجعل لهم رواتب ثابتة، كما جعل لطلابها نفقات معيشة، وألحق بها مكتبات نفيسة. وكان في هذه المدارس أساتذة مختلفون يحاضرون- بجانب أساتذة علم الكلام والفقه- في علوم الحديث والتفسير واللغة والرياضيات والأدب. وأخذ الوزراء بعد نظام الملك يبنون مدارس على غرار مدرسته النظامية ببغداد، فبنى أبو الغنائم الملقب بتاج الملك سنة ٤٨٠ بباب أبْرز إحدى محالِّ بغداد وأحيائها مدرسة سميت التاجية ضاهي بها النظامية [2]، وأخذ بعض الموسرين يعنون ببناء المدارس ببغداد، فابتنى المستوفى الخوارزمي- وكان متعصباً لأبي حنيفة- المدرسة الكبيرة بباب الطاق [3] وأخذت المدارس تتكاثر في بغداد حتى إذا زارها ابن جبير سنة ٥٨٠ قال إن ببغداد ثلاثين مدرسة، وكلها بالجانب الشرقي" وما منها مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي أبتناها نظام الملك وقد جُدِّدت سنة أربع وخمسمائة، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة محبوسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها، ويُجْرون منها على الطلبة ما يقوم بهم. ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلَّد، فرحم الله واضعها الأول، ورحم مَنْ تبع ذلك السَّنن الصالح [4] "

وكانت المدرسة النظامية أشبه بجامعة كبيرة، ويتوقف ابن خلكان في وفيات الأعيان وكذلك المؤرخون مراراً، ليقولوا إن هذا الشيخ أو ذاك دّرَّس في النظامية الأخيرة في الموصل تسع مدارس، هي: القاهرية والأتابكية والعتيقة والنورية والعِزِّية والبَقْشية

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٣١٣.

(٢) النجو الزاهرة ٥/ ١٢٥.

(٣) النجوم الزاهرة ٥/ ١٦٧.

(٤) رحلة ابن جبير ص٢٢٩.

والعلائية والكمالية والبدرية (١). وبُنيت مدارس كثيرة في المدن العراقية الأخرى، ذكر ابن خلكان منها في إربل ثلاثاً هي المظفرية والقلعة والعقيلية (٢). وبنى الخليفة المستنصر ببغداد جامعة كبيرة أو قل مدرسة كبيرة، هي المستنصرية، وقد كتب فيها الأستاذ ناجي معروف كتاباً، عرض فيه أساتذتها ونشاطها العلمي وهو يعطينا معارف كثيرة عنها حين فتحت أبوابها للطلاب، وقد كان بها للفقه وحده عشرون فقيهاً، يتقاضى كل منهم اثنى عشر ديناراً في كل شهر، وكان بها للفقهاء ستة معيدين لكل منهم ثلاثة دنانير شهرياً. وكان هناك فروع أخرى للقراءات والحديث لها شيوخها ومعيدوها، وكان بها مئات من الطلاب لكل منهم ديناران شهرياً. وكان لها موظفون مختلفون من مشرفين وخزَنة وفراشين من كل لون. وكانت تقدَّم للشيوخ والطلاب يومياً جرايات أو قل كان يقدم لهم طعام كامل غير ما يقدم للطلاب من الحبر والورق والأقلام (٣). وعاد إلى هذه المدرسة، أو قل الجامعة، نشاطها بعد الغزو التتاري، وقد وصفها ابن بطوطة لما زارها سنة ٧٢٧ بقوله: "بها المذاهب الأربعة- يقصد مذاهب المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية- ولكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البطس، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار، لابساً ثياب السواد، معتمًّا، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه. وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة، وفي داخل هذه المدرسة الحمَّام للطلبة ودار الوضوء (٤).

ويبدو أن ما شاع من أن الحركة العلمية في بغداد خمدت خموداً تاماً بعد الغزو التتاري غير صحيح، يمكن أن يَصْدُقَ ذلك على العهد التتاري الوثني أما منذ دخول غازان والتتار في الإسلام فيبدو أن بغداد استعادت نشاطها العلمي، وإن لم يبلغ مبلغه أيام ازدهارها في

---

(١) انظر ابن خلكان ١/ ١٠٨، ١٩٣، ٤/ ٤، ٢٥٣، ٥/ ٣١١، ٣١٣.

(٢) ابن خلكان ١/ ١٠٨، ٧/ ٨٧، ٣٣٨.

(٣) انظر تاريخ علماء المستنصرية لناجي معروف ١/ ٥٧، ٧١-٨٢ وفي مواضع متفرقة.

(٤) ابن بطوطة ١/ ١٤١.

العصر العباسي والمعروف أن هولاكو دمَّر كثيراً من مدارسها وقد أعيد بناء بعض هذه المدارس، وعُنى غازان- كما أشرنا- وخلفاؤه الإيلخانيون بها.

ولاشك في أنه ران على الحركة العلمية غير قليل من الظلام في العهدين التركماني والعثماني، غير أن النشاط أخذ يدب فيها أواخر الحقبة العثمانية منذ ولى العراق مدحت باشا فإنه أسس بها مطبعة كان لها أثر بعيد في نهضة العراق وأسس بها أيضاً مدارس نظرية وفنية.

ولابد أن نلاحظ أن مساجد بغداد الكبرى ظل لها نشاطها العلمي بعد الغزو التتاري، وكان من أهمها لعهد ابن بطوطة جامع الخليفة المتصل بقصور الخلفاء، ويقول إنه سمع فيه على مُسنِد العراق- سراج الدين أبي حفص عمر القزويني- جميع مسند الدرامي [1] وكانت الدراسة في مساجد بغداد ومدارسها بالمجان، بل كان الطلاب في المدارس خاصة يأخذون رواتب كما مر بنا. وربما كانت المساجد أهم من المدارس في نشر العلم، فقد كانت أبوابها مفتوحة دائماً لكل قاصد، وكان الناس من مختلف املهن والصناعات والحرف يختلفون إلى حلقات الشيوخ فيها ينهلون ما شاء لهم أن ينهلوا، مما جعل العلم بحق شعبياً لجميع أفراد الشعب، يصيبون منه ما يوافق أمزجتهم وميولهم. وكثيراً ما كان يحدث أن يشعر صاحب مهنة أو تجارة بقصوره في علم من العلو، فإذا هو يترك منته أو تجارته ويتفرغ للعلم الذي يريده حتى يصبح من أقطابه، وتلقانا من ذلك أخبار كثيرة في ابن خلكان وغيره.

وعلى هذا النحو لم يكن العلم في بغداد احتكاراً لطبقة بعينها، بل كان مباحاً لجميع الناس، ويخيَّل إلى الإنسان كأنما كان كل أهل بغداد على حظ من العلم والثقافة قليل أو كثير، ومن خير ما يصور ذلك قصة المزين الثرثار الطريفة في كتاب ألف ليلة وليلة، فقد ذُكر فيها أنه قال لشاب بغدادي في تضاعيف حديث وجَّهه إليه: "قدمَنَّ الله عليك بمزين منجم عالم بصناعة الكيمياء والسيمياء والنحو والصرف واللغة وعلم المعاني والبيان وعلم المنطق والحساب والهيئة والهندسة والفقه والحديث والتفسير.. وقد قرأت الكتب ودرستها

---

(١) ابن بطوطة ١/ ١٤٢.

ومارست الأمور وعرفتها، وحفظت العلوم وأتقنتها، وعلمت الصنعة (الكيمياء) وأحكمتها، ودبَّرت جميع الأشياء وركبتها". ولم تكن العامة من الرجال فقط هي التي تحسن هذه الثقافة وحدها، فقد كانت تحسنها أيضاً الجواري على نحو ما تصور ذلك قصة الجارية تودد في ألف ليلة وليلة وفيها تُناظر جلَّة العلماء في مختلف العلوم والفنون وتُظْهر براعة فائقة في ليال كثيرة ما تزال فيها تحاور محاورات علمية بديعة. وكانت النساء تحضر مع الرجال مجالس العلماء، وتحمل عنهم كثيراً من كتب الحديث، وعنهن يحملها كثير من الحفاظ المشهورين، على نحو ما هو معروف عن الخطيب البغدادي وحمله أو أخذه صحيح البخاري عن كريمة المروزية [١].

وطبيعي أن تنشط الوراقة في هذا العصر الذي كان مكتظاً بالعلوم والفنون من كل صنف وعلى كل لون، وقد بلغ من ازدهار نَسْخ الكتب والأجور التي كانت تدفع للناسخ أن وجدنا بعض كبار العلماء والأدباء يتخذه وسيلة لعيشه هو وأسرته، مثل يحيى بن عدي المتفلسف المتوفي سنة ٣٦٤ ويروي عنه أنه كتب بتخطه نسختين من تفسير الطبري [٢]، ومثل أبي حيان التوحيدي أكبر أدباء عصره، فقد اشتهر بنسخ الكتب ودقته في هذا النسخ، مما جعل الصاحب بن عباد يستخدمه لنفس الغاية [٣]. وكان للوراقين سوق معروفة في بغداد تباع فيها الكتب، وكانوا يقومون في هذا العصر مقام أصحاب المطابع في عصرنا، إذ كانوا ينسخون الكتب أو يكلفون من ينسخها ويصححها ويجلدها، وكانت من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها والوقوف عليها في كل فن. ومع ذلك فقد اضطلع ابن النديم المتوفي سنة ٣٨٥ بهذا العمل الخطير في كتابه "الفهرست" وقد وزع فيه الكتب على جميع أنواع العلوم والفنون مترجماً لأصحابها، ولم يترك كتاباً إلى ذكره، وأفرد لكتب الفرس والهند واليونان صحفاً كثيراً. والكتبا طرفة من أروع الطرف، وهو يموج بآلاف الكتب، مما يدل بقوة على النهضة العلمية في هذا العصر.

---

(١) السبكي ٤/ ٣٠.

(٢) تاريخ الحكماء للقفطي (طبعة ليزج) ص٣٦١.

(٣) معجم الأدباء ١٥/ ٢٦.

وكان من آثار هذه النهضة أن كثُر عدد العلماء في كل علم وفن كثرة مفرطة، أهّلت فيما بعد لتأليف كتب في تراجم كل مجموعة على حدة، فكتب للفقهاء وكتب للمفسرين وكتب للقراء وكتب لنلحاة وكتب للأطباء إلى غير ذلك من الأصناف. ووُضعت كتب عامة مثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان لابن خلكان. ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن شخص في بغداد- مددا متطاولة من هذا العصر الذي امتدّ قرونا متعاقبة- إلا وهو يلمٌّ يعلم أو بطائفة من العلوم. وكان هناك كثيرون يشبهون الصحفيين في عصرنا، فهم يستطيعون أن يتحدثوا في كل موضوع ويناقشوا كل فركة، وهيأ ذلك لندوات كثيرة كانت تُعْقَدُ أحياناً في قصور السلاطين والوزراء وِعْية القوم، وكثيراً ما دارت في هذه الندوات مناظرات خصبة، على نحو ما نسمع عن مجلس عز الدولة بخْتيار وما أثير فيه من مناظرات في مسائل كلامية أو تتصل ببعض قراءات الذكر الحكيم (١). ولعل مجلساً لم تحتدم فيه المناظرات كما احتدمت في مجلس الوزير ابن سعدان المتوفي سنة ٣٧٥ وقد قصّ علينا منها أطرافاً كثيرة أبو حيان في كتابه "الإمتاع والمؤانسة" وكان هذا المجلس يضم بعض الشعراء وبعض المتفلسفة وبعض المترجمين وبعض المهندسين وبعض الأخلاقيين وبعض إخوان الصفا وبعض الكتاب والأدباء. كان مجلساً حافلاً، وكانت تُعْرَضُ فيه كل جوانب الثقافة من لغة وشعر وإلهيات وأفكار فلسفية وخلقية، ويتحاور هؤلاء المفكرون في كل ذلك محاورات بديعة. وكانت تثار مناظرات كثيرة في المساجد بين الفقهاء بعضهم وبعض، وكذلك بين المتكلمين واللغويين. وبلغ من اتساع المناظرات حينئذ أنهم نقلوها أحياناً إلى الأسواق، فأبو حيان يعرض مناظرة طويلة ثارت في سوق الوراقين بين طائفة من المفكرين المتفلسفين وبين أحد إخوان الصفا المسمى المقدسي، وكان موضوعها ما يزعمه المقدسي وزملاؤه من الصلة بين الفلسفة والدين (٢). ومن الندوات المشهورة في القرن الرابع ندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني صاحب صِوان الحكم المتوفي بعد سنة تسعين وثلاثمائة وهو من تلاذة الفارابي وامتاز بعقل خصب نادر، وقد سجل أبو حيان في كتابه "المقابسان" كثيراً مما كان يدور في

---

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي (طبع دمشق) ص١٣٩.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٣ وما بعدها.

ندوته من شعب الفكر في الإلهيات والطبيعيات والنفس والروح والأخلاق. ونذهل حين نقرأ الحوار في المسائل الكثيرة التي كانت تدار في هذه الندوة وكذلك في ندوة ابن سعدان، وكأننا بإزاء مصانع مستحدثة كانت تَصْنع الأفكار المتفلسفة صناعة غريبة عجيبة، مما أتاح بحق لبغداد أن تعظم منزلتها العلمية وأ، يحج إليها العلماء وخاصة أوائل هذا العصر، يريدون أن يتزودوا منها زادا علمياً رفيعا.

٢

علوم الأوائل: تفلسف ومشاركة

رأينا في كتاب العصر العباسي الثاني كيف ازدهرت الترجمة خاصة عن اليونانية، وكيف تحوَّل المترجمون من الترجمة الحرفية إلى ترجمة المعنى الكلي للفقر ترجمة أكثر دقة، وكادوا لا يتركون كتاباً يونانياً مهما في أصله اليوناني أو في ترجمته السريانية إلا نقلوه إلى العربية، وكانت الدولة حينئذ تغدق على المترجمين إغداقاً واسعاً، ومَنْ يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم أو أخبار الحكماء للقفطي أو طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة يبهره كثرة ما نقلوه من المأثورات الإغريقية في الفلسفة والعلوم. ومنذ العصر العباسي الأول لا يكتفي النقلة بما يترجمون، بل يضيفون إليه، وكذلك يضيف إليه معهم من استوعبوا من الناطقين بالضاد علوم الأوائل إضافات لا تكاد تحصى في كل فروع الفلسفة والعلم على هدى ما قرءوه وجَرَّبوه بأنفسهم ونفذوا إليه بفطنهم. وقد افتتح العصر العباسي الثاني بعالم رياضي عظيم هو الخوارزمي مؤسس علم الجبر وبفيلسوف عربي هو الكندي. ومضت الترجمة في النشاط والازدهار، ومضت معها الحركة العلمية والفلسفية تؤتي ثمارها حتى ظهر الفارابي الفيلسوف الكبير الملقب بالمعلم الثاني.

وتبلغ الحركة الفلسفية والعلمية أَوْجَها في القرن الأول من هذا العصر قرن ابن سينا والبيروني في إيران وابن الهيثم في العراق، وقد ظلت الترجمة حية ناشطة فيه، وانصبَّ عمل المترجمين حينئذ على تصحيح بعض الترجمات القديمة ومن أهمهم يحيى[1] بن عدي النضراني اليعقوبي المتوفي سنة ٣٦٤ وهو من تكريت على نهر دجلة، تتلمذ على الفارابي ومتَّى بن يونس، ويقول القفطي: "إليه انتهت رياسة أهل المنطق في زمانه" ويذكر له كتباً

(١) انظره في صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي السجستاني (طبع طهران) ص٣٢٧ والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (طبع القاهرة) ١/ ٣٧ والفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية بالقاهرة) ص٣٨٣ وأخبار الحكماء للقفطي (طبعة ليبزج) ص٣٦١ وطبقات الأطباء لابن أبي أصبيعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص٣١٧ والعلم عند العرب لألدوميلي (الترجمة العربية طبع القاهرة) ص١٨٣ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٤/ ١٢٠.

عـدة ترجمهـا لأرسـطاليس وشراحـة اليونـانيين، ويقـول أبـو حيـان التوحيـدي "تخـرج عليـه كثـير مـن المترجمـين والمتفلـسفة" مثـل عيـسى [١] بـن عـلي بـن عيـسى المتـوفي سـنة ٣٩١ وكـان حاذقـاً في التجرمـة قـيماً بعلـم الأوائـل، ويقـول القفطـي: رأيـت نـسخته مـن الـسماع الطبيعـي التـي قرأهـا عـلى يحيـى بـن عـدي بـشرح يحيـى النحـوي وهـي في غايـة الجـودة والحـسن والتحقيـق". ومـن تلامـذة يحيـى بـن عـدي عيـسى [٢] بـن زُرْعـة، وكـان نـصرانياً يعقوبيـاً مثلـه تـوفي سـنة ٣٩٨ يقـول القفطـي عنـه: "أحـد المتقـدمين في علـم المنطـق والفلـسفة وأحـد النقلـة المجِّودين" ويـشيد بـه أبـو سـليمان المنطقـي السجـستاني وبنـوه بـما ينقلـه إلى العربيـة تنويهـاً كبـيراً ومن تلامذة يحيى بن عدي أيـضاً أبـو الخـير الحـسن [٣] بـن سُـوار النـصراني المعـروف بـابن الخَّـمار البغـدادي وقـد نقـل عـدة مؤلفـات يونانيـة مـن الـسريانية إلى العربيـة، وكـان متفلـسفاً وطبيبـاً ومن علـماء الطبيعـة، وكـان فـصيحاً متمكنـاً في العربيـة، وهنـاك مترجمـون مختلفـون سـوى يحيـى بن عدى وتلاميذه، منهم مـن شـطَّت بـه الـدار في إيـران، ومـنهم مـن نـزل بغـداد مثـل نظيـف [٤] الرومي الشيرازي القَسّ، وله ترجمة المقالة العاشرة لأقليدس، وكان طبيباً حاذقاً.

ويخيـل إلى الإنـسان أنـه لم تـق في العـراق وإيـران مدينـة إلا اهتمـت بالفلـسفة وعلـوم الأوائـل، يـدل عـلى ذلـك أكـبر الدلالـة ظهـور إخـوان الـصفا في البـصرة أوائـلَ هـذا العـصر، وهـي جماعـة سريـة متفلـسفة، دانـت بالمـذهب الإسـماعيلي الـشيعي ورأت أن تـدعو لـه دعـوة مـستترة في رسـائل فلـسفية وعلميـة، وهـي عـصابة- كـما وصـفها أبـو حيـان- تآلفـت بالعـشرة وتـصافت بالـصداقة، واجتمعـت عـلى القُـدْس والطهـارة والنـصيحة، فوضـعوا بيـنهم مـذهباً

(١) راجعه في صوان الحكمة ص٣٣٢ والإمتاع والمؤانسة ١/ ٣٦ والقفطي ص٢٤٤.

(٢) انظره في صوان الحكمة ص٣٣٣ والإمتاع والمؤانسة ١/ ٣٣ والفهرست ص٣٨٣ والقفطـي ص٢٤٥ وابـن أبي أصـيبعة ص٣١٨ وبروكلمان ٤/ ١٢٢.

(٣) راجعه في صوان الحكمـة ص٣٣٥، ٣٥٣ والإمتـاع والمؤانـسة ١/ ٣٣ والفهرسـت ص٤٨٤ والقفطـي ص١٦٤ وابـن أصيبعة ص٤٢٨ وبروكلمان ٤/ ١٥٨.

(٤) انظره في صوان الحكمة ص٣٣٨ وفي الإمتاع والمؤانسة ١/ ٣٧ والمقايسات لأبي حيان التوحيدي (طبع بغـداد) ص٤٢٤ والفهرست ص٣٨٥ وابن أبي أصيبعة ص٣٢٢ ويقول إنه كان ينقل من اليونانيـة إلى العربيـة وراجـع القفطـي ص٣٣٧ وبروكلمان ٤/ ١٨٣.

زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جّنَّته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُنِّست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة: علميِّها وعمليِّها، وأفردوا لها فهرستا وسموها "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، وكتموا أسماءهم وبثوها في الوراقين [١] ". ويسمى أبو حيان طائفة من مؤلفي هذه الرسائل هم زيد بن رفاعة وأبو سليمان المقدسي وأبو الحسن علي بن هرون الريحاني وأبو أحمد المهرجاني والعوفي، ويشير إلى أنه شركهم آخرون غيرهم [٢]. ويبدو أن هؤلاء المتفلسفة الكثيرين كانوا يُعِدُّون مادة هذه الرسائل وأن أبا سليمان المقدسي هو الذي أخرجها وأعطاها صورتها النهائية، ولذلك ينسبها إليه معاصره أبو سليمان المنطقي السجستاني أكبر متفلسفة بغداد حينئذ، إذ يقول عنه: "له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة رسائل إخوان الصفا [٣]". والمظنون أنه أضيفت إليها فيما بعد رسالة، فأصبحت اثنتين وخمسين رسالة، منها ١٤ رسالة في الرياضيات والمنطق و١٧ في العلوم الطبيعية وعلم النفس و١٠ في الميتافيزيقا والإلهيات و ١١ في التصوف والتنجيم والسحر. وهي مغموسة في الأفلاطونية، وتشوبها نزعات أرسططاليسية وأفكار مانوية وإسماعيلية، وتهبط درجات عن مستوى الفلسفة والعلم العاصرين لها، ولعل ذلك ما جعل أبا حيان يقول عنها إنها نُتَفٌ من كل فن بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات، وقد عَزَّ الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها. ويقول إنه عرض منها عدة رسائل على شيخه أبي سليمان المنطقي السجستاني فنظر فيها أياماً، واختبرها طويلاً، وردَّها عليه قائلاً: "تعبوا وما أغنوا.. وحاموا وما وَردوا". ويردَ أبو سليمان على نظريتهم في وصل الدين أو الشريعة بالفلسفة رداً طويلاً سنلخصه في الفصل الخامس ومن قوله: إن الدين

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٥.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٤.

(٣) صوان الحكمة ص٣٦١.

وحي من السماء والفلسفة من عمل العقل، ولا حاجة للدين بالفلسفة بكل فروعها من رياضيات وطبيعيات ومنطق وموسيقى [١]).

على كل حال توضح لنا هذه الرسائل لإخوان الصفا كيف أن الثقافة الفلسفية كانت شائعة في كل الأوساط، حتى لتلجأ جمعية سرية إسماعيلية لاتخاذها وسيلة لنشر مذهبها. وظن بعض العاصرين حين رأوا في هذه الرسائل إنكاراً لفكرة الإمام المهدي الختفي أن العصابة التي اجتمعت لتأليفها لم تكن شيعة وهو ظن مخطئ حقاً يؤيد هذا الإنكار أنهم لم يكونوا إماميين يؤيدون فكرة الإمام المهدي الختفي، ولكنهم كانوا أكثر إيغالاً في التشيع إذ كانوا يعتنقون المذهب الإسماعيلي، يدل على ذلك مثل قولهم في أهل البيت: "هذه الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة لا يحتاجون فيها إلى مدبِّرين غيرهم وإلى علماء سواهم، ولا يطلع الناس على أسرارهم.. إن هو إلا علم إلهي وتنزيل رباني، تنزل به ملائكة كرام كاتبون، وحفظة حاسبون، يُلقونه بأمر الله على من أصطفاه من خلقه وارتضاه لخلافته في أرضه"[٢]. والإسماعيلية معروفون بترتيب أتباعهم في طبقات، ونرى أبا سليمان المنطقي السجستاني حين يقتبس نصًّا من الرسائل لأبي سليمان المقدسي يقتبس له النص الذي رتب فيه جماعتهم، وقد جعلهم في أربع مراتب حسب أعمارهم وقواهم، أما المرتبة الأولى فلمن بلغوا خمس عشرة سنة وهم أصحاب القوة العقلية والنفوس الصافية. والمرتبة الثانية لمن بلغوا الثلاثين سنة وهم أصحاب القوة الحكيمة الرؤوساء ذوو السياسة. والمرتبة الثالثة لمن بلغوا الأربعين وهم أصحاب القوة الناموسية أولو الأمر والنهي. والمرتبة الرابعة لمن بلغوا خمسين سنة وهي مرتبة التسليم ومشاهدة الحق عياناً. ونراهم يطلبون إلى إخوانهم في كل قطر أن يعقدوا اجتمعات دورية يتذاكرون فيها العلم وشئون الإخوان وكل ذلك دليل على أنهم كانوا يريدون برسائلهم تنظيم الدعوة الإسماعيلية، أما لماذا أخفوا أسماءهم فلأنهم كانوا يعيشون في العراق وسط أصحاب المذهب الإمامي الأثنى عشري، فخافوا على أنفسهم وخاصة أنهم هاجموا هذا المذهب الشيعي كما قدمنا. ومع ذلك فيبدو أنهم

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٦.

(٢) رسائل إخوان الصفا ٤/ ١٠٣ وما بعدها.

حاولوا نشر مذهبهم في بغداد، إذ يحدثنا أبو حيان عن لقائه المتكرر لأحدهم، وهو زيد بن رفاعة. وينقل مناقشة طويلة بين أبي سليمان المقدسي والحريري في وصل إخوان الصفا بين الشريعة والدين. ويبدو أن استيلاء عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ هيأ لهم هذه الفرصة، فقد كان يقرب القرامطة الإسماعيليين منه، وكان يتخذ أحياناً لنفسه منهم وزيراً أو نبائباً، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان يتشيع ويكرم جانب الرافضة [١]. على كل حال يبدو أن دعوة المقدسي وزيد بن رفاعة باءت بالإخفاق والخذلان في بغداد خذلاناً إلى أقصى حد.

وتشير هذه الرسائل - كما مر بنا - إلى أن الفلسفة وعلوم الأوائل كانتا من مدارك الطبقة العامة المثقفة في مطالع هذا العصر، عصر الدول والإمارات، وخاصة في بغداد. ولعل أكبر ضخصية متفلسفة كانت بها حينئذ شخصية أبي سليمان [٢] المنطقي السجستاني، الذي نشا بسجستان وشدا فيها علوم الأوائل، ويبدو أنه أراد منها زادا أكبر، فرحل إلى بغداد شبابه، ولزم يحيى بن عدى وأخذ عنه كل ما عنده، وسرعان ما عُرف فضله وتألق نجمه، وكان دميم الخلقة وبه وضَحٌ ظاهر فلزم داره، وتحوَّلت هذه الدار إلى منتدى كبير يختلف إليه الفلاسفة والعلماء والمثقفون من حوله، ينهلون من ينابيع فكره ما يمتعون به عقولهم ونفوسهم. وكانوا مختلفي المشارب، فمنهم المسلم وغير المسلم ومنهم المتفلسف، مثل الطبيب المجوسي المعروف بفيروز [٣] وأبي إسحق [٤] الصابئ الكاتب وابن زرعة [٥] النصراني ومثل أبي زكريا الصيمري وأبي الفتح النوشجاني وأبي محمد العروضي المتفلسفين، ومثل أبي القاسم عبيد الله بن الحسن المعروف بغلام رجل المنجم، ومثل علي بن عيسى الرماني مفلسف النحو ومباحثه ومثل القومسي الكاتب والمقدسي صاحب رسائل إخوان الصفا

(١) النجوم الزاهرة ٤/ ١٤٢.

(٢) انظر في أبي سليمان المنطقي القفطي ص٢٨٢ والإمتاع والمؤانسة في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وكذلك المقايسات، وراجع ابن أبي أصيبعة ص٤٢٧ والفهرست ص٣٨٣ وبروكلمان ص١٥١ ومقدمة عبد الرحمن بدوي لصوان الحكمة.

(٣) المقايسات (طبع بغداد) ص٤٢٧.

(٤) المقايسات ص٢٧٢.

(٥) المقايسات ص٢٤٢ وهنا أيضاً يذكر أن عيسى ابن علي بن عيسى كان حاضراً

وقد ترجم له أبو سليمان في نهاية كتابه صوان الحكمة كما أشرنا إلى ذلك آنفا. يقول أبو حيان: "وكل واحد من هؤلاء إمام في شأنه وفرد في صناعته، سوى طائفة دون هؤلاء في الرتبة [١]". وهذا المنتدى الكبير ظل عشرات السنين تثار فيه مشاكل الميتافيزيقا والإلهيات والطبيعيات والرياضيات والأخلاق والنفس والروح والجسم والعقل وعلم التنجيم والكهانة وأطراف من اللغة والبلاغة والأدب. ويُلقى كل فيلسوف بدلوه، ثم يُرَدّ الرأي النهائي إلى أبي سليمان، فيسمعه الجميع خاشعين مُكْبرين، وبلسانهم يقول له فيروز: "عَيْنُ الله عليك أيها السيد، فوالله ما نجد شفاء لداء الجهل إلا عندك، ولا نظفر بقوت النفس إلا على لسانك، ولا نعلم يقيناً أنا لا نحسن شيئاً إلا إذا فاتحناك، ولا يحمل ظننا بأنفسنا إلا إذا بعدنا عن مجلسك، ولو كانت هذه الفائدة (يريد ما سمعه منه في المسألة المطروحة) بعينها عندنا متى كنا نأتي بها على هذه الطلاوة والحسن، أمتع الله الأرواح برؤيتك، والعقول بهدايتك [٢] " ولأبي حيان التوحيدي يَدٌ لا تجحد، لتسجيله ما كان يدور في مجالس أبي سليمان من حوار يتناول كل وجوه الفكر والتفلسف في عصره، على نحو ما صنع في كتابه النفيس "المقايسات" وهي تَعْني مجالس أبي سليمان وما كان يُقْبَسُ منها من أضواء المعرفة. ويصرِّح أبو حيان مراراً بعمله فيها وأنه هو الذي أخرجها في صورتها المكتوبة [٣]، وينبغي أن لا نبالغ في هذا التصور وخاصة بالقياس إلى أبي سليمان وإن قال إنه كان مصاباً "بلُكْنة ناشئة من العجمة [٤] " واللكنة شيء والتعبير الفصيح شيء آخر، ومرت بنا آنفاً كلمة فيروز الطبيب ووصفه لما على كلامه من الطلاوة والحسن، وقد نقل أبو حيان بعض المقايسات البديعة عن صوان الحكمة دون أن يخرم حرفاً من كلام أبي سليمان! [٥]. على أن بين المقابسات مقابسات لبعض المتفلسفة من ندوة أبي سليمان مثل عيسى بن علي بن عيسى وأبي الحسن العامري وغيرهما.

---

(١) المقايسات ص٥٧ وقد توقف أبو حيان في هذا الكتاب وفي الإمتاع والمؤانسة ليعرف بهم (انظر فهرسيهما).

(٢) المقايسات ص٤٢٩.

(٣) انظر المقايستين: الثانية والرابعة.

(٤) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٣٣.

(٥) قارن المقايسة السابعة والثلاثين بصوان الحكمة ص٣٣٣ وما بعدها.

ومنتدى ثان ببغداد لم يكن عاماً مثل المنتدى السابق، فقد كان خاصاً بوزير من وزراء الدولة البويهية وكان يعقده ليلاً بداره، هو ابن سَعْدان الذي وزر لصمصام الدولة في سنة ٣٧٣ ولم يكد يدور عامان حتى قتله سنة ٣٧٥. وكانتا سنتين غنيتين بالفكر والفلسفة والأدب، إذ كان يختلف إلى ندوته صفوة من المتفلسفة المفكرين مثل ابن زُرْعة النصراني المتفلسف ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق وأبي الوفاء الرياضي الفلكي المهندس وبهرام بن أردشير المجوسي وابن عبيد وأبي بكر القومسي الكاتبين وابن الحجاج الشاعر وزير بن رفاعة أحد إخوان الصفا وقرمطي سمى أبو شاهوية [١]. وكان ابن سعدان يباهى برفاقه ويفخر بهم على رفاق غيره من الوزراء قائلاً: "والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير، وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوي العقل [٢]. وكان أبو الوفاء قريباً من ابن سعدان فوصله بأبي حيان التوحيدي، ليعرض عليه ثمار الفكر والفلسفة في عصره، واستقبله ابن سعدان استقبالاً حسناً، وأخذ يُلْقى عليه في ليال متصلة أسئلة في مختلف روع الفكر واللغة والأدب، ويتقلى من أبي حيان وإجاباته، ويتشقق الحوار والحديث في مسائل فلسفية وإلهية وطبيعية وأخلاقية ونفسية وروحية وسياسية وأدبية ولغوية. وقد يحكى له مناظرة طويلة كمناظرة السيرافي ومتى بن يونس في النحو والمنطق وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسي الثاني، ويروي له أحياناً أخبار بعض المتصوفة، ويذكر له بعض جوانب الحياة في بغداد. ويحق يقول القفطي عن الكتاب إنه" كتاب ممتوع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم فإنه خاض كل بحر وغاص في كل لُجَّة"[٣]. ولم يَرْوِ أبو حيان في الكتاب الذي يقع في ثلاث مجلدات كل الليالي التي قضاها محاوراً مناقشاً في منتدى ابن سعدان، فقد اقتصر منها على سبع وثلاثين ليلة وزرع عليها الكتاب وقد ألفه لأبي الوفاء المهندس، ذكرى عزيزة لابن سعدان. وربما صنفه لأبي الوفاء في حياة صديقه، ويبدو أنه

(١) انظر في هؤلاء الجلساء الصداقة والصديق لأبي حيان (طبع القاهرة) ص٧٧ والإمتاع والمؤانسة ٢/ ٣ وراجع النجوز الزاهرة ٤/ ١٢٥.

(٢) الصداقة والصديق ص٨٣.

(٣) القفطي ص٢٨٣.

كـان قـد كتـب مـسوَّدات هـذه الليـالي، حتـى إذا رأى إهـداءها لأبي الوفـاء عُنـى أحيانـاً بتقـويم بعـض عباراتهـا مـع شرح الغـامض وصـلة المحـذوف وإتمـام المنقـوص، ومـع سـكبها بناصـع اللفظ [١] وما عُرف من ميله في ك تابته إلى الازدواج.

وكـان وراء هـذين المنتـديين الفلـسفيين العلميـين منتـديات كثـيرة في دور العلـماء والمتفلـسفة مثل دار يحيى بن عـدي وفي المكتبـات الكبـيرة مثـل مكتبـة سـابور بـن أردشـير. ونـذكر نفـراً مـن الرياضـيين والفلكيـين في القـرن الرابـع الهجـري لنـدل عـلى النهـضة العلميـة حينئـذ، وأول مـن نقف عنده أبو القاسم عـلي بـن الحـسن المعـروف بـابن الأعلـم [٢] المتـوفي سـنة ٣٧٥ وكـان عـضد الدولة يرعاه واشتهر بزيجه الـذي ظـل بـه العمـل حتـى زمـن القفطـي. وكـان يعـاصره وَيْجَـن [٣] بـن رُسْـتَم الكـوهي وكـان رئيـساً للمرصـد الـذي أسـسه شرف الدولـة البـويهي في حديقـة القـصر ببغـداد، وقـد أمـره في سـنة ٣٧٨ برصـد الكواكـب الـسبعة وعاونـه في ذلـك فلكيـون ورياضـيون أهمهـم أبـو الوفـاء [٤] محمـد بـن محمـد بـن يحيـى البوزجـاني صـديق أبي حيـان التوحيـدي الـذي تـوفي سـنة ٣٨٨ وفيـه يقـول ابـن خلكـان: أحـد الأئمـة المـشاهير في علـم الهندسـة، ولـه فيـه اسـتخراجات غريبـة لم يـسبق بهـا، وكـان شـيخنا العلامـة كـمال الـدين أبـو الفـتح موسـى بـن يـونس، تغمـده الله برحمتـه وهـو القـيم بهـذا الفـن، يبـالغ في وصـف كتبـه ويعتمد عليهـا في أكثـر مطالعاتـه ويحـتج بـما يقولـه، وكـان عنـده مـن تواليفـه عـدة كتـب ولـه في استخراج الأوتـار تـصنيف جيـد نـافع ". ويقـول عنـه ألـدومييلي: "كـان أحـد المترجمـين العظـام الأواخـر مـن اليونانيـة، وشـارح أقليـدس وديوفـانتوس وبطليمـوس وهـو كـذلك عـالم أصـيل رفيع المنزلـة، ويقـترن اسـمه عـلى وجـه الخـصوص بتنميـة حـساب المثلثـات، والمـسائل الهندسـية التي عالجها بخبرة جد كبيرة، وكان له تأثير قوي في الفلكين المحدثين".

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١.

(٢) انظر في ابن الأعلم القفطي ص٢٣٥.

(٣) راجعه في الهرست ص٤٠٩ والقفطي ص٣٥١ وبروكلمان ٤/ ٢١٩ وألدومبيلي ص٢١٢.

(٤) انظره في الفهرست ص٤٠٨ والقفطي ص٢٨٧ وابـن خلكـان ٥/ ١٦٧ والـوافي بالوفيـات للـصفدي ١/ ٢٠٩ وتنميـة البيهقي ٧٦ وبروكلمان ٤/ ٢٢٢ وألدوميلي ص٢١١، ٢١٥.

وبالمثل كانت العلوم الطبيعية ناهضة ناشطة، ولعل خير ما يصور ذلك ظهور أبي علي الحسن [١] بن الهيثم البصري المتوفي حوالي سنة ٤٣٢ للهجرة، وقد ذكر له ابن أبي أصيبعة ثلاثة وأربعين كتاباً في الفلسفة والعلم الطبيعي وخمسة وعشرين كتاباً في الرياضيات والهندسة، وهو يُعَدّ بحق من علماء الطبيعة العالميين، يشهد له بذلك كتابه "المناظير" في البصريات وانعكاس الضوء والعدسات فقد ترك تأثيراً عميقاً في كل من روج بيكون وفايتلو عن طريق ترجمته قديماً إلى اللاتينية، واستع تأثيره في كثيرين من علماء الغرب كما يحدثنا بذلك ألدوميلي. وسمع الخليفة الحاكم الفاطمي بذكائه وقدرته الهندسية وشاع عنه أنه يقول لو نزل مصر لوضع مشروعاً ينظم المياه في النيل. واستقدمه الحاكم، غير أنه رأى صعوبة تطبيق مشروعة. ويقول ابن أبي أصيبعة: إنه لخص كثيراً من كتب أرسططاليس وشرحها وكثيراً من كتب جالينوس في الطب. وحين نزل مصر أقام بقبة على باب الجامع الأزهر وكان يقتات من نَسْخة سنويًّا أليدسَ والجسطيَّ، ويضيف إليهما القفطي كتاباً ثالثاً، ويقول إنه كان يبيعها جميعا بمائة وخمسين ديناراً مصرياً، وصار ذلك كالرسم المعتاد له.

وكان الطب والعلوم الطبية بالمثل ناهضين، وساعد على ذلك منذ العصر العباسي إنشاء البيمارستانات في بغداد، ومن البيمارستانات المهمة التي أنشئت في القرن الرابع الهجري البيمارستان العضدي نسبة إلى عضد الدولة، أنشأه في الجانب الغربي لبغداد وأنفق عليه أموالاً عظيمة، ويقول ابن خلكان: "ليس في الدنيا مثل ترتيبه وبه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه" ولما فرغ من بنائه سنة ٣٦٨ عيَّن به أربعة وعشرين طبيباً رتَّبهم فيه لمعالجة المرضى، منهم نظيف القس الرومي وأبو الحسن بن كشكرايا وأبو الخير الجرائحي وأبو يعقوب الأهوازي وابن مندويه"[٢].

وهذه النهضة العلمية الفلسفية في القرن الرابع اطردت في القرنين التاليين إذ يلقانا بهما متفلسفة ورياضيون وفلكيون وطبيعيون وأطباء مختلفون في كتابي القفطي وابن أبي

(١) راجع في ابن الهيثم القفطي ص١٦٥ وابن أبي أصيبعة ص٥٥٠ وألدوميلي ص٢٠٦ وما به من مراجع وانظر كتاب ابن الهيثم لمصطفى نظيف ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع.

(٢) انظر القفطي ص٣٣٧، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤٣٦، ٤٣٨. وراجع ابن خلكان ٤/ ٥٤.

أصيبعة، نذكر منهم أبا الفرج عبد الله [١] بن الطيب المتوفي سنة ٤٣٥ وفيه يقول القفطي "فيلسوف فاضل.. أعتنى بشرح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسطاليس وبشرح كتب جالينوس ف يالطب، ويقال إنه بقى عشرين سنة تفسير ما بعد الطبيعة. وأهم تلاميذه ابن بُطْلان [٢] النصراني المتوفي بعد سنة ٤٥٥ وكان حاذقاً في الطب واشتهر برحلته إلى القاهرة حيث لقى الفيلسوف المصري ابن رضوان، ونشبت بينهما مناظرات حادة، وأشهر مؤلفاته كتاب تقويم الصحة، ولا يوجد منه إلا ترجمة لاتينية وأخرى ألمانية في عصر النهضة. ومن الأطباء النابهين بعده أبو الحسن سعيد [٣] بن هبة الله طبيب الخليفتين المقتدى والمستظهر، وكان لا يزال على قيد الحياة في سنة ٤٨٩ ويظن أنه توفي سنة ٤٩٦ وقد اشتهر بكتاب كبير في الطب صنفه للمقتدى، سماه المغنى في تدبير الأمراض وتعريف العلل والأعراض. وكان يعاصره يحيى بن عيسى [٤] بن جَزْلة المتوفي سنة ٤٧٣ وكان نصرانياً ثم اعتنق الإسلام، وصنف كثيراً من الكتب باسم الخليفة المقتدى أهمها كتاب تقويم الأبدان في تدبير الإنسان، وقد ترجم إلى اللاتينية ثم الألمانية، ويشتمل على ٤٤ لوحة، وبه وصف لنحو ٣٥٠ مرضاً. وأنبه الأطباء في القرن السادس هبة [٥] الله بن التلميذ النصراني المتوفي سنة ٥٦٠ وكان طبيب الخليفة المقتفي، ويقول ألدوميلي إن كتبه خالية من كل أصالة، وهي صفة تشمل أطباء العراق بعامة بعده وليس معنى ذلك أن العناية قلت بالبيمارستان وأطبائه، فقد زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ وشاهد البيمارستان ووصفه بقوله: إنه "على دجلة وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخمسين ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قَومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية" [٦].

---

(١) القفطي ص٢٢٣.

(٢) القفطي ص٢٩٤ وابن أبي أصيبعة ص٣٢٥ وألدوميلي ص٢٤١، ٢٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية

(٣) راجع ابن أبي أصيبعة ص٣٤٢ وألدومييلي ص٢٤٢، ٢٥٤.

(٤) ابن أبي أصيبعة ص٣٤٣ والقفطي ٣٦٥ وألدومييلي ص٢٤١، ٢٥٣.

(٥) ابن أبي أصيبعة ص٢٤٩ والقفطي ص٣٤٠ وألدومييلي ص٣٢١.

(٦) ابن جبير ص٢٢٥.

وتمضي الحركة العلمية والفلسفية في نشاطها بالعراق إلى أن يكتسحه قُطْعان المغول في منتصف القرن السابع الهجري، إذ قوَّضوا صرحها في بغداد وغير بغداد، وربما كان أنبه المشتغلين بعلوم الأوائل قبل هذا الانهيار الفظيع أثير الدين الأبهري (١) الموصلي المتوفى سنة ٦٦٣ وله مختصر في علم الهيئة ورسالة في الإسطرلاب وشرح لإيساغوجي وكتاب هداية الحكمة في المنطق والطبيعيات والإلهيات. ويَضْعُف الاشتغال بعلوم الأوائل أو يأخذ في الضعف، ومن المؤكد أنه ظل، ولكن لم تعد له نفس القوة القديمة، ويلقانا من حين إلى آخر بعض المتفلسفين أو العلماء مثل أبي القاسم محمد بن أحمد السماوي (٢) العراقي الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وله كتب كثيرة في الكيمياء أشهرها كتاب العلم المكتسب في زراعة الذهب، وممن نلتقي بهم في القرن التاسع الهجري بدر الدين محمد سبط المارْديني (٣) المتوفي سنة ٨٩١ وله كتب مختلفة في الحساب والهندسة وتأخذ المعرفة بعلوم الأوائل في الضعف مع الحقبة العثمانية إذ لم تعد هناك عناية بها ولا رعياة لها.

ولابد أن نقف قليلاً عند مصنفاتهم في السياسة على هدى كتابات أفلاطون وأرسطو وما ترجمه ابن المقفع عن الفارسية هو وغيره من آداب الحُكْم والسياسة، وقد افتتح ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار بباب طويل عن السلطان والسياسة والحكم، وتناول هذا الموضوع كثيرون بعده مثل الوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن علي المتوفي سنة ٤١٨ فإنه ألف في السياسة رسالة طريفة. ومن خير الكتب التي ألفت في هذا الموضوع كتاب الأحكام السلطانية للماوردي (٤) أبي الحسن علي بن محمد البصري البغدادي المتوفي سنة ٤٥٠ للهجرة، وكان فقيهاً شافعياً، وتولى القضاء في بلدان كثيرة بالعراق، وهو في كتابه

---

(١) راجع فيه ابن خلان ٥/ ٣١٣ في ترجمة كمال الدين بن يونس ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع وبروكلمان (في الطبعة الألمانية) ١/ ٤٦٤.

(٢) انظر ألدوميلي ص٣٠٨.

(٣) راجع فيه بروكلمان (الطبعة الألمانية) ٢/ ٣٥٧.

(٤) انظره في ابن خلكان ٣/ ٢٨٢ والمنتظم ٨/ ١٩٩ وطبقات الشاقعية ٥/ ٢٦٧ وتاريخ بغداد ١٢/ ١٠٢ ومعجم الأدباء ١٥/ ٥٢ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع.

يصل بين السياسة والمسائل الشرعية ف يالنظم الإسلامية، وبذلك يصبح الكتاب في سياسة الحكم الإسالمي، وهو يستهله بالحديث عن إمامة المسلمين ثم يتحدث عن تقليد الوزارة وقيادة الجيوش المجاهدة في سبيل الله، ويتحدث عن ولاية القضاء والمظالم والولاية على الصلاة والحج والصدقات وأحكام الفئ والغنيمة والجزية والخراج وأحكام الإقطاع والدواوين وبيت المال.

وقد نشط العراقيون لهذا العصر في الكتابات الجغرافية، وأول من يلقانا منهم أبو إسحاق الفارسي الإصطخرى (١) الكرخي المتوفي حوالي منتصف القرن الرابع الهجري، ويبدو أنه عاش طويلاً في بغداد، كما يدل على ذلك لقبه الكرخي، وله كتاب جغرافي سماه "المسالك والممالك" تحدث فيه عن مملكة الإسلام وصور أقاليم الأرض ومدتها وبحارها وأنهارها وسُهوبها وجبالها، وقد نقل إلى كتابه صور الأقاليم التي بثها أبو زيد البلخي في كتابه المعروف بهذا الاسم، ولابن حوقل البغدادي (٢) معاصره كتاب باسم المسالك والممالك أيضاً هو تهذيب لكتاب الإصطخري. وكان شيعياً إسماعيليا، واستغله الفاطميون في الدعوة لهم على ما يظهر وقد زار الأندلس وإفريقيا الشمالية وبلدان إيران وجزءاً من الهند.

وأهم جغرافي ظهر بالعراق لهذا العصر هو ياقوت الحموي البغدادي (٣) المتوفي سنة ٦٢٦ وكتابه معجم البلدان أنفس كتب الجغرافية العربية، وهو في ست مجلدات ضخام، ونراه يذكر في مقدمته مصادره اليونانية والعربية وكاد أن لا يترك كتاباً في المكتبة الجغرافية العربية إلا ذكر أنه أطلع عليه ونقل عنه، ولم يكتف بتلك الكتب التي كوَّن منها مادة كتابه، فقد رجع إلى دواوين الشعراء ينقل عنها، وألمَّ في كل بلدة بأهم من عاش فيها من العلماء والأدباء كتابًّا وشعراء، مما يضيف قيمة واسعة للكتاب إذ يصبح مصدراً من مصادر العلم

---

(١) انظره في إصطخر بمعجم ياقوت وفي دائرة المعارف الإسلامية. وتاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ١٩٩.

(٢) راجعه في ألدومييلي ص٢٢٧ وفي دائرة المعارف الإسلامية. وفي كرانشكوفسكي ١/ ٢٠٠.

(٣) انظره في النجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٣ وشذرات الذهب ٥/ ١٢١ وابن خلكان ٦/ ١٢٧ ومرآة الجنة ٤/ ٥٩ وتاريخ الأدب الجغرافي العربي لكرانشكوفسكي ١/ ٣٣٥.

والأدب ورجالهما حتى عصره. وله أيضاً في الجغرافيا كتاب ثان بعنوان "المشترك وضعاً المختلف صقعاً". ويمكن أن نلحق بكتب الجغرافية كتب الرحلات، وربما كان أهمها كتاب الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار لعبد اللطيف [1] البغدادي المتوفي سنة ٦٢٩ وقد وصف فيه وصفاً بديعاً آثار مصر وصوَّر كثيراً من شئونها الاجتماعية. وتُرجم الكتاب إلى اللاتينية، كما تُرجم إلى الفرنسية، وطبع مراراً.

---

(١) ترجم له ابن أبي أصبيعة في طبقاته ص٦٨٣ ترجمة ضافية نقلها عن كتاب له، تحدث فيه عن سيرته، وقد لخصته هذه السيرة في كتابنا الترجمة الشخصية طبع دار المعارف ص٣٢.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

تظل بغداد ومدن العراق ناشطة في المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية، ومن الصعب أن نفصل بين اللغويين والنحويين، وبالتالي أن نفصل بين مباحثهما، إذ يكثر أن ينهض اللغوي بمباحث نحوية، وبالمثل يكثر أن ينهض النحوي بمباحث لغوية. ويلقانا ابن (١) دُرُسْتُوَيه المتوفي سنة ٣٤٧ معنياً بشرح فصيح ثعلب، وبالمثل ابن ناقياً والعكبري وغيرهما كثيرون، ويضع له عبد اللطيف البغدادي بعدهما ذيلاً وتكثر العناية بكتاب لغوي ثاني، هو إصلاح المنطق لابن السكيت، فيضع السيرافي(٢) الحسن بن عبد الله المتوفي سنة ٣٦٨ شرحاً لشواهده، وتتوالى مختصرات هذا الكتاب وتهذيباته، منها مختصر يسمى المنخل لأبي القاسم الوزير المغربي المار ذكره، ومنها تهذيب للخطيب التبريزي (٣) يحيى بن علي المتوفي سنة ٥٠٢ للهجرة.

ومن الكتب اللغوية المهمة كتاب التنبيهات على أغلاط الرواة لعلي (٤) بن حمزة البصري المتوفي بصقلية سنة ٣٧٥ ويشتهر بنزول المتنبي عليه حين قدم إلى بغداد من الكوفة وهو في كتابه يصحح الأغلاط التي وردت في طائفة من كتب لغوية مهمة، هي نوادر أبي زياد الأعرابي، ونوادر أبي عمرو الشيباني، وكتبا النبات لأبي حنيفة الدينوري، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب فصيح ثعلب، وكتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم ابن سلام، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت، وكتاب خلق

---

(١) انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٩/ ٤٢٨ وإنباه الرواة ٢/ ١١٣ وابن خلكان ٣/ ٤٤.

(٢) راجعه في تاريخ بغداد ٧/ ٣٤١ ومعجم الأدباء ٨/ ١٤٥ وإنباه الرواة ١/ ٣١٣ ونزهة الألباء لابن الأنباري (طبعة أبي الفضل إبراهيم) ص٣٠٧ والفهرست ص٩٩ واللباب ١/ ٥٨٦ وذرات الذهب ٣/ ٦٥ ومرآة الجنان ٢/ ٣٩٠ وابن خلكان ٢/ ٧٨.

(٣) انظره في معجم الأدباء ٧/ ٢٨٦ وبغية الوعاة والأنساب للسمعاني الورقة ١٠٣ ونزهة الألباء ص٣٧٢ والمنتظم ٩/ ١٦١ ومرآة الجنان ٣/ ١٧٣ والشذرات ٤/ ٥ وابن خلكان ٦/ ١٩١ ودمية القصر ١/ ٢٣٧.

(٤) راجعه في بغية الوعاة ومعجم الأدباء ١٣/ ٢٠٨.

الإنسان لأبي ثابت، وكتاب المقصود والممدود لابن ولاد وقد ذكر مع نقده لهذا الكتاب ما أملاه المتنبي عليه من نقد بالفسطاط. وتكثر الكتابة في الأسماء المقصورة والممدودة، منذ ابن دستورية وابن جنى في القرن الرابع.

وتتكاثر شروح الشعر والنثر في العصر منذ أوائله، وشرح ابن جنى لديوان المتنبي مشهور وقد سماه الفَسْر، ويعد التبريزي المذكور آنفاً- وكان يدرس الأدب في المدرسة النظامية- من أكثر شراح آثار، وله شروح مطولة على مجموعة القصائد المسماة بالمفضليات للمفضل الضبي، وعلى المعلقات أو القصائد العشر، وعلى حماسة أبي تمام وديوانه وعلى سقط الزند لأبي العلاء المعري. وله شروح موجزة على لامية العرب للشَّنْفَرَي، وقصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير، ومقصورة ابن دريد. وإذا كان التبريزي وضع شرحاً مطولاً لديوان أبي تمام فإن العكبري أبا البقاء في القرن السادس الهجري وضع شرحاً مطولاً بدوره للمتنبي. وعُنى ابن المستوفي الإربلي [1] المتوفي سنة ٦٣٧ بوضع شرح مطول لديواني أبي تمام والمتنبي سماه النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام في عشر مجلدات. ومنذ وضع الحريري مقاماته أخذت شروحها تتكاثر. ومن شروحها في القرن السادس بالعراق شرح القاسم [2] بن القاسم والواسطي، وشرح العكبري النحوي شارح المتنبي، ولابن الخشاب [3] البغدادي المتوفي سنة ٥٦٧ مبحث لغوي في أغلاط الحريري في مقاماته ورد عليه ابن بري العالم اللغوي المتوفي سنة ٥٨٢ بمبحث لغوي دقيق انتصر فيه للحريري، والمبحثان ملحقان بطبعة مقامات الحريري نشر مكتبة ومطبعة الحلبي بالقاهرة ومنذ جمع الشريف الرضي خطب الإمام علي بن أبي طالب وأخرجها باسم نهج البلاغة أخذ كثيرون يعنون بشرحها، حتى بلغوا نحو أربعين شارحاً وربما كان شرح ابن أبي الحديد المتوفى سنة

---

(١) انظره في ابن خلكان ٤/ ١٤٧ وبقية الوعاة والشذرات ٥/ ١٨٦. وعبر الذهبي ٥/ ١٥٥.

(٢) راجعه في إنباه الرواة ٣/ ٣١ وقد ذكر القفطي أنه صنف شرحين للمقامات وأن له شرحاً لديوان المتنبي اختاره من شرح الواحدي وأضاف إليه من كتاب المنصف لابن وكيع.

(٣) انظره في معجم الأدباء ١٢/ ٤٧ وإنباه الرواة ٢/ ٩٩ وبغية الوعاة والمنتظم ١٠/ ٢٣٨ والنجوم الزاهرة ٦/ ٦٥ وابن خلكان ٣/ ١٠٢.

٦٥٦ أكبر هذه الشروح وهو مطبوع، ولابن الساعي[1] علي بن أنجب المتوفى سنة ٦٧٤ شرح على نهج البلاغة وشرح لفصيح ثعلب، وثلاثة شروح لمقامات الحريري: كبير ومتوسط وصغير، والمتوسط في خمس مجلدات. وقد عني محمود[2] بن أحمد الزنجاني المتوفى سنة ٦٥٦ بوضع مختصر لصحاح الجوهري سماه "ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح". ومنذ السيرافي تكثر الشروح لشواهد الشعر في كتب النحو على غرار كتابه في شراح شواهد سيبويه، بل إننا نجد عبد القادر[3] البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ يحول شرحه لشواهد كتاب الكافية لابن الحاجب إلى موسوعة لغوية تاريخية، وبحق سماه "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب" وقد ذكر في مقدمته مصادره من شروح الشواهد واللغة وأشعار العرب. ومما ذكره من كتب اللغة: الجمهرة لابن دريد، والصحاح للجوهري والعباب للصاغاني والقاموس المحيط للفيروز أبادي واليواقيت للمطرز وكتاب ليس لابن خالويه، والنهاية لابن الأثير والزاهر لابن الأنباري وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري وإصلاح المنطق لابن السكيت وتهذيبه وشروحهما وفصيح ثعلب وذيله وشروحه وأدب الكاتب لابن قتيبة وشروحه والأضداد لغير مؤلف والفروق لأبي هلال العسكري وخلق الإنسان للزجاج والمعرب للجواليقي والمثلثات لابن السيد البطليوسي والمرصع لابن الأثير والمزهر للسيوطي.

وإنما سقنا هذه الكتب اللغوية، لندل على أن ما كان يكتب في اللغة بأي بلدة من البلدان كان ينقل إلى بغداد وغيرها من الحواضر، فالعالم العربي واحد، وكل ما ينتجه بلد في علم من العلوم تتناقله البلدان الأخرى، وهؤلاء الذين يرجع إليهم عبد القادر البغدادي منهم من عاش في أقصى الشرق من العالم العربي، ومنهم من عاش في أقصى الغرب منه أو في أواسطه، ولذلك يكون من الخطأ أن نعد إنتاج أي بلد إنتاجاً مستقلاً هو مدار الحكم عليه،

(١) انظر فيه تذكرة الحفاظ ٤/ ٢٥٠ وشذرات الذهب ٥/ ٣٤٣ ومقدمة مصطفى جواد لكتاب نساء الخلفاء (طبع دار المعارض) وما ذكره من مصادر.

(٢) انظره في الحوادث الجامعة لابن الفوطي (طبع بغداد) ص٢٣٧ وطبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٣٦٨ والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٨ وتاريخ علماء المستنصرية لناجي معروف.

(٣) انظره في خلاصة الأثر للمحبي ٢/ ٤٥١ ودائرة المعارف الإسلامية في كلمة البغدادي.

فقد كان يموج بإنتاج البلدان الأخرى في كل علم وكل فن، وتظل شروح الشعر ناشطة لا الشروح المأثورة فقط، بل تضاف إليها شروح كثيرة، ولعله لم تظهر قصيدة مهمة دون أن تشرح شروحاً عدة، نذكر من ذلك رشف الضرف في شرح لأمية العرب للشيخ عبد الله(١) السويدي المتوفى سنة ١١٧٤ للهجرة وشرح بانت سعاد للسيد(٢) عبد الله الفخري المتوفى سنة ١١٨٨. وهناك شروح لعلماء مختلفين شرحوا قصائد عاصرتهم أو شرحوا قصائد لابن الفارض. وعني الشيخ حسن(٣) القفطان المتوفى سنة ١٢٧٥ بوضع تعليقات على القاموس والمصباح في رسائل مختلفة، ولشهاب الدين الألوسي(٤) المتوفى سنة ١٢٧٠ شرح على درة الغواص للحريري باسم كشف الطرة عن الغرة وللشيخ إبراهيم(٥) الحيدري المتوفى سنة ١٣٠٠ شروح مختلفة على ديوان أبي تمام ومقامات الحريري وسقط الزند لأبي العلاء. وكأن النشاط اللغوي لم يتوقف بالعراق في حقبة من حقب هذا العصر حتى أواخره وقد عني العلماء بجانب بحوثهم في لغة الفصحى أن يحيطوها بأسوار من الصحة، حتى ينقوها من أوضار العامية التي أخذت تنتشر بقوة منذ مطالع العصر، ونجد القاضي أبا الحسن عليا المؤيدي يضع سنة ٤٢٠ كتاباً في الأمثال البغدادية العامية(٦) وأهم من ذلك كتاب الحريري: " درة الغواص في أوهام الخواص" وهو في أغلاط المثقفين، ووضع له أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي(٧) المتوفى سنة ٥٣٩ تكملة أو تتمة سماها" التكملة فيما تلحن فيه العامة". وأهم من هذا الصنيع كتابه " المعرب " وهو معجم نفيس للألفاظ

---

(١) راجعه في المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر لمحمود شكري الألوسي (طبع بغداد) ص٦٠

(٢) راجعه في تاريخ الأدب العربي في العراق للعزاوي ٢/ ٣٨.

(٣) العزاوي ٢/ ٥٧ وماضي النجف وحاصرها ج٣ ق٢ ص١٠٩.

(٤) انظر في الشهاب أعلام العراق لمحمد بهجت الأثري والآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ١/ ٨٩ ونهضة العراق لمحمد مهدي البصير ٢١٩ ومقدمة تفسيره والعزاوي ٢/ ٥٢ وفي مواضع مختلفة.

(٥) العزاوي ٢/ ٥٨.

(٦) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ٥/ ١٦٠ وقد نشر ماسينيون كتابه في القاهرة سنة ١٩١١.

(٧) انظر ترجمته في إنباه الرواة ٣/ ٣٣٥ ومعجم الأدباء ١٩/ ٢٠٥ والأنساب الورقة ١٣٩ واللباب ١/ ٢٤٤ وابن خلكان ٥/ ٣٤٢ ومرآة الجنان ٣/ ٢٧١ وبغية الوعاة وشذرات الذهب ٤/ ١٢٧.

الأعجمية الدخيلة على العربية، ولم يؤلف في موضوعه أكبر منه، وفيه يقول ابن خلكان: إنه من مفاخر بغداد.

وكانوا يعنون من حين إلى حين بجمع مختارات شعرية، ولابن الشجري(١) هبة الله بن علي المتوفى سنة ٤٥٠ كتاب سماه الحماسة ضاهي به حماسة أبي تمام، وهو مطبوع في حيدر آباد، وله كتاب الأمالي وهو أيضاً مطبوع في حيدر آباد، وهو أكثر تآليفه إفادة، ويقول ابن خلكان إنه من الكتب الممتعة لروعة أشعاره المختارة. ومن كتب المختارات الشعرية كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك ميمون(٢)، وهو مجموعة كبيرة من قصائد الجاهليين والإسلاميين، وقد جمعه أو صنفه ببغداد سنة ٥٨٩ وهو في الستين من عمره، ومنه بعض مجلدات بدار الكتب المصرية. وصنف علي بن أبي الفرج البصري في القرن السابع الهجري الحماسة البصرية، وقد حققت وأعدت للطبع..

ولعل نشاط بغداد في النحو لهذا العصر كان أكبر من نشاطها في اللغة، فقد استحدثت فيه المذهب النحوي البغدادي على نحو ما صورنا ذلك في كتابنا المدارس النحوية، وهو مذهب كان أصحابه ينتخبون من المذهبين البصري والكوفي آراءهم، ويضيفون إلى ما ينتخبون آراء جديدة ينفذون إليها. وأهم نحوي بغدادي نلقاه في القرن الرابع الهجري هو ابن جني(٣) المتوفي سنة ٣٩٢ وكان اهتمامه بعلم الصرف عظيماً، فصنع فيه شرحاً نفيساً لكتاب التصريف للمازني سماه المنصف، وهو في ثلاثة أجزاء، شرح فيه مادة الكتاب شرحاً وافياً، وأضاف إليها كثيراً من ملاحظاته كملاحظته أن الأفعال تشتق من أسماء الأعيان ومن الحروف. وله سر صناعة الإعراب وهو دراسة صوتية واسعة لحروف المعجم ومخارجها وأصواتها، وله أيضاً في الصرف كتاب التصريف الملوكي، وأهم كتبه فيه كتاب

---

(١) انظره في نزهة الألباء ص٤٠٤ ومعجم الأدباء ١٩/ ٢٨٢ وإنباه الرواة ٣/ ٣٥٦ وبغية الوعاة وابن خلكان ٦/ ٤٥ ومرآة الجنان ٣/ ٢٧٥ وشذرات الذهب ٤/ ١٣٢.

(٢) انظر بركلمان ٥/ ١٦٩.

(٣) انظر في ترجمة ابن جني نزهة الألبا ص٣٣٢ وتاريخ بغداد ١١/ ٣١١ ومعجم الأدباء ١٢/ ٨١ وإنباه الرواة ٢/ ٣٣٥ وابن خلكان ٣/ ٢٤٦ ويتيمة الدهر ١/ ١٠٨ ومرآة الجنان ٢/ ٤٤٥ والشذرات ٣/ ١٤٠ وروضات الجنات ص٤٦٦ وكتابنا المدارس النحوية ص٢٦٥.

الخصائص، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء، وفيه وضع للصرف قضاياه الكلية، وذكر فيه ما أسماه الاشتقاق الأكبر وهو يقوم على فكرة خاصة، هي أن كل كلمة ومقلوباتها تشترك في معنى واحد، فكلمة قول. ومتقلباتها: قلو، ووقل، وولق، ولقو، ولوق، جميعها تفيد أو تعني الخفة والحركة، وبجانب وضعه لأصول علم الصرف نراه في النحو يختار من الآراء البصرية والكوفية جميعاً، ويضيف باجتهاده آراء جديدة، وكان يكثر من متابعته لأستاذه أبي علي الفارسي، وهو من طرازه بغدادي في مذهبه النحوي، وكل ذلك مصور في كتابنا المدارس النحوية. وكان يعاصره نحويان كبيران هما السيرافي شارح كتاب سيبويه والرماني وهو مثله شرح الكتاب، غير أنهما لا ينتظمان في المدرسة النحوية البغدادية الجديدة، إذ كانا لا يخرجان عن المذهب البصري، فعدادهما في المدرسة البصرية لا البغدادية، وفي كتاب المدارس النحوية حديث مفصل عن السيرافي وكثرة تعليلاته وتخريجاته النحوية.

ويعني النحاة بشرح كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، ويشرحه ابن جني، ويشرحه غير واحد من بعده مثل العكبري، ويعنون بشرح اللمع في النحو لابن جني، وممن شرحوه عمر بن ثابت الثمانيني[1] تلميذه، وشرحه مخطوط بدار الكتب المصرية، ومن شراحه العكبري، وهم كثيرون. ومن نحاة مدرسة بغداد المهمين أبو البركات بن الأنباري[2] المتوفى سنة ٥٧٧ وهو تلميذ ابن الشجري الذي تتلمذ بدوره لأبي علي الفارسي، وبذلك يتصل به. وكان يدرس كتبه لتلاميذه في المدرسة النظامية، يدل على ذلك حاشيته على كتاب الإيضاح. وقد عني بدراسة وجوه الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية في مسائل النحو، وألف في ذلك كتابين هما: الإنصاف المطبوع بمصر، وقد طبعه فايل لأول مرة وقدم له بمقدمة طويلة، والكتاب الثاني أسرار العربية المطبوع بدمشق ولاحظ فايل أنه رجح آراء الكوفيين بكتابه الإنصاف في سبع مسائل، وكان ينتخب آراءه من المدرستين

---

(١) راجع في الثمانيني معجم الأدباء ١٦/ ٥٧ وابن خلكان ٣/ ٤٤٣ ونزهة الألباء ص٣٥٠ ونكت الهميان ص٢٢٠ والشذرات ٣/ ٢٦٩.

(٢) انظر في ابن الأنباري إنباه الرواة ٢/ ١٦٩ وبغية الوعاة وابن خلكان ٣/ ١٣٩ والسبكي ٧/ ١٥٥ ومرآة الجنان ٣/ ٤٠٨ والمختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي (طبع بغداد) ص٢٠٩ وكتابنا المدارس النحوية ص٢٧٨.

البصرية والكوفية جميعاً. وكان يقف مع الفارسي أستاذ شيخه ابن الشجري في كثير من المسائل فهو بغدادي المذهب. وله في أصول النحو كتاب سماه لمع الأدلة وهو مطبوع بدمشق وطبع له مع الكتاب السابق كتاب الإعراب في جدل الأعراب، وله في تراجم النحاة كتاب نزهة الألباء. وكان يجري على غراره في إتباع المذهب البغدادي في النحو أبو البقاء العكبري(١) الضرير، المتوفى سنة ٦١٦ وتدل مصنفاته على توفره على كتب أبي علي الفارسي وابن جني وله كما أسلفنا شرح للإيضاح وكذلك للمع، وأيضاً " الإفصاح عن معاني أبيات الإيضاح" و"تلخيص أبيات الشعر لأبي علي الفارسي" وتلخيص التنبيه لابن جني و"المنتخب من كتاب المحتسب في شواذ القراءات " لابن جني أيضاً، ومن كتبه " إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن". وله كتاب اللباب في علل البناء والإعراب. وقد حققه بعض الطلاب وأعده للنشر. وله أيضاً إعراب مشكل الحديث. ذيَّل به كتاب جامع المسانيد لابن الجوزي. ومن كتبه المسائل الخلافية في النحو وعني بنشره بعض المستشرقين. وقد صورنا في كتابنا المدارس النحوية كيف كان يعول على الاختيار من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين. ومن نحاة بغداد في القرن السابع الهجري عز الدين عبد الوهاب(٢) بن إبراهيم الزنجاني وله كتاب باسم تصريف الزنجاني أو العزي أو مبادئ التصريف، وقد طارت شهرته في الآفاق وصُنعت له شروح وحواش كثيرة، عددها بروكلمان في تاريخه، ومنها طائفة كبيرة في دار الكتب المصرية. وقد طُبع في روما مع ترجمته إلى اللاتينية، وطُبع في الآستانة والقاهرة ودلهي بالهند ومع تجمة إلى الفارسية لمحمد بركة الله اللكنوي في لكنو. ومن نحاة القرن السابع أيضاً جمال الدين الحسين بن بدر الدين بن أياز(٣) البغدادي المتوفى سنة ٦٨١ وكان يتولى مشيخة النحو في المدرسة المستنصرية، وله كتاب القواعد في النحو، ولا توجد منه سوى مخطوطة بدار

---

(١) راجعه في إنباه الرواة ٢/ ١١٦ وبغية الوعاة وابن خلكان ٣/ ١٠٠ والشذرات ٥/ ٦٧ وابن الدبيثي ص١٤٠ ونكت الهميان ص١٧٨ وكتابنا المدارس النحوية ص٢٧٩.

(٢) انظره في بغية الوعاة للسيوطي وفي تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥/ ١٧٩.

(٣) راجعه في بغية الوعاة للسيوطي وبروكلمان ٥/ ١٨٥ والعزاوي ١/ ١٦١.

الكتب المصرية كتبت سنة ٦٧٨ في حياته، وله أيضاً المحصول شرح الفصول لابن معطي وشرح التصريف لابن مالك ومسائل الخلاف في النحو. ومن النحاة المهمين ببغداد بدر الدين[1] الإربلي المتوفي سنة ٧٥٥ وله حواش على كتاب التسهيل لابن مالك وشرح على الكافية لابن الحاجب وآخر على كتابه الشافية. وللشيخ عبد الله السويدي المار ذكره كتاب إتحاف الحبيب على مغني اللبيب[2]. ويكثر الشارحون للألفية ولقطر ابن هشام وغيرهما من متون النحو كما يكثر من يصنعون الحواشي. ونكتفي بذكر مثال هو إبراهيم الحيدري المار ذكره في النشاط اللغوي، فله حاشية على كتاب سيبويه وأخرى على شرح ألفية ابن مالك للسيوطي وحاشية على شرح الشافية لابن الحاجب للجار بردي وتقرير على حاشية عبد الحكيم الهندي على حاشية عبد الغفور اللاربي على شرح الجامي لكافية ابن الحاجب، وشرح على كتاب الاقتراح للسيوطي[3].

وكان للنشاط في الدراسات البلاغية دوره في العصر، ومن خير هذه الدراسات كتاب النكت في إعجاز القرآن للرماني[4] شارح كتاب سيبويه، كما أسلفنا، وقد توفي سنة ٣٨٤ للهجرة، ويهمنا من الكتاب حديثهعن البلاغة وقد جعلها في ثلاث طبقات[5]: عليا ووسطى ودنيا، والعليا بلاغة القرآن المعجز والوسطى بلاغة الأدباء حسب تفاوتهم في البلاغة. ويوزعها على عشرة أقسام هي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان، ويفصل القول في كل قسم من هذه الأقسام بادئاً بتعريفه ثم باسطاً تفريعاته. وللحاتمي[6] أبي علي محمد بن الحسن

---

(١) هدية العارفين ٢/ ١٣٥ والعزاوي ١/ ١٧١.

(٢) المسك الأذفر ص٦٠ والعزاوي ٢/ ١٢٨.

(٣) هدية العارفين ١/ ٤٢ والعزاوي ٢/ ١٤٢.

(٤) انظر في علي بن عيسى الرماني تاريخ بغداد ١٢/ ١٦ ومعجم الأدباء ١٤/ ٧٣ وإنباه الرواة ٢/ ٢٩٤ والأنساب الورقة ٢٥٨ وشذرات الذهب ٣/ ١٠٩.

(٥) انظر تحليل هذا الكتاب في كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص١٠٣.

(٦) انظر في الحاتمي تاريخ بغداد ٢/ ٢١٤ وإنباه الرواة ٣/ ١٠٣ وانساب ١٤٨ وابن خلكان ٤/ ٣٦٢ ومعجم الأدباء ١٨/ ١٥٤ والوافي بالوفيات ٢/ ٣٤٣ والشذرات ٣/ ١٢٩. واليتيمة ٣/ ١٠٣.

البغدادي المتوفى سنة ٣٨٨ كتاب في البلاغة وأنواع البديع سماه حلية المحاضرة في صناعة الشعر، وقد اعتمد عليه ابن رشيق اعتماداً واسعاً في كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده أثناء عرضه لألوان البديع، وقد تحدث فيه عن الاستعارة والجناس والطباق والمقابلة والتتميم والتشبيه والإغراق والإشارة والوحي والتصدير والتسهيم والترصيع والتوشيح والمماثلة والمبالغة والالتفات والمساواة إلى غير ذلك من فنون البديع ومحسناته. ويكتب الباقلاني الذي سنتحدث عنه في علم الكلام المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه " إعجاز القرآن " ويهمنا فيه حديثه عن وجود البديع، وهو يستهلها بالكلام عن الاستعارة، ويتلوها بالإرداف ثم المماثلة فالمطابقة فالجناس فالموازنة، فالمساواة، فالإشارة، فالمبالغة، فالغلو، فالإيغال، فالتوشيح، فصحة التقسيم، فصحة التفسير، فالترصيع والتتميم، فالتكافؤ والتعطف إلى غير ذلك(١). وهو يتفق مع ابن المعتز وصاحب الصناعتين في كثير من مصطلحاته، ونلتقي بالشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ وله كتابان: أحدهما في مجازات القرآن، والثاني في المجازات النبوية، وهو يعرض في الكتاب الأول مجازات الآيات القرآنية مرتبة على السور وفقاً لترتيبها في آياتها مبيناً ما فيها من استعارة أو مجاز أو كناية. وبالمثل علق في الكتاب الثاني على نحو ثلاثمائة وستين حديثاً، والكتابان بحث تطبيقي عام، وإن كان يلاحظ أن الفروق عنده بين الاستعارة والمجاز والكناية غير دقيقة، لأنها لم تكن قد حررت حتى زمنه(٢).

وعنيت طائفة من البلاغيين بالكتابة في بعض جوانب من البلاغة مثل كتاب التشبيهات لابن أبي عون المتوفى سنة ٣٢٢ وقد نشره عبد المعيد خان في سلسلة جب التذكارية بلندن، وهو في التشبيهات عامة من الشعر القديم والحديث ومن الذكر الحكيم. وأهم منه كتاب "الجمان في تشبيهات القرآن" لابن ناقيا(٣) البغدادي المتوفى سنة ٤٨٥

(١) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص١٠٧.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص١٣٩.

(٣) راجع في عبد الله بن محمد بن ناقيا إنباه الرواة ٢/ ١٣٣ وابن خلكان ٣/ ٩٨ والجواهر المضية ١/ ٢٨٣ وميزان الاعتدال ٢/ ٥٣٣ ولسان الميزان ٣/ ٣٨٤ والخرية (قسم العراق) ١/ ١٤٢ ومقدمة المحققين لكتابه.

والعناية بالتشبيه قديمة نجدها في كتابات الجاحظ وابن المعتز[١]. وقد نُشر كتاب الجمان في دمشق تحقيق عدنان زرزور ومحمد رضوان الداية، والكتاب مرتب حسب السور القرآنية والآيات الواردة في تضاعيفها وعادة يفسر الآية الكريمة بإيجاز، ثم يذكر ما فيها من تشبيه، وإذا كان له نظير في القرآن ذكره، ودائماً يذكر الأشعار التي اقتبسته، وكثيراً ما يعرض المحسنين لهذا الاقتباس والمقصرين، موضحاً بلاغة القرآن المعجز وأنه لا يبلغ مبلغه شاعر. يقول: "وكلك كل ما ينقله الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن، لا يبلغون شأوه ولا يدركون مناله إعجازاً وإبداعاً وإباء وامتناعاً ".

ويعنى بعض البلاغيين بوضع كتب مستقلة في الجناس، مثل شُمَيْم[٢] الحلي المتوفى سنة ٦٠١ فله فيه كتاب باسم الأنيس الجليس في التجنيس كما جاء في معجم الأدباء، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه باسم الأنيس في غرر التجنيس.

ولا نلبث أن نستقبل كتاب المثل السائر لضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى ببغداد سنة ٦٣٧ وكان قد توجه إليها رسولاً من لدن صاحب الموصل، وكان كاتب إنشائه. وقد بنى كتابه على مقدمة[٣] ومقالتين، أما المقدمة فجعلها لعلم البيان ومباحثه المتصلة بالمعاني والبديع، ويقول إن موضوع هذا العلم البلاغة والفصاحة، ويعرض لأدواته التي لابد من إتقانها لمن يتصدى للكتابة والشعر ويعقد فصلين للمعاني يتحدث في أولهما عن حمل الكلام على ظاهره والتأويل فيه بحيث يمكن أن يُفْهَمَ البيت أفهاماً كثيرة. وفي الفصل الثاني يتحدث عن احتمالات النصوص والترجيح بين المعنيين المتقابلين. وتحس صلته في هذين الفصلين بعلماء الأصول وكلامهم عن دلالات العبارات وما يداخلها من الاحتمالات. ويتحدث بعد ذلك عن الفصاحة والبلاغة وأدوات الكتابة وأركانها. ويخرج إلى المقالة الأولى، وقد جعلها للصناعة اللفظية

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص٥٥، ٧٣.

(٢) انظر في علي بن الحسن بن عنتر الملقب بشميم الحلي معجم الأدباء ١٣/ ٥٠ وإنباه الرواة ٢/ ٢٤٣ وبغية الوعاة والشذرات ٥/ ٤ وميزان الاعتدال ٢/ ٨٢ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ١/ ٢٨٣ وابن خلكان ٣/ ٣٣٩.

(٣) راجع في تحليل كتاب المثل السائر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص٣٢٣.

وقسمها قسمين: قسماً خاصاً باللفظة المفردة، وقسماً خاصاً بالألفاظ المركبة، ويطنب في بيان حسن الألفاظ وصفاته، متأثراً في وضوح بابن سنان الخفاجي في كتابه " سر الفصاحة ". وبالمثل يتأثر به في حديثه عن صفات الحسن في الألفاظ المركبة مفصلاً القول في السجع والتصريع والتجنيس والترصيع ولزوم ما لا يلزم والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ وتكرار الحروف. وينتقل إلى المقالة الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية، ويعرض للسرقات، ثم يتحدث عن الاستعارة والمجاز والتشبيه والتمثيل، ويعرض الالتفات وصوره وبعض الصيغ النحوية، ثم يتحدث عن التقديم والتأخير وبعض صيغ الاختصاص والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض، ولج في بعض مسائل نقدية، ثم تناول الجناس والاقتباس، وفتح فصلاً للسرقات، وختم الكتاب بكلمة عن فضل الفصاحة والبلاغة ذكر فيها الفرق بين الشعر والنثر.

ونلتقي في أواخر القرن السابع بكتاب " الأقصى اقريب في علم البيان" المطبوع بالقاهرة من نسخة قرئت على المؤلف محمد بن محمد التنوخي[١] سنة ٦٩٢ ويسمى صاحب كشف الظنون الكتاب باسم " أقصى القرب في صناعة الأدب" ويقول إن مؤلفه توفي سنة ٧٤٩ للهجرة، ولعله أخطأ في سنة وفاته ولا يعرف موطنه، وقد ضممناه إلى العراق لغلبة النزعة المنطقية عليه وأصدائها الواضحة في مباحثه. وواضح من عنوان الكتاب[٢] أن مؤلفه أطلق على مباحث البلاغة اسم البيان متابعاً في ذلك ابن الأثير، وهو يفتح الكتاب ببحث منطقي في التصور والتصديق وفي القضية المنطقية وصورها المختلفة، ثم يتحدث عن الجملة النحوية ويفيض في مباحث الحروف والأسماء والأفعال. ثم ينتقل إلى علم البيان ومباحث الفصاحة والبلاغة فيه والحقيقة والمجاز وحسن المفردات وقبحها وصفاتها. ويخرج إلى الحديث عن المعاني ويبتدئ حديثه فيها بالكلام عن الاستعارة، ثم يتحدث عن التشبيه والالتفات والنفي والاعتراض والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض والتقديم

(١) انظر في التنوخي بروكلمان ٥/ ١٨٥ وكشف الظنون لحاجي خليفة (طبع إستانبول) ١/ ١٣٧ وكتابه نشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٢) راجع في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص٣١٦.

والتأخير والاشتقاق والتكرار وبعض ألوان البديع، وهو شديد التأثر في كل ذلك بابن الأثير في كتابه المثل السائر. ويلقانا جلال الدين القزويني صاحب كتاب التلخيص المولود بالموصل، ويبدو أنه غادره في مطالع شبابه، وأنه أتم ثقافته في بلاد الروم وديار الشام، ولذلك سنرجئ الحديث عنه إلى الجزء الخاص بالشام ومصر.

وتسهم العراق في نظم القصائد المعروفة بالبديعيات. وعلي[1] بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ هو أول من فتح الطريق إلى هذا الاتجاه، فقد نظم قصيدة في مديح بعض معاصريه وضمن كل بيت فيها لوناً من ألوان البديع، وذكر بإزاء كل بيت اللون الذي يطوى فيه، ولم تصل إلينا القصيدة غير أن صاحب فوات الوفيات ذكر منها ستة وثلاثين بيتاً. وإذا مضينا إلى القرن الثامن التقينا بصفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة ورأيناه ينظم قصيدة في مديح الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على شاكلة بردة البوصيري مفتتحاً لها بقوله:

إن جئتَ سَلْعًا فسَلْ عن جِيرة العَلَمِ ‏ ‏ ‏ ‏ واقْرَ على عُرُبٍ بذِي سَلَمِ

وهي مائة وخمسة وأربعون بيتاً من وزن البسيط، وكل بيت فيها يحمل محسناً من محسنات البديع، وهي تضم نحو مائة وخمسين محسناً، إذ جعل للجناس فيها اثنى عشر لوناً صورها في الأبيات الخمسة الأولى، وواضح أن مطلعها يشتمل على المحسن المعروف باسم براعة الاستهلال، كما يشتمل على لونين من الجناس بين سلام وسلم وبين العَلَم وسلم. وقد سماها الكافية البديعية في المدائح النبوية وصنف لها شرحاً سماه النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية. ويذكر في مقدمته للشرح أنه قرأ ثلاثين كتاباً قبل تأليفه لبديعيته وأنه زاد على ما قرأ محسنات جديدة. وتلقانا بعد صفي الدين بديعيات أخرى وشروح وتلخيصات لكتب البلاغة، ويستمر العلماء في صنع هذه التلخيصات والشروح لا في أزمان المغول والتركمان فحسب، بل أيضاً في زمن العثمانيين، وللشيخ عبد الله السويدي المار ذكره كتاب

---

(١) انظر في ترجمة علي بن عثمان كتاب فوات الوفيات (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ٢/ ١١٨ والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٣٦.

في الاستعارة ولمحمد أمين الخطيب العمري بديعية وشرح لها، وللشيخ إبراهيم الحيدري كتاب في البديع ولشهاب الدين الألوسي أبي الثناء شرح وحاشية على كتاب الاستعارات لابن عصام.

وإذا تركنا النشاط البلاغي إلى النشاط النقدي وجدناه على أتمه في مطالع هذا العصر، وأول ما يلقانا منه كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي(١) الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ وقد استهل الكتاب(٢) بالحديث عن مذهبين مختلفين في فهم الشعر ونقده وصنعه وعمله، وهما مذهب المجددين من أنصار أبي تمام أصحاب المعاني والفلسفة والبديع، ومذهب المحافظين من أنصار البحتري الذين يتمسكون بعمود الشعر العربي وتقاليده مؤثرين حسن العبارة وحلاوة اللفظ وجمال أنغامه. ويمضي الآمدي فيصور جدلاً بين أصحاب المذهبين في فن الشاعرين وأيهما يتفوق على صاحبه، عارضاً احتجاجات أصحاب أبي تمام وردود أصحاب البحتري عليهم، ومن أطرف ما احتجوا به أن أبا تمام صاحب مذهب جديد في الشعر وصناعته ونوقش مذهبه مناقشة واسعة. ويتحدث الآمدي بعد ذلك عن سرقات الشاعرين وأخطائهما، وهو يتحيز في الموازنة للبحتري تحيزاً واضحاً.

وكان يعاصره المرزباني(٣) محمد بن عمران المتوفى سنة ٣٨٤ وهو خراساني الأصل بغدادي المولد والموطن، وله كتاب الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، وهو سجل لنقد اللغويين من القرن الثاني حتى القرن الرابع لشعراء الجاهلية والإسلام والعصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث، متخللاً ذلك بنظرات نقدية كثيرة له ولسابقيه. ومن أطرف فصوله الفصل الخاص بأبي نواس، وكذلك الفص الخاص بأبي تمام، وقد دون فيه رسالة ابن المعتز في بيان محاسن شعر أبي تمام ومساويه ومنها استمد كل من نقدوا أبا تمام بعده،

---

(١) انظر في الآمدي معجم الأدباء ٨/ ٧٥ وإنباه الرواة ١/ ٢٨٥ وما به من مراجع وروضيات الجنات ٢١٩.

(٢) راجع في تحليل كتاب الموازنة كتابنا النقد (طبع دار المعارف) ص٦٤ وما بعدها وكتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص١٢٨.

(٣) انظر في المرزباني تاريخ بغداد ٣/ ١٣٥ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٦٨ وابن خلكان ٤/ ٣٥٤ والشذرات ٣/ ١١١ وميزان الاعتدال ٣/ ٦٧٢ والوافي بالوفيات ٤/ ٢٣ وعبر الذهبي ٣/ ٢٧ ولسان الميزان ٥/ ٢٣٦.

مثل ابن عمار القطربُّلي المتوفى سنة ٣١٩ في رسالته التي كتبها في أخطاء أبي تمام، وكذلك الآمدي في موازنته السالفة. وفي رأينا أن هذه الرسالة هي التي دفعت الصولي للانتصار للشاعر وكتابة مصنفه عنه المعروف باسم أخبار أبي تمام. وحينما يتحدث الآمدي عن أنصار أبي تمام إنما يريده. ونلتقي بناقد مهم للمتنبي سبق أن عرضنا له في حديثنا عن النشاط البلاغي وهو أبو علي الحاتمي البغدادي الذي تصدى للشاعر الكبير ينقده نقداً مجحفاً في كثير من الأحوال، وله فيه رسالة عما وافق فيه المتنبي كلام أرسطو. حاول فيها أن يرد كثيراً من حِكمه إلى أقوال الفيلسوف، وبمجرد أن نطلع عليها نعرف أن المتنبي على فرض أنه استعار بعض حكمه من أرسطو أعطاها صياغة جديدة باهرة، وفي الحق أن جمهور حكمه إنما هو من تجاربه ومن خبرته بالحياة الإنسانية. وللحاتمي فيه رسالة ثانية أو كتاب ثان هو الموضحة[1] وفيها يذكر أن الوزير المهلبي هو الذي دفعه إلى نقد المتنبي، ويقول إن معارك نشبت بينه وبين المتنبي حين لقيه، ويصور في الكتاب هذه المعارك وأنها امتدت في عدة مجالس، كان أولها في الدار التي نزل فيها المتنبي، أمام طائفة من العلماء الأدباء. وقد أخرج الحاتمي الكتاب بعد وفاة صاحبه ولعله تزيَّد فيه، وهو يذكر حدود الشعر ويتحدث عن سرقات المتنبي وعيوبه ويوازن بين معانيه ومعاني أبي تمام والبحتري. والتجني على المتنبي واضح في الكتاب، فلم يكن يمسك في يده بمعايير نقدية منصفة. ومع ذلك فإن كثيرين من نقاد المتنبي بعده حملوا عنه نقده وأذاعوه في كتبهم ودراساتهم. ويُشْغَل كثيرون بالمتنبي في جميع البلدان العربية، وسنرى في إيران مباحث كثيرة عنه وعن شعره.

ويلقانا في العراق ابن الدهان[2] سعيد بن المبارك المتوفى سنة ٥٦٩ وله رسالة في سرقات المتنبي سماها " الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية " وقد وقف فيها طويلاً عند سرقاته من أبي تمامالطائي، وعُني ببيان سرقاته من البحتري الطائي أيضاً، ولذلك قد تسمى في بعض المصادر

---

(١) حقق الدكتور محمد يوسف نجم هذا الكتاب ونشره في بيروت.

(٢) انظر في ابن الدهان معجم الأدباء ١١/ ٢١٩ ونكت الهميان ص١٥٨ وإنباه الرواة ٢/ ٤٧ وابن خلكان ٢/ ٣٨٢ والشذرات ٤/ ٢٢٣.

باسم " المآخذ الكندية من المعاني الطائية" ولابن الأثير كتاب يرد فيه على هذه المآخذ سماه " الاستدرك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية "، عني فيها بالرد على ابن الدهان في مآخذه على المتنبي وقد وزع أكثرها على جانبين هما: مآخذه على ابن الدهان فيما زعمه من مآخذ المتنبي من أبي تمام، واستدراكه على ما فات ابن الدهان من مآخذ المتنبي أو سرقاته من أبي تمام. وهو يستهل الرسالة ببيان عيوب ابن الدهان في مبحثه، ذاكراً أنه ترك من سرقات المتنبي من أبي تمام مثلما أخذ، وأنه قد يعد بيتاً للمتنبي مسروقاً من صاحبه، وبتأمله يلاحظ أنه غير مسروق، وأنه قد يعزو إلى المتنبي وأبي تمام البحتري أبياتاً ليست لهم، وأنه أطال مقدمة كتابه أو رسالته فكان كمن بنى داراً فجعل دهليزها ذراعاً وعرضاً شبراً، على أنها لا تناسب الكتاب ولا تشاكله. ولابن الأثير في الكتاب- شأنه في كتاب المثل السائر- نظرات نقدية كثيرة جيدة. ولابن أبي الحديد رسالة في نقد المثل السائ لابن الأثير سماها " الفلك الدائر على المثل السائر" وهي إلى أن تكون نقداً لغوياً أقرب منها إلى أي نقد آخر، ورد عليه كثيرون منتصرين لابن الأثير مثل محمود بن الحسين السنجاري المتوفى سنة ٦٤٠ في كتابه "نشر المثل السائر وطي الفلك الدائر".

ولصفي الدين الحلي المار ذكره في البديعيات كتاب نفيس في الأشعار العامية الشعبية سماه " العاطل الحالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي " عرض فيه فنون الشعر العامي من الزجل والمواليا والقوما والكان وكان موضحاً نشأتها وتاريخها وأوزانها وقوافيها وما يجوز فيها وما لا يجوز. ويلاحظ أنه سبقت الأزجال في الأندلس قصائد عامية ذات قافية واحدة كقصائد " الشعر الفصيح " كانت تسمى بالقصائد الزجلية، ثم نوعوا فيها الأوزان والقوافي على شاكلة الموشح. وهو يقوم في ضبط أوزان الأشعار العامية مقام ابن سناء الملك المصري في ضبطه للموشحات بكتابه المعروف " دار الطراز". وتعرض صفي الدين الحلي لبعض أشعار ابن سناء الملك بنقد لغوي ذاهباً إلى أنه لما قلد الأندلسيين في موشحاته وجعل خرجاتها عامية كثر في نظمه استخدام اللفظ العامي، ويضرب لذلك بعض الأمثلة- في رأيه- من شعره. وقد صحح هذه الأمثلة وردها الصفدي في شرحه للامية العجم الذي سماه "الغيث الذي انسجم في شرح لامية

العجم". ولا نعود نسمع عن كتاب مهم في النقد بالعراق بعد كتاب العاطل الحالي، فقد انصرف الباحثون إلى الدراسات البلاغية بين شروح وتلخيصات كثيرة.

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

مر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني نشاط العراق في روايته لقراءات الذكر الحكيم وكيف أن ابن مجاهد استخلص منها سبعاً، هي قراءات الأئمة: نافع في المدينة وعبد الله بن كثير في مكة وعاصم وحمزة والكسائي في الكوفة وأبي عمرو بن العلاء في البصرة وعبد الله بن عامر في دمشق، وشاعت في العالم الإسلامي إلى اليوم مدوَّنة بكتابه السبعة الذي مضى العلماء منذ عصره يتدارسونه[1] وألَّف كتاباً ثانياً في شواذ القراءات عني بالتعليق عليه ابن جني مسمياً تعليقه المحتسب، وهو محقق ومنشور بالقاهرة. وذهب كثيرون بعد ابن مجاهد إلى أنه لا تقل عن القراءات السبع التي دونها بكتابه قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع شيخ نافع المتوفى سنة ١٣٠ للهجرة ويعقوب بن إسحق الحضرمي البصري المتوفى سنة ٢٠٥ وخلف بن هشام البغدادي المتوفى سنة ٢٢٩. وبضم هذه القراءات إلى قراءات ابن مجاهد تصبح القراءات عشراً وتؤلف فيها الكتب. ويضم إليها كثيرون أربع قراءات هي قراءة ابن مُحَيْصِن المكي معاصر ابن كثير وقراءة الأعمش الكوفي وقراءة اليزيدي البصري تلميذ أبي عمرو بن العلاء وقراءة الحسن البصري. وبذلك تصبح القراءات أربع عشرة. وتنشط العراق في التأليف فيها، تارة يؤلف العلماء في السبع وتارة يؤلفون في العشر أو في الأربع عشرة. فمن ذلك كتاب الجامع في القراءات العشر لعلي بن محمد الخياط المتوفى سنة ٤٠٥ وكتاب الروضة للحسن البغدادي في إحدى عشرة قراءة وقد توفي سنة ٤٣٨ وكتاب المفيد في القراءات العشر لأبي نصر البغدادي المتوفي سنة ٤٤٢ وكتاب التذكار في القراءات العشر لابن شيطا البغدادي المتوفى سنة ٤٤٥ وكتاب المستنير لأحمد بن علي بن سوار البغدادي المتوفى سنة ٤٩٦ وهو أيضاً في القراءات العشر وكتاب المهذب في القراءات العشر لمحمد بن أحمد بن الخياط البغدادي المتوفى سنة ٤٩٩ وكتاب الإرشاد في العشر للواسطى المتوفى سنة ٥٢١ وكتاب الموضح والمفتاح في القراءات العشر لابن خيرون

(١) حققت ونشرت في دار المعارف هذا الكتاب.

البغدادي المتوفى سنة ٥٣٩ وكتاب المبهج في القراءات الثمان لسبط الخياط البغدادي المتوفى سنة ٥٤١ وله كتاب الكفاية في القراءات الست، وكتاب المصباح في القراءات العشر لأبي الكرم البغدادي المتوفى سنة ٥٥١ وكتاب الكنز في القراءات العشر لأبي محمد عبد الله الواسطي المتوفى سنة ٧٤٠ وله كتاب الكفاية وهي قصيدة في القراءات العشر على وزن القصيدة المشهورة باسم الشاطبية ورويها، وكذلك لمعاصره أبي الحسن علي الديواني الواسطي المتوفى سنة ٧٤٣ قصيدة مماثلة للشاطبية. وكل هذه الكتبعرف بها ابن الجزري في كتابه " النشر[1] في القراءات العشر" وترجم لأصحابها في كتابه غاية النهاية في طبقات القراء.

وإذا انتقلنا إلى التفسير والمفسرين وجدنا العراق تنشط في التفسير الفقهي والاعتزالي والسني والشيعي، وقلم عنيت بالتفسير الصوفي، وكأنها تركته لمتصوفة خراسان وإيران من أمثال أبي عبد الرحمن السلمي والقشيري ومتصوفة الأندلس من أمثال ابن عربي. وقد عنيت مبكرة بالتفسير الفقهي، على نحو ما نرى عند ابن الجصاص[2] أحمد بن علي المتوفى سنة ٣٧٠ في كتابه أحكام القرآن، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء بالاقهرة، ومثله كتاب أحكام القرآن للكيا[3] الهراسي المتوفى سنة ٤٥٤ وأصله مثل ابن الجصاص إيراني، ولكنهما نزلا بغداد، واستقرا فيها أما ابن الجصاص فقد نزلها سنة ٣٢٥ وتلقى بها العلم، ثم أصبح مدرساً للفقه الحنفي وتركها بأخرة إلى نيسابور حيث توفي فيها، وأما الكيا الهراسي فقد درس في نيسابور وعلم في إحدى قراها المسماة بيهق. ثم خرج إلى العراق وتولى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد حتى توفي، وكان في خدمته بها الشاعر الغزي المشهور. وألفت في أحكام القرآن كتب أخرى ليس لها شهرة الكتابين السابقين. وقد ذكرنا في العصر العباسي الثاني تفسيرات المعتزلة فيالقرن الثالث الهجري، ويستمر نشاط المعتزلة في تفسير الذكر الحكيم لهذا العصر وخاصة في أوائله، ويلقانا فيه تفسير لعلي بن عيسى الرماني

---

(١) انظر في الكتب السالفة وأصحابها النشر في القراءات العشر لابن الجزري (طبع القاهرة) ١/ ٧٤-٩٥.

(٢) راجع في ترجمة ابن الجصاص الجواهر المضية ١/ ٨٤ وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلو بغا رقم ١١ وبستان المحدثين لعبد العزيز الدهلوي ١٢٦ و"النجوم الزاهرة" ٤/ ١٣٨ والفوائد البيهية ص٢٧.

(٣) انظر في الكيا الهراسي المنتظم ٩/ ١٦٧ وتبيين كذب المفترى ٢٨٨ والسبكي ٧/ ٢٣١ وعبر الذهبي ٤/ ٨ والشذرات ٤/ ٨ وابن خلكان ٣/ ٢٨٦.

المعتزلي، ومر بنا أنه توفي سنة ٣٨٤ وكان يقول: تفسيري بستان يجتنى منه ما يشتهى، وقيل لصاحب بن عباد معاصره هلا تصنف تفسيراً؟ فقال: وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً(١)، ويقول صاحب النجوم الزاهرة: " له كتاب التفسير الكبير وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال، وسلك الزمخشري سبيله وزاد عليه "(٢). ومن هذا الاتجاه الاعتزالي كتاب التفسير الكبير لعبد السلام(٣) بن محمد القزويني نزيل بغداد وشيخ العتزلة المتوفى سنة ٤٨٨ ويقول السمعاني إنه مزج تفسيره بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو في ثلاثمائة مجلد، منها سبع مجلدات في سورة الفاتحة، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إن الكتاب كان وقفاً في مشهد أبي حنيفة ببغداد. ويبدو أن المعتزلة اكتفوا فيما بعد بتفسير الزمخشري المسمى بالكشاف، إذ لم ينشطوا بعده للتأليف في تفسير القرآن.

ويظل التفسير السني مزدهراً بعد تفسير الطبري الذي عرضنا له في العصر العباسي الثاني، ومن التفسيرات السنية المهمة في العصر تفسير النقاش(٤) البغدادي محمد بن الحسن المتوفى سنة ٣٥٠ كان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير، وقد سمي تفسيره شفاء الصدور، وطوّف من مصر إلى ما وراء النهر في لقاء المشايخ ولكنهم ضعفوا أحاديثه، وقالوا إنه ليس بثقة على جلالته ونبله. ولأبي الحسن الماوردي إمام الشافعية في عصره المتوفى ما مر بنا سنة ٤٥٠ تفسير من أجل التفاسير. ويلقانا تفسير سني لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية وهو لأحمد(٥) بن محمد الغزالي أخي الإمام الغزالي مدرس النظامية ببغداد المتوفى سنة ٥٢٠. واشتهر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ بتفسيره الذي سماه " زاد

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص١١٥.

(٢) النجوم الزاهرة ٤/ ١٦٨.

(٣) انظر طبقات المفسرين ١٩ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٥٦ وتذكرة الحفاظ ٤/ ٨ ولسان الميزان ٤/ ١١ والسبكي ٥/ ١٢ والشذرات ٣/ ٣٨٥.

(٤) راجعه في تاريخ بغداد ٢/ ٢٠١ ومعجم الأدباء ١٨/ ١٤٦ وتذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد) ٣/ ١١٥ وطبقات القراء لابن الجزري ٢/ ١١٩ وميزان الاعتدال ٣/ ٥٢١ وابن خلكان ٤/ ٢٩٨ والسبكي ٣/ ١٤٥.

(٥) انظره في المنتظم ٩/ ٢٦٠ وميزان الاعتدال ١/ ١٥٠ وابن خلكان ١/ ٩٧ والسبكي ٦/ ٦٠ والشذرات ٤/ ٦٠ ومرآة الجنان ٣/ ٢٢٤ ولسان الميزان ١/ ٢٩٣.

المسير في علم التفسير". ومن أصحاب التفاسير السنية الرَّسْعَنى(١) عبد الرزاق المتوفى سنة ٦٦١ وفيه يقول السيوطي: "صنف تفسيراً حسناً يروي فيه بأسانيده". ومنهم علاء الدين علي بن محمد البغدادي صاحب التفسير المعروف بتفسير الخازن(٢) المتوفى سنة ٧٤١، وهو مليء بالإسرائيليات. ومن خير التفاسير السنية تفسير ذاع وشاع منذ تأليفه في القرن الماضي، وهو كتاب "روح المعاني تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" لشهاب الدين محمود الألوسي الذي مر ذكره والمتوفي سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م، وهو يعني في تفسير ببيان أسباب النزول وبتفسير آي القرآن بعضها ببعض، وتفسيرها بالحديث النبوي، ويُعْنَى باللغة ومسائل النحو والبلاغة، وق اعتمد على كثير من مصادر التفسير في القديم، وخاصة على الكشاف والبيضاوي والفخر الرازي، وهو يخوض مثل الفخر في مباحث فلسفية ورياضية وطبيعية كثيرة. وقد عُني عناية واسعة بالرد على الطبرسي الشيعي في تفسيره، وخاصة مسائل الإمامية الاعتقادية. ونراه يعني بالرد في مسائل كثيرة على حجج الشافعية، وخاصة تلك التي يثيرها المفسر الشافعي الكبير الفخر الرازي في تفسيره. ومع أنه كان حنفياً، والحنفية غالباً كانوا معتزلة أو ما تريدية، نراه في تفسيره أشعرياً، وهو ذلك يلتقي مع الفخر الرازي في نصرته للمذهب الأشعري. ويذكر ابن عربي مراراً في تفسيره، ويتضح تأثره به وبتفاسير الصوفية عامة حين نراه في كثير من الآيات بعد أن يوضح المراد منها يتغلغل في معان باطنة لا يدل عليها ظاهرها أي دلالة، ومن الغريب أنه يذكر مراراً أن قَصْر مراد الله على التأويلات البعيدة كفر صريح ومع ذلك نراه أحياناً يتمادي فيها، وكان حرياً أن يخلي تسفيره منها ومن شوائبها إخلاءً تاماً.

وقد ذكرنا في العصر العباسي الثاني للتفسير الشيعي بعض التفاسير التي نسبها الشيعة إلى أئمتهم، مثل تفسير الإمام الحسن العسكري المتوفي سنة ٢٦٠ وهو الإمام الحادي عشر في ترتيب الإمامية، وبجرد إطلاعنا عليه نستبعد أن يكون من صنعه حقاً لركاكة أساليبه

(١) راجعه في طبقات المفسرين للسيوطي رقم ٥٦.

(٢) انظره في طبقات المفسرين للداودي والدرر الكامنة ٣/ ١٧١.

ولما فيه من تأويلات باطنية بعيدة. ويأتي بعده تفسير القمي (١) علي بن إبراهيم المتوفي لأوائل القرن الرابع الهجري، وهو في جملته نقول عن أئمة الإمامية وكثير منها يبعد عن ظاهر النص القرآني ومراده، مما يدل على أن نسبتها إليهم غير صحيحة. وما نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نلتقي بالشريف الرضي المتوفي سنة ٤٠٦ وبتفسيره الذي سماه "حقائق التأويل في متشابه التنزيل" وقد نشر منه في بيروت الجزء الخامس، ومن يطلع عليه يجد له فيه عملين كبيرين: أولهما البعد عن التفسير الباطني الشيعي لآيات الذكر الحكيم، وثانيهما ترك الروايات عن الأئمة والاحتكام إلى العقل، وهو احتكام وصَلَ تفسيرَه بتفاسير المعتزلة، والصلة بين المعتزلة والشيعة الإمامية قديمة ومعروفة، وتتردد في التفسير أسماء بعض أعلامهم مثل أبي علي الجُبَّائي وعلي بن عيسى الرمَّاني والقاضي عبد الجبار. واتجه نفس الوجهة أخوه الشريف المرتضى (٢) في كتابه "الأمالي" إذ نراه فيه يقف إزاء الآيات التي قد يفيد ظاهرها التشبيه على الذات العليا أو الجبر ليؤولها على الطريقة المعتزلة، وفي الوقت نفسه لا يروي فيها نقولاً عن الأئمة. وبذلك يُعِدّان للتفسير بالرأي والعقل في بيئة الإمامية، واستضاء بعملهما في هذا الاتجاه الطوسي (٣) أبو جعفر محمد بن الحسن تلميذا الشريف المرتضى، وقد توفي سنة ٤٦٠ واستهر بتفسير للذكر الحكيم سماه "التبيان في تفسير القرآن" وهو مطبوع بالنجف في عشرة أجزاء، وقد عُني في تفسيره بالتقريب بين تفسيرات الشيعة وتفسيرات أهل السنة. إذ روى في تفسيره عن الصحابة من أمثال أبي بكر الصديق وعمر. وكذلك عن التابعين دون تعصب مذهبي، ووضع بجانبهم ما نقله عن الأئمة في عقيدته الإمامية، واتخذ تفسير الطبري السني هادياً له في تفسيره، وكما نقل عن كتب الحديث الشيعية مثل الأمالي لابن بابويه القمي وأمالي ابن النعمان المفيد نقل عن كتب الحديث المشهورة لأهل السنة مثل مسند ابن حنبل وكتب الصحاح الستة. وعلى

---

(١) انظره في طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٨٥ والذريعة إلى تصانيف الشيعة لإبزرك ٤/ ٣٠٢ وتفسيره مطبوع بالنجف.

(٢) راجع في الشريف المرتضى تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٢ وتتمة اليتيمة ١/ ٥٣ وابن خلكان ٣/ ٣١٣ ومعجم الأباء ١٣/ ١٤٦ وإنباه الرواة ٢/ ٢٤٩ وما به من مراجع.

(٣) انظر في الطوسي المنتظم ٨/ ٢٥٢ والنجوم الزاهرة ٥/ ٨٢ ولسان الميزان ٥/ ١٣٥ وروضات الجنات ٥٨٠ ودائرة المعارف الإسلامية.

ضوء دراسات الشريفين المرتضى والرضى عُنى بالتفسير العقلي وفسح للتأثر بالمعتزلة في نفي التشبيه عن الذات العليا. وليس معنى ذلك كله أنه تخلص في تفسيره من عقيدته الإمامية، بل لقد نصرها في مواطن كثيرة وخاصة عقيدتهم في الإمام وأنه معصوم وحجة الله في أرضه وصاحب علم باطني متوارث إلى غير ذلك من أصول العقيدة الإمامية، وقد تأثر به الطَّبَرْسي في تفسيره تأثراً واسعاً.

وكانت بغداد داراً قديمة للحديث، وظلت شديدة العناية به وبحفَّاظه طوال هذا العصر، وأول من نلقاه من أعلامه البَزّاز محمد [1] بن عبد الله المتوفي سنة ٣٥٤ وله كتاب العوالي في الحديث وهي مجموعة يمتاز سندها بقلة رواته، وكان يعاصره الآجري [2] أبو بكر محمد بن الحسين المتوفي سنة ٣٦٠ وله كتاب يضم أربعين حديثاً مختارة، ويخلفهما الدار قُطْني [3] علي بن عمر المتوفي سنة ٣٨٥ وهو منسوب إلى محلة ببغداد تسمى دار قطن، وله كتاب السنن" وقد نُشر قديماً في دلهي، واشتهر الدار قطني بأنه تعقب في كتابه الاستدراكات وجوه الضعف في بعض أحاديث رواها الشيخان: البخاري ومسلم، وله كتاب في الضعفاء والمتروكين من الرواة "وكتاب في العلل، وآخر في غريب الحديث. وكان يعاصره الكلاباذي[4] أحمد بن محمد المتوفي سنة ٣٩٨ وله كتاب في رجال البخاري، وجاء بعده اللالكائي [5] هبة الله بن الحسن محدث بغداد المتوفي سنة ٤١٨ وله كتاب في رجال الصحيحين وكتاب في السنن، وكان يعاصره البَرْقاني [6] أحمد بن محمد شيخ بغداد المتوفي سنة ٤٢٥ وله مصنفات مختلفة في الحديث، منها مسند ضمنه ما اشتمل عليه صحيح

---

(١) انظره في تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٠٦ وطبقات الحفاظ للسيوطي ١٢١. وبروكلمان ٣/ ٢٠٧.

(٢) راجعه في تذكرة الحفاظ ٣/ ١٣٩ وتاريخ بغداد ٢/ ٢٠٣ والسبكي ٣/ ١٤٩ وابن خلكان ٤/ ٢٩٢ والشذرات ٣/ ٥٣ والمنتظم ٧/ ٥٥ والوافي ٢/ ٣٧٣.

(٣) انظره في تاريخ بغداد ١٢/ ٣٤ والمنتظم ٧/ ١٨٣ أو الأنساب ٢١٧ وطبقات القراء ١/ ٥٥٨ والسبكي ٣/ ٤٦٢ وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٨٦ وابن خلكان ٣/ ٢٩٧ وعبر الذهبي ٣/ ٢٨ واللباب ١/ ٤٠٤.

(٤) انظره في تذكرة الحفاظ ٣/ ٢١٦ وتاريخ بغداد ٤/ ٤٣٤ وبروكلمان ٣/ ٢٢٨.

(٥) تذكرة الحفاظ ٣/ ٢٦٧ وتاريخ بغداد ١٤/ ٧٠.

(٦) تذكرة الحفاظ ٣/ ٢٥٩ وتاريخ بغداد ٤/ ٣٧٣ والسبكي ٤/ ٤٧ والمنتظم ٨/ ٧٩.

البخاري ومسلم. ثم يلقانا الخطيب (١) البغدادي أحمد بن علي بن ثابت المتوفي سنة ٤٦٣ وكان في وقته حافظ المشرق الذي لا يدافع، وله مصنفات كثيرة في الحديث ورجاله، ومن أطرف ماله كتاب تقييد العلم، وفيه يتحدث عن تدوين الحديث وأوائل من دونوه. وكان يعاصره ابن ماكولا (٢) المتوفي سنة ٤٧٥ وهو صاحب الإكمال تتبع فيه الألفاظ المشتبهة في أسماء رواة الحديث، يقول ابن خلكان: هو في غاية الإفادة في رفع الالتباس والضبط والتقييد وعليه اعماد المحدثين وأرباب هذا الشأن فإنه لم يوضع مثله ولقد أحسن فيه غاية الإحسان. ومن محدِّثي القرن السادس ابن الجوزي عبد الرحمن ابن علي المتوفي سنة ٥٩٧، وله عدة مصنفات في الحديث من أهمها كتابه "الموضوعات" في أربعة أجزاء ذكر فيها الأحاديث الموضوعة، وكان يعاصره مجد الدين المبارك بن محمد المعروف بابن (٣) الأثير الجزري الموصلي المتوفي سنة ٦٠٦ وله جامع الأصول في أحاديث الرسوم جمع فيه بين الصحاح الستة، وله أيضاً كتاب النهاية في غريب الحديث. وجاء بعده ابن نقطة (٤) محمد بن عبد الغني الحنبلي المتوفي سنة ٦٢٩ وله ذيل على الإكمال لابن ماكولا في مجلدين، وله كتاب التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد. وكان يعاصره ابن الدُّبَيْثي وابن النجار وسنعرض لهما في حديثنا عن علم التاريخ. وجاء بعدهما من كبار الحفاظ ابن الفُوَطِيّ المتوفي سنة ٧٢٣ وسنذكره معهما. وجاء بعده صفي الدين الحسين (٥) بن بدران مدرس الحديث بالمستنصرية المتوفي سنة ٧٤٩ وخلفه الكرماني شمس الدين محمد بن يوسف المتوفي سنة ٧٨٦ وله

(١) انظره في تذكرة الحفاظ ٣/ ٣١٢ وتهذيب ابن عساكر ١/ ٣٩٨ ومعجم الأدباء ٤/ ١٣ والمنتظم ٨/ ٢٦٥ والعبر ٣/ ٢٥٣ والشذرات ٣/ ٣١١ والسبكي ٤/ ٢٩ وابن خلكان ١/ ٩٢ وكتاب الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدها ليوسف العش.

(٢) راجعه في تذكرة الحفاظ ٤/ ١ والمنتظم ٩/ ٥ ومعجم الأدباء ١٥/ ١٠٢ وابن خلكان ٣/ ٣٠٥ وعبر الذهبي ٣/ ٣١٧ والشذرات ٢/ ٣١٨ وفوات الوفيات ٢/ ١٨٥.

(٣) انظره في تذكرة الحفاظ ٤/ ١٨٥ وابن خلكان ٤/ ١٤١ ومعجم الأدباء ١٧/ ٧١ وإنباه الرواة ٣/ ٢٥٧ ومرآة الجنان ٤/ ١١ والسبكي ٨/ ٣٦٦ والعبر ٥/ ١٩ وروضات الجنات ٥٨٥.

(٤) راجعه في تذكرة الحفاظ ٤/ ١٩٧ والعبر ٥/ ١١٧ وابن خلكان ٤/ ٣٩٢ والشذرات ٥/ ١٣٢.

(٥) انظره في الدرر الكامنة ٢/ ١٣٩ والشذرات ١/ ١٦٣.

الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، وهو مطبوع بالقاهرة. وتلاه ابنه تقي الدين يحيى البغدادي المتوفي سنة ٨٣٣ وله شرح علي صحيحي البخاري ومسلم.(١)

وحتى الآن لم نعرض لكتب الحديث عن الشيعة الإمامية، ومن أهمها عندهم كتاب الآمالي لابن بابويه القمي المتوفي سنة ٣٨١ ولا يقل عنه أهمية كتاب الأمالي للمفيد(٢) محمد بن محمد بن النعمان المتوفي سنة ٤١٣ وهو أستاذ الطوسي المفسر الذي مر ذكره، وأماليه مطبوعة بالنجف، وهي تشتمل على اثنين وأربعين مجلساً تقتصر على أحاديث مروية عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته وللطوسي كتب مختلفة في الحديث مطبوعة بالنجف وأهمها الاستبصار فيما اختلف من الأخبار، وهو من الكتب الأربعة الأساية في العقيدة الإمامية. ودائماً كتب الشيعة الإمامية في العقيدة مشحونة بالأحاديث، وظل ذلك طوال هذا العصر على نحو ما نجد عند المطهر(٣) الحلي الحسين بن يوسف المتوفي سنة ٧٢٦ وكان رأس الشيعة الإمامية الاثنى عشرية بالحِلة، ولازم النصير الطوسي مدة واشتغل في العلوم العقلية- كما يقول ابن حجر- فمهر فيها، وله مصنفات كثيرة في الإمامة والشريعة، ردَّ عليه فيها ابن تيمية وأظهر- كما يقول ابن حجر- أن كثيراً من الأحاديث عنده غير صحيحة.

وكما كانت بغداد داراً للحديث وحفاظه كانت أيضاً داراً للفقه والفقهاء، وأول مذهب فقهي تقف عنده مذهب أبي حنيفة، ولعل أو فقيه حنفي جدير بالوقوف عنده في هذا العصر القدوري(٤) أحمد بن محمد المتوفي سنة ٤٢٨ وله مختصر مشهور في الفقه الحنفي لا يزال يدرس إلى اليوم وقد طُبع طبعات مختلفة واهتم به العلماء الأحناف بعده وصنعوا له شروحاً مطولة وموجزة. وكان يعاصره أبو زيد الدبوسي(٥) عبد الله بن عمر المتوفى سنة

---

(١) راجعه في الضوء اللامع ١٠/ ٢٥ والعزاوي ١/ ٦٧.

(٢) انظره في كتاب الرجال للنجاشي ٢٨٣ ومنهج المقال للأستراباذي ٣١٧ وروضات الجنات ٥٦٣ وبروكلمان ٣/ ٣٤٩.

(٣) راجعه في الدرر الكامنة لابن حجر (طبعة دار الكتب الحديثة) ٢/ ١٥٨ والعزاوي ١/ ١٦٦.

(٤) انظره في تاريخ بغداد ٤/ ٣٧٧ وابن خلكان ١/ ٧٨ والعبر ٣/ ١٦٤ وتاج التراجم رقم ١٣ والجواهر المضية ١/ ٩٣ والفوائد البهية للكنوي ١٧ وبروكلمان ٣/ ٢٦٩.

(٥) راجع في الدبوسي الفوائد البهية ٢٥ والجواهر المضية ٢/ ٢٥٢ وابن خلكان ٣/ ٤٨ وتاج التراجم رقم ١٠٧ وبروكلمان ٣/ ٢٧٣.

٤٣٠ وله تأسيس النظر في الخلاف، وهو مطبوع في القاهرة، ويقال أنه أول من أسس علم الخلاف بين الفقهاء ومذاهبهم المتقابلة. ومنذ أبي يوسف في عهد الرشيد وعنايته بأن يجعل على القضاء فقهاء الأحناف في بغداد وغيرها نشط الفقه الحنفي في العراق، وكان مما ساعد على ذلك المدرسة التي بناها المستوفي الخوارزمي في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي للحنفية(١) عند مشهد الإمام أبي حنيفة، وحين بنى المستنصر مدرسته المستنصرية - كما مر بنا - جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي إيواناً فيه المسجد وموضع التدريس. وبذلك ظل لفقهاء الحنفية نشاطهم. ومنهم مظفر(٢) الدين بن الساعاتي المدرس بالمستنصرية المتوفى ببغداد سنة ٦٩٦ وله كتاب مجمع البحرين شرحه في مجلدين. ومنهم أبو البركات(٣) النسفي، المتوفى سنة ٧٠١ وله مصفات مختلفة في الفقه الحنفي، من أهمها الكنز وله شهرة كبيرة في تدريس المذهب، وعليه شروح كثيرة ونلتقي منذ هذا التاريخ بشروح ومتون مختلفة في الفقه الحنفي.

وكان البغداديون أقل عناية بالفقه المالكي، وأكثر من كانوا يعتنقون هذا المذهب وفدوا على بغداد، ومع ذلك نجد من حين إلى حين فقيهاً مالكياً كبيراً بغدادياً أو عراقياً مثل الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ وكان شيخه ابن مجاهد محمد بن أحمد الطائي مالكياً مثله(٤). وممن وفدوا على العراق أبو العباس المالكي أحمد(٥) بن محمد المتوفى سنة ٥٠٧. وكانت حلقة المذهب في المدرسة المستنصرية كما ذكرنا آنفاً سبباً في أن يظل حياً بالعراق، ويظل له شيوخه وفقهاؤه.

وكان الفقه الشافعي أكثر نشاطاً من فقه المذهبين المالكي والحنفي، ومن أهم فقهائه أبو(٦) حامد المروروذي أستاذ أبي حيان التوحيدي، وعنه حمل المذهب فقهاء البصرة، وقد

---

(١) ابن خلكان ٥/ ٤١٤.

(٢) انظره في تاج التراجم ص٦ والجواهر المضية ١/ ٨٠ والفوائد البهية ١٦. وبروكلمان ٦/ ٣٥٧.

(٣) ستذكر مصادر ترجمته في القسم الخاص بإيران.

(٤) السبكي ٣/ ٣٦٨.

(٥) المنتظم ٩/ ١٧٥.

(٦) انظره في السبكي ٣/ ١٢ وابن خلكان ١/ ٦٩ والعبر ٢/ ٣٢٦ والشذرات ٣/ ٤٠.

توفي سنة ٣٦٢ ويلقانا بعده في بغداد أبو حامد الإسفرايني(١) المتوفى سنة ٤٠٦ وله في المذهب التعليقة الكبرى، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة فقيه. ومن نابهي فقهاء المذهب ببغداد المحاملي(٢) الضبي المتوفى سنة ٤١٥ وله كتاب اللباب في الفقه الشافعي واختصره أبو زرعة العراقي المتوفى سنة ٨٢٦ واختصر هذا المختصر شيخ الإسلام المصري زكريا الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦. ومر بنا حديث عن الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ وكتابه الأحكام السلطانية، وقد درَّس المذهب في البصرة وبغداد، وله في الفقه كتابان هما الحاوي والإقناع ونشر له في العراق كتاب أدب القاضي في مجلدين، وقد ذكرنا له كتاباً في التفسير. ويزدهر المذهب الشافعي في العراق منذ تأيس نظام الملك لمدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٥٨ وأسس لها أختين في البصرة والموصل، ووقف عليها جميعاً أوقافاً كثيرة، وجعل التدريس فيها خاصاً بفقهاء الشافعية لا في الفقه وحده بل في مختلف العلوم، وقد أسند تدريس المذهب في نظامية بغداد لأبي إسحق الشيرازي أحد أئمته المشهورين، ويظل يتداول وظائفها كبار الفقهاء في المذهب، مما أحدث فيه ازدهاراً حقيقياً لا في بغداد وحدها بل أيضاً في البصرة والموصل، ويعنى السبكي في طبقاته بالترجمة لأعلام الشافعية في العراق وإحصاء مصنفاتهم ولن نستطيع أن نتابعه، ونكتفي بأن نذكر من بين من ترجم لهم الشهرزوري(٣) قاضي القضاة محمد بن محمد المدرس بنظامية الموصل المتوفى سنة ٥٨٦ وابن فضلان(٤) محمد بن واثق مدرس المستنصرية المتوفى سنة ٦٣١ وابن يونس(٥) الموصلي عبد الرحيم بن محمد المتوفى سنة ٦٧١، وله التعجيز: مختصر الوجيز والنبيه في اختصار التنبيه ومختصر المحصول في أصول الفقه، ويقول السبكي: "كان آية في القدرة على الاختصار، ومن أحسن مختصراته في الفقه كتاب سماه "نهاية النفاسة" قل أن رأيت مثله في عذوبة

---

(١) راجعه في السبكي ٤/ ٦١ وتاريخ بغداد ٤/ ٣٦٨ وابن خلكان ١/ ٧٢ والعبر ٣/ ٩٢ والشذرات ٣/ ١٧٨.

(٢) انظره في السبكي ٤/ ٤٨ وتاريخ بغداد ٤/ ٣٧٢ والعبر ٣/ ١١٩ والمنتظم ٨/ ١٧ وابن خلكان ١/ ٧٤ والشذرات ٣/ ٢٠٢.

(٣) راجعه في السبكي ٦/ ١٨٥ والعبر ٤/ ٢٥٩ والنجوم الزاهرة ٦/ ١١٢.

(٤) انظره في السبكي ٨/ ١٠٧ والشذرات ٥/ ١٤٦ والعبر ٥/ ١٢٦.

(٥) راجعه في السبكي ٨/ ١٩١ والشذرات ٥/ ٣٣٢ ومرآة الجنان ٤/ ١٧١ وذيل مرآة الزمان ٣/ ١٤.

منطقه وكثرة المعنى وصغر الحجم، وسأله الحنفية أن يختصر لهم مختصر القدوري" أو موجزه فاختصره اختصاراً حسناً. وعلى هذا النحو ظل الفقه الشافعي ناشطاً في العراق بفضل مدارسه وفقهائه. وكان للمدرستين النظامية والمستنصرية في ذلك حظ موفور.

ولعل المذهب الحنبلي كان أكثر المذاهب الفقهية أشيعاً وأنصاراً في بغداد، منذ التف الناس حول مؤسسه أحمد بن حنبل، وقد جعله موقفه من الدولة في إنكار الفكرة القائلة بأن القرآن مخلوق زعيماً شعبياً، وكان ذلك من أسباب ازدهار مذهبه طوال هذا العصر، ويكفي أن نمثل بطائفة من فقهائه، وممن يلقانا منهم في مطالع العصر ابن[١] بطة عبيد الله بن محمد العكبري المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب الإبانة بأصول الديانة، وهو شرح لعقيدة ابن حنبل السنية. ومن نابهيهم في القرن الخامس الشريف أبو[٢] جعفر المتوفى سنة ٤٧٠ كان إمام الحنابلة في عصره، وله رءوس المسائل وشرح المذهب، وجزء في أدب الفقه. ومنهم في القرن السادس أبو الخطاب محفوظ[٣] الكلواذاني المتوفى سنة ٥١٠ أحد أئمة المذهب ومن تصانيفه الهداية في الفقه والخلاف الكبير المسمى بالانتصار في المسائل الكبار، والخلاف الصغير المسمى برءوس المسائل، وكان يعاصره يحيى[٤] بن منده المتوفى سنة ٥١٢ صنف مناقب الإمام أحمد بن حنبل في مجلد كبير، وكان يعاصرهما أبو[٥] الوفاء بن عقيل، المتوفى أيضاً سنة ٥١٢، وله في الفقه الحنبلي كتاب الفصول ويسمى كفاية المفتى، في عشرة مجلدات وكتاب عمدة الأدلة، وأكبر كتبه كتاب الفنون وهو كبير جداًن يقال إنه كان في مائتي مجلد، وهو في الوعظ والتفسير والفقه والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات، وفيه مناظراته ومجالسه، وقال الحافظ الذهبي في تاريخه: لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب. وكان يعاصره ابن أبي يعلى الفراء[٦] المتوفى سنة ٥٢٦ وله تصانيف كثيرة في الفقه

---

(١) انظره في تاريخ بغداد ١٠/ ٣٧١ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٤٦.

(٢) رجعه في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة المعهد الفرنسي بدمشق) ١/ ٢٠.

(٣) انظره في ابن رجب ١/ ١٤٣ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢١٢.

(٤) راجعه في ابن رجب ١/ ١٥٤ وابن خلكان ٦/ ١٦٨ والشذرات ٤/ ٣٢ والعبر ٤/ ٢٥ ومرآة الجنان ٣/ ٢٠٢.

(٥) انظر في ابن رجب ١/ ١٧١ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢١٩.

(٦) راجعه في ابن رجب ١/ ٢١٢.

والأصول، منها المجموع في الفقه، ورءوس المسائل، والمفردات في الفقه، وأيضاً المفردات في أصول الفقه، ونلتقي في أواخر القرن السادس بعلم حنبلي كبير هو ابن الجوزي. وظل الفقه الحنبلي مزدهراً في العراق طوال العصر، ومن فقهائه ابن(١) البرزالي الحنبلي المدرس بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٣٤ وكان يعاصره صفي(٢) الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩ ودرس معه في المستنصرية، وممن درسوا فيها ابن العاقولي(٣) محمد بن محمد المتوفى سنة ٧٩٧. وبجانب هذه المدرسة كان كثير من الحنابلة يدرسون في جامع المنصور وفي بعض مدارس بغداد المتفرقة.

وكان مذهب داود الظاهري في الفقه الذي تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني لا يزال له أنصار في القرنين الأولين من هذا العصر، وهو مذهب كان ينكر القياس والرأي في الفقه، وتبعه كثيرون في المائتين الرابعة والخامسة في الأندلس، إذ عمل هناك ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ على إذاعته، وألف كتباً كثيرة لنصرته، ونجد أحمد تلاميذه وهو الحميدي(٤) محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٩١ يستوطن بغداد منذ أواسط القرن الخامس وفيها أذاع كثيراً مما كان يحمله عن أستاذه ابن حزم. ولا نزال نسمع في العراق وبغداد عن أتباع المذهب الظاهري حتى أوائل القرن السابع الهجري، إذ نجد من معتنقيه أبا سليمان(٥) الداودي الضرير المتوفى سنة ٦١٥. وكان الطبري مفسر القرآن العظيم قد اتخذ لنفسه مذهباً فقهياً يقوم على الاجتهاد، ولكن مذهبه لم ينجح نجاح المذهب الظاهري، ومع ذلك

---

(١) الدرر الكامنة ٥/ ٣ والشذرات ٦/ ١١١.

(٢) ذكر ابن حجر في الدرر الكامنة ٣/ ٣٢ أنه كان شيخ العراق على الإطلاق، وعد له مصنفات كثيرة وقال: أخذ عنه عمر بن علي معيد الحنابلة.

(٣) انظره في الشذرات ٦/ ٣٥١ والدرر الكامنة ٤/ ٣١٤ وراجع ابن حجر في نباء الغمر بأبناء العمر (طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١/ ٥٠٤ حيث يقول إنه انتهت إليه رياسة المذهب الحنبلي ببغداد، ويذكر له كتاب شرح المصابيح وأربعين حديثاً عن أربعين شخصاً.

(٤) انظره في ابن خلكان ٤/ ٢٨٢ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٧ والمنتظم ٩/ ٩٦ والصلة لابن بشكوال (طبع القاهرة) ٥٣٠ والواقي ٤/ ٣١٧.

(٥) راجعه في طبقات القراء ١/ ٢٧٨.

نجد من أتباعه في أواخر القرن الرابع الهجري المعافى[1] بن زكريا النهرواني المتوفى سنة ٣٩٠ وهو من قضاة بغداد، ويقول ابن خلكان في ترجمته: إنه كان للطبري أتباع وأخذ بمذهبه جماعة، منهم المعافى المذكور. وعلى كل حال لم يعش هذا المذهب الفقهي طويلاً، وعاش مدة أطول منه المذهب الظاهري في بغداد، غير أننا لا نعود نسمع به بعد إنشاء المدرسة المستنصرية، إذ كانت العناية فيها فقط بالمذاهب الفقهية الأربعة: مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل.

وكان الفقه الشيعي يقابل كل هذه المذاهب، وكان هناك فقهان: فقه الزيدية وفقه الإمامية، وكانت الكوفة مركز الفقه الأول في القرن الرابع الهجري، وانقسم فقهاؤها إلى أربعة مذاهب على نحو ما يوضح ذلك كتاب الجامع[2] الكافي في فقه الزيدية لأبي عبد الله محمد بن علي الحسني المتوفى سنة ٤٤٥. ويبدو أن نشاط الفقه الزيدي هناك توقف منذ القرن الخامس، إذ استغرق الكوفة وبغداد المذهب الإمامي عند الشيعة، وكأن نشاط الفقه الزيدي انسحب إلى اليمن: أما الفقه الإمامي فيأخذ في النشاط طوال العصر، منذ ألف الكليني[3] الرازي محمد بن يعقوب كتابه الكافي في علم الدين، وقد توفي ببغداد سنة ٣٢٨ وكتابه أحد الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية. وهو يتناول فيه عقيدة الإمامية وأسسها وبه أكثر من ستة عشر ألف حديث. وجاء بعده ابن[4] بابويه القمي تنزيل بغداد الذي ذكرناه في غير هذا الموضع وله كتاب من لا يحضره الفقيه في تطبيق أحكام الفقه، وهو من الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية، وهو مطبوع، وللشيخ المفيد الرسالة المقنعة في أسس التشريع، وهي مطبوعة مع شرح لتلميذه الطوسي في تبريز. وللطوسي كما مر بنا في الحديث كتاب الاستبصار، وهو كتاب فقهي ويعتمدون عليه اعتماداً كلياً في استنباط الأحكام الشرعية، وله أيضاً كتاب تهذيب الأحكام، وهو أيضاً من

---

(١) انظره في ابن خلكان ٥/ ٢٢١ وما به من مراجع.

(٢) انظر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي (طبع دار المعارف) ٣/ ٣٣٤.

(٣) راجعه في الأنساب ٤٨٦ والرجال للنجاشي ٢٦٦ وروضات الجنات ٥٥٠ ولؤلؤة ابحرين ليوسف البحراني ٣١٤ وبروكلمان ٣/ ٣٣٩.

(٤) انظره عند النجاشي ٢٧٦ وفي لؤلؤة البحرين ٣٠٠ وروضات الجنات ٥٥٧ وبروكلمان ٣/ ٣٤٣ ومابه من مراجع.

المصادر الأربعة الأساسية عند الإمامية، وأحاديثه مرتبة على أبواب الفقه الأساسية. وكتبه في الفقه "المبسوط" وهو مطبوع بإيران، وكتاب النهاية في مجرد الفقه والفتاوي، وهو مطبوع، وقد اتخذه الشيعة الإمامية محوراً لدراساتهم الفقهية منذ عصره، وله في العبادات كتاب مصباح المتهجد جعله في عشرة أبواب، وزاد عليه في القرن الثامن المطهر الحلي المار ذكره بابا سماه الباب الحادي عشر، جعله مكملاً له، والكتاب مطبوع ومعه شرح للمقداد بن عبد الله الحلبي.

ومَّر بنا في العصر العباسي الثاني حديث مفصل عن الاعتزال وأئمته وانبثاق مذهب الأشعري منه مع بيان وجوه الخلاف بينه وبين المعتزلة ووجوه الصلة بينه وبين أهل السنة، وقد طار مذهبه في هذا العصر كل مطار. وبالمثل اعتنقه المالكية حتى قيل إنهم أخص الفقهاء به. واعتنقه أكثر الحنفية في بغداد، أما في خراسان فقد اعتنقت كثرتهم العقيدة الماتريدية لمحمد بن محمد الماتريدي السمرقندي المتوفي سنة ٣٣٣ وهو يقترب في عقيدته اقتراباً شديداً من الأشعري معاصره، وكل ما يمكن أن يقال إنه أخذ بفكرة الاختيار في خلق الناس لأفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وللإنسان كسباً وإرادة، فهو يريدها والله يخلقها فيه. ولم يكن ذلك معارضة شديدة لمذهب الأشعري فإن بعض الأشاعرة ممن جاءوا بعده أوشكوا أن يأخذوا برأي الماتريدي، ومن المؤكد أن عقيدته سنية كعقيدة الأشعري. ويروي السبكي أن فضلاء الحنابلة كانوا أشاعرة، إلا من جنح منهم إلى تشبيه أَخْذًا بظاهر القرآن[١]. ومعنى ذلك أن مذهب الاعتزال أخذ يتضاءل خاصة بعد القرن الرابع الهجري، حقاً نسمع من حين إلى حين ببعض المعتزلة مثل الزمخشري ولكن كثرة الفقهاء والعلماء انضوت تحت راية الأشعري. ومن كبار الأشعرية في القرن الرابع أبو بكر الباقلاني[٢] محمد بن الطيب البصري المتوفي سنة ٤٠٣ يقول ابن خلكان: كان على مذهب

---

(١) السبكي ٣/ ٣٦٥- ٣٧٤ وما بعدها.

(٢) راجع في ترجمة الباقلاني تاريخ بغداد ٥/ ٣٧٩ وأبن خلكان ٤/ ٣٦٩ والأنساب للسمعاني ٦١ وتبيين كذب المفتري لابن عساكر ٢١٧ والمنتظم ٧/ ٢٦٥ والوافي ٣/ ١٧٧ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٦٧ والشذرات ٣/ ١٦٨ وترجمة القاضي عياض له الملحقية بكتابه "التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة" تحقيق الدكتور أبو ريدة (نشر دار الفكر العربي بالقاهرة)

أبي الحسن الأشعري ومؤيداً اعتقاده وناصراً طريقته سكن بغداد وتولى بها القضاء وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهبه، وكان كثير التطويل في المناظرة والجدل قوي الحجة والبرهنة على آرائه [١]، ومن مصنفاته في عقيدته البيان والتمهيد في الرد على الملحدين وأضرابهم، وهو منشور ومثله كتابه الاستبصار، وخالف الأشعري في مسائل، منها ما ذهب إليه الأشعري من أن الكافر لا تُسْبَغ عليه نعمة، إذ كل ما يتقلب فيه استدراج، وكان أبو حنيفة يذهب إلى أن النعمة تُسْبَغ عليه ووافقه الباقلاني [٢]. وكان الأشعري كما مر بنا آنفاً ينفي الاختيار عن أعمال الإنسان ويجعله كسباً، بينما كان الماتريدي يجعله اختياراً، ويفهم من كلام الباقلاني أنه يأخذ برأي الماتريدي أو يتقدم نحوه خطوة، ويقول السبكي: "ولإمام الحرمين والغزالي في ذلك مذهب يزيد على مذهب الباقلاني والأشعري ويدنو كل الدنو من الاعتزال" أو بعبارة أدق من رأى الماتريدي [٣]. وعلى ضوء ما ذهب إليه أبو الحسن الأشعري من أنه لابد من اقتران الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من الكتاب والسنة كان الباقلاني ينكر على بعض الفقهاء الشافعية من الأشعرية قولهم بأنه: "يجب شكر المنعم عقلاً" [٤] إذ كان ينبغي أن يقولوا: يجب شكر المنعم عقلاً وشرعاً. ويكثر علماء العقيدة الأشعرية في القرن الخامس وما بعده، ويكفي أن نعد منهم أبا حامد الإسفراييني وإمام الحرمين الجويني والقشيري والغزالي، وعدَّ منهم السبكي في ترجمته للأشعري خمس طبقات، وكل طبقة تكتظ بأئمة العقيدة وأعلامها في الوطن الإسلامي [٥]. وألف أهل السنة من الحنابلة كتباً كثيرة في عقيدتهم السنية، وهي منبثة في تراجم فقهائهم مثل كتاب عمدة الأدلة لأبي الوفاء بن عقيل وله أيضاً كتاب الإرشاد في أصول الدين والانتصار لأهل الحديث ونفي التشبيه، ومرَّ بنا بين فقهاء الحنابلة ابن أبي

---

(١) مما كان يذهب إليه الباقلاني إثبات الجوهر الفرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض (مقدمة ابن خلدون: فصل علم الكلام) وانظر في بقية آراء الباقلاني الملل والنحل للشهرستاني: الفصل الخاص بالأشعرية.

(٢) السبكي ٣/ ٣٨٤.

(٣) السبكي ٣/ ٣٨٦ وانظر الملل والنحل للشهر ستاني (تحقيق محمد سيد كيلاني نشر مكتبة مصطفى الحلبي) ١/ ٩٧.

(٤) السبكي ٣/ ٢٠٢.

(٥) السبكي ٣/ ٣٦٨ وما بعدها.

يعلي الفراء، وله إيضاح الأدلة في الرد على الفرق الضالة المضلة، وشرف الاتباع وسرف الابتداع.

وكان للشيعة مباحثهم في العقيدة وعلم الكلام، وكتبهم الأساسية التي يعدونها أصول عقيدتهم الإمامية هي- كما أسلفنا- كتاب الكافي في علم الدين للكليني وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمي وكتَاباً الاستبصار وتهذيب الأحكام للطوسي.

٥

التاريخ

ظلت كتابة التاريخ ناشطة في بغداد على نحو ما رأينا في العصرين: العباسي الأول والعباسي الثاني، وقد مضت تتناول التاريخ العام أو التاريخ الخاص أو تاريخ المدن أو تاريخ الرجال في الحديث أو الأعيان عامة أو العلماء من كل صنف أو الشعراء أو الأدباء أو سير رجال بذاتهم. وكتب التاريخ العام منها ما هو ذيل على كتب سابقة، ومنها ما هو مستقل ويشتهر في أوائل العصر كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه وهو تاريخ عام، وسنقف عنده في حديثنا في الفصل الأخير من هذا القسم ويشتهر أبو [1] شجاع وزير الخليفة المقتدي المتوفي سنة ٤٨٨ بذيل له على هذا الكتاب وهو مطبوع. ويلقانا في القرن السادس كتاب المنتظم في تاريخ الأمم لابن [2] الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ وهو تاريخ عام يبتدئ بأول الخليقة حتى آخر أيام المستضئ بالله العباسي، وهو مرتب على السنوات مثل الطبري، وعادة يذكر في كل سنة أحداثها ثم مَنْ قضى نحبه فيها مرتبين على حروف الهجاء، وهو يُعْنَى خاصة ببغداد وأخبارها، مما يتيح لتصور تاريخها السياسي والاجتماعي تصوراً بَيِّناً. وجاء بعده كتاب الكامل في التاريخ لعز [3] الدين بن الأثير علي ابن محمد المتوفي سنة ٦٣٠ وهو أنفس كتاب في التاريخ الإسلامي حتى سنة ٦٢٨ وهو مرتب على السنوات، وقدم له بتمهيد طويل عن تاريخ الفرس والروم وعرب الجاهلية وتحدث حديثاً مُسْهباً عن أيام العرب القديمة ووقائعهم قبل الإسلام. وجرَّده من السند، ودعاه ذلك إلى أن يقرأ روايات الخبر الواحد في تاريخ الطبري ويقارن بينها ويستخلص الحقيقة التاريخية

---

(١) انظره في المنتظم ٩/ ٩٠ والخريدة قسم العراق ١/ ٧٧ والوافي ٣/ ٣ والسبكي ٤/ ١٣٦ وابن خلكان ٥/ ١٣٤.

(٢) ترجم ابن الجوزي لنفسه في سياق رسالة نصح فيها ابنه سماها: "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد" وهي مطبوعة، وانظر فيه ذيل طبقات الحنابلة لابن رجل وابن خلكان ٣/ ١٤٠ والنجوم الزاهرة في سنة ٥٩٧ والشذرات ٤/ ٣٢٩ وغير الذهبي ٤/ ٢٩٧ وكتابنا الترجمة الشخصية ص٤٥.

(٣) راجعه في ابن خلكان ٣/ ٣٤٨ وغير الذهبي ٥/ ١٢٠ والشذرات ٥/ ١٣٧ والسبكي ٨/ ٢٩٩ والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٨١.

منهـا استخلاصـاً رائعـاً. ومـضى بحـسّه التـاريخي الـدقيق يعـرض أحـداث التـاريخ إلى منتهـى الكتـاب، وبـذلك أدّى خدمـة جليلـة للتـاريخ الإسـلامي، بـل خدمـة رائعـة. ولـه كتـاب تـاريخ دولـة أتابكـة الموصـل وهـو مطبـوع. وخلفـه سـبط (١) ابـن الجـوزي المتـوفي سـنة ٦٥٤ صـاحب كتـاب "مـرآة الزمـان في تـاريخ الأعيـان" وهـو كتـاب ضـخم كـان يقـع في أربعـين مجلـداً، واشـتهر بـذكره لمناكير الأخبـار، ويقـول الـذهبي إنـه يـترفض في تاريخـه وقـد نـشر منـه بحيـدر آباد قسمان من الجزء الثامن طُبعا بمطبعة دائرة المعارف العثمانية.

ومـن كتـب التـاريخ العـام تـاريخ مختـصر الـدول لابـن العـبري (٢) المتـوفي سـنة ٦٨٥ كتبـه بالسريانية ثم ترجمه إلى العربيـة وهـو مطبـوع بالمطبعـة الكاثوليكيـة ببـيروت. ومـن هـذه الكتـب كتـاب الفخـري في الآداب الـسلطانية والـدول الإسـلامية لابـن الطقطقـي (٣) المتـوفي سـنة ٧٠٩ وقد سماه الفخـري نـسبة إلى لقبـه، جعـل مقدمـة في الـسياسة والـسلطان، ثـم أخـذ يتـابع تـاريخ الدولة الإسلامية حتـى غـزو التتـار لبغـداد، ويعنـي فيـه عنايـة خاصـة بـوزراء كـل خليفـة وهـو مطبوع مراراً.

وبجانـب هـذه الكتـب التاريخيـة العامـة نلتقـي في أواسـط القـرن الرابـع الهجـري بكتـاب التـاجي في تـاريخ الدولـة البويهيـة، وقـد بُنـي عـلى الـسجع، وبـذلك سـنّ مؤلفـه أبـو إسـحق الـصابئ المتـوفي سـنة ٣٨٤ لـبعض المـؤرخين سـنة سـيئة أن يهتمـوا بتنميـق العبـارات لا بالتحليل التـاريخي كـما صـنع معـاصره ابـن مـسكويه. ويـصنف بعـده العـماد الأصـبهاني كتابـاً في تاريخ السلاجقة يـسميه نُصْرة القطـرة وسـنترجم لـه في مـصر. ويعنـي ابـن الـساعي المـار ذكـره المتـوفي سـنة ٦٧٤ بكتابـة تـاريخ الدولـة العباسـية ويؤلـف في ذلـك تاريخـاً جامعـاً ثـم يجعـل لـه ملخصاً باسم الجامع المختصر وقـد نـشر لـه الـدكتور مـصطفى جـواد ببغـداد الجـزء التاسـع مـن هـذا الجـامع المختـصر، ونـشر لـه بـدار المعـارف بالقـاهرة كتابـه "نـساء الخلفـاء" ويمكـن أن

---

(١) انظره في ابن خلكان في ترجمة جده ٣/ ١٤٢ والنجـوم الزاهـرة ٧/ ٣٩ والـشذرات ٥/ ٢٦٦ والجـواهر المـضية ٢/ ٢٣٠ والفوائد البهية ٩٦.

(٢) انظر فيه كتاباً مطبوعاً باسمه في بيروت وبروكلمان ٦/ ١٤٩.

(٣) انظر فيه العزاوي ١/ ٢٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها مصادر.

نلحق بهذه الكتب الخاصة بالتاريخ السياسي كتاب الوزراء لهلال [1] بن المحسن الصابئ المتوفي سنة ٤٤٨ وقد طبعت منه قطعة في مجلد كبير خاصة بوزارة المقتدر، وهي حافلة بالأخبار السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وأيضاً يمكن أن نلحق بكتب التاريخ السياسي ترجمة بهاء [2] الدين ابن شداد لصلاح الدين بطل حِطِّين وقد سماها النوادر السلطانية والمحاسين اليوسفية، وهو موصلي تعلم في بغداد وعين معيداً بها في المدرسة النظامية، ثم تركها إلى نظامية الموصل، والتحق بخدمة صلاح الدين، وظل يتولى القضاء في بعض مدن الشام حتى توفي سنة ٦٣٢. وعلى غرار سيرته صنع بعض المؤرخين العراقيين سيرة للخليفة الناصر معاصر صلاح الدين.

وعُني بعض المؤرخين بتاريخ المدن، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي السابق ذكره والمتوفي سنة ٤٦٣ تحفة نفيسة، وقد جعل مقدمتها في مجلد يشتمل على اسم بغداد وتاريخ بنائها وأحيائها الغربية والشرقية وقصورها ومساجدها وكل ما يتصل بها وأفرد بعد ذلك ثلاثة عشر جزءاً لكل من عاش فيها من الأعيان والعلماء والأدباء. كتاب لا نظير له بين كتب التاريخ الخاصة بالمدن. ولابن النجار [3] المؤرخ المتوفي سنة ٦٤٣ ذيل عليه في ٣٠ مجلداً واختصره ابن الدمياطي باسم المستفاد من ذيل تاريخ بغداد وفي دار الكتب المصرية نسخة من هذا الذيل بخط مؤلفه. ويذكر ابن خلكان أن لابن [4] الدُّبَيْثِي المتوفي سنة ٦٣٧ تاريخاً لمدينة واسط، وأهم من ذلك أن له ذيلاً على تاريخ بغداد للسمعاني ترجم فيه للمتوفين ببغداد بعد سنة ٥٥٠ إلى أيامه. وللذهبي انتقاء من هذا الذيل باسم المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثي نشر منه الدكتور مصطفى جواد جزءين ببغداد. ولابن المستوفي المبارك بن أحمد المار ذكره بين شراح المتنبي تاريخ إربل.

---

(١) راجعه في تاريخ بغداد ١٤/ ٧٦ والمنتظم ٨/ ١٧٦ ومعجم الأدباء ١٩/ ٢٩٤ وابن خلكان ٦/ ١٠١.

(٢) انظره ابن خلكان ٧/ ٨٤ وعبر الذهبي ٥/ ١٣٢ ومرآة الجنان ٤/ ٨٢ والشذرات ٥/ ١٥٨ والسبكي ٨/ ٣٦٠.

(٣) راجعه في تذكرة الحفاظ ٤/ ٢١٢ ومعجم الأدباء ١٩/ ٤٩ والشذرات ٥/ ٢٢٦ والسبكي ٨/ ٩٨ والفوات ٢/ ٥٢٢.

(٤) انظره في ابن خلكان ٤/ ٣٩٤ وعبر الذهبي ٥/ ١٥٤ والسبكي ٨/ ٦١ والوافي ٣/ ١٠٢ وطبقات القراء ٢/ ١٤٥ والشذرات ٥/ ١٨٥ ومرآة الجنان ٤/ ٩٥.

وتلقانا كتب مختلفة للصحابة ورجال الحديث. من أهمها أسْد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزري المار ذكّره، وهو معجم أبجدي لتراجمهم، وهو مطبوع في خمسة مجلدات. وله كتاب اللباب مختصر كتاب الأنساب للسمعاني وهو مطبوع في خمسة مجلدات. وله ك تاب اللباب مختصر كتاب الأنساب للسمعاني وهو مطبوع. وألف الدار قطني كتاباً سماه "المختلف والمؤتلف" وقد جمع بينه الخطيب البغدادي وبين مشتبه النسبة لعبد الغني بن سعيد، وزاد عليهما وسمي كتابه "المؤتنف تكملة المختلف" ثم جاء بعده أبو نصر بن ماكولا- كما مر بنا- وزاد على هذا الكتاب زيادات في كتاب مستقل سماه الإكمال، ومر بنا مديح ابن خلكان له وثناؤه عليه وأن ابن نقطة جعل له ذيلاً لم يقصِّر فيه. ولابن النجار كتب مختلفة في الرجال، منها: المؤتلف والمختلف، والمتفق والمفترق في نسبة المحدثين إلى الآباء والبلدان وكتاب جنَّة الناظرين في معرفة التابعين. وللزين العراقي المتوفي سنة ٨٠٦ ذيل طويل على الذهبي في الرجال.

وهناك كتب كثيرة وُضعت في تراجم العلماء والأدباء من كل صنف. ومن الكتب الجامعة لكل فروع الحركة العلمية والأدبية والفلسفية والمأثورات المترجمة عن الهند والفرس واليونان كتاب الفهرست لابن النديم وسبق أن تحدثنا عنه في غير هذا الموضع، ونتحدث الآن عن كتب التراجم العلمية والأدبية ونبدأ بما وضع في الفقهاء بعامة مثل كتاب أبي إسحق الشيرازي أول المدرسين في نظامية بغداد المتوفي سنة ٤٧٦ وقد ضم في كتابه إلى فقهاء المذاهب الأربعة فقهاء المذهب الظاهري. وأول من وضع كتاباً في طبقات الشافعية أبو حفص عمر المطوعي المتوفي سنة ٤٤٠ سماه "الْمُذْهب في فقهاء المذهب"، ووضع فيهم أبو النجيب السهرودي البغدادي المتوفي سنة ٦٣٢ مختصراً، ثم ألف فيهم إسماعيل بن هبة الله بن سعيد بن باطيش (١) الموصلي المتوفي سنة ٦٥٥ وهو أحد مصادر السبكي في طبقات الشافعية. واهتم الحنابلة بالكتابة في تراجم فقهائهم، من ذلك كتاب طبقات الحنابلة لابن أبي يعلي الفراء الذي مَّر ذكره، ووضع له ابن رجب (٢) البغدادي ذيلاً

---

(١) انظره في السبكي ٨/ ١٣١ والشذرات ٥/ ٢٦٧ والعبر ٥/ ٢٢١.

(٢) راجعه في الدرر لابن حجر ٢/ ٤٢٨.

طويلاً في مجلدين، وقد توفي سنة ٧٩٥. وعُني الشيعة بالكتابة في رجالهم، وكتاب الرجال للنجاشي أحمد بن علي المتوفي سنة ٤٥٠ مشهور وهو مطبوع.

ووضع أحمد بن بختيار الواسطي المتوفي سنة ٥٥٢ كتاباً (١) في القضاة. ومما وضع في اللغويين والنحاة كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافي وكتاب نزهة الألباء لابن الأنباري وهما منشوران. ومن كتب التراجم المبكرة كتاب صوان الحكمة لأبي سلمان المنطقي السجستاني المار ذكره وهو في تاريخ الأطباء والفلاسفة وقد نُشر منتخب له في طهران حققه الدكتور عبد الرحمن بدوي، وهو موزع على قسمين: قسم خاص بفلاسفة اليونان وأطبائهم وقسم خاص بالمشتغلين بالفلسفة في الإسلام، وهو كتاب نفيس.

ووُضعت في الشعر والشعراء كتب كثيرة منها كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء للآمدي المارّ ذكره، وكتاب معجم الشعراء للمرزباني معاصره صاحب كتاب الموشح، وقد نشرت منه قطعة، ووضع أبو المعالي (٢) الحظيري المتوفي سنة ٥٦٨ كتاباً في الشعراء على غرار دمية القصر للباخرزي ويتيمة الدهر للثعالبي سماه زينة الدهر وعصرة أهل العصر في ذكر لطائف الشعراء، ووضع بعده العماد الأصبهاني دائرة معارف كبرى في شعراء العالم العربي سماها خريدة القصر وجريدة العصر" ويشتهر ابن الجوزي بكتابه في الصوفية "صفة الصفوة" وهو مطبوع في أربع مجلدات وله كتاب في الأذكياء وكتاب في الظرفاء وكتاب في أخبار المغفلين. ولياقوت الحموي البغدادي المار ذكره كتاب معجم الأدباء وهو مطبوع في عشرين جزءاً ذكر فيه أخبار اللغويين والنحويين والقراء والمؤرخين والكتاب والمؤلفين ولابن الشعار (٣) الموصلي المتوفي سنة ٦٥٤ كتاب في عشراء القرن السابع سماه "عقود الجمان في شعراء الزمان. ولابن الفُوطيّ المار ذكره (٤) المتوفي سنة ٧٢٣ كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة، وله معجم رتَّبه حسب الألقاب، نشر منه

---

(١) انظره في معجم الأدباء ٢/ ٢٣١ والسبكي ٦/ ١٤.

(٢) راجعه في معجم الأدباء ١١/ ١٩٤ وابن خلكان ٢/ ٣٦٦ وخريدة القصر (قسم العراق) ٤/ ١/ ٢٨.

(٣) من كتابه مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية

(٤) انظره في تذكرة الحفاظ ٤/ ٢٧٤ والدرر الكامنة ٢/ ٤٧٤.

مـصطفى جـواد الجـزء الرابـع الأقـسام (١-٤) ونـشر القاسـمي في لاهـور الجـزء الخـامس.

واشـتهر ابـن [1] خلكـان الموصـلي المتـوفي سـنة ٦٨١ بكتابـه "وفيـات الأعيـان" وهـو غايـة في الدقة والتحري.

(١) انظر في ابن خلكـان العـبر ٥/ ٣٣٤ وفـوات الوفيـات ١/ ١٠٠ والـسبكي ٨/ ٣٣ والـشذرات ٥/ ٣٧١ ومـرآة الجنـان ٤/ ١٩٣ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٥٣ والوافي بالوفيات ٧/ ٣٠٨ وحسن المحـاضرة للـسيوطي (طبعـة محمـد أبـو الفـضل إبراهيم) ١/ ٥٥٥ والدارس في تاريخ المدارس للتميمي (طبع دمشق) ١/ ١٩١ وروضات الجنات ٨٧ وراجع ترجمتـه في أول الجزء السابع من كتابه وفيات الأعيان.

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

كثرة الشعراء

ظلت موجة الشعر التي مرت بنا في العصرين العباسي الأول والثاني حادة طوال القرن الرابع الهجري، بل لعلها ازدادت حدة، ويكفي للدلالة على ذلك أن يبزغ في مستهله المتنبي وفي أواخره الشريف الرضي ومهيار، غير شعراء كثيرين، فتح لهم الثعالبي في كتابة اليتيمة ثم في تتمة اليتيمة الفصول تلو الفصول، وقد بلغ عدهم في العراق عنده أكثر من سبعين شاعراً مما يصور ازدهار الشعر حينئذ، وهو ازدهار هيأت له عوامل مختلف، من رعاية الخلفاء وأمراء بني بويه ولاتهم ووزرائهم للشعراء، فقد أغدقوا عليهم المكافآت والجوائز، وليس ذلك فحسب. فقد استقبلوهم في مجالسهم وحولوها أو حولها بعضهم مثل عضد الدولة البويهي إلى نواد أدبية.

وربما كان الجيل الأول من البويهيين لا يحسن العربية، فقد رُوي أن معَّز الدولة أول حاكم منهم لبغداد حين دخلها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير علي بن عيسى [1]، غير أن الجيل التالي له أكبَّ على الثقافة العربية والتمرين على نظم الشعر، حتى لنجد صاحب اليتيمة يسلك في الشعراء ابنه بَخْتيار، غير أمراء آخرين من بيته [2]. وكان وزراء بني بويه يتنافسون في جذب الأدباء والشعراء إليهم، حتى غدت مجالسهم نوادي شعرية حقيقية، وأول من اشتهر بذلك من وزرائهم في العراق المهلبي وزير معز الدولة، وكان غيثاً مدراراً للشعراء، فأكبُّوا على مجالسه يمدحونه، ويفيض كتاب اليتيمة بمدائحه. وكان لا يقل عنه رعاية للشعراء سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة، وقد عقد صاحب

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ١/ ٢٨.

(٢) اليتيمة ٢/ ٢١٦.

اليتيمة لمدَّاحه باباً مستقلاً عَرض فيه خمس عشرة مدحة لنابهيهم [1]. وكان يرعى الشعراء بجانب ذلك كثير من ذوي البيوتات، وفي مقدمتهم الشريف الرضي ورعايته لمهيار مشهورة. ولابد أن نلاحظ أن الثعالبي فاته والوقوف عند بعض الشعراء، في عصر البويهيين مثل مُدْرك بن محمد الشيباني، وهو بدوي قدم بغداد في شبابه وتولى بها القضاء وتوفي سنة ٣٩٠ واشتهر بأرجوزة ماجنة نظمها في غلام نصراني في نحو خمسين دوراً ذكر فيها شعائر الديانة المسيحية وطقوسها وحوارييها ذكراً مفصلاً [2]، ومثل أبي الحسن محمد بن عمر الأنباري، وكان صديقاً للوزير ابن بقية، فلما صلبه عضد الدولة البويهي رثاه بمرثية رائعة. وتلقانا بعد اليتيمة وتتمتها موجه ثانية من الشعراء في كتاب دمية القصر للباخرزي، وقد توفي بعد الثعالبي بنحو ثلاثين عاماً سنة ٤٦٧ للهجرة، مما جعلهما يتواردان أحياناً في الحديث عن بعض الشعراء. وفي الحق أن شعراء الدمية مخضرمون لحقوا عصر بني بويه وامتد بهم الأجل في عصر السلاجقة.

وبذلك كانت الدمية لا تصور تماماً الحركة الشعرية في العصر السلجوقي، لسبب طبيعي، وهو أنها إنما ألَّمت بأوائله. ومرَّ بنا في الفصل الثاني ما دفع إليه وزير ألْب أرْسلان نظام الملك (٤٦٥-٤٨٥هـ) من نهضة علمية وأدبية مباركة، فقد فتح أبوابه للشعراء وأغدق عليهم نوالاً غمراً، فجاءوه يمدحونه من كل أنحاء العراق، وينشد الباخرزي في مواضع كثيرة بعض مدائحه. وتلقانا بعد الباخرزي ثغرة أو فجوة نحو خمسين عاماً، لو أن ذيل الدمية المسمى كتاب زينة الدهر وعُصْرة أهل العصر للحظيري نُشر لسدَّ هذه الثغرة، فإن الحظيري توفي سنة ٥٦٧ وكان قد جمع طائفة كبيرة من شعراء أهل عصره وَمْن تقدمهم، وذكر لكل شاعر طرفاً من أحواله وشيئاً من أشعاره. وحرى بنا أن نذكر صُرَّدُرّ (علي بن الحسن) الشاعر المشهور ببغداد في أواسط القرن الخامس، وقد توفي سنة ٤٦٥ وله ترجمة في ابن خلكان، وبالمثل ابن السرَّاج البغدادي (جعفر بن أحمد) صاحب مصارع العشاق المتوفي سنة ٥٠٠ وله ترجمة في ابن خلكان وغيره. وقد تلا الحظيري مباشرة العماد

---

(١) اليتيمة ٣/ ١٢٤.

(٢) معجم الأدباء ١٩/ ١٣٥ وانظر تاريخ بغداد للخطيب ١٢/ ٢٧٣.

الأصبهاني بكتابه الخريدة التي ترجم فيها لشعراء العالم العربي على طريقة الدمية واليتيمة، غير أن ترجمانه مستفيضة، وهو ينقل فيها مراراً عن الحظيري، مما يدل على أنه يتلافى كثيرين ممن سقطوا في الثغرة التي تحدثنا عنها آنفاً. والمنشور حتى الآن من قسم العراق في الخريدة أربعة مجلدات ضخمة. وهي تتناول في العراق، كما في الأقاليم الأخرى، شعراء القرن السادس الهجري حتى نحو سنة ٥٧٠، وقد تعرضت لبعض شعراء القرن الخامس. والعماد فيها يجمع بين فترتين: فترة سلجوقية تبتدئ من القرن السادس حتى سنة ٥٥١ ثم فترة الخلافة العباسية إذ رُدَّ إلى الخلفاء صولجان الحكم منذ هذا التاريخ، وانتهى بذلك عهد السلاجقة في بغداد والعراق. والعماد يفتتح المجلد الأول من الخريدة بعرض تراجم للخلفاء العباسيين منذ القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) حتى المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٥هـ) ومع كل خليفة ماله من أشعار. ثم يفتح باباً يذكر فيه محاسن الوزراء والكتاب منذ أواسط القرن الخامس حتى زمن المستضيء، منشداً ما عرفه من أشعارهم، وقد يذكر بعض ما قيل من مدائح، ويُمْضي في ذلك كله نحو مائتي صفحة من القطع الكبير من المجلد الأول، ويترجم للشاعر المعروف باسم الحَيْص بَيْص ترجمة ضافية، يَعْرض فيها أشعاراً كثيرة من ديوانه مرتبة على الحروف في نحو مائة وخمسين صحيفة، ويُتْبعه في المجلد الثاني بالترجمة لستة وثلاثين شاعراً، لعل أهمهم علي بن أفلح وابن الهبَّارية وابن جَلِّينا. ونلتقي في المجلد الثالث بجماعة من أعمال سواد بغداد شرقاً وغرباً، لعل أهمهم الحَظِيري والبَنْدنيجي، ثم يذكر جماعة من شعراء الحِلَّة والكوفة وهِيت والأنبار.

وقد عرضنا لشعراء الحلة عند العماد في القسم الأول من هذا الكتاب في تضاعيف حديثنا عن شعراء البدو، وينتهي المجلد الثالث بالحديث عن شعراء واسط، وربما كان أهمهم ابن السوادي، وهو ماجن من طراز ابن سُكَّرة ابن حجاج. ويستمر المجلد الرابع في عرض شعراء من واسط أهمهم ابن المعلم، ثم يذكر طائفة من شعراء البصرة وأدبائها، أهمهم الحريري ويحيى بن سعيد بن ماري النصراني، وله ستون مقامة حاكي فيها الحريري ولكنها دون مقاماته. ونظل بعد سنة ٥٧٠ دون مرشد هاد، إلا ما اشتمل عليه كتابا معجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان من شعراء بغداد. مما يكاد يشغل المائة التالية

للخريدة. ولو أن كتاب عقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعَّار الموصلي المتوفي سنة ٦٥٤ نُشر لسدَّ الفراغ الشاغر من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجري في العراق وغير العراق، ولكنه لما ينشر. وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية مصوَّرة منه، والأعلام فيه ليست مرتبة على الأقاليم والبلدان مثل الخريدة والدمية واليتيمة، وإنما على حروف المعجم، كترتيب المعاجم، وهو كتاب نفيس. على كل حال يسدُّ ابن خلكان وياقوت وأيضاً فوات الوفيات هذه الثغرة التي تمتد حتى اكتساح التتار لبغداد سنة ٦٥٦. ونستطيع أن نتعرَّف على بعض الشعراء النابهين في تلك الحقبة مثل ابن التلميذ هبة الله بن صاعد المتوفي سنة ٥٦٠ وسبط ابن التعاويذي المتوفي سنة ٥٨٣ ولعل العماد الأصبهاني ترجم لهما في المجلدين اللذين لما ينشرا من القسم العراقي بالخريدة، ومثلهما الأبله الشاعر المتوفي سنة ٥٧٩. وتلقانا في النصف الأول من القرن السابع طائفة من الشعراء، من أهمهم أبو حفص عمر السُّهْرَوَرْدِيّ البغدادي الصوفي والحاجري المتوفيان سنة ٦٣٢ والصَّرْصَرِيّ وابن أبي الحديد المتوفيان سنة ٦٥٦.

ويكتسح التتار بغداد والعراق، ويجف كثير من ينابيع الفكر والحضارة والعلم والأدب، ويظل للشعر شيء من نشاطه في زمن المغول الإيلخانيين، ويلقانا ابن رشيد البغدادي المتوفي سنة ٦٦٢ والشهاب التَّلَعْفري والواعظ الكوفي البغدادي المتوفيان سنة ٦٧٥. ونمضي إلى القرن الثامن ونلتقي بشعراء عراقيين مختلفين ترجم لهم ابن حجر في الدُّرر الكامنة، ويظهر كوكب شعري كبير وسط الدياجي التي أخذت تطبق على الحياة الأدبية في العراق ونقصد صفي الدين الحِلِّيّ المتوفي سنة ٧٥٠وهو خاتمة شعراء العراق العظام قبل العصر الحديث. وكان يعاصره محمد بن القاسم الملقب بالمليجي الواسطي المتوفي سنة ٧٤٤ وله ترجمة في الدرر الكامنة، ومثله علي بن الثَّردة المتوفي سنة ٧٥٠. ولا نكاد نلتقي بشاعر مهم في زمن التركمان، بين من ترجم لهم السخاوي في كتابة "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع" وبالمثل لا يلقانا شاعرٌ نابه في زمن العثمانيين سواء في دورة حكمهم الأولى أو في دورة المماليك. وحقاً يوحد بعض شعراء عراقيين في كتب التراجم مثل "سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر" لابن معصوم و"خلاصة الأثر في أعيان

القرن الحادي عشر" للمحبي وكتابة "نفحة الريحانة" ومثل "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" للمرادي. وممن لمع اسمه في الدورتين المذكورتين شهاب الدين الموسوي المتوفي سنة ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م وديوانه مطبوع وشعره فيه متوسط. ومثله الشيخ محمد كاظم الأزري المتوفي سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م وقد طبع ديوانه في بومباي. وقد يكون من الطريف أن نفراً من الشعراء كانوا يقدِّمون لدواوينهم [1]، ولكن على كل حال كانوا جميعاً نظامين أكثر منهم شعراء بالمعنى الحقيقي لكلمة شعراء.

(١) راجع تاريخ الأدب العربي في العراق لعباس العزاوي (طبع بغداد) ٢/ ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٠٣.

٢

رُبَاعِيِّات وتعقيدات وموشحات

مرَّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول ما نهض به الشعراء من تجديد في الأوزان وكيف أن هذا التجديد رافقه تجديد آخر في القوافي (١)، ولعل أول ما شاع من صوره اللونُ المسمى بالمزدوج، إذ استخدمه الوليد بن يزيد وأخذ استخدامه بعده يتَّسع في الشعر التعليمي منذ أبان بن عبد الحميد، وتبعه الشعراء ينظمون فيه التاريخ والعلوم والفلسفة. وهو الذي سماه الفرس فيما بعد باسم المثنوي مختارين له وزناً معيناً وفيه تتحد القافية بين شطري كل بيت مع تغيرها من بيت إلى بيت. وبذلك لم تعد الوحدة فيه البيت، وإنما الشطر، وأكبر الظن أن ذلك هو الذي ألهم الوشاحين فيما بعد أن تقوم الوحدة في موشحاتهم على الشطر لا على البيت. وقد اتسع استخدام هذا اللون المزدوج في هذا العصر: عصر الدول والإمارات، إذ لم يترك العلماء علماً دون أن يودعوه في أرجوزة مزدوجة، وتموج المكتبات العربية بهذه المزدوجات في كل علم وكل فن.

وقد ظهرت المسمطات منذ فواتح العصر العباسي الأول، وهي قصائد تتألف من أدوار، وكل دور يتألف من أربعة شطور أو أكثر، وتتفق شطور كل دور في قافيتها ما عدا الشطر الأخير فإنه ينفرد بقافية مغايرة يلتزمها الشاعر في جميع الشطور الأخيرة من الأدوار. والمسَّمَّط مشتق من السِّمْط، وهو قلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتقي عند جوهرة كبيرة، وكأن كل دور في المسمَّط الشعري سلكٌ يلتقي مع الأدوار أو الأسلاك الشعرية الأخرى في قافية الشطر الأخير. وقد مَثَّلنا في كتاب العصر العباسي الأول بمسمَّطين لأبي نواس يتألف الدور في أحدهما من أربعة طور وفي الاثني من خمسة. وتظل المسمطات طوال عصر الدول والإمارات قائمة بجوار القصيدة، وينظم الشعراء فيها من حين إلى حين إظهاراً للبراعة، وعُني كثير منهم أشد العناية بتصفية ألفاظه وخفتها على اللسان

---

(١) انظر في ألوان هذا التجديد كتاب العصر العباسي الأول (طبع دار المعارف) ص١٩٦ وما بعدها.

ورشاقتها على نحو ما نجد في هذه الأدوار من مسمَّط [1] أنشده العماد الأصبهاني في الخريدة لأبي المعالي بن مسلم:

يا رِيمُ كم تجنَّي؟	لِمْ قد صددتَ عنَّا	صِلْ عاشقاً معنَّى
	بالوَصْلِ ما تهَنَّا	
السَّلْسَبيلُ رِيقُ	والشَّهْدُ والرَّحِيقُ	والوَرْدُ والشَّقِيقُ
	مِنْ وَجْنَتَيْهِ يُجْنَا	
قد غيَّروا ولاموا	من شَفَّه السَّقامُ	ما ينفع الملامُ
	مَنْ في هواكَ جُنَّا	

والدور في هذا المسمط يتألف من أربعة شطور، والرابع قطبها الذي تدور عليه، ومثله المسمَّطات ذات الشطور الخمسة وتسمى المخمسات، ومثلها ذات الشطور الستة والسبعة وتسمَّى المسدَّسات والمسبَّعات. وشاع في الحقب المتأخرة تخميس بعض القصائد المشهورة مثل همزية البوصيري وبُرْدته.

وتظهر الرُّباعيَّات مع المسمَّطات والشعر المزدوج، وقد ذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول أنها بدأت مع بشار وحماد عجرد وأنها كثرت عند أبي نواس وأبي العتاهية، وضربنا لها بعض الأمثلة، والرباعية أربعة طور من الشعر تؤلِّف بيتين، ولأنها تتكوّن من أربعة شطور سميت رُباعية، وعادة يتحد الشطر الأول والثاني والرابع في القافية، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الطور في قافيته وقد يختلف. وتلقانا هذه الرباعيات كثيراً في اليتيمة والدمية والخريدة، وفي كتب الأدب مثل معجم الأدباء، ومرَّ بنا أنه ترجم لشاعر يسمى مدرك بن علي الشيباني، وذكر له أرجوزة تشتمل على خمسين دوراً كل دور رباعية منفردة. وبذلك أعد نمط الرباعية من قديم لظهور الشعر الدوري في العربية.

---

(١) انظر الخريدة (قسم العراق) ٢/ ٣٠٩.

ولم يكن شعراء العصرين: العباسي الأول والثاني يَخُصُّون الرباعية بوزن معين، بل كانوا ينظمونها في جميع أوزان الشعر حتى إذا كان هذا العصر: عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يَشْرَكُونَ العرب في استخدامها متخذين لها اسم "دوبيت" و"دو" عندهم اثنان. وأيضاً فإن الفرس والعرب جميعاً أخذوا يستخدمون فيها وزناً جديداً هو: "فَعْلُنْ فَعْلُنْ مستفعلن". وتصور ذلك رسالتان (١) فريدتان في عروض الدوبيت" نشرهما هلال ناجي ببغداد، وهما لمالك بن المرحّل المتوفي سنة ٦٩٩ وأولاهما تُعْنَى بالوزن الأول للدوبيت، والثانية تُعْنَى بالوزن الثاني، ومن أجل ذلك رجح هلال ناجي أن لا تكون الرسالة الثانية من صنع مالك. ويبدو أن الفرس في القرن الخامس كانوا أكثر شغفاً بالرباعيات كثيرة، ويترجم العماد فيها لشاعر من موظفي الخلافة العباسية وعمالها في الستينيات من القرن السادس الهجري، يسمى أبا المحاسن (٢) بن البوشَنْجي، ويقول إنه كان لَهِجاً بنظم الرباعيات، ويسوق له طائفة منها في الغزليات والخمريات من مثل قوله متغزلاً:

ما أطيبَ ما زارَ بلا ميعادِ ... يَخْتَالُ كغُصْنِ بانةٍ مَيَّادِ

ماطَلَّ، ولابَلَّ غَليلَ الصَّادِي ... حتى قَرُبَ البَيْنُ ونادى الحادِي

فصاحبته زارته دون موعد، مختالة بجمالها كغصن متمايل، ويقول إنها ماطلّت وزارت، ولا بَلَّت غليله المتقد الظامئ للقاء، حتى كان الفراق ونادى حادي الركب، فجاءت تودعه من وقوف أو كما يقال: ما سلَّمت حتى ودَّعت. ومن رُباعياته الخمرية قوله:

رَقَّتْ وصَفَتْ واسْتَرَقَتْ أَلْبَابَا ... راحٌ لَبِسَتْ من الضَّنا جِلْبابا

يا بَدْرُ أدِرْ وعَدِّ عضمَّنْ يَابَى ... كأساً، طُرِدَ الهمُّ بها فانْجابا

والرباعية فيها شيء من روح رباعيات الخيام وما فيها من دعوة إلى العكوف على شرب الخمر، أو بعبارة أدق الفرار إليها من الهم والغم، حتى تنتعش النفس، كما يقول، وتطرح عنها بؤس الحياة بما تَعُبُّ من دِنان الخمر وما تجد في مجلسها من أنس وطرب. ويسوق

(١) انظر الرسالتين في العدد الرابع من المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد.

(٢) انظر ترجمته في الخريدة ٢/ ٢٥٧.

صاحب رسالة الدوبيت الثانية تسع رباعيات قائلاً إنه مما أنشده أبو عبد الله محمد بن حامد الأصبهاني صاحب الخريدة، ويستهلها بالرباعية التالية.

الوَرْدُ على خَدِّك مَنْ أنْبَتَهُ   والمسك على وَرْدك مَنْ فَتَهُ

والقلب على نَأيك من ثبتهُ   أجمعُ شَمْلاً هَواك قد شَتَتَهُ

وهي رباعية بديعة بما اشتملت عليه من تصوير يحمل غير قليل من الفاجأة، حين يجعل صاحبها الخد ورداً حقيقياً، ويعود فيجعله ناشراً لأريج عطر حوله، وكأن مسكاً ذُرَّ عليه ونُثر، ويعجب أن تنأى صاحبته وقلبه لا يزال في صدره. وإن فؤاده ليتوزع فرقاً، ويضرع لصاحبته أن تجمع شمله المشتت، لعل صوابه يُرَدُّ إليه. ويسوق صاحب رسالة الدوبيت الثانية أيضاً طائفة من رباعيات أنشدها ابن الجوزي نَيَّفت على عشر، وموضوعها غزل ولكنه غزل صوفي، فقد كان ابن الجوزي من كبار الوعاظ وكان سني التصوف، ومما أنشده:

الحِبُّ يقولُ لا تُشِعْ أسراري   والدمع يسيلُ هاتكا أستاري

والشوق يزيد، لا على المقدار   وَاناريَ! من هذا الهوى وَاناري

فحبيبه يطلب إليه أن يكتم حبه، وهو لا يستطيع له كتماناً، إذ دائماً يبكي طالباً الوصال، ملحاً في طلبه وفي بكائه، والدموع تسيل مدراراً كسحب منهلة، والشوق يلذعه ويكويه وهو يتوجع من نيرانه. إنه حب الذات العلية الذي يُضْني ويسقم والمحب يتألم آلام آلاماً لا يطيقها إلا الصابرون المولعون بوصال الذات الربانية. ومما أنشده ابن الجوزي في تلك الرباعيات:

ما أصنع؟ هكذا جرى المقدورُ   الجَبْرُ لغيري وأنا المكسورُ

مأسورُ هوًى متيَّمٌ مهجورُ   هل يمكن أن يغيَّر المسْطورُ

والرباعية تفيض بيأس محب مهجور، يقول ما أصنع والحِجاب يقوم بيني وبين محبوبي، هكذا جرى القلم ولا يسعه إلا أن يمتثل ويذعن، وإنه ليأسى أسى عميقاً لنفسه، فغيره

يُجْبَرُ ويوصَلُ وهو يُحْرَمُ ويُبْعَدُ ويُكْسَرُ كزجاج مصدوع لا يُشْعَبُ، وإنه لأسير هذا الهوى الذي يبرّح به والذي يتعثَّر في شباكه، قدرٌ أزلي كُتب عليه، لا مفرَّ منه ولا مهرب. وابن الجوزي توفِّي سنة ٥٩٧ وتوفي العماد في نفس السنة، وفي كثرة إنشادهما للرباعيات ما يدل على أنها قد شاعت في عصرهما وانتشرت انتشاراً واسعاً. وهي تلقانا عند الحاجري وغيره من شعراء القرن السابع. ويقول مالك بن المرحّل إنها تستعذب في الغناء، وأكبر الظن أنها لم تكن تستعذب في الغناء فحسب بل كانت تستغذب أيضاً في أناشيد المتصوفة بحلقات الذكر، وقد جمع كامل الشيبي طائفة كبيرة منها على مر العصور ونشرها باسم ديوان الدوبيت.

وأخذ يعم منذ أوائل هذا العصر مذهب التصنع والتعقيد الذي صورناه بالتفصيل في كتابنا "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" وقد أوضحنا كيف أن المحسنات البديعية في مذهب التصنيع والتنميق السابق له كأنها أخذت تزايلها أو تفارقها بعض أصباغها عند العراقيين وغيرهم من شعراء العصر، ومثلنا لذلك باستخدام المتنبي للطباق والاستعارة واستخدام غيره للجناس. وقد أولع الشعراء في هذا العصر باللون الأخير، وأخذوا يطلبون فيه صعوبات مختلفة، ومن أخف صورها قول أبي الجوائز الواسطى (١) المتوفى سنة ٤٦٢:

وأحزَني مِنْ قولها	خانَ عهودي ولَهَا
وحقِّ من صيَّني	وَقْفاً عليها وَلها
ما خطرتْ بخاطري	إلا كسَتْني وَلَهَا

ولها في نهاية البيت الأول من اللهو، وقد جانس بينها وبين الجار والمجرور في نهاية البيت الثاني ثم جانس بينهما وبين كلمة "وله" أي شدة الوجد في نهاية البيت الثالث. وقد يقبل هذا الجناس المعقد في تلك الأبيات لخفته، غير أننا لا نكاد نمضي بعد صاحبه حتى

(١) انظر في أبي الجوائز ابن خلكان ٢/ ١١١ وتاريخ بغداد ٧/ ٣٩٣ والدمية ١/ ٣٤٢ والخريدة ٤/ ١/ ٣٤٣ والمنتظم ٨/ ٢٥٨ وميزان الاعتدال ١/ ٢٣٨.

نلتقي بالحسن [١] بن أسد الفارقي المتوفي سنة ٤٨٧ وكان يكثر من التجنيس، كما لاحظ العماد الأصبهاني وياقوت، وله قصيدة تجمع خمسة عشر بيتاً، وكل بيت فيها مختوم بكلمة "عين" طلباً للجناس الكامل، فهي تتوالى بمعنى عين الإنسان وبمعنى رقيب وبمعنى عين الماء إلى غير ذلك من معانيها. وهو تكلف شديد ونظن ظناً أنه أحد من أشاعوا فكرة تكوُّن الجناس بين كلمة وكلمتين يؤديانها لفظاً في مثل قوله:

تُرَاك يا متلفَ جسمي ويا ... مُكْثِرَ إعلالي وأمراضِي

من بعد ما أَضْنَيْتَنِي ساخطاً ... عليَّ في حبك أم راضي

وواضح أن كلمتي "أم راضي" في البيت الثاني تقابلان أو تجانسان كلمة "أمراضي" في البيت الأول. ويلاحظ أن مثل هذه الجناسات في نهايات الأبيات لم تكن تحقق فكرة الجناس فحسب، بل كانت تحقق أيضاً فكرة لزوم ما لا يلزم في القوافي إذ تصبح القافية أكثر من حرف أو روى، ولذلك يقول العماد إنه كان يلتزم مالا يلزم في قوافيه. وفي الحق أن أبا العلاء هو الذي فتح في لزومياته لمثل هذه الكلف في الجناس على نحو ما يوضح ذلك كتابنا "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" وكان يطلبه أحياناً بين أول كلمة أو كلمتين في البيت وآخر كلمة، مما جعل الحريري يستلهم صنيعه في المقامة الحلبية قائلاً:

سِمْ سِمَةً تَحْسُنُ آثارُها ... واشكُرْ لمن أعطى ولو سِمْسِمَهْ

والمكرُ مهما اسطعْتَ لا تأتِهِ ... فتقتني السُّؤْدُدَ والمكرُمَهْ

والجناس واضح بين أول البيتين وآخرهما وهو في البيت الثاني جانس بين اللفظة الأولى وجزي من تاليتها وبين اللفظة الأخيرة. وكل ذلك تصعيب وتقعيد في التماس الجناس. ويخلف الحريري يحيى بن سلامة الحَصْكفي نزيل ميَّافارِقين المتوفي سنة ٥٥٣ فنراه ينظم

---

(١) راجع في الحسن بن أسد الفارقي الخريدة (قسم الشام) ٢/ ٤١٦ ومعجم الأدباء ٨/ ٥٤ وإنباه الرواة ١/ ٢٩٤ وشذرات الذهب ٣/ ٣٨ وفوات الوفيات ١/ ٢٢٩.

بعض قصائد قاصداً بها إلى التجنيس منها قصيدة بناها على التجنيس الناقص افتتحها بقوله(١):

أطِعِ الهوى فالعقلُ خازٍ خازمُ   والجهلُ يُغْرِي وهْو هازس هازمُ

وخاز: قاهر. وهاز: ساخر. ويمضي في القصيدة مجانساً بين كلمتين متواليتين على هذه الصورة المتكلفة وكأنه لم تعد هناك حاجة وجدانية لنظم الشعر، إذ حلت محلها حاجة إلى التعقيد في الشعر وتصعيب ممراته التي يسلكها الشاعر إلى صناعته.

وإذ رجعنا إلى البديعات منذ بديعية صفي الدين الحلي وجدنا الشعراء دائماً يعقِّدون فيها، وقد يضيفون ألواناً جديدة ولكن ينقصها الحسن والرونق والبهاء. وقد أكثروا من الاقتباس، وحَسَنٌ أن يقتبس الشاعر بعض ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف فإنها تلذ النفس، غير أن الشعراء أكثروا من اقتباس أشعار الأسلاف يضمنونها قصائدهم، مما يعطل الحركة الوجدانية في أشعارهم، وبلغ من تكلفهم في هذا اللون أن نجد شاعراً يسمى الشيخ أحمد النجفي الحِلِّيّ المتوفي سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م يضمن إحدى مدائحه شطوراً من ألفية ابن مالك المشهورة في النحو، فله شطر ولابن مالك شطر(٢).

ودفع المتنبي الشعراء منذ أوائل هذا العصر إلى التصنع للثقافات المختلفة، وقد أوضحنا ذلك في كتابنا "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" فصورنا تصنعه لبعض مصطلحات التصوف وسمات العبارة الصوفية وللأفكار والصيغ الفلسفية ولألفاظ اللغة الغريبة وبعض اشتقاقاتها النادرة وأساليبها النحوية الكوفية الشاذة. وتبعه أبو العلاء يكثر في لزومياته من التصنع لألفاظ العلوم اللغوية والإسلامية. ومضى الشعراء في العراق وغير العراق بعد الشاعرين الكبيرين يلتمسون أحياناً التجديد في الأساليب بما يُطْوَى فيها من مصطلحات علمية. وكل ذلك كان تعقيداً وقيوداً، حتى يصعب الشعراء عملهم، وحتى يظهروا مهارتهم في السلوك إليه من أضيق الممرات والدروب.

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢/ ٨٠٥.

(٢) عباس العزاوي ٢/ ٢٧٣.

وأخذت تظهر سريعاً صور من التمارين الهندسية في الشعر، وكأن الشاعرية لم تعد تقاس بالأثر الوجداني الذي يحدثه الكلام في نفوس الناس، بل غدت تقاس بما يمكن أن يستحدثه الشاعر من عُقَد، وربما كان الحريري أهم من فتح هذه الأبواب، إذ نراه في مقاماته لا يزال يغرب بأفانين لفظية كثيرة، فمن ذلك أن تُقْرَأ الأبيات طَرْداً وعكساً كما جاء في المقامة المغربية من مثل قوله:

اسْلُ جنابَ غاشمٍ　　　مشاغبٍ إن جلسا

فإن البيت يُقْرأ من آخره كما يقرأ من أوله دون أي اختلاف في لفظ أو حرف، ومن الغريب أن من جاءوا أبعده جعلوا ذلك لوناً من المحسنات البديعية وسموه "ما لا يستحيل بالانعكاس" وتمرين هندسي ثان عرضه في المقامة الشعرية، وهي أبيات التزم في داخلها قافية غير قافيتها الخارجية على هذه الصورة:

يا خاطبَ الدنيا الدنيَّة إنها　　　شَركُ الرِّدَي وقرارةُ الأكْدار

دارٌ متى ما أضحكتْ في ومها　　　أبكتْ غدًا بُعْداً لها من دارِ

فإننا إذ أوقفنا عند الكلمة الدالية في الشطر الثاني أصبح البيتان من مجزوء الكامل على هذا النحو:

يا خاطب الدنيا الَّدنِيَّـ　　　ـة إنها شَرَك الرَّدَى

دارٌ متى ما أضحكتْ　　　في يومها أبكتْ غدا

وبجانب هذا التمرين الهندسي الذي لا يضيف معنى نجده في مقامته التي سماها بالرَّقطاء يبتكر تمريناً أحد حروف كلماته منقوط وتاليه غير منقوط من مثل قوله:

مخلفٌ متلفٌ أغرٌّ فريدٌ　　　نابهٌ فاضلٌ ذكيٌّ أنوفُ

ويتلو هذا التمرين بتمرين مماثل في نفس المقامة، وكرر ذلك في المقامتين المرويَّة والبكرية. ونراه في المقامة الحلبية يبتدع تمريناً شعرياً من طراز خَطِّيٍّ آخر، هو طراز الحروف الخالية من النقط في مثل قوله:

أعْدِدْ لحسَّادِك حَدَّ السِّلاحْ ... وأوردِ الآمل وِرْدَ السَّماحْ

ولا يكتفي بهذا التمرين، بل يضيف إليه تمريناً شعرياً خَطِّيًّا ثانياً، كل كلماته مؤلفة من حروف معجمة أو منقوطة من مثل قوله:

فَتَنَتْني فجنَّنَتْني (تَجَنِّي) ... بتَجَنٍّ يفتَنُّ غِبَّ تَجَنِّي

وكأن هذين التمرينين الهندسيين في تلك المقامة لم يُقنعاه، أو كأنه أحسَّ أنه من الممكن محاكاتها فجاء بتمرين خطى ثالث، لا يتعلق هذه المرة بالنقط وعدمه، بل يتعلق بشكل الحروف، إذ يظن من ينظر إلى كلماتها نظرة سريعة أنها متمثلة مثل:

زُيِّنَتْ زَيْنَبُ بِقَدٍّ يَقُدُّ ... وتلاه- وَيْلاه- نَهْدٌ يَهُدُّ

وواضح أن بين كل لفظين متواليين تجنيساً خطيًّا واضحاً. وكل ذلك ليس شعراً وإنما هو تمارين أو لُعَبٌ هندسية [١]، غير أنهم كانوا يعجبون بها، ولذلك نرى الشعراء- وخاصة المتأخرين- ينظمون منها كثيراً. ومن تتمة هذه التمارين الهندسية في العصر كثرة الألغاز والأحاجي في الشعر وقد خصوها بالتأليف اهتماماً بها، من ذلك كتاب الإعجاز في الأحاجي والألغاز للحظيري وعنه ينقل العماد في الخريدة [٢]، ولا يلبث أن يترجم الشاعر شُغف بها هو الحكيم [٣] النيلي الطبيب، ويذكر له طائفة من ألغازه الشعرية في العقل والرمّانة وكيزان الفَخّار والنَّاي وفيه يقول:

له رأسٌ يخالف منه جِسْماً ... بلا رِجْلٍ فقِسْ فيما تقيسُ

يئنُّ أنينَ صَبٍّ مستهامٍ ... مشوقٍ قد نَأى عنه أنيسُ

وليس بذي صَباباتٍ فَيهْوَى ... ولكنَّ الهوى فيه حَبيسُ

---

(١) من هذه اللعب ما رواه العماد من قصائد أولها تاء وآخرها تاء أو أولها جيم وآخرها جيم أو أولها دال وآخرها دال انظر الخريدة (قسم العراق) ٤/ ٢/ ٧٤٩ وقسم الشام ٢/ ٥٤٦.

(٢) الخريدة (قسم العراق) ٤/ ٢/ ٤٧٥.

(٣) نفس المصدر ص٤٩٨ وما بعدها.

غير ألغاز أخرى ذكرها العماد، وألغازه طريفة، غير أن من جاء وأبعده حشدوا فيها شعراً رديئاً معقداً. وقد أكثر الشعراء في الحقب المتأخرة من التواريخ في الشعر، إذ يحسبون بيتاً أو نصف بيت بحساب الجمَّل مؤخين للسنة التي نظموا فيها قصائدهم أو لسنة العُرْس الذي هنَّأوا به أو للسنة التي وُلد فيها غلام إلى غير ذلك ما لا يفيد معنى. ومع ذلك فقد كان هناك شعراء مجيدون دائماً، كانوا أعلاماً نابهين، وسنفرد لهم بع الصحف التالية.

ومن أهم ما تمتاز به أقاليمنا في العصور الوسطى أنه كانت تسود بينها في الأدب وفي العلم وحدة، جعلت كل شاعر نابه في إقليم كأنه شاعر البلاد العربية جميعها، كما جعلت كل لون جديد يظهر في إقليم لا يلبث أن تنظم فيه الأقاليم الأخرى، ومن خير الأمثلة الدالة على ذلك الموشحات، إذ نجدها تظهر في الأ،دلس ويضع لها قوانينها في القرن السادس شاعر مصري هو ابن سناء الملك، ونراها على ألسنة الشعراء في الشام والعراق وغيرهما من البلدان العربية، ومن أمثلتها في الخريدة موشحة [1] لشاعر موصلي هو التاج البلطي المتوفي سنة ٥٩٩. ويلقانا في القرن السابع وشاح عراقي كبير ترجم له ابن تغرى بردى في المنهل الصافي باسم شهاب الدين الموصل [2] أحمد بن الحسن صاحب الموشحات، وكان يستخدمها في المديح وغير المديح، وينشد ابن تغري بردي موشحة له عارض بها موشحة للقاضي الفاضل عبد الرحيم، تجري على هذا النحو:

بي مَنْ حَوَى الحسنَ كُلَّه ... وفاق غِيدَ الأكِلَّهْ[3]

بَدْرُ تمامٍ مصَوَّر ... ما فيه نَقْصُ الأهلَّهْ

فشعرُه لليالي ... وفَرْقهُ للصباحْ

وجَفْنهُ للنِّصالِ ... وقَدُّهُ للرِّماح

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢/ ٣٨٩

(٢) انظر ترجمته في المنهل الصافي لابن تغري بردي (طبع دار الكتب المصرية) ١/ ٢٥١.

(٣) الأكلة هنا: جمع كلة وهي الستر أو لعلها جمع إكليل وهي عصابة تزدان بالجواهر.

وريقُه للزُّلالِ وثَغْرُهُ للأقاحْ

وقد بدأ موشحته بالقفل وتلاه بالدور، ثم تتابعت الأقفال والأدوار، وكان يعرف كيف ينتخب كلماته عذبة رشيقة، كما كان يعرف أنه لكي تتكامل رشاقة الموشح يحسن أن تكون الشطور في الأدوار قصيرة وأ، يَسْري فيها صفاء موسيقى بديع. وأنشد له ابن تَغْر بردي موشحة يعارض بها موشحة مظَّفر الأعمى المصري:

كَلِّلي يا سُحْبُ تِيجانَ الرُّبَى بالحُلِي

وظن بعض الأسلاف أن هذا الموشح لابن سناء الملك، لروعة موسيقاه، وهو ظن مخطئ وكان مظفر يعاصره تقريباً، فقد توفي بعده بنحو خمس عشرة سنة. ونمضي موشحة الموصلي في هذه الصورة:

جَلِّلي يا راحُ كأسي ولها كَلِّلي

بالحُلِي سِوارها ثم لها خَلْخَلي

من غُرَرْ حَبابِك المنظوم مثل الدُّرِّ

بالخَمَرْ كأنه الياقوت فوق الجَمْرِ

والزَّهَرْ في الرَّوْضِ أمثالُ النجوم الزُّهْرِ

ومهارته واضحة في انتخاب الألفاظ والملاءمة بينها في الجَرْس والنغمة، وبحق يصف ابن تَغْري بردي موشحاته بأنها بديعة وأنها ذات نظم رائق. ويقول إن له موشحات كثيرة. ورمبا كان أهم الوشاحين العراقيين بعده صفي الدين الحلي، ونلتقي في ديوانه باثنتي عشرة موشحة منها ست في مديح الملوك والأمراء وخمس ف يالغزل وموشحة صوفية. ومع أنه أجمل صوت يلقانا بعد القرن السابع فإنه يهبط في موشحاته درجة أو درجات عن الموصلي وربما كان أخف مطلع لموشحاته قوله في فاتحة موشحة عارض بها أبا بكر بن بقي الأندلسي المشهور في موشحة بديعة له:

صاحب السيفِ الصقيل المحلَّى جرِّدِ اللَّحظَ وألْقِ السِّلاحا

لك يارَبَّ العيونِ القواتلْ

ما كفى عن عمل سيفٍ وذابِل[١]

أعْيُنٌ تبدو لديها المقاتل

ما سرى ف يجَفْنها الحسنُ إلا أوثقتْ منا قلوباً جِراحا

وربـما كانـت المعارضـة هـي التـي جعلتـه يتفـوق في هـذه المرشـحة، كـما جعلتـه يـصفَّى لفظـه تصفية، شديدة بحيث أصبح يشبه الماء العذب السلسبيل، وخاصة في هذا المطلع البديع.

(١) الذابل: الرمح

٣

شعراء المديح

لا نبالغ إذا قلنا إن كل من نلقاهم من عشرات الشعراء- إلا مَنْ ندر- عند أصحاب اليتيمة والدمية والخريدة ومن جاءوا بعدهم كانوا شعراء مديح، وينبغي أن لا نقلل من أهميتهم وأهمية شعرهم ذاهبين مع مَنْ يذهبون إلى أن هذا الشعر كان في مجموعة نفاقاً وملقاً، وهي فكرة مخطئة، فقد ظهر العرب على مسرح التاريخ منذ العصر الجاهلي وهم يتغنون بمديح شيوخهم وأبطالهم راسمين فيهم الأمجاد الحربية لقبائلهم ومثاليتهم الخلقية الكريمة، مُذْكين بذلك الحماسة في نفوس الشباب. وبذل كان الشعر ديوان مفاخرهم أو بعبارة أدق كان المديح هو هذا الديوان، وأيضاً كان ديوان مثلهم الخلقية من الجود وعزة النفس والكرامة. وانضمت إلى ذلك إشعاعات إسلامية منذ ظهر الدين الحنيف، إذ مضى شعراء المديح حين يمدحون خليفة أو والياً يتحدَّثون عن العدل أو العدالة التي لا تصلح حياة الناس بدونها، كما يتحدثون عن تقواهم وصدورهم في الحكم عن روح الإسلام وتعاليمه. ولم تركوا معركة بينهم وبين أعدائهم من الأجانب إلا سجَّلوا مجدنا الحربي فيها ليدفعوا الشباب إلى سَلِّ السيوف وقطع رقاف الأعداء ومحقهم محقاً. وبذلك كله كان المديح طوال العصور السابقة لهذا العصر صحيفة تربية، يجد فيها الشباب القدوة الحسنة في العمل المجيد وفي الخلق الحميدز وظلت لها هذه الغاية طوال عصر الدول والإمارات، فالشعراء يصوِّرون فيها رجال الأمة العربية وكل ما يتحلَّون به من خصال رفيعة وكل ما يحققونه لدولهم وإمارتهم من أعمال حربية، وكأنهم يريدون أن يرفعوهم نُصْبَ عيون الشباب شعارات تعِّبر عن آمال الأمة التي حققوها والآخرى التي يحملوهم على النهج الصحيح الذي تريده الأمة، ولذلك يكثر أن لا يكتفوا بتصويرهم في صورهم الحقيقية، بل يصوروهم كما تريد لهم ومنهم الأمة أو الإمارة.

وأول موجة تلقانا من شعراء المديح في العصر شعراء اليتيمة وتتمتها الذين عاصروا الدولة البويهية، وفي الحق أن البويهيين ووزراءهم- كما مرَّ بنا- بعثوا في هذا العصر نهضة

شعرية قوية، بما أسبغوا على الشعراء من عطايا وما فتحوا لهم من مجالسهم، ولن نستطيع أن نعرضهم جميعاً، غير أننا سنقف قليلاً عند ثلاثة من أفذاذهم، هم أبو الحسن محمد ابن عبد الله السَّلامي وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر المعروف باسم نباتة السعدي. والثلاثة من مداح سيف الدولة بحلب وحكام العراق جميعاً. وقد ولد السَّلامي بكَرْخ بغداد (١) وتوفي سنة ٣٩٣ وله مديح رائع في عضد الدولة البويهي يقول فيه من قصيدة طويلة:

إليك مديح رائع في عضد الدولة جاعلٌ	قُصَارى المطايا أن يلوح لها القَصْرُ
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي	ثلاثة أشباهٍ كما اجتمع النَّسْرُ
وبشَّرتُ آمالي بمَلْكٍ هو الوَرى	ودارٍ هي الدنيا ويوم هو الدهرُ

وأبو الفرج الببَّغاء (٢) من نَيبين في الموصل، توفي سنة ٣٩٨ وذكر له الثعالبي طائفة من أشعاره كان يُتَغَنَّى بها في عصره، وله مدائح مختلفة في سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهي، ومن مدحه لسعيد الدولة بن سعيد الدولة بن حمدان:

لاَ غيْثُ نُعْماهُ في الوَرَى خُلَّبُ الـ	ـبَرْقِ ولا وِرْدُ جُودهِ وَشَلُ (٣)
جاد إلى أن لم يُبق نائِلُهُ	مالاً ولم يَبْقَ للوَرَى أملُ

وابن نباتة السَّعْدى (٤) من شعراء بغداد وأفرادهم المبدعين، توفي سنة ٤٠٥ وهو من مدَّاح عضد الدولة، وله فيه قصائد مختلفة يصف في إحداها نار السَّذق، وكان عيدا

---

(١) انظر في ترجمة السلامي اليتيمة ٢/ ٢٩٥. ٣/ ١٢٤ وابن خكان ٤/ ٤٠٣ وتاريخ بغداد ٢/ ٣٣٥ والمنتظم ٧/ ٢٢٥ والوافي ٣/ ٣١٧.

(٢) راجع في ترجمة الببغاء اليتيمة ١/ ٢٣٦ وتاريخ بغداد ١١/ ١١ والمنتظم ٧/ ٢٤١ والشذرات ٣/ ١٥٢ وابن خلكان ٣/ ١٩٩.

(٣) وشل: ضحل.

(٤) انظر في ترجمة ابن نباتة السعدي اليتيمة ٢/ ٣٧٩ وتاريخ بغداد ١٠/ ٤٦٦ وابن خلكان ٣/ ١٩٠ وعبر الذهبي ٣/ ٩١ والشذرات ٣/ ١٧٥.

مشهوراً للنار عند الفرس في الإسلام كما مَّر بنا في غير هذا الموضع، وله في سيف الدولة قصائد بديعة، منها قصيدة في وصف فرس أغر محجل أ÷داه إليه، وفيها يقول:

نختالُ منه على أغرَّ محجَّلٍ	ماءُ الدياجي قَطْرَةٌ من مائهِ
فكأنما لَطَمَ الصباحُ جبينَهُ	فاقتصَّ منه فخاضَ في أحْشائهِ

وهو تعليل بديع لبياض الغُرَّة والساقين معاً، وكنى عن شدة سواده كناية رائعة إذ جعل الدياجي قطرة من سواده، وله في سيف الدولة بيته المشهور:

لم يُبْق جودُك لي شيئاً أؤمِّلُهُ	تركتنَى أصحبُ الدنيا بلا أمَلِ

وكان يحذو حذو المتنبي في كثرة الفخر والحماسة والشكوى من الدهر والزمن، وأيضاً كان يحاكيه في نثر الحكم بشعره من مثل قوله:

ومَنْ لم يمتْ بالسيفِ ماتَ بغيرهِ	تنَّوعتِ الأسبابُ والموتُ واحِدُ

وسنعرض لشاعرين كبيرين من شعراء العصر البويهي بين شعراء التشيع هما الشريف الرضي ومهيار. ولا يلقانا في الدمية شاعر كبير ولعل من الغريب أنها لم تترجم لأكبر شعراء القرن الخامس: علي[1] بن الحسن الرئيس أبي منصور المشهور بلقبه صُرَّدُرّ المتوفي سنة ٤٦٥ وديوانه مطبوع بدار الكتب المصرية، ويقول ابن خلكان: جمع شعره بين جودة السبك وحسن المعنى، وعليه طلاوة رائعة وبهجة فائقة. وديوانه يموج بالمدائح البديعة، ومن قوله في الخليفة القائم:

كأنَّ رسولَ الله أَلقَى رداءَه	من "القائم" الهادي على جَبَلٍ راسي
زمانُ الوَرَى في ظلِّهِ وجَنابهِ	كأيام تشريق وليلاتِ أعراسِ
هو المصطفى التَّقْوَى متاعاً لنفسهِ	بجوهرها حالٍ بِسُنْدسها كاسِ

(١) انظر في صرَّدُرّ المنتظم ٨/ ٢٨١ وابن خلكان ٣/ ٣٨٥، ٥/ ١٢٩ وعبر الذهبي ٣/ ٢٥٩ والشذرات ٣/ ٣٢٢ والنجوم الزاهرة ٥/ ٩٤.

من الخلفاء الرافعين بناءهم	بأطول أعمْارٍ وأثبتِ آساسِ

وواضح أن لغته رصينة وصوره بديعة، وقد جعل زمان الناس في أيام القائم أعراساً وأيام تشريق وهي أيام عيد الأضحى بعد يوم النحر، فأيامه أعياد وأعراس وأفراح لما أشاع فيها من عدل وأمن. وله في فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير حين تولى الوزارة سنة ٤٥٥ قصيدة من مشاهير القصائد كما يقول ابن خلكان في ترجمة ابن جهير، وسننشد بعض غزلها في حديثنا عن شعراء الغزل، وفيها يقول له:

أعدتَ إلى جسْم الوزارة رُوحَهُ ... وما كان يُرْجَى بَعْثُها ونُشُورها

وهي قصيدة بديعة، ولا يقل عنها إبداعاً قصيدة ثانية للشاعر مدح بها ابن جهير حين أعاده الخليفة القائم إلى الوزارة سنة ٤٦١ بعد عزله، وفيها يقول:

قد رجع الحقُّ إلى نِصابهِ	وأنت من كل الوَرَى أولى بهِ
ما كنتَ إلا لسيفَ سَلَّتْه يَدٌ	ثم أعادتْه إلى قِرَابهِ
أكرِمْ بها وزارةً ما سلَّمتْ	ما استُودِعضتْ إلا إلى أربابهِ
مشوقةً إليك مذ فارقَتها	شوقَ أخي الشيبِ إلى شبابه

وقراب السيف: غمده. والقصيدة كأختها رائعة. ويموج كتاب الخريدة بشعراء كثيرين ومدائحهم، نذكر من بينهم الحَيْصَ[1] بَيْصَ أبا الفوارس سعد بن محمد التميمي المتوفى ببغداد سنة ٥٧٤ عُرف باسم الحَيْص بَيْص لأنه رأى الناس يوماً في حركة شديدة فقال: ما للناس في حَيْص بَيْص، فلصقت به الكلمة لقباً له، وهو يشغل في المجلد الأول من القسم العراقي في الخريدة نحو مائة وستين صحيفة، أستهلها العماد بأنه من سلالة أكثم ابن صيفي الحكيم الجاهلي، وذكر أنه قرأ عليه ديوانه واقتطف قطعة من خطبته للديوان يفضل

(١) راجع ترجمة الحيص بيص في الخريدة (قسم العراق) ١/ ٢٠٢ ومعجم الأدباء ١١/ ١٩٩ والمنتظم ١٠/ ٢٨٨ وابن خلكان ٢/ ٣٦٢ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (طبع مكتبة الحياة ببيروت) ص٣٨٠ والسبكي ٧/ ٩١ وقد نشر ديوانه ببغداد.

فيها الشعر على النثر، وقطعة أخرى يتحدث فيها عن اشتغاله في أول شبابه بالفقه ومسائل الخلاف فيه، ثم اتجه إلى الشعر فبرع في نظمه. ويستعرض العماد ديوانه على ترتيب الحروف في الافتخار والمديح، ويذكر له ثلاثة أبيات هنأ بها الخليفة المستضيء بأمر الله حين اعتلى عرش الخلافة سنة ٥٦٦ تجري على هذا النمط:

سألنا الله أن نُعْطَى إماما ... نَعِيش به فأعطانا نَجِيًّا
بَلَغْنا فوق ما كنا نرجِّي ... هنيًّا يا بني الدنيا هَنِيّا
وقد كشف الظلام بمستضيءٍ ... غَدَا بالناس كلِّهم حَفِيًّا

وسُرَّ المستضيء حين سمع منه ذلك فاعطاه ثلاثمائة دينار وخلعه ودارا، وأقطعه ضيعة كبيرة. ولعل في ذلك ما يدل على أن سوق المديح ظلت رائجة طوال أزمنة الخلافة العباسية ببغداد. وخلف المستضيء الناصر (٥٧٥-٦٢٢هـ) فعمل على رواج سوق المديح بكل ما وسعه، حتى لقد أنشأ له ديواناً خاصاً وسمى الشعراء المدونة أسماؤهم فيه باسم شعراء الديوان[١]، وأكبر الظن أنه كان يُجْرى عليهم رواتب، وكانت لهم مواسم كثيرة يلقون فيها الشعر حين يتولىَّ خليفة وحين يُقْبل عيد أو يُولَدُ ولد أو يُخْتَنُ، وكذلك حين يسترد الخليفة صحته من مرض ألَمَّ به. وبالمثل كان للوزراء وذوي البيوتات شعراؤهم، وشاعر الناصر الفذ سِبْط ابن التَّعاويذي، وسنترجم له. ويقال إن محيي الدين بن الجوزي كان ينظم في كل أسبوع قصيدة يمدح بها الناصر[٢]، فما بالنا بغيره من شعراء الديوان الذين كانوا يلتمسون وأخذت انتصاراته تتوالى أخذ كثيرون من شعراء العراق ينظمون مدائحهم فيه، من مثل العلم الشاتاني[٣] الموصلي المتوفى سنة ٥٧٩ وله فيه مدحة استهلها بقوله:

---

(١) انظر نساء الخلفاء لابن الساعي تحقيق د. مصطفى جواد (طبع دار المعارف) ص٩ وراجع الجامع المختصر لابن الساعي (طبع بغداد) ٩/ ٦٩، ١٥٣، والوافي ٢/ ١٠١ و٤/ ٣٧٩.

(٢) ذيل مرآة الزمان لليونيني (طبع حيدر آباد) ١/ ٣٣٧

(٣) انظر في ترجمة الشاتاني الخريدة (قسم الشام) ٢/ ٣٦١ وابن خلكان ٢/ ١١٣ وتهذيب ابن عساكر ٤/ ١٧٧ والسبكي ٧/ ٦١.

أرى النَّصْرَ معقوداً برايتك الصَّفْرا	فسِرُ وافتح الدنيا فأنت بها أحْرَى

ونوَّه صاحب النجوم الزاهرة بابن الشِّحْنة الموصى أبي حفص عمر بن محمد لمدحة قافيةٍ له في صلاح الدين (١). ومن مداحه بالموصل أيضاً ابن الدهان (٢) أبو الفرج عبد الله ابن أسعد المتوفى سنة ٥٨١، وقد نشر ديوانه ببغداد أخيراً، وقصد مصر زمن الوزير الفاطمي طلائع بن رُزِّيك وأنشده في مديحه قصيدة كافية بديعة، ويقال: بل أرسلها إليه فكافأه عليها بجائزة سَنِيَّة وفي تخلصه بها من الغزل إلى المديح يقول:

لا نلتُ وصلكِ إن كان الذي زعموا ... ولا سَقَى ظَمئي جودُ ابنِ رُزِّيكا

القاتل الألف يلقاهم فَيغْلبهم ... والواهبُ الألف تلقاه فيُغْنيكا

ونمضي في القرن السابع الهجري، فتلتقي براجح (٣) الحِلِّي المتوفى سنة ٦٢٧ وتهنئةٍ أنشدها الكامل سلطان مصر حين استخلص دمياط من الصليبيين سنة ٦١٨ وردَّهم مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه، وكان قد عاونه في دَحْرهم أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى، وإلى ذلك يشير راجح في قصيدته مستخدماً للتورية إذ يقول:

تهلَّل وَجْهُ الدهر بعد قُطوبهِ	وأصبح وَجْهُ الشِّرْك بالظلم أسودَا
أعُبَّادَ عيسى إنَّ عيسى وحِزْبَه	وموسى جميعاً يَخْدمون محمدَا

وواضح أنه قصد إلى التورية حين جعل المعظم عيسى والأشراف موسى يقفان في خدمة أخيهما الكامل محمد، وهي تورية بديعة. ويتوفَّى الخليفة الناصر، ويخلفه ابنه الظاهر لنحو سنة، ويتوفى، فيخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣-٦٤٠هـ) ومن أهم شعرائه ابن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ وقد نظم فيه مجموعة من المدائح طبعت باسم المستنصريات،

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/ ٥٨.

(٢) راجع ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٢/ ٢٧٩ وابن خلكان ٣/ ٥٧ والسبكي ٧/ ١٢٠ وتهذيب ابن عساكر ٧/ ٢٩٢ والشذرات ٤/ ٢٧٠.

(٣) انظر ترجمة راجح وشعره في ابن خلكان ٤/ ٧ والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٢، ٢٧٣ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/ ٣١٨ والشذرات ٥/ ١٢٣.

وسنعرض له بين شعراء الشيعة، ومن شعرائه أيضاً مجد الدين النشابي [1] أسعد بن إبراهيم الإربلي المتوفى سنة ٦٥٧ وكان يكثر من مديحه بمثل قوله:

وَرِثَ النبوةَ طاهراً عن طاهرٍ ... إرْثاً يُنَزَّهُ عن مقالة مُفْتَرى

وإذا رأى الراءون نُورَ جلالهِ ... لم تَلْقَ غير مهلّلٍ ومُكَبِّرِ

ويكثر مثل هذا الغلو في المديح منذ أوائل العصر، وأكبر الظن أنه من أصداء مدائح الشيعة لأئمتهم وما أحاطوهم به من هالة قدسية ومن مبالغات مفرطة. وطبعاً أُلْغي ديوان الشعراء بعد الغزو التتاري وركدت سوق الشعر. ونمضي في القرن السابع فنلتقي بفخر الدين مظفر بن الطرَّاح المتوفى نسة ٦٩٤ وله مدائح كثيرة في علاء الدين عطا ملك الجويني صاحب ديوان بغداد [2]. وكان يعاصره ابن نعيم الحلي، وله ديوان [3] سماه "شرف المزية في المدائح العزِّية" مدح به صدر الحِلَّة عز الدين أبا محمد حسن بن الحسين الأسدي الحلي، ويكفي القرن الثامن فخراً ظهور صفي الدين الحلي فيه. ومر بنا في فواتح الفصل اسم شهاب الدين الموسوي في العصر العثماني الأول واسم محمد كاظم الأزري في العهد العثماني الأوسط أو عهد المماليك، ولهما ديوانان يطفحان بالمديح، ولعل من الخير أن نخص بالحديث كبار شعراء المديح في العصر: المتنبي، وسبط ابن التعاويذي، وصفي الدين الحلي.

(١) راجعه في فوات الوفيات ١/ ١٧ وقد روى له موالياً وانظره في ذيل مرآة الزمان ١/ ١١١-١٢٣ وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي (طبعة الهند) ٥/ ١٠٢.

(٢) العزاوي ١/ ٣١٦.

(٣) العزاوي ١/ ٣١٧.

المتنبي(١)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من عشيرة جُعْفيّ المذحجية اليمنية، ولد سنة ٣٠٣ بحي كِنْدة في الكوفة، ولذلك قد يقال له الكندي. أما أمة فكانت هَمْدانية، فهو يمنى أباً وأماً. وذكر بعض خصومه وهجَّائيه أن أباه كان سَقّاء، وأضاف بعضهم أن اسمه "عَبْدان". ولم يُعِر ابن خلكان هذه الدعوى اهتماماً، وهي دعوى ملفقة كيداً للشاعر الفذ وحَسَداً. وكل شيء في سيرة الشاعر يؤكد بطلانها، فقد ذكروا أن أباه ألحقه بكتَّاب أبناء الأشراف، ويَبْعُدُ أن ينتظم في سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سَقَّاء يحمل الماء لأهل الحي القاطن به. وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكِّرة، وهو في نحو الثامنة من عمره، واتفق أن قال له بعض رفاقه من الصِّبْية: ما أحسن وَفْرتك وشَعْرك، وفوجئ الصَّبيُّ بردِّه:

لا تَحْسُنُ الوَفْرةُ حتى تُرى ... منشورةَ الضَّفْرَيْنِ يوم القِتالْ

على فتىً مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً ... يُعِلُّها من كل وافي السِّبالْ

فالوفرة- أو الشعر المجتمع على الرأس- لا يحسن منظره إلا يوم القتال حين تشعَّث ذوائبه على رأس فتى باسلَ يعْتقل صعدة أو رمحا يُعِلُّها أو يرويها من دماء الرجال، فتى لا

---

(١) انظر في ترجمة المتنبي اليتيمة للثعالبي ١/ ١١٠ وتاريخ بغداد ٢/ ١٠٢ ونزهة الألبا لابن الأنباري (طبعة دار نهضة مصر تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص٢٩٤ والأنساب للسمعاني ورقة ٥٠٦ ووفيات الأعيان ١/ ١٢٠. وألفت قديماً كتب كثيرة حول شعره، منها الموضحة للحاتمي (نشر د. محمد يوسف نجم بيروت) والرسالة الخاتمية فيها وافق فيه المتنبي كلام أرشطو ورسالة الكشف عن مساوئ المتنبي للصاحب ابن عباد والواضح في مشكلات شعر المتنبي للأصفهاني (طبع تونس) والفتح الوهبي على مشكلات المتنبي لابن جني تحقيق د. محسن غياض (طبع بغداد) والفتح على فتح أبي الفتح لابن فورجه تحقيق د. محسن غياض (طبع بغداد) والوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني (طبع دار إحياء الكتب بالقاهرة) والصبح المنبي في الكشف عن حيثية المتنبي للبديعي (طبع دار المعارف) وذكرى أبي الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام ومع المتنبي لطه حسن والمتنبي لمحمود محمد شاكر وكتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص٣٠٣ وكتابنا فصول في الشعر ونقده: ما كتب فيه بعنوان العروبة في شعر المتنبي وكتاب بلاشير عن أبي الطيب المتنبي. ويذكر ابن خلكان أنه وقف حتى عصره على أكثر من أربعين شرحاً لديوانه، وأهم شروحه المطبوعة شرح ابن جني وبينه وبين المتنبي مراجعات كثيرة وشرحه نفيس، ومن شروحه شرح العكبري وشرح الواحدي وهما مطبوعان. وشرحه أبو العلاء بشرح مطول سماه معجز أحمد، يقصد ديوانه.

يبرح ميادين النضال والقتال. وفي ذلك ما يدل على أنه كان يستشعر منذ نعومة أظفاره نفساً كبيرة بين جنبيه، نفساً ستعيش للفتوة والإقدام، ولن يجذبها أي جمال حسي أو متاع مادي في الحياة، مما جعله ينصرف عن الخمر بل نهي عن احتسائها، أما ما قيل من حبه للُعْبة الشطرنج فلأنها تمثل مواقع الحرب والعِراك. وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره، حتى يغزو القرامطة الكوفة ويسفكوا الدماء ويَسْبوا النساء، ويفرُّ الناس منها جزعاً وفزعاً، ويفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام ويظل المتنبي نحو عامين أو ثلاثة يتردد في القبائل ويتغذَّى بلغتها، وتتغذَّى فتوته الجاثمة بين ضلوعه. ويعود إلى الكوفة في مستهل سنته الثانية عشرة، ولا ندري هل كان أبوه لا يزال حياً أو أنه توفِّي قبيل عودته أو بعد عودته بقليل، ونظن ظناً أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه، بل لعلها فارقتها وهو لا يزال رضيعاً. وإنما يحملنا على ذلك أننا لا نجد لأمه ولا لأبيه ذكراً في ديوانه، بينما نجده يرثي جدته وهو في نحو الثلاثين من عمره رثاء حاراً قائلاً:

ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ ... لكان أباكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لي أُمَّا

وفي تسميته لها بأنها أمه ما قد يشهد بوفاة أمه في باكورة حياته وأن جدته هي التي قامت على تربيته. وحاول بعض المعاصرين أن يُلْقى شيئاً من ظلال الشك على نسبه، لأنه لم يذكر في شعره أباه ولا أمه مما قد يؤكد أنه كان يشعر بشعور الضعة من ناحية أسرته وأهله الأدنين، وجعله ذلك يبغض الناس. والنتيجة ومقدمتها غير صحيحتين، فإن كثيراً من شعراء العرب لم يذكروا في أشعراهم آباءهم ولا أمهاتهم، وليس في ذلك أي دليل على أن أسرهم كانت وضيعة، بل إننا نجد سيد بني عامر وفارسهم في الجاهلية عامر ابن الطفيل يقول:

وما سَّودتْني عامرٌ عن وِراثةٍ ... أَبَى اللهُ أن أسمو بِأُمٍّ ولا أبِ

فهو يفخر بأن سيادته لقومه ليست وراثة عن آبائه، مع أنهم كانوا سادة بني عامر فعلاً، ويريد أن يقول إنه ساد بني عامر ببأسه وأعماله المجيدة، بالضبط كما قال المتنبي:

لا بقومي شَرُفْتُ بل شَرُفوا بي ... وبنفسي فخرتُ لا بجدودي

وبهم فخرُ كلِّ من نطق الضَّا د وعَوْذُ الجاني وَغَوْثُ الطَّرِيدِ

على أن المتنبي يعود فيفخر بقومه، أما عامر فيطلق فخره بنفسه إطلاقاً. ولعل في ذلك ما يدل على أن كل ما رتبه بعض المعاصرين على هذين البتين للمتنبي وما حاولوا أن يسوقوا من شك ف نسبه غير صحيح. ومن المؤكد الذي لا يرقى إليه شك أن المتنبي كان عربياً صميماً وأن العرب لم ينبت بينهم شاعر قبله ولا بعده استشعر العروبة استشعاره حتى لو أردنا أن نقيم للعروبة والعرب تمثالاً لكان المتنبي هو الشاعر الخليق بأن يقام له هذا التمثال، وقد لبس درعاً، وشدَّ في وسطه منطقة وسيفاً، وفي إحدى يديه رمح مصوَّب وفي الأخرى ريشة الشاعر، وهو متطي حصاناً وكأنه يطلب القتال والنزال. فهو هذا التمثال الذي يرمز أروع رمز إلى العرب واستصغارهم لذوي الحكم والسلطان وصياحهم في وجوه أعدائهم، وإنه ليصيح بكل قوته هادراً عاصفاً، يريد أن يوقظ مَنْ حوله من العرب ويستنفذهم مما تورطوا فيه من هوان وتواكل واستسلام لحكامهم العاتين، ومن أجل ذلك يصور نقائصهم بمثل قوله:

ودهرٌ ناسُه ناسٌ صِغارٌ وإن كانتْ لهم جُثَثٌ ضِخامُ

وليس ذلك عن بغض للناس كما قال بعض المعاصرين وإنما محاولة صارمة لتخليصهم من أخلاقهم الذميمة التي جعلتهم يخنعون لحكامهم الأعاجم الذين كانوا يرهقونهم من أمرهم عُسْرا.

وستتضح شخصية المتنبي حين نتابعه في حياته، وقد رأيناه يخرج إلى البادية في سنة التاسعة ويعود في الثانية عشرة من سِنِّه، ويُكبُّ عَلى كل ما كان في الكوفة من ثقافات، فإذا هويلتهم كتب اللغة التهاماً ويلتهم أيضاً كتب النحو. ويتعرف على كتب الفلسفة عن طريق ممدوح كوفي له يسمى أبا الفضل وعن طريقه يتعرف على التصوف. وبكل ما قدمنا نستطيع أ، نعرف العناصر التي أسهمت في تكوين شخصيته، فهو عربي لحماً ودماً، وتستأثر به العروبة إلى أقصى حد حتى لتجعله لسانها الناطق بها طوال حياته. وهو قد تغذى بلبان البادية، وأفادته صقلاً في لغته ووقوفاً على الغريب والشواذ اللغوية، كما أفادته صقلاً في

فتوته وإحساسه بعروبته، ثم هو قد ثقف كل أنواع الثقافات في عصره، واقترض منها في شعره صيغاً من النحو الكوفي الشاذ ومن الغرائب اللغوية ومن الأفكار والألفاظ والعبارات الفلسفية، ومن مصطلحات التصوف وشارات عباراته. وكل ذلك فصَّلنا الحديث عنه في كتابنا "الفن ومذاهبه في الشعر العربي".

وكان أبواه قد توفيا، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة في سنوات ٣١٥ و ٣١٦ و٣١٩ فرأى الفتى أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفاً يسمى هرون بن علي الأوراجي، ولا نراه يمدح خليفتها ولا حاكمها الأعجمي ولا أحداً من ذوي السلطان، وكأنما وقف حائلاً بينه وبينهم ما رآه بأم عينه من فساد الحكم وتسلط الحكام الأعاجم على العرب، ويتألم لما أصابهم من ذلك وهوان، يُفْعَم صدره بمشاعر العروبة، وتثور نفسه ثورة عاصفة ويصيح من أعماقه:

إلى أي حين أنت في زِي مُحْرِمِ ... وحتى متى في شِقْوَةٍ وإلى كَمِ؟
وإلا تَمُتْ تحت السيوف مكرَّماً ... تَمُتْ وتُقاسِ الذلَّ غيرَ مكرَّمِ
فَثِبْ واثقاً في الله وثبة ماجدٍ ... يَرَى الموتَ في الهَيْجا جَنَى النَّحْلِ في الفَمِ

وهو يستحثُ نفسه والعرب من حلوه أن يخلعوا زِيَّ المحرمين بالحج، يريد زِيَّ الاستسلام إزاء حكام بغداد الأعاجم الفاسدين، ويلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلتهم منازلة لا تُبقي منهم ولا تَذَرُ. وييئس ممن حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان ويولِّي وجهه نحو بوادي الشام وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب في طرابلس واللاذقية، وهو لا يكفّ عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائزين الذين لا يرعون للعرب حُرْمة ولا عهداً ولا ذمة، ويصيح في قومه:

وإنما الناسُ بالملوك وما ... تُفْلِحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ... ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمُ

وهو يقول إنه لن يكتب للعرب فلاح طالما كانوا مستذَلِّين للحكام الأعاجم راضخين لسلطانهم مع ما يسومونهم به من العَسْف والقهر. ويمضي في دعوته وثورته في بوادي

الشام من اللاذقية إلى بعلبك، ويحسُّ في أهل "نخلة" بالقرب من بعلبك تواكلاً واتخاذلاً وأنهم لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهدَرة، فيستشيرهم بقصيدة ملتهبة يقول فيها:

ما مُقامي بأرض نَخْلَةَ إلا | كمُقام المسيحِ بين اليهودِ
عِشْ عزيزا أَوْمُت وأنت كريمٌ | بين طَعْنِ ألقَنا وخَفْق البنودِ
واطلبِ العِزَّ في لَظىً ودَعِ الذُّ | لَّ ولو كان في جِنان الخلودِ
أنا تِرْبُ النَّدا وربُّ القوافي | وسِمامُ العِدا وغيظُ الحسودِ
أنا في أمةٍ تداركها اللّـ | ـهُ غريبٌ كصالحٍ في ثَمُودِ

وكان تشبيهه لنفسه في القصيدة بالمسيح وبالنبي صالح سبباً في أن يتهمه بعض معاصريه بإدعائه النبوة، وبالغوا فزعموا أنه ادَّعى لنفسه قرآناً ذكروا بعض فِقَرٍ منه، وكل ذلك غير صحيح، فقد كانت ثورته سياسية قومية لا يدينة ولا قرمطية، كما توهم بعض الباحثين. أما لقبه المتنبي فهو الذي لقب نفسه به، أو لعل بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به، رمزاً لعبقريته الشعرية وأنه يأتي في أشعاره بالمعجز الذي ليس له سابقة. وهو يضع في البتين الثاني والثالث دستور العرب على مَرِّ التاريخ فإما العيش العزيز وإما الموت الكريم في ساحة الشرف والنضال، ولا حياة بدون العزة والكرامة. وإن العربي الحرَّ ليفضِّل العز في الجحيم على الذل في الفراديس. ويترك قرية نَخْلة إلى بادية اللازقية ويتبعه كثيرون لأواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ويقود ثورة ضارية، وكان لا يزال في العشرين من عمره ويقضي لؤلؤ وإلى حمص من قِبَل الإخشيد على ثورته ويَزَجّ به في غياهب السجن. ويظل به نحو سنتين، وتُرَدُّ إليه حريته، ويعود إلى توقيع أشعاره على قيثارته في مديح ولاة البلدان الشامية، وخاصة بدر بن عمار الأسدي صاحب دمشق من قبل بغداد، ووجد فيه المتنبي أمنيته في فارس عربي، فمدحه ونوَّه بفروسيته في تصويره الرائع لفتكه بأسد، مستهلاً له بقوله:

أمُعفِّرَ اللَّيْث الهِزَبْرِ بِسَوْطه | لمِنِ ادَّخَرْتَ الصَّارمَ المَصْقولا

يقول له إنك صرعت الأسد بسوطك فلمن أبقيت سيفك، ومضى يشيد ببأسه ومضائه. وظل لا ينسى دعوته إلى الثورة مستنهضاً همم قومه ضد حكامهم الأعاجم بمثل قوله:

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ وهل يروق دفيناً جودةُ الكفَنِ

وقوله:

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّليلَ بِعَيْشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ما لجُرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ

وفي أواخر هذا الاضطراب بين ولاة الشام التابعين لبغداد والآخرين التابعين لمصر جاءه نعي جدته، فحزن عليها حزناً شديداً ورثاها رثاء حاراً بميميته التي يقول فيها مفاخراً بقوله وأهله:

وإني لمن قومٍ كأن نفوسهم بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعَظْما

فلا عَبَرَتْ بي سَاعَةٌ لا تُعِزُّني ولا صَحِبَتْني مهجةٌ تَقْبَلُ الظُّلْما

وهما بيتان رائعان يصوران الأنفة والعزة إلى أبعد حد، وهو جانب في شعر المتنبي جعله محبَّبا لكل عربي، إذ تتوهج أشعاره بخصال العربي الكريم وما يشعر به من العزة والأنفة والإباء والشعور بالكرامة والترفع عن الدنايا إلى أقصى حد، وكأنه ترجمان العرب عن فضائلهم العليا الوطيدة كالصخر. وبهذه النفس العاتية كان المتنبي ينظم شعره منذ سال على لسانه ف يالكُتَّاب معبراً عن الروح العربية التي لا تُقْهَرُ، مهما نزل بها من الكوارث والخطوب. وهو نفسه قد نزلت به كارثة أو محنة إخفاق ثورته، ومع ذلك لا يزال يَهْدر ويزمجر ويزْأر، ولا يجد سميعاً ولا مجيباً. وتحدِّثه نفسه في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أن يقدِّم مدائحه لولاة سيف الدولة الحمداني، وكان أميرا لحلب واتسع بإمارته إلى حمص وأنطاكية منتزعاً لهما من يد الإخشيديين، فقَدَّم المتنبي مدائحه إلى وإليه على أنطاكية أبي العشائر الحمادني ابن عمه، فأجزل له في العطاء. ومضى في مديحه، ويَقْدُم سيف الدولة إلى

أنطاكية في جمادي الأولى من سنة سبع وثلاثين، فيمدحه المتنبي، ويُعْجَبُ كل منهما بصاحبه. ويطلب سيف الدولة منه أن يصطحبه إلى حَلب وينزل عنده، ويقول الرواة إن المتنبي اشترط عليه أن لا يقبِّل الأرض بين يديه وأن لا ينشده مدائحه إلا قاعداً، ويجيبه سيف الدولة إلى شرطية، ولعل فيهما ما يشير إلى شعور المتنبي بالعزة والكرامة شأ، العربي الأصيل. ويظل المتنبي عنده تسع سنوات، ينظم فيها مدائح وأشعاراً في أميره، تؤلف ديواناً، وهو ديوان من أنفس دواوين الشعر العربي، لا من حيث كثرة قصائده فحسب، بل أيضاً من حيث روعتها، وقد بلغت نحو أربعين قصيدة وإحدى وثلاثين مقطوعة، واستقرَّ حينئذ في نفسه أنه لقى أمل العرب وحاميهم وفارسهم الذي يمزِّق جموع الروم شَرَّ مُمزَّق في الشمال، وغداً يمزِّق جموع الحكام الأعاجم من البويهيين في بغداد، ويردّ للعرب دولتهم المفقودة. وكان سيف الدولة بحق بطلاً مغواراً وشجاعاً مقداماً، حَطَم جيوش الروم مراراً واستنفذ منهم غير ثغرٍ وحصن، وكان المتنبي يصحبه في غزواته، حتى إذا عاد معه أنشده بحلب ما نظمه في بطولته وبطولة جنوده. وكانت أول موقعة حضرها الشاعر مع البطل موقعة الحَدث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، وكان الروم قد استولوا على هذا الحصن، فرأى سيف الدولة أن يسترده ويعيد بناءه، وأعد جيشاً جَرَّاراً زحف به من حلب، ولقيه الروم وهُزموا هزيمة ساحقة، قُتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد برداس فوكاس وصهره، وأُسر منهم آلاف، وُضعت في أرجلهم الأغلال والسلاسل، وبَنَى سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم، وسجل المتنبي الموقعة في ميمية رائعة خاطبه فيها مبتهجاً بقوله:

وقفتَ وما في الموت شَكٌّ لواقفٍ	كأنك في جَفْنِ الرَّدي وهْو نائِمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً	ووجْهُك وضَّاحٌ وثَغْرُك باسِمُ
ضممتَ جناحيهم على القلب ضَمَّةً	تموتُ الخوافي تحتَها والقوادِمُ
بضربٍ أتىَ الهاماتِ والنصرُ غائبٌ	وَصَارَ إلى اللَّبَاتِ والنصرُ قادمُ
نَثرْتَهُمُ فوق الأُحَيْدابِ نَثْرَةً	كما نُثِرَتْ فوق العروس الدراهم

وهو يصور سيف الدولة في المعركة رابط الجأش ثابت الجنان والرءوس تتطاير والأشلاء تتناثر، والموت يحدق من كل جانب، وكأنه في جفنهو هو نائم عنه، مهابة ليس وراءها مهابة. وتمر به جنود الروم جرحى مهزومة هولاً ورعباً، ولم يلبث أن لفَّ جناحي جيشهم على القلب لفَّةً سريعة وحطم رءوسهم حطماً إلى اللبَّات والنحور. وولوا الأدبار مندحرين وسيف الدولة وجنوده ينثرونهم على جبل الأحيدب كما تُنْثَرُ الدراهم على العروس ابتهاجاً، وكأنه لم يكن يوم حرب، إنما كان يوم زفاف لنصر عظيم. والمتنبي لا يبارَى في وصفه لوقائع سيف الدولة مع الروم، حتى لكأنما نسمع في قصائده السيفية قعقعة السلاح، وهي لا شك القطع الأرجوانية الرائعة في ديوانه، وبحق قال ابن الأثير: "اختص المتنبي نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها، حتى يُظَنّ أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا" وتوفِّيت في نفس هذا العام عام سبعة وثلاثين أمُّ سيف الدولة فرثاها بقصيدة بديعة، وفيها يقول بيتيه المشهورين:

رمان الدهرُ بالأرْزاءِ حتى	فؤادي في غِشاءٍ من نِبالِ
فصرتُ إذا أصابْتني سهامٌ	تكسَّرتِ النِّصالُ على النصالِ

ونَفِسِ عليه كثيرون من حاشية سيف الدولة- وفي مقدمتهم أبو فراس الشاعر- منزلته، فأخذوا يكيدون له عنده، وأحسَّ المتنبي بكيدهم، وأن سيف الدولة يُرهف سمعه إليهم، فأنشده قصيدة ميمية يعاتبه فيها عتاباً مُراً بمثل قوله:

يا أعدلَ الناسِ إلا في معاملتي ... فِيمَ الخِصامُ وأنت الخصمُ والحكَمُ
إذا ترحَّلتَ عن قومٍ وقد قَدروا ... أنْ لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

ويحاول سيف الدولة مرضاته ولكن حاشيته تظل تكيد له، وعجيب أمر الناس فإنهم يظلون يحسدون الأديب، حتى لو كانت ملكاته من الخصب مثل المتنبي، بل هم يحسدونه لهذه الملكات ويحاولون أن يفسدوا بينه وبين راعيه. ومن عجب أن يسمع سيف الدولة لحساد المتنبي، وهو لم يكن يقدم له مدائح المعجب فحسب، بل مدائح المحب المفتون، وإنه ليعلن ذلك في غير قصيدة من مثل قوله:

مالي أكتِّمُ حُبًّا قد بَرَى جَسدي وتدَّعي حبَّ سيفِ الدولةِ الأممُ

ولعله أول من خلط المديح بالحب بل إنه ليخلط به وصف المعامع، إذ يسوق فيه ألفاظ النسيب والتشبيب والغزل كقوله:

أعلَى الممالك ما يُبْنَى على الأَسَلِ والطّعْنُ عند مُحِبِّهنَّ كالقُبلِ

ويصمم على الرحيل، ويرحل إلى دمشق، ويلتقي فيها بأصحاب كافور وأوليائه، فيغْرُونه بلقائه في الفسطاط وأنه لابد أن سيقيمه والياً على "صيداء" أو ما يماثلها من بلدان الشام، وكأنما زَيَّنَتْ نفسه له حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأ/ – رضي الله عنه – دونه ويحقق أمانيه القديمة في إمامة الدولة العربية المنشودة. وينزل بساحته على ضفاف النيل سنة ٣٤٦ وينثر عليه كافرو أمواله، فيصارحه بمثل قوله:

وما رغبتي في عَسْجَدٍ استفيدُه ولكنها في مَفْخرٍ اَسْتَجِدُّهُ

ويلوح في غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية، ولكن دون جدوى، فينتقم منه شر انتقام إذ استطاع بخبرته في الصياغة الشعرية أن يوجه له مدائح هي في ظاهرها ثناء ولكنها في بطانها هجاء مُرٌّ من مثل قوله:

وأظلمُ أهلِ الظلمِ مَنْ بات حاسداً لمن بات في نَعْمائه يتقلَّبُ

والبيت يمكن أن يُحْمل على من يُسْبَغُ عليه العطاء فلا يعترف بالجميل، وبذلك يكون من الظلم بمكان. ويمكن أن يحمل على كافور وأنه يحسد من يُسْدِي إليه العطاء، وبذلك يصفه بدناءة لا تدانيها دناءة. ويقول بعض الباحثين إن المتنبي استذلَّ نفسه حين رضي بمدح كافور الأعجمي الحبسي، وهو الذي طالما هجا الأعاجم، ويستطردون فيقولون إنه تخلَّى عن مسئوليته الأدبية. وليس هناك تخل من المتنبي ولا ما يشبه التخلي، فقد مدح كافوراً في سبيل أن يصبح صاحب ولاية وسلطان، فلما ما طله، سلَّ عليه لسانه، وظل له عنده شعوره الجامح بكرامته وفتوة نفسه، حتى كأن نفسه من طبيعة فوق طبيعة نفوس الناس، فهي لا تضعف ولا تهرم، مهما تقدمت بالمتنبي السن ومهما اشتعل عذاره شيبا، بل لكأن شعرات شيبه البيضاء حراب مشرعة لنزال أعدائه، حراب من ورائها نفس تزجر، لها

أنياب الأسد ومخالبه، ويصور ذلك تصويراً رائعاً في قصيدة مدح بها كافوراً سنة تسع وأربعين إذ يقول:

وفي الجسم نفسٌ لا تَشيبُ بشَيْبِهِ ... ولو أنَّ ما في الوجه منه حِرَابُ
لها ظُفُرٌ إن كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ ... ونابٌ إذا لم يبق في الفم نابُ

فاليأس المرير الذي ذاقه طوال أربع سنوات مجدبة لم يمس نفسه، بل ظلت فتية فتوة خليقة بكل إكبار. وفي أواخر مقامه بمصر ألَمَّت به حُمَّى، فوصف نزولها به في الظلام ومبيتها في عظامه وأثرها في جسمه وصفا رائعاً، ولها يقول بيته البديع:

أبِنْتَ الدَّهرِ عندي كلُّ بنتٍ ... فكيف وصلتِ أنتِ من الزِّحامِ

وعرَّض في القصيدة برحيله، فقد أحسَّ بإخفاق رحلته إلى مصر وارتحل بليل، وهو يرمي كافورا بشُواظ من هجائه على نحو ما نرى في داليته، وقد مزّق فيها أديمه تمزيقاً بمثل قوله:

لا تَشْتَرِ العبدَ إلا والعَصا معَهُ ... إن العبيدَ لأنجاسٌ مَناكيدُ

وسقط بعض شرر من هجائه على مصر، ولكنه لم يكن يقصدها لنفسها، إنما كان يقصد كافوراً بهجائه وذمه. وقد بارحها في أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين، واتجه إلى الكوفة مسقط رأسه، واشترك مع أهلها في الدفاع عنها حين هاجمها القرامطة، ولعل في ذلك ما يقطع بأنه لم يكن قرمطياً يوماً. ويرسل إليه سيف الدولة بهدية ومعها كتاب بخطه ويرد عليه بلامية بديعة يستحثه على منازلة البويهيين الأعاجم ببغداد وينزلها في سنة إحدى وخمسين، وفيها يجتمع له كثيرون يأخذون عنه ديوانه، ويتعرض له الحاتمي - بإيعاز من الوزير المهلبي - ينقد بعض أشعاره، وتكون في ذلك قطيعة بينه وبين الوزير فلا يمدحه، ويعود إلى الكوفة بعد أشهر، ويكاتبه ابن العميد في سنة ثلاث وخمسين متودداً إليه آملاً في زيارته ويقدم عليه في "أرَّجان" سنة أربع وخمسين ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلاً في وصفه:

عربيٌّ لسانُهُ فلسفيٌّ ... رأيُه فارسِيَّةٌ أعيادُهْ

فمفخرة ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروبة بيانه، ويستقدمه عضد الدولة إلى "شيراز" ويمُّر ببستان يسمى "شِعْبَ بَوَّان" ويروعه جماله، غير أنه مع روعته كدَّر نفسه أن لا يرى أثراً للعروبة فيه وفيما حوله من ديار، مما جعله يفتتح قصيدته بقوله:

مغاني الشِّعْبِ طِيباً في المغاني ... بمنزلة الرَّبيع من الزمانِ

ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها ... غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

وأروع مدائحه في عضد الدولة هائيته، وهو يستهلها بتصوير حنينه إلى منازل حبيباته العربيات في الشام، وتطغى عليه حرارة هذا الحنين وما يلبث أن يجسِّمه في فتاة عربية شامية خلبت لبه، ويصور جمالها وعفتها بمثل قوله:

كلُّ جريحٍ تُرْجَى سَلامتهُ ... إلا فؤاداً دهَتْه عَيْناها

في بلدٍ تُضْرَبُ الحِجالُ به ... على حِسانٍ ولَسْنَ أشباهاً

فيهنَّ مَنْ تَقْطُرُ السيوفُ دماً ... إذا لسان المحبِّ سَمَّاهَا

إنهن عربيات دونهن الموت الزُّؤام. وعلى هذا النحو ظلت العروبة تختلط بدمائه، حتى أنفاسه الأخيرة فقد بارح شيراز سريعاً، وفي طريقه بالقرب من بغداد خرج عليه في أواخر شهر رمضان من سنة ٣٥٤ فاتك بن أبي جهل في بعض الشذاذ من قطاع الطرق، وصرعه هو وابنه وغلمانه، وبذلك أحال أعراس الشعر مآتم على شاعر العروبة العبقري: مآتم حداد وسواد. وقد بكاه كثير من معاصريه بكاء حاراً.

ولعل فيما قدمنا ما يصور الموضوعات الأساسية التي تغني بها المتنبي، وهي المديح والهجاء والفخر والرثاء، وأروع مدائحه كما قدمنا ما نظمه في سيف الدولة وتصوير معاركه، وهجاؤه يثبُّ في مدائحه ونقصد هجاءه لأعاجم بغداد، وفيهم يقول:

في كل أرضٍ وَطِئْتُها أُمَمٌ ... تُرْعَى بعَبْدٍ كأنهم غَنَمُ

يَسْتَخْشِنُ الخَزَّ حين يَلْبَسُهُ ... وكان يُبْرَي بظُفْرِه القَلَمُ

والبيت الثاني حمل سخرية قاتلة فقد كانوا- كما يقول- عبيداً غلاظاً لا يعرفون إلا الملابس الخشنة، وقد طالت أظفارهم، وإذا هم يعيشون في النعيم، يلبسون الإسْتَبْرَقَ بل سيتخشونه، ويملئون ديار العرب بَغْياً وظلماً، ومرت بنا أبيات أخرى ف يهجائهم، وأشرنا إلى هجائه لكافور وهو هجاء مرير. ويكثر الفخر في شعر المتنبي، وهو طبيعي لمن يتصف بالبأس والشجاعة واحتمال المكاره والطموح والثقة بالنفس ثقة تدفعه إلى مغالبة الزمن حتى ليقول:

أمثلي تأخذُ النكباتُ منه ... ويجزعُ من ملاقاة الحِمامِ

ولو برز الزمانُ إليَّ شخصاً ... لخضَّب شَعْرَ مَفْرقهِ حُسامي

وفي ديوانه مراث مختلفة، ولكن أهمها مرثيته في جدته والأخرى التي نظمها في أم سيف الدولة، وقد مرت الإشارة إليهما، والمرثية الأولى تطفح بالفخر بينما تطفح الثانية بالتفكير في الحياة والموت، وفيها يقول:

يُدَفِّن بعضُنا بَعْضاً وتَمْشي ... أواخرُنا على هامِ الأَوالي

وفي رأينا أن هذا البيت هو الذي ألهم أبا العلاء قصيدته: "غير مجد في ملتي واعتقادي". وتَسْرِي فيه روح تشاؤم جعلته ثائراً على الزمن والدهر والناس، وهي روح تحبِّب أشعاره إلى قارئه، من مثل قوله:

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعَناهُمْ من شأنهِ ما عَنانا

وتولَّوا بغُصَّةٍ كلُّهم منـــــ ... ـه وإنْ سَرَّ بعضَهم أحيانا

وتكثر في شعره الحكم والأمثال، حتى ليصبح جُلُّ ما يدور من خواطر في أذهان الناس أمثالاً أو حكماً ينطق بها في شعره، ولفت ذلك القدماء وحاولوا أن يصلوا بينه وبين أرسطو فيه، ولكن من المؤكد أن حِكمه وليدة عقله الكبير وخبرته الواسعة بالحياة والناس، وقد أنشدنا منها أطرافا فيما مَّر من الحديث. وله غزل طريف، وهو فيه مفتون دائماً بالبدويات لجماهلن القطري وفي ذلك يقول:

حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتَطْرِيَةٍ   وفي البداوة حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ
أَفْدِى ظِباءَ فلاةٍ ما عَرِفْنَ بها   مَضْغَ الكلامِ ولا صَبْغَ الحواجيبِ

وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يجلو بعض الجلاء شخصية المتنبي الفذة ويرد عنها جملة التُهم التي نسجها بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين حول نسبه وصحته وحول قرمطيته وعقيدته، وهو قد فَرَّ مع أبيه من وجه القرامطة حَدثاً ورحل بسببهم عن الكوفة في باكورة شبابه، وحاربهم بأخرة من عمره، ومع ذلك يقال إنه قرمطي، ويُلْقَى ظل من الشك على عروبته، مع أن العروبة لم تجد من يَفْضُله لتختاره تُرْجُماناً لها أروع ما يكون الترجمان.

سِبْط[1] ابن التعاويذي

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله، كان أبوه مولى لبني المظفَّر واسمه نُشْتَكِين، فسماه ابنه عبيد الله وسمى جده عبد الله، وقد وُلد لأبيه ببغداد سنة ٥١٩ ويبدو أنه توفي وابنه لا يزال صغيراً، فكفله جده لأمه أبو محمد المبارك الزاهد المعروف بابن التعاويذي وكان صالحاً، فقام على تربيته خير قيام، إذا ألحقه بكتَّاب، ثم بحلقات العلماء في المساجد، ولم يلبث أن أستيقظت موهبته الشعرية، ولم تشمله عناية جده فحسب، فقد عُني به أيضاً بنو المظفر مواليه، إذ أسبغوا عليه وعلى جده من أفضالهم الكثير، وكان لهم شأن كبير في الدولة، إذ كان منهم وزراء وكتاب مختلفون، فألحقوه بدواوين الخلافة، واختاروا له الكتابة بديوان الإقطاع، وجعلته وظيفته في هذا الديوان يتصل بكبار رجال الدولة وموظفيها المختلفين من غير بني المظفر، وله مدائح في الخلفاء وفي غير وزير، وخاصة ابن هبيرة. ويظهر أنه كان من جملة من فَصلَهم وزير الديوان أبو جعفر أحمد بن محمد التميمي المعروف بابن البلدي لعهد الخليفة المستنجد (٥٥٥-٥٦٦هـ) إذ نراه يهجوه هجاء مراً،

---

(١) انظر في ترجمة سبط ابن التعاويذي معجم الأدباء ١٨/ ٢٣٥ وابن خلكان ٤/ ٤٦٦ ونكت الهميان ص٢٥٩ والوافي بالوفيات ٤/ ١١ وعبر الذهبي ٤/ ٢٥٣ والشذرات ٤/ ٢٨١ والنجوم الزاهرة ٦/ ١٠٥ وسبط ابن التعاويذي: حياته وشعره لنورى شاكر الألوسي (طبع بغداد) وديوانه طبع قديماً بالقاهرة في مطبعة المقتطف بتحقيق مرجليوث

وكان هذا الوزير قد عزل أرباب الدواوين وحبسهم وحاسبهم وصادرهم وعاقبهم ونكَّل بهم، وفيه يقول:

يا قاصداً بغداد حِدْ عن بلدٍ ... للجور فيها زَخْرَةٌ وعُبَابُ
إن كنت طالبَ حاجةٍ فارجعْ فقد ... سُدَّتْ على الرَّاجي بها الأبوابُ
بادتْ وأهلوها معاً فبيوتُهم ... ببقاء مولانا الوزير خَرابُ
وارَتهمُ الأجْداثُ أحياءً تُها ... لُ جنادلٌ من فوقهم وترابُ

ونراه في قصيدة أخرى يشكو من ابن البلدي ومن ضائقته وعطلته مما يدل دلالة قاطعة على أنه كان قد فُصل مع من فصلهم. ولم يلبث أن عاد إلى وظيفته، وأكبر الظن أن الخليفة المستنجد هو الذي أعاده، وكان جده لأمه ابن التعاويذي قد توفي ورثاه مرثية جيدة، استهلها بقوله:

لكلِّ ما طال به الدهرُ أمَدْ ... لا والداً يُبْقى الرَّدَى ولا وَلَدْ

وليس في الديوان بعد ذلك ما يدل على أن أحداثاً خطيرة مرت به. وقد ظل في ديوان الإقطاع حتى سنة ٥٧٩ إذ كُفَّ بصره، ولم يعد يستطيع العمل فيه، ويلتمس حينئذ من الخليفة الناصر (٥٧٥-٦٢٢هـ) أن ينقل راتبه في الديوان إلى أبنائه، وكانوا كثيرين كما يبدو من إحدى قصائده. ويجيبه إلى ملتمسه، غير أنه يعود فيطلب إليه أن يُجَدِّد له راتباً خاصّاً به مدة حياته، ويحقق له طلبه، ويُكْثر حينئذ من نَدْب بصره بمثل قوله:

ألا مَنْ لمسجونٍ بغير جنايةٍ ... يُعَدُّ من الموتى وما حان يومُهُ
يُرَوِّعهُ عند الصباح انتباهُه ... فطُوبىَ له لو طالَ وامتدَّ نَوْمه

ولم يعش طويلاً وهو مكفوف، فقد توفي بعد نحو أربع سنوات سنة ٥٨٣ وقيل بل سنة ٥٨٤. وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل كفِّ بصره، وعمل له خطبة طريفة، كما يقول ابن خلكان، ورتبه في أربعة فصول، وكل ما نظمه بعد هذا الترتيب سماه الزيادات، والفصل الأول في مدائح الخلفاء، والفصل الثاني في مدائح جماعة من الوزراء والأكابر كما يقول في

مقدمته، والفصل الثالث في مدائح بني المظفر. يقول: "لأنني نشأت فيهم، وصحبتهم أنا وجدي لأمي، وكنت منقطعاً إليهم لا أشيم (أنظر) غير سمائهم، فنظمت فيهم جُلَّ شعري، وأنفقت معهم طائفة من عمري" والفصل الرابع متنوعات من مراث وزهد وغزل وعتاب وهجاء. والزهد عنده قليل مما يدل على أن أثر جده لأمه الورع فيه كان ضعيفاً. وواضح أن جمهور الشعر في الديوان مدائح، ومع ذلك نرى له قصيدة ينصح فيها الشعراء أن يهجروا المديح إلى الهجاء، ويبدو أنه قالها في لحظة عارضة في حياته. وقد نَّه به وبشاعريته ابن خلكان تنويهاً عظيماً قائلاً: "كان شاعر وقته، لم يكن فيه مثله، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها، وهو في غاية الحسن والحلاوة، وفيما أعتقده لم يكن قبله بمائتي سنة مَنْ يضاهيه".

وأول ختليفة مدحه سِبْط ابن التعاويذي الخليفة المستنجد (٥٥٥-٥٦٦هـ) وليس لأبيه المقتفي ذكر في الديوان، وليس له في المستنجد نفسه سوى قصيدة، وكأنه كان بعيداً عنه لعهد وزير الديوان ابن البلدي حتى إذا ولى المستضيء (٥٦٦-٥٧٥هـ) رأيناه يكثر من مدائحه، كما أكثر من مدائح ابنه الناصر، وظاهرة مهمة تلاحَظ في هذه المدائح، هي أن الشاعر يقترض من بيئة الإمامية الشيعية وغيرها من الغلاة بعض الأوصاف التي يصفون بها أئمتهم، ويصف بها المستضيء وابنه الناصر، وكأنه لم يعد هناك فرق بين مدح الشيعة لأئمتهم ومدح الشعراء لخلفاء بني العباس، واقْرأ هذا الاستهلال لمدحه لسِبْط ابن التعاويذي في المستضيء:

لك النَّهْيُ بعد الله في الخلق والأمرُ ... وفي يدك المبسوطة النفعُ والضُّرُّ
وطاعَتُك الإيمانُ بالله والهُدَى ... وعِصيانُك الإلحادُ في الدين والكفْر
ولولاك ما صحَّتْ عقيدةُ مؤمنٍ ... تَقِيٍّ ولم يُقْبَلْ دعاةٌ ولا نَذْرُ
مُرِ الدهرَ يفعلْ ما تشاء فإنه ... بأمرك يَجْري في تصرُّفه الدهر

والغلُّو واضح في البيتين الأخيرين، بل في الأبيات كلها، حتى ليجعله يصرِّف الدهر كما يشاء. ويمضي في القصيدة فيصفه بأنه أمين الله ووارث النبي وإمام هدى عمَّ عدله الرعية،

وقـد نطقـت بفـضله آي الـذكر الحكـيم يقـصد قولـه تعـالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ودائـماً يـردِّد في مدائحـه لـه أنـه جـار عـلى سُـنن الرسـول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأ، مديحـه لـه سَـيُعَدُّ يـوم القيامـة مـن حـسناته. ويخطـو الـشاعر في مديحه للناصر خطوات أكثر غلوًّا على شاكلة قوله:

أنت الإمامُ المهديُّ ليس لنا ... إمامُ حَقٍّ سِواك يُنْتَظَرُ

يا صاحبَ العصرِ والزمانِ ومن ... في يده النَّفْعُ بعدُ والضَّرر

ومَنْ له الليلُ والنهار وما ... كَرَّا عليه والشمسُ والقمر

والبَرُّ والبَحْرُ والشواهقُ والْـ ... ـغُرُّ الغَوادِي والنَّجْمُ والشَّجر

ولـو لم نعـرف اسـم الممـدوح لظننـاه إمامـاً شـيعياً فهـو المهـدي الـذي تنتظـره الـشيعة لينقـذ العـالم مـن مفاسـده وشروره، وهـو صـاحب العـصر والزمـان الـذي يختفـي عـن الأعـين ومـع ذلـك يرعـى أمـور رعيتـه ويـدِّبر شـئونها، بـل إنـه ليـدبر الكـون كلـه بليلـه ونهـاره وأفلاكـه وكواكبـه وأرضـه وسـمائه ويـدِّبر شـئونها، بـل إنـه ليـدبر الكـون كلـه بليلـه ونهـاره وأفلاكـه وكواكبه وأرضه وشمائه وبـره وبحـره. وعـلى نحـو مـا يـضيف الـشيعة إلى أشـمتهم العلـم وأنهـم خزنته وذخائره كـذلك يكـرر الـشاعر بـأن العباسـيين علـماء الـدين الحنيـف وأعـلام الهـدى، ولا يمـلُّ مـن تكـرار نـشرهم للعـدل. وكـان الـشيعة يـرددون أ، أئمـتهم حجـج الله في أرضـه عـلى عباده، ويقتبس الشاعر هذه الفكرة في مدحه للناصر قائلاً:

حُجَّةُ الله أنت والسَّببُ المَمْـ ... ـدودُ ما بينه وبين الناسِ

ولعـل في ذلـك كلـه مـا يـدل عـلى أن الخطـأ أن يُـسْلَكَ سِـبْط ابـن التعاويـذي بـين شـعراء الـشيعة كـما ظـن بعـض المعـاصرين، فهـو شـاعر عبـاسي، متعـصب لخلفـاء بنـي العبـاس أشـد التعـصب، ولـذلك أمثلـة كثـيرة في شـعره، وهـو يقـرر دائـماً أنهـم أصـحاب الحـق الـشرعي في الخلافة، ولذلك كنت أشك في أنه نظم مرثية الحسين.

أرقتُ لِلَمْعِ بَرْقٍ حاجِرٍّ ... تأَلَّق كالبَماني المَشْرِفيِّ

ويغلب أن تكون المرثية أضيفت إلى الديوان في زمن مبكر.

وحين كاد العماد الأصبهاني يعمل في دواوين الخلافة ببغداد انعقدت بينه وبين الشاعر صلة مودة، فلما بارح العماد العراق إلى الشام واتصل بصلاح الدين كان الشاعر يراسله، ويقول ياقوت إن العماد ذكر في ترجمته بعض ما كان بينهما من مراسلات، وفي ابن خلكان رسالة بديعة للشاعر أرسل بها إلى العماد يطلب منه فَرْوة. ويبدو أن العماد عمل على أن يصل بينه وبين صلاح الدين من جهة ووزيره القاضي من جهة ثانية، وفي ديوانه أربعة مدائح وجه بها إلى صلاح الدين بين سنتي ٦٧٠ و ٦٨٠ كافأة عليها مكافآت سنية، لعل أهمها النونية، وفيها يقول:

قادَ الجيادَ معاقلاً وإن اكتفى — بمعاقلٍ من رأيهِ وحُصونِ
سَهِرتْ جفْنُ عِداه خيفةَ ماجدٍ — خُلِقَتْ صَوارمُه بغيرِ جفونِ
لو أن لِلَّيْثِ الهِزَبْرِ سُطَاه لم — يلجأ إلى غابٍ له وعَرينِ

وغزله في مفتتح هذه المدحة رائع، وله في القاضي الفاضل ثلاث مدائح أروعها رائية يشكو فيها فقد بصره شكوى مرة، إذ يقول:

ناءٍ عن الأحياء في بَرْزَخٍ — منقطعٌ من بَيْنِهم ذِكْرِى
ليلُ حِجابٍ لا أرى فَجْرَهُ — يا مَنْ رأى ليلاً بلا فجر

وفي الحق أنه كان شاعراً بارعاً، وقد وفَّاه ابن خلكان حقه من الثناء، ونحس عنده كأن نبعاً سائغاً يتدفق عذباً عذوبة حلوة.

صفيّ[١] الدين الحِلّي

هو عبد العزيز بن سَرايا الحِلِّي الطائي، ولد بالحِلّة القريبة من الكوفة سنة ٦٧٧ لأسرة على شيء من اليسار وسعة الحال، فكان طبيعياً أن تُلْحقه بكتّاب يتعلم فيه القراءة وحفظ القرآن الكريم وبعض الأشعار. وكان الغلمان من لداته يتدرَّبون على ركوب الخيل فحاكاهم في هذا التدرب. وأحسَّ في نفسه ميلاً شديداً إلى الشعر، فأكبَّ على حفظ نصوصه العباسية والإسلامية والجاهلية، مما جعله فيما بعد يُعْني بتضمين كثير من هذه النصوص في عشره وبعض موشحاته. ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت فيه مبكرة، إذ يقول في المقدمة التي صنعها لديوانه: "إني كنت قبل أن أشبّ عن الطوق، وأعلم ما دواعي الشوق، لهجاً بالشعر نظماً وحفظاً، متقناً علومه معنى ولفظاً". وهو يقصد بالعلوم علوم العربية وعلوم البيان والمعاني البديع، ونراه فيما بعد يؤلف في الجناس كتاباً سماه "الدر النفيس في أجناس التجنيس". ومرَّ بنا في غير هذا الموضع أنه ألَّف قصيدة بديعية هي مدحة نبوية تضم أبياتها نحو مائة وخمسين محسّناً من محسنات البديع. ومن مؤلفاته كتاب الأوزان المستحدثة مثل الدوبيت وغيره، وأيضاً كتاب العاطل الحالي، وهو- كما مرَّ بنا- في فنون الأشعار العامية. ويصرح ف يمقدمة ديوانه بأنه لم يفكر في بدء حياته أن يمدح أحداً أو يهجو أحداً، بل لقد كان يرى أن يبتعد بأشعاره عن هذين الجدولين، وجعله ذلك لا ينظم إلا في موضوعين هما مدح الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، والفخر بآبائه. ولم يكد يتجاوز العشرين من عمره حتى تعاظمت الحزازات والثارات بين عشيرته أو أسرته وبعض الأسر أو العشائر في الحِلَّة، وقُتل خاله، وبكاه في غير قصيدة وأخذ يدعو للثأر له، فنسبت معارك وسفكت دماء. وهاله أن يرى ذلك تحت بصره، فلم تدخل سنة سبعمائة حتى خرج عن الحِلَّة، ولم يكتف بالبعد عنها في بغداد، فقد أبعد في

(١) انظر في ترجمة صفي الدين الدرر الكامنة لابن حجر ٢/ ٤٧٩ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/ ٥٧٩ والبدر الطالع للشوكاني ١/ ٣٥٨ والنجوم الزاهرة ١٠/ ٢٣٨ وكتاب شعر صي الدين الحلي للذكتور جواد أحمد علوش (طبع بغداد) وديوانه طبع في القرن الماضي طبعتين: طبعة ف يدمشق وطبعة في بيروت وكلتاهما مليئة بالأخطاء وفي دار الكتب المصرية منه أربع مخطوطات.

ارتحاله حتى نزل عند ملوك ماردين في الموصل من آل أُرْتُق أصحابها وأحسن لقاءه واستقباله ملكها المنصورُ نجم الدين غازي بن أُرْتُق، وهو يشيد به وبعطاياه وعطايا ابنه الملك الصالح في مقدمته للديوان، وفي استقبال المنصور له يقول:

لاقَيْتَنا مَلْقَى الكريم لضيفهِ   وضَمَمْتنا ضَمَّ الكَميِّ لسيفهِ

وقد أنزله في دار فخمة نَّه بها في شعره، وظل يصحبه في حِلِّه وترحاله ونزهاته، وفيه نظم مدائح كثيرة في الأعياد وفي بعض انتصاراته. ولم يكتف بذلك فقد رأى أن ينظم فيه ديواناً مستقلاً سماه "دُرر النُّحور في مدائح الملك المنصور" وهو ملحق بديوانه المطبوع في دمشق، ويحتوي على تسع وعشرين قصيدة اشترط فيها على نفسه أن تكون كل قصيدة منها على حرف من حروف المعجم التسعة والعشرين، وأن يكون عدد أبيات كل منها تسعة وعشرين، وأن يبدأ في كل بيت منها، ويختتمه بنفس الحرف، وفي إحداها يقول:

رَبُّ النَّوال ومحمودُ الخِصالِ ومِقْـ   ـدامُ النِّزال وأمنُ الخائف الحذرُ

راعى الأنام بعين غير راقدةٍ   قد وُكِّلَتْ في أمور الملك بالسَّهرِ

راضٍ مع السخط يُبْدِى عزمَ منتقمٍ   للمذنبين ويعفو عَفْوَ مقتدرِ

راحاتُه مُذْنَشَا في الملك قد عاهدَتْ   يومَ النَّدى والرَّدَى بالنفع والضَّررِ

ولا ريب في أن هذا الصنيع ضرب من التكلف الشديد، ولذلك حين نقرأ قصائد هذا الديوان نشعر كأننا بإزاء لون من الشعر التعليمي الذي يراد به إظهار المهارة اللغوية ويتوفَّى الملك المنصور سنة ٧١٢ ويخلفه ابنه الملك الصالح وتظل له منزلته، ويظل له راتبه الذي كان يأخذه في عهد أبيه، ويصحبه في نزهاته وخروجه للصيد، ويتخذه أنيساً له في مجالس شرابه. ونراه في أواخر العقد الثاني من هذا القرن الثامن وقد مَّر به نحو عشرين عاماً في ظلال الدولة الأرتقية يفكر في زيارة الشام بحجة رغبته في التجارة، وكانت تجارته الدارَّ شعره، فنزل بحماة ومدح سلطانها المؤيد وابنه الأفضل، وفي أثناء مقامه عندهما يُرْسل بمدائحه إلى الملك الصال. ويفرك في قضاء فريضة الحج، ويحج إلى بيت الله الحرام سنة ٧٢٣ ويزور قبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويفكر في العودة ولا يعود إلى

الموصل ولا إلى الشام ولا إلى بغداد، إذ يتجه إلى القاهرة وينزل بساحة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون، ويستقبله أدباء مصر استقبالاً حافلاً، ويمدح الناصر بقصيدتين، ربما كانا أروع مدائحه جميعاً، أما أولاهما فعارض بها قصيدة المتنبي:

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا　　　اللابساتُ من الحرير جَلابيا

واختياره لمعارضة المتنبي شاعر العربية الفذ دليل قوي على ثقته بنفسه، وقد أظهر في معارضته براعة فائقة، وهو يستهل معارضته بقوله:

أَسْبَلْنَ من فوق النُّهود ذَوائبا　　　فجعلن حَبَّاتِ القلوب ذَوائبا

والجناس في كلمتي ذوائب بديع، فالأولى بمعنى الضفائر، والثانية من الذوبان، والجناس كثير في شعره، وكان يعرف بمقدرته الشعرية كيف يجعله سائغاً. ويمضي في مديح الناصر قائلاً:

الناصرُ الملك الذي خضعتْ له　　　صِيدُ الملوك مشارقاً ومغاربا

لم تَخْلُ أرضٌ من ثَناه وإنْ خلتْ　　　من ذكره مُلئَتْ قَناً وقَواضِبا

تُرْجَى مواهبه ويُرهَبُ بَطْشُه　　　مثل الزمانِ مسالماً ومحارباً

فإذا سَطا ملأ القلوبَ مهابةً　　　وإذا سَخا ملأ العيونَ مواهباً

ولم يفتتح القصيدة الثانية بالنسيب أو الغزل. وكأنما سِحْرُ الطبيعة المصرية وجمال رياضها وبساتينها ملأ عينيه وقلبه، فرأى أن يعدل عن النسيب إلى وصفه الجمال الهاجع على ضفاف النيل وجداوله من مثل قوله:

خَلَعَ الربيعُ على غُصون البانِ　　　حُلَلاً فواضِلُها على الكُثْبانِ

والظِّلُّ يَسْرِقُ في الخمائل خَطْوَه　　　والغُصْنُ يَخْطِرُ خَطْرَةَ النَّشْانِ

وكأنما الأغصان سوقُ رواقصٍ　　　قد قيِّدتْ بسلاسل الرَّيْحانِ

والشمسُ تنظر من خلال فُروعها　　　نحو الحدائقِ نظرةَ الغَيْرانِ

والطَّلْعُ في خَلل الكِمامِ كأنَّه حُلَلٌ تفتَّقُ عن نُحور غواني

وصفيُّ الدين يحيل الطبيعة المصرية نَشْوَى بما يتراءى له فيها من غناء ورقص وغوانٍ وجمال فاتن يأخذ بالألباب. ويمضي محفوفاً بهذا الجمال من كل جانب، مادحاً للناصر محمد بن قلاوون بمثل قوله:

ملكٌ إذا اكتحلَ الموكُ بنوره خَرُّوا لهيبتِهِ إلى الأذْقانِ

شاهدتُه فشهدت لُقْمانَ الحِجَى ونظرتُ كِسْرَى العَدْلِ في الإيوان

وافى وقد عاد السماحُ وأهلهُ مَوْتَى فكان له المسيحَ الثاني

لا عيبَ في نُعماه إلا أنَّها يَسْلو الغريبُ بها عن الأوطان

ويُشيد بإنعام الناصر عليه في مقدمة ديوانه، وأن رئيس وزرائه أبلغه رغبته في أن يجمع شعره في ديوان ويبوبه ويرتبه. ولبىَّ صفي الدين رغبة الناصر، فجمع ديوانه، وجعله في أثنى عشر باباً تشتمل على ثلاثين فصلاً، والأبواب في الفخر والحماسة والمدح والطرديات والإخوانيات والمراثي والغزل والخمريات ولاشكوى والهدايا والألغاز والزهد والهجاء ومعه الملح والأحماض. وكأنما أُريد لديوان صفي الدين أن يشيع من مصر، على نحو ما تطبع في عصرنا بمصر دواوين كثيرة لشعراء البلاد العربية. وفي الديوان مدائح مختلفة للرسول عليه السلام ولعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وقد درسها الدكتور جواد علوش وانتهى من درسها إلى أنه كان شيعياً إمامياً، وكل ما جاء به من أدلة على ذلك إشارته في بعض تلك المدائح إلى أن الرسول جعله وصياً له وأنه عهد له بهذه الوصاية حين نزل بِغَدير خُمٍّ بين مكة والمدينة، يقول في مديح علي:

إمامٌ له عَقْدُ يَوْمِ الغَدِيرِ بنصِّ النبيِّ وأقْوالِهِ

وذِكْرُ صفيِّ الدين لهذا العهد لا يثْبِتُ أنه شيعي إمامي، إذ لا نجد في شعره شيئاً من عقيدة الإمامية، ومعروف أن الزبدية مثل الإمامية يؤمنون بهذا العهد، ونجده في نفس باب مديحه للرسول وعلي يبرئ نفسه من تفضيل بعض الصحابة على بعض، يقول:

ولائي لآل المصطفى عَقْدُ مذهبي — وقلبيَ من حُبِّ الصَّبابة مُفْعَمُ
وما أنا ممن يستَجيزُ بحبِّهم — مَسَبَّةَ أقوامٍ عليهم تقدَّموا
ولكنني أُعْطِي الفريقين حَقَّهم — ورَبِّي بحال الأفضلَّية أَعْلَمُ

والبتان الثاني والثالث يخرجانه من العقيدة الإمامية التي تُضْفي على عليٍّ وأبنائه من الأئمة صفات روحية قدسية لا توجد في غيرهم من أفراد الأمة، والبيت الثالث يخرجه من الزيدية، هم حقاً يصححون خلافة أبي بكر وعمر ولكن مع الإيمان بأن عليًّا أفضل منهما وأ‌ه– رضي الله عنهما- تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل. وإذن فصفي الدين لا إمامي ولا زيدي، ومن قوله:

قيل لي: تعشق الصحابةَ طُرًّا — أم تفَرَّدْتَ منهمُ بفريقِ
فإلى من تَميلُ؟ قلتُ إلى الأرْ — بع لا سيَّما إلى الفاروقِ

ويكفي أن يقول إنه يميل إلى الفاروق عمر أكثر من علي، ليخرج من كل أبواب التشيع، أما ورود عهد الغَدير في بعض شعره فلعله قال ذلك عفواً في حداثته، وخاصة أنه نشأ في الحِلَّة، وهي بيئة قديمة من بيئات التشيع، وهو نفسه يقول في مقدمة الديوان إن شعره في الرسول وآله نظمه في باكورة حياته.

وفي الديوان ظواهر مهمة يحسن أن نشير إليها، ففيه اثنتا عشرة موشَّحة وفيه ثلاثة مسمَّطات وسبعة مخمَّسات وبعض رُباعيات كقوله:

لا تحسبْ زورةَ الكَرى أجفاني — من بعدك من شواهدِ السُّلوانِ
ما أرسلتِ الرُّقاد إلى شَركاً — تصطاد بهِ شواردَ الغِزْلان

وتكثر في شعره المحسنات البديعية، وخاصة الجناس بجميع صوره الممكنة، ومر بنا أن له كتاباً مستقلاً فيه، وفي شعره كل ألوانه: التام والناقص والمقلوب والملفق، وله قصيدة بني كل شطر من شطورها على ثلاثة جناسات مثل:

سَلْ سَلْسَلَ الريقِ لِمْ لَمْ يَروِ حَرَّ ظما — بل بَلْبَلَ القلب لما زاد آلاما

وواضح أن حرفي "سَلْ" كُرِّر ثلاث مرات في الشطر الأول وكرَّر حرفا "بل" في الشطر الثاني ثلاث مرات. وقد يلجأ إلى جناس آخر لا يقل تعقيداً إذ يجانس بين ختامي الشطرين في قصيدة على هذه الصورة.

شديدُ البأس ذو أمرٍ مطاعٍ　　　مُضاربُ كلِّ قَرْمٍ أو مطاعنْ

ومضى في القصيدة يضيف نوناً إلى الكلمة المنونة في آخر الشطر الأول ليحدث هذا الجناس المتكلف. وأكثر من التضمين في قصائده، بحيث يصبح له في القصيدة شطر ولبعض السابقين من مثل امرئ القيس والمتنبي وغيرهما شطرثان. وليس هذا فحسب فقد تبع الحريري في نظم قصائد مهملة غير منقوطة وأخرى معجمة منقوطة أو يستقل فيها بيت أو شطر بالإعجام وبيت أو شطر بالإهمال أو تتوالى الكلمات فيها كلمة معجمة وكلمة مهملة. وقد تتكون الأبيات من حروف مقطعة غير موصولة أو من حروف موصولة بحيث لا يكون فيها حرف مفصول، وله قصيدة كل كلماتها مصغّرة، إلى غير ذلك من هذه التمرينات الهندسية التي لا تحوى شعراً، وإنما تحوى مهارات لغوية. وصفيُّ الدين بذلك وباستخدامه الواسع للتضمينات والجناسات يفتح الأبواب على مصاريعها لشعراء العراق بعده كي تخمد شاعريتهم وتجف ينابيعها، مع أن ملكاته الشعرية كانت في الخصب بحيث لو اتجه بها نحو وصف الطبيعة وكان يجيده لأضاف إضافات رائعة إلى الشعر العربي.

٤

شعراء المراثي والهجاء والشكوى

لا نبالغ إذا قلنا إنه قلما وُجد شاعر من الشعراء، وخاصة شعراء المديح، إلا وقد نظم مراثي مختلفة فيمن سبق إليه الموت من كبار ممدوحيه أو من أهله أو من أصدقائه، ونكتفي بالإشارة إلى بعض المرائي البديعة، فمن ذلك مرثية أبي الحسن محمد بن عمر الأنباري الصوفي الواعظ لصديقه الوزير ابن بقية حين قتله عضد الدولة البويهي وصَلبه في بغداد لسنة ٣٦٧ وقد استهلها بقوله (١):

عُلوٌّ في الحياة وفي المماتِ | لحقٌّ أنت إحدى المعجزاتِ
كأنَّ الناسَ حولك حين قاموا | وُفودُ نَداك أيامَ الصِّلاتِ
كأنك قائمٌ فيهم خَطيباً | وكلُّهمُ قيامٌ للصَّلاةِ
مددتَ يَدَيْك نَحْوهم احتفاءً | كمدِّهما إليهم بالهِباتِ

ويشبِّه صلبه بصلب زيد بن علي زين العابدين في أواخر العصر الأموي، ويتصور الجذع المصلوب إليه كأنه يعانق المكرمات، ويظن كأن الكوارث التي طالما رَدَّها عن الناس ثأرت لنفسها منه، ويقول إن باطن الأرض حين ضاق عن أن يضم عُلاه جعلوا الجَّو قبره كما جعلوا أكفانَه غبارَ الرياح، ويستنزل عليه أو يستمطر شآبيب الرحمة والرضوان. ويكثر في العصر رثاء الشعراء، وفي مقدمتهم المتنبي، وفي كتاب الدمية للباخرزي مراث مختلفة له، وممن رثاه أبو القاسم المظفَّر بن علي الطَّبَسي، وفيه يقول (٢):

لا رَعَى اللهُ سِرْبَ هذا الزمانِ | إذ دَهانا في مثل ذاك اللِّسانِ
ما رأى الناسُ ثانيَ المتنبيِّ | أيُّ ثانٍ يُرَى لِبكْرِ الزمانِ

(١) انظر النجوم الزاهرة ٤/ ١٣٠ وابن خلكان ٥/ ١٢٠.

(٢) ابن خلكان ١/ ١٢٤ وانظر الدمية ١/ ١٠٥. ١٠٧، ٣١٦.

كان من نفسه الكبيرةِ في جَيْـ ـشٍ وفي كِبرياءِ ذي سُلطانِ
هو في شعره نبيٌّ ولكنْ ظهرتْ مُعْجزاتُه في المعاني

وكان الشريف الرضي يكثر من رثاء أصدقائه من الكتاب والشعراء، وقد رثى أبا إسحق الصابئ بقصيدته الدالية مفتتحاً لها بقوله:

أرأيتَ مَنْ حَملوا على الأعوادِ أرأيتَ كيف خَبَا ضِياءُ النَّادِي

وعاتبه الناس في ذلك لكونه شريفاً من سلالة الرسول ورثى صابئاً، فقال: إنما رثيتُ فضله. وتوفى الرضي فرثاه مهيار بلامية تأثر في مطلعها بمطلع داليته آنفة الذكر إذ يقول:

حملوك لو علموا من المحمولُ فارتاضَ معتاصٌ وخفَّ ثقيلُ

وهذا باب يطول. ونكتفي بأن نقول إنه لم يمت خليفة ولا وزير ولا حاكماً إلا وأكثر الشعراء من رثائه. وأهم من هذه المراثي لأشخاص رثاءُ بغداد حين اكتسحها التتار وخربوها ودمروها تدميراً فقد بكاها الشعراء بكاء حارًّا، بكوا أهلها الذين سُفكت دماؤهم وقُتِّلوا تقتيلاً، وبكوا تاريخها ومدنيتها وما كان بها من علوم وعلماء، وقد أشرنا في الفصل الأول إلى مرثية الشيخ تقي الدين التنوخي لها، وقد أكثر من رثائها شمس الدين الكوفي الواعظ المتوفي سنة ٦٧٥ واحتفظ ابن شاكر في كتابه فوات الوفيات بطائفة من مراثية في ترجمته للخليفة المستصم، وفي إحداها يقولك(١):

أين الذين عهدتُهم ولعزِّهم ذُلاًّ تَخِرُّ معاقدُ التِّيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهمُ يبكي الهُدَى وشعائرُ الإيمانِ
لما رأيت الدارَ بعد فراقهم أضحتْ معطّلةً من السكَّانِ
مازلتُ أبكيهم وألِثمُ وحشةً لجِاهم مُسْتهدِمَ الأركانِ

(١) فوات الوفيات ١/ ٥٠٠،

وكـان لهـذه النكبـة صـداها المـدوي في جميـع البلـدان العربيـة وفي إيـران، حتـى لنـرى الـشيخ سـعدي الـشيرازي وغـيره مـن شـعرائها ينـدبونها نـدباً كلـه لوعـة وحـسرة عـلى مـا أصـابها مـن دمار ونكال.

ولعل الهجاء كان أكثـر ذيوعـاً وانتـشاراً مـن الرثـاء، ومـرَّ بنـا أن المتنبـي هجـا كثـيراً الأعـاجم كـما هجـا كـافوراً الإخـشيدي، وتلقانـا في اليتيمـة والدميـة والخريـدة أهـاج كثـيرة، بـل يلقانـا شعراء وقفوا حيـاتهم أو كـادوا عـلى الهجـاء مثـل محمـد بـن محمـد بـن جعفـر البـصري المعـروف باسم ابن [1] لَنْكك المتوفي سـنة ٣٦٠ وكـان قـد قـصَّر بـه جهـده عـن بلـوغ الغايـة أو المنزلـة التـي يأملهـا لنفـسه، فـسلَّ لـسانه عـلى معاصريـه مـن الـشعراء حتـى المتنبـي فإنـه هجـاه، وهـو الـذي زعم أنه ابن سَقَّاء بالكوفة، كـما لاحـظ يـاقوت في ترجمتـه لـه. وكـان يتهـاجى مـع شـاعر معـاصر له يسمى أبا رياش، وفيه يقول:

على القُبْحِ الفظيع أبو رياشٍ ... يُعاشرُنا بأخلاقٍ ملاحِ
يُبيح أكفَّنا أبدا قَفاهُ ... فَنصْفَعُه على جهة المزاحِ

وهما من أنظف ما قال فيه، وكأنـه كـان يريـد أن يتـشفَّى مـن الـزمن بهجـوه وهجـو غـيره مـن الـشعراء لكـساد شـعره وهـوان شـأنه عـلى النـاس. ومـن كبـار الهجـائين في العـصر ابـن الهَبَّاريـة المتوفي سنة ٥٠٤ وسـنترجم لـه في غـير هـذا الموضـع، وقـد ذكـر العـماد في الخريـدة أن لـه قـصيدة [2] في هجـو أربـاب الدولـة في عهـد ملكـشاه الـسلجوقي (٤٦٥-٤٨٥) وسـاق منهـا قطعتـين طويلتين، وفيهم يقول:

لي مأتمٌ من سوء فِعْلهم ... ولهم بحسن مدائحي عُرْسُ
ولقد غرستُ المدحَ عندهمُ ... طمعاً فحَنْظَلَ ذلك الغَرْسُ

---

(١) انظر في ابن لنكك اليتيمة ٢/ ٣٤٨ وتاريخ بغداد ٣/ ٢٩٩ ومعجم الأدبـاء ٧/ ٧٨ والـوافي بالوفيـات ١/ ١٥٦ وفـوات الوافيات ١/ ٥٤ وشعر ابن لنكك البصري بتحقيق زهير غازي زاهد (طبع البصرة).

(٢) الخريدة (قسم العراق) ٢/ ٨١.

ويمضي في ثَلْبهم واحداً واحداً أقبح ثلب واشنعه. وعلى شاكلة هذه القصيدة سنية [١] للشريف أبي نزار عبد الله بن محمد الكوفي ذمَّ فيها سادات بني عمه من الكوفة والحِلَّة. ومرَّ بنا تعرض سِبْط ابن التعاويذي للوزير ابن البلدي، وفيه يقول ابن لنكك:

يبدو لراجيه على وَجْهِهِ   غِلظةُ ليثٍ بالشَّرَى مُخْدَرِ [٢]

لو أنها بالأرض ما أخْصَبَتْ   أو بالسَّحاب الجَوْنِ لم يُمطِرِ

وفي ديوان صفي الدين الحلي باب للهجاء كما أسلفنا، وإنما نمثل فقط ببعض النصوص.

وطبيعي ان تكثر في العصر الشكوى من الزمان، ونكاد نلتقي بها بعد المتنبي على لسان كل شاعر، ولا يختلف اثنان في أن أروع قصيدة في الشكوى من الدهر وتصاريفه قيلت في العصر قصيدة أبي محمد [٣] علي بن زريق الكاتب الكوفي وهو من شعراء اليتيمة، ويقال إنه ألمت به أيام عسِرة، فرأى الارتحال إلى الغرب، وارتحل تاركاً وراءه في بغداد زوجة كان صَبًّا بها مغرماً، غير أن الأيام لم تسعفه، ويبالغ بعض الرواة فيزعمون أنه ظل راحلاً حتى وصل إلى الأندلس وامتدح أحد أمرائها، فلم يعطه ما كان يتمناه، فبكى أمله الضائع في هذه القصيدة، وفيها يقول مخاطباً زوجة وباكياً نفسه:

لا تَعْذليه فإن العَذْلَ يُولِعهُ   قد قلتِ حقًّا ولكن ليس يِسْمَعُه

فاستعْملي الرِّفْقَ في تأنيبِهِ   من عُنْفه فهْو مُضْنَى القلب موجَعُهُ

تأبى المطالبُ إلا أن تكلِّفَهُ   للرِّزقِ سَعْياً ولكنْ ليس يجمعه

والحرصُ في المرء- والأرزاقُ قد قُسِمَتْ -   بَغْيٌ ألا إن بَغْى المَرْءِ يَصْرَعُه

أعطيتُ مُلْكاً فلم أحسِنْ سياستَهُ   وكلُّ من لا يسوسُ الملكَ يَخْلَعُهُ

---

(١) الخريدة ٤/ ١/ ٢٦٢.

(٢) الشري: الغيل. مخدر: في خدره أو غيله.

(٣) انظر في ابن زريق اليتيمة ٢/ ٣٧٦ وابن خلكان ٥/ ٣٣٨ ويسميه محمداً، وراجع بروكلمان ٢/ ٦٦.

ويصور في القصيدة لوعة الفراق وسوء الحظ وأنه لا يزال في حال وترحال وراء الرزق، وهو يلمع له كسراب يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا انتهى إليه لم يجده شيئاً. والقصيدة كلها شكوى وأنين ولوعة ممضة. وسنقف قليلاً عند شاعرين من شعراء الهجاء، أحدهما من شعراء اليتيمة والثاني من شعراء الخريدة، وهما السري الرفاء الموصلي وابن القطان البغدادي.

السَّرِيّ[1] الرَّفَّاء

هو أبو الحسن السري بن أحمد الكندي الموصلي، ولد لأسرة متواضعة، يدل على ذلك أننا نجد أباه يسلمه صبياً للرفائين، فكان يرفو ويطرز، ويبدو أنه تعلم القراءة والكتابة في صباه وحفظ القرآن أو بعضاً منه واستظهر بعض الشعر، إذ يقول مترجموه عنه إنه بينما كان يعمل رفاء في باكورة شبابه كان ينظم الشعر ويجيده، ويبدو أنه أخذ يكب على دواوين الشعراء، وخاصة شعراء العصر العباسي المشهورين من أمثال أبي تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومي والمتنبي، يدل على ذلك بوضوح الفصل الذي عقده الثعالبي لسرقاته. وكأنه أحس أنه إنما خلق لكي يكون شاعراً لا لكي يكون رفاء، ولم تكن حرفته تدر عليه إلا كفافاً من العيش يسد به رمقه، وإلى ذلك يشير قائلاً:

قد كانتِ الإبرةُ فيما مضَى ... صائنةً وَجْهي وأشعاري

فأصبح الرِّزْقُ بها ضيِّقاً ... كأنه من ثُقْبها جارِ

واجتمع عزمه على أن يهجر حرفة الرفو والتطريز إلى حرفة الأدب والشعر، واشتغل بالوراقة فكان ينسخ ديوان شعر كشاجم، إذ كان معاصروه يقبلون عليه إقبالاً شديداً، ويعيش بما يأخذ من أجرة نسخه.

وكان معه في الموصل فتيان أخوان ينظمان الشعر ويجيدانه، هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان فحدثت بينه وبينهما منافسة، وكانا يحسنان الشعر، فرأى أن يكيد لهما

---

(١) انظر في ترجمة السري الرفاء اليتيمة ٢/ ١١٧ وتاريخ بغداد ٩/ ١٩٤ والأنساب للسمعاني ٢٥٥ ومعجم الأدباء ١١/ ١٨٢ وابن خلكان ٢/ ٣٥٩ والنجوم الزاهرة ٤/ ٦٧ وديوانه مطبوع بالقاهرة.

بإضافة أجود ما ينظمانه إلى ديوان كشاجم، ليزيد حجمه وينفق سوقه من جهة، وليشنع عليهما بأنهما يسرقان شعره كما يسرقان شعر غيره من جهة ثانية، مما أشعل نار الهجاء بينه وبينهما، وظلت لا تخمد أبداً. ويسمع بما ينثره سيف الدولة الحمداني في حلب من عطايا وأموال على الشعراء، فيشد رحاله إليه، وقد أكرم وفادته عليه، فأقام بحضرته، فاشتر وطلع سعده بعد الأفول، وبعد صيته بعد الخمول، وله فيه مدائح بديعة كقوله في تصوير فرار الروم بين يديه ومقتلته فيهم مقتلة عظيمة:

تركتَهم بين مصبوغٍ تَرَائِبُهُ ... من الدماء ومخضوبٍ ذَوائِبُهُ

فحائدٌ وشهابُ الرُّمْحِ لاحِقُهُ ... وهاربٌ وذُبابُ السيفِ طالِبُهُ

ذباب السيف: طرفه الحاد. ولما توفي سيف الدولة انتقل السري إلى بغداد ومدح الوزراء وغيرهم من الرؤساء وحسن حاله، إذ نفق شعره وراج وسار في الآفاق، وتهاداه الأدبا في خرسان وسائر البلدان. ويقول ابن خلكان إنه جمع شعره قبل وفاته في نحو ثلاثمائة ورقة ثم زاد فيه، ويذكر من تصانيفه كتاب الديرة وكتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب. وقد أنشد الثعالبي من شعره في اليتيمة نحو ستين صحيفة وزعها على سرقاته وما تكرر من معانيه وأهاجيه ومديحه ولهوه ومجونه وربيعياته وأوصافه وغزلياته وما يتغنى به من أشعاره. ويسوق له الثعالبي طائفة من أهاجيه في الخالدين مدعياً عليهما أنهما يسرقان أشعاره، من ذلك قوله:

أفي كلِّ يومٍ للغبِّيْين غارةٌ ... تروِّع ألفاظي المحجَّلة الغُرَّا

فمهلاً أبا عثمان مهلا فإنما ... يَغار على الأشعار مَنْ عَشِقَ الشِّعْرا

لأطفأتما تلك النجومَ بأسرها ... ودنَّسْتما تلك المطارفَ والأُزْرا

فوَيْحكما هَلاَّ بشطرٍ قنعتما ... وأبقيتما لي من محاسنه شَطْرا

ويكثر من اتهام الخالدين بتلك السرقة، ويردد ذلك في مدائحه وأنهما يبيعان أشعاره في العراق، وليتهما يبيعانها لمن يستحقها، فإنهما يبيعانها بثمن بخس لكل من لقياه، غير

مقــدرين لقيمتهــا، ولا واعيــين لقــدرها، ويــزعــم أن غــارتها عــلى شــعره غــارة عامــة للمــديح وغير المديح، يقول:

ذئبان لو ظَفِرا بالشِّعْر في حرمٍ	لمَزَّقاه بأنيابٍ وأظفارِ
باعا عرائس شعري بالعراق فلا	تبعدْ سباياه من عُونٍ وأبكارِ
وما رأى الناس سَبْياً مثل سَبْيِهما	بيعتْ نَفيستهُ ظلما بدينارِ
والله ما مدَحا حَيًّا ولا رَثَيا	مَيْتا ولا افتخرا إلا بأشعاري

ولا يــزال يــصف هــذا الــسبي الــشعري مــن عــون أو ثيبــات وأبكــار، وكيــف أن مــن هــذا الــسبيجرحى لم تــضرب بحــد ســيف، وأسرى لم تحمــل عــلى ظهــور خيــل. ويبكــي تعبــه في نظــم أشــعاره ويــشبهها بالريــاض ويــصور إشــفاقها عــلى أنفــسها مــن هــذين اللــصين وســيوفهما التــي تفتــك بهــا فتكــاً ذريعــاً. ويعقــد الثعــالبي فــصلاً لأهاجيــه لابــن العــصب الملحــي الــشاعر وكــان يتعصب للخالديين عليـه، وهـو في هجائـه لـه يقـذع إقـذاعاً شـديداً زاعـماً مـشاهدة أهـل الريـب في منزله بـين اللهـو والخمـر والقـصف، وكأنـه لا يعـيش في منـزل إنـما يعـيش في حانـة، يقـول في وصف دعوة دعاه فيها ساخراً:

وطاف الشَّيْخُ بالدَّنِّ	إلى أن نَزفَ الدَّنَّا
فأدْنى كدرَ العيشِ	بها لا كان ما أَدْنى
مُدامٌ تجلب الهمَّ	ولا تَطْرده عَنّا
فلا النفسُ بها سُرَّتْ	ولا القلبُ لها حَنّا

وهي سخرية قاتلة مـن الـشيخ، ولم نـسق مـا أضـافه إلى الخمـر مـن التبـذل والتهتـك وأطـراح الحشمة في صراحـة، لأن الهجـاء بـذلك يتحـول سـباً يـؤدي النفـوس. وفي رأينـا أن هجـاءه ينـزل درجـات عــن بقيــة فنونــه الــشعرية، وخاصــة في فنــي المــديح والغــزل، وكــان يتغنــى بــشعره في بغداد لعصره وبعد عصره بمثل قوله متغزلاً:

بنفسي مَنْ أجودُ له بنفسي	وَيبْخلُ بالتحية والسلامِ

وحَتْفي كامنٌ في مُقْلَتيهِ ... كُمونَ الموتِ في حَدِّ الحسام

والصورة في البيت الثاني بديعة. ولا يعرف تاريخ مولده، أما وفاته فكانت في بغداد سنة ٣٦٠ وقبل سنة ٣٦٢ وقيل بل سنة ٣٦٦ إذ اتخذها دار مقام له في أخريات حياته.

ابن القَطَّان[١] البغدادي

هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان، ولد ببغداد سنة ٤٧٨ وأكب على دراسة الحديث النبوي في نشأته، ثم اتجه إلى دراسة الطب فأتقنها، حتى عد من أطباء بغداد، وكان كثير النوادر، وغلب عليه الشعر، وكان خبيث اللسان هجاء، كما كان غاية في المجون والخلاعة وكثرة المزاح والدعابة، وقد هجا جماعة من الأعيان وكبار رجال الدولة، وكاد لا يسلم منه أحد لا خليفة ولا غيره، وعوقب مرة على هجائه إذ هجا قاضي القضاة الزينبي بقصيدة كافية أولها:

يا أخي الشَّرْطُ أملَكُ ... لستُ للثَّلْبِ أتْرِكُ

وهي طويلة عدد أبياتها مائة وثمانية عشر بيتاً، وتناقلتها الرواة واشتهرت ولاكتها الألسنة، فبلغ ذلك القاضي الزينبي، فأحضر ابن القطان وصفعه وحبسه مدة، ثم رد إلهي حريته. وكان يعرف كيف يخز في هجائه وخز الإبر، من مثل قوله في الوزير أنوشروان ذاماً له بالتواضع:

هذا تَواضعُك المشهورُ عن ضَعَةٍ ... فصرتَ من أجله بالكِبرْ تُتَّهَمُ

قعدتَ عن أملِ الرَّاجي وقمتَ له ... فذا وثوبٌ على الطلاَّ لا لهمُ

(١) انظر في ترجمة ابن القطان المنتظم ١٠/ ٢٠٧ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص٣٨٠ وابن خلكان ٦/ ٥٣ ولسان الميزان ٦/ ١٨٩ ومرآة الجنان ٣/ ٣١٥ والخريدة (قسم العراق) ٢/ ٢٧٠ وفوات الوفيات ٢/ ٦١٧.

ويكثر مثل هذا الوخز وما يحمل من سخرية في هجوه، مما يدل على قدرة حقيقية في الهجاء، إذ لم يكن يعمد إلى السب والشتم، إنما يعمد إلى سموم تفتك بمن تسلط عليه كقوله في ابن المرخم قاضي القضاة ببغداد:

يا ابن المرخَّم صرتَ فينا قاضياً   خَرِف الزمانُ تُراه أم جُنَّ الفَلكْ

إن كنتَ تحكمُ بالنجوم فربما   أمَّا بشَرْعِ محمدٍ من أين لَّكْ

وهو بعد في الهجاء وهزء ما بعده هزء بقاضي القضاة في عصره. وله قصيدة طويلة في هجاء كتاب الديون لزمنه، وكان بينهم عباسيون، فتعرض لأحدهم يغمزه في نسبه إلى العباس بن عبد المطلب جده، قائلاً:

نسبٌ إلى العباس ليس نظيرُهُ   في الضَّعْف غَيرَ الباقِلاءِ الأخضرِ

وضعف عود الباقلاء الأخضر معروف. وله قصيدة طويلة يسخر فيها من واعظ ووعظه وأنه يعظ الناس بما لا ينهي عنه نفسه، وله يقول:

وأنت تَنْهَى الناسَ عن غِيبَةٍ   في مثلها تَأْمُرُ بالرَّدِّ

إما بتخويفٍ من النار أو   بنوعِ تشويقٍ إلى الخُلْدِ

وبعد ذا تفعلُ بي هكذا   زِنْهارُ من سالوسك السَّرْدِ

وهذه العجمةُ مِنْ عندك اقْـ   ـتبستُها ما هيَ من عِنْدى

ارجعْ إلى اللهِ ودَعْني ولا   تَرْم بِسَهْمِ الطَّيْشِ من بُعْدِ

فهو ينهي الناس عن الغيبة ويغتابه، مع أنه كثيراً ما يلوح للناس بأنها قد تدخلهم النار وأن تركهم لها قد يدخلهم الفردوس، والشطر الثاني في البيت الثالث عبارة فارسية يشير بها إلى أصل هذا الواعظ الأعجمي، وكلمة زنهار كلمة استغاثة بالفارسية. والسالوس السرد: الكلام المعسول البارد. وهو يستغيث بذلك من وعظه، ويقول له ساخراً إنما اقتبست هذه الصيغة الأعجمية من عندك فأنت أعجمي اللسان لا تكاد تفصح في البيان، ويناديه هازئاً به ارجع إلى ربك واستغفر لذنبك. وتكثر في القصيدة الألفاظ والعبارات

الفارسية، مما يدل على معرفته التامة لتلك اللغة. وعلى هذا النحو كان ابن القطان لا يزال يسخر سخريات لاذعة بمن حوله، كقوله في وزير كان يستثقل وارته وظله:

يا معشر الناسِ النفيرَ النفيرْ قد جلس الهِرْدَبٌّ فوق السَّريرْ
وصار فينا آمراً ناهياً وكنت أرجو أنه لا يَصير
فكلما قلتُ قّذًى يَنْجلي وظلمةٌ عما قليلٍ تُنِيرْ
فتحتُ عيني فإذا الدولةُ الـ ـدولةُ والشيخُ الوزيرُ الوزيرْ

والهردب: العجوز الغليظ، يريد أنه لا يستطيع حراكاً فكيف يحرك دواليب دولة، وإنه ليطلب إلى الناس أن تنفر للقاء هذا الأمر الخطير، ويراها غمة على صدر الأمة لا تنجلي، ويفتح عينه في كل يوم أو في كل صباح فيراها جاثمة لا تريم. ولعله كان يريد القاضي الزينبي الذي زج به في السجن كما مر بنا، فإنه تولى الوزارة، ويقال إنه لما وليها دخل عليه ابن القطان والمجلس غاص بأعيان الرؤساء وقد اجتمعوا لتهنئته، فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح والسرور، ورقص. فلما رآه الزينبي يرقص أسر إلى بعض خواصه: قبح الله هذا الشيخ، فإنه يشير برقصه إلى ما تقول العامة في أمثالها: " ارقص للقرد في زمانه".

وبحق ما قاله الزينبي إذ نراه يقول في هجائه لبعض الرؤساء:

كلُّ من صفَّقَ الزما نُ له قمتُ أرقصُ

وكان بينه وبين الحيص بيص الشاعر بغض ومهاترة، وكان يصطلحان وقتاً ثم يعودان إلى ما كانا فيه من التنابذ والتهاجي تماجناً وتظرفاً ودعابة، فمن ذلك أن الحيص بيص خرج ليلة من دار الوزير الزينبي، فنبح عليه جرو كلبة، وكان متقلداً سيفاً، فوكزه بعقب السيف، فمات. وعلم بذلك ابن القطان، فنظم أبياتاً، وأضاف إليها ببيتين من أبيات ديوان الحماسة لأعرابي قتل أخوه ابناً له، فقدم إليه ليثأر منه وكان بيده سيف، فألقاه من يده وأنشد البيتين. وكتب ابن القطان الأبيات في ورقة وعلقها في عنق كلبة لها جراء، ورتب معها من طردها هي وجراءها أو أولادها إلى باب دار الوزير كالمستغيثة، فأخذت الورقة من عنقها، وعرضت على الوزير، فإذا فيها:

يا أهل بغدادَ إن الحَيْصَ بَيْصَ أتى | بفعلةٍ أكسبتْه الخِزْيَ في البَلَدِ
هو الجبانُ الذي أبدى شجاعتَهُ | على جُرَيٍّ ضعيفِ البَطش والجلَدِ
فأنشدتْ أمُّه من بعد ما احتسبتْ: | دَمُ الأُبَيْلِقِ عند الواحد الصَّمدِ
" أقول للنفس تأساءً وتعزيةً | إحدى يديّ أصابتْني ولم تُرِدِ
كلاهما خَلَفٌ من فَقْد صاحبه | هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي"

وجلب ابن القطان البيتين الأخيرين من ديوان الحماسة من أروع أمثلة التضمين، فقد بلغ بهما كل ما أراد من سخري بالحيص بيص، إذ جعل الكلبة تقول بلسان حالها إن أخي الحيص بيص الذي موقعه مني موقع إحدى يدي جنى علي سهواً وخطأ لا عمداً ولا قصداً لسوء، وإن كلاً من الأخ القاتل سهواً والابن المفقود يعوض عن فقدان صاحبه، وبذلك جعله من فصيلة الكلاب، متسللاً إليه من تضمين البيتين في مقطوعته، فضلاً عما صوَّره به من الجبن والهلع إزاء جَرْوٍ مستضعف لا حول له ولا قوة. وكانت في ابن القطان دعابة وميل شديد إلى النادرة، وروى ابن خلكان طائفة من نوادره، من ذلك أنه دخل على الوزير ابن هبيرة وعنده نقيب للأشراف يشتهر ببخله وكان دخوله عليه في يوم حر شديد في شهر رمضان، فقال له الوزير: أين كنت؟ فقال على البديهة: في مطبخ سيدي النقيب أتبرد، يريد أنه ليس فيه نار ولا طبيخ في رمضان، فضحك الحاضرون وخجل النقيب. ومازال يُطْرِف البغداديين بنوادره حتى توفِّي عن سن عالية ببغداد في عيد الفطر سنة ٥٥٨.

٥

شعراء التشيع

مر بنا في الفصل الأول كيف أن مذهب الشيعة الإمامية الأثنى عشرية أخذ يعم في العراق منذ فواتح هذا العصر إذا كان البويهيون شيعة إمامية، فأخذ المذهب ينتشر في عصرهم، وأخذ أتباعه يتكاثرون، وتكاثر معهم الشعراء، ومضوا ينظمون في موضوعين أساسين هما: مناقب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، متحدثين عن سيرته وانتصاراته على مشركي قريش وغيرهم وما فتح الله على يديه من حصون خَيْبر، مضيفين إلى ذلك كلَّ ما يُرْوَى له من فضائل منذ اعتنق الدين الحنيف وجاهد في سبيله إلى وفاته. أما الموضوع الثاني فهو بكاء الحسين وندبه، واتسع ذلك حتى أصبح يوم مصرعه مأتماً عامًّا في كَرْبَلاء وبغداد، وهيأ لذلك أن حاكم بغداد البويهي معز الدولة ألزم الناس - كما أسلفنا - في سنة ٣٥٢ بغلق الأسواق في يوم عاشوراء، يوم مقتل الحسين، وأن ينصبوا القِباب ويرفعوا فوقها المسوح السوداء، كما ألزمهم بأن تخرج النساء منشورات الشعور يندبن ويلطمن على الحسين. وأقيم مأتم مماثل في كربلاء. ومنذ هذا التاريخ يتكرر هذا المأتم كل عام. وكان الإمامية لا يكتفون بهذا اليوم فكانوا يندبون الحسين في أيام أخرى طوال العام، وإن لم يأخذ ندبهم فيها شكل هذا المأتم الكبير. على كل حال أعدَّت هذه المآتم لأن يصبح بكاء الحسين وندبه موضوعاً أساسياً في شعر الشيعة الإمامية، وكثيراً ما تبارى الشعراء فيه يوم الاحتفال الكبير بذكرى مصرعه، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم. ولن نستطيع أن نتحدث بالتفصيل عن شعراء الشيعة الإمامية في العصر، إنما حسبنا أن نشير إلى بعض مشاهيرهم، ويمكن القارئ أن يعود إلى كتاب أدب الطَّفِّ (كَرْبلاء) لجواد شُبَّر المطبوع في بيروت، ويقرأ فيه الجزء الثاني الخاص بشعراء القرنين الرابع والخامس فسيرى كثيرين من شعراء الشيعة الإمامية، وفي مقدمتهم الزاهي [1] الشاعر البغدادي المتوفي سنة ٣٦١ وقد أنشد له

(١) انظر في ترجمة الزاهي اليتيمة ١/ ٢٣٣ وابن خلكان ٣/ ٣٧١ والنجوم الزاهرة ٤/ ٦٣ وتاريخ بغداد ١١/ ٣٥٠ والمنتظم ٧/ ٥٩ وأدب الطف ٢/ ٥٠.

المؤلف مجموعة من القصائد في بيان مناقب الإمام علي بن أبي طالب، واستهل إحدى قصائده بقوله:

تَوَلَّيْتُ خَيْرَ الخلق بَدْءًا وآخراً | وألقيتُ رَحْلي في حِماهم مُجاوراً
أئمةُ حَقٍّ خاتَمُ الرُّسْل جَدُّهم | ووالدهم من كان للحقِّ ناصراً

ومضى يذكر الأئمة الأثنى عشر واحداً مشيداً بهم إلى أن انتهى إلى مهديهم، ويبكيهم، ويمني نفسه بظهور المهدي قائم الزمان، حتى ينشر بين الناس العدل الذي لا تصلح حياتهم بدونه. ويبدو أنه كانت في السَّرِيِّ الرفاء نزعة شيعية، وقد أنشد له صاحب أدب الطفّ قصيدة موجودة في ديوانه يمدح فيها آل البيت ويبكي الحسين قائلاً:

كأنَّ أحشاءنا من ذِكْره أبداً | تُطْوَى على الجَمْرِ أو تُحْشَى السكاكينا

ومثله أبو بكر محمد الخالدي الموصلي، ومر بنا أنه كانت بينه وبين السَّرِيِّ منازعة في الشعر ومهاجاة وأكبر الظن أنه كان شيعياً إمامياً مثله، فقد ترجم له صاحب أدب الطف، ونرى الثعالبي في اليتيمة ينشد له قطعة في ندب الحسين بقول فيها [1]:

عفَّرتمُ بالثَّرى جَبِينَ فتىً | جبريلُ بعدَ النبيِّ ماسحُهُ
سِيَّان عند الأنام كلِّهِم | خاذلُهُ منكم وذابحُهُ

وهو يُسَوِّي في الإثم بين خذلوه من أهل الكوفة ومن ذبحوه، فجنايتهم واحدة في رأيه. وكان طبيعياً أن تتكون مع هذا الندب والنواح في بغداد والكوفة وكربلاء طائفة من النَّاحة، ينوحون على الحسين في يوم عاشوراء وغيره من الأيام [2]، واشتهر من بينهم ببغداد حوالي منتصف القرن الرابع الهجري أحمد المزوّق، وكان يجد أكبر مدد لنواجه في شعر

---

(١) اليتيمة ٢/ ١٨٧.

(٢) في نشوار المحاضرة للتنوخي (طبعة هندية) بتحقيق مرجليوث ١/ ٢١٩ أن رجلاً يسمى ابن أصدق وامرأة تسمى خُلَّب كانا من الناحة على الحسين، ومما كانا يتوحان به قصيدة لشاعر كوفي أولها:

أيها العينان فيضا واستهلاَّ لا تغيضا

الناشئ (١) الأصغر علي بن عبد الله بن وصيف المتوفى سنة ٣٦٦ ويقول ابن خلكان: هو من الشعراء المحسنين، وكان متكلماً بارعاً وله في أهل البيت قصائد كثيرة، ويقول ياقوت: "كان يعتقد الإمامية ويناظر عليها بأجود عبارة واستنفذ عمره في مديح أهل البيت حتى عُرف بهم" وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة. وكثير من هذه الأشعار كان يناح بها في مساجد بغداد، ينوح بها أحمد الزوّق وغيره، ويُروي أنه ناح يوماً في أحد هذه المساجد بقصيدة ملتاعة للناشئ الأصغر، وفيها يقول:

بنى أحمد قلبي لكم يتقطَّعُ — بمثل مصابي فيكمُ ليس يُسْمَعُ

عجبتُ لكم تَفْنَوْن قتلاً بسيفكم — ويَسْطو عليكم مَنْ لكم كان يَخْضَعُ

كأنَّ رسولَ الله أوصى بقتلكم — فأجسامُكم في كل أرضٍ توزَّع

فما بُقْعَةٌ في الأرض شرقاً ومغرباً — وليس لكم فيها قتيلٌ ومَصْرَعُ

وكان الشاعر حاضراً، فظل يلطم وجهه، وتبعه النائح والحاضرون يلطمون وجوههم وينوحون بأبيات القصيدة من الضحى حتى صلاة الظهر. وللناشئ قصيدة بائية يدعو فيها للأخذ بثأر الحسين كان الناس ينوحون بها في أيامه ببغداد وفي مشهد الحسين بكربلاء، وفيها يقول:

متى تأخذون الثأرَ ممن تألَبوا — عليكم وشبُّوا الحربَ وهْيَ ضُروبُ

شهيدٌ توزَّعْنَ الصوارمُ جسمَه — فخَرَّ بأرض الطَّفِّ وهْو تَريبُ

قتيلٌ على نَهْر الفُراتِ على ظَما — تطوف به الأعداء وهو غريبُ

وأرض الطف: كربلاء. وتيب: معفّر بالتراب والناشئ الأصغر يشير إلى سفك دم الحسين بكربلاء، ويمضي فيشيد بالأئمة الأولين: علي والحسن والحسين الذي حَوَوا– في رأيه– علم كل ما قد كان أو هو كائن أو يكون ويقول:

حَوَوا علمَ ما قد كان أو هو كائنٌ — وكلَّ رشادٍ يبتغيه طلوبُ

---

(١) انظر في الناشئ الأصغر اليتيمة ١/ ٢٣٢ ومعجم الأدباء ١٣/ ٢٨٠ وابن خلكان ٣/ ٣٦٩ ولسان الميزان ٤/ ٢٣٨.

وقد حفظتْ غَيْبَ العلوم صدورُهم فما الغيبُ عن تلك الصدور يغيبُ

ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من الشعراء بكوا الحسين، ولم يكونوا شيعة مثل سبط ابن التعاويذي، وهو أكبر مداح للخلفاء العباسيين في القرن السادس، حتى إنه ليخلع عليهم صفات أئمة الشيعة كما مر بنا في غير هذا الموضع، ومع ذلك رأينا له مرثية يائية للحسين، إن صح أنها له كما مرَّ بنا. وكأنما أصبح رثاؤه موضوعاً عاماً يشترك فيه الشيعة وغير الشيعة، لعظم المحنة فيه. ولعل فيما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه نشاط الشعر الشيعي في فواتح العصر، وظل ذلك سارياً طوال حقبه، وهو جانب يطول عرضه، ولذلك نكتفي بالحديث عن ثلاثة، لعل أولهم وثانيهم يعدان أنبه شعراء العراق بعد المتنبي، وهم الشريف الرضي ومهيار وابن أبي الحديد.

الشريف الرضي(١)

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر أبي أحمد الحسين من سلالة جعفر الصادق المعروف بالموسوي، كان أبوه أبو أحمد عظيم المنزلة عند خلفاء بني العباس والبويهيين، وتولى نقابة الطالبيين مرات، وتولى المظالم والحج بالناس دفعات، وقد وُلد له أولاً الشريف المرتضى سنة ٣٥٥ ثم ولد له الشريف الرضي سنة ٣٥٩ ولما شبَّا كانا ينوبان عن أبيهما في النقابة، منذ سنة ٣٨٠ وخُلع عليهما من دار الخلافة واختص أبوهما بالنظر في المظالم وأمور المساجد والحج بالناس، وكتب أبو إسحق الصابئ عهد بذلك. وكانت تربط الشريف الرضي بالخليفة الطائع مودة وثيقة. ويُقْبض على الخليفة في سنة ٣٨١ ويتولى الخلافة القادر، ويعفى والد الشريف الرضي من وظائفه في سنة ٣٨٤ وتُرد إلى الشريف الرضي تلك الوظائف جميعاً سنة ٣٨٨ وأبوه حي.

---

(١) انظر في ترجمة الشريف الرضي اليتيمة ٣/ ١٣١ وابن خلكان ٤/ ٤١٤ والدمية ١/ ٢٧٣ وتاريخ بغداد ٢/ ٢٤٦ وإنباء الرواة ٣/ ١١٤ والمنتظم ٧/ ٢٧٩ والوافي بالوفيات ٢/ ٣٧٤ ولسان الميزان ٥/ ١٤١ والشذرات ٣/ ١٨٢ ومرآة الجنان ٣/ ١٨ روضات الجنات ص٥٧٣ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٠ وميزان الاعتدال ٣/ ٥٢٣ وراجع فيه عبقرية الشريف الرضي لزكي مبارك والشرِّيف الرضي لإحسان عباس. والديوان مطبوع طبعات مختلفة في بمباي والقاهرة وبيروت.

وقد تتلمذ الشريف لعلماء عصره في بغداد من رجال الشيعة وغيرهم، مثل أبي علي الفارسي وابن جني والمرزباني في اللغة والنحو، والقاضي عبد الجبار في الاعتزال، والشيخ المفيد في الفقه وأصول العقيدة الإمامية. وأكبر الظن أنه لم يَتْرك مفسراً لعصره إلا اختلف إلى دروسه، بل لقد أقبل على كتب التفسير السابقة يعبُّ منها، يدل على ذلك كتابه في التفسير الذي ذكرناه في غير هذا الموضع والذي سماه حقائق التأويل في متشابه التنزيل، وبالمثل أقبل على كتب الحديث النبوي يَنْهَلُ منها، على نحو ما يتضح في كتابه المجازات النبوية. ومعروف أنه هو الذي جمع خطب الإمام علي في الكتاب المعروف باسم نهج البلاغة، وعرضنا في كتابنا "العصر الإسلامي" لما داخله من وضع.

وكان ذكياً ذكاء نادراً مع حضور البديهة ورهافة الحس، ويُرْوَى أنه أُحضر إلى يوسف بن أبي سعيد السيرافي النحوي وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنوات، فلقنه النحو، وقعد معه يوماً في حلقته- كما يقول مترجموه- فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم، فقال له: إذا قلنا "ضرب زيداً عمراً" فما علامة النصب في عمرو؟ فقال: بغض علي (يشير إلى عمرو بن العاص). فعجب أستاذه والحاضرون من حدة خاطره. وهو زعيم شعراء العراق في عصره غير مدفع، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة بعد العاشرة من عرمه بقليل كما يقول الثعالبي، ويمضي مشيداً به وبشعره قائلاً: "هو اليوم أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق، يتحلَّى مع مَحْتده الشريف، ومفخره المنيف، بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبين: من مضى منهم ومن غَبر، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق، وسيشهد بما أجريه من ذكره شاهد عدل من شعره العالي القِدْح، الممتنع عن القَدْح، الذي يجمع إلى السلاسة متانة، وإلى السهولة رصانة، ويشتمل على معان يقرب جَناها، ويبعد مداها" ويقول صاحب الدمية: "أنا إذا مدحته كنت كمن قال للشمس: ما أنورك.ز وله شعر إذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه، وعقد بالنجم نواصيه". وقد توفي ببغداد ودفن في الكرخ سنة ٤٠٦ وهو في السابعة والأ{بعين من عمره، ويقال إن رفاته نُقل إلى مشهد الحسين في كربلاء.

ويدل شعر الشريف الرضي على أنه تأثر أشد التأثر بالمتنبي فقد أكبَّ عليه يقرؤه المرة والمرات، محبًّا له متعاطفاً معه، متمثلاً لكل ما يقول من شكوى الزمان وأنه لا يعطيه ما يستحقه، وكان المتنبي كما مَّر بنا يريد أن يكِّون دولة عربية، والدهر يناهضه، وكان الرضي يشعر في أعماقه بأنه خليق أن يكون هو الخليفة دون أبناء عمه العباسيين، وتدفعه الضرورة إلى مصانعتهم بمديح لا يزال يزخر- مثل مديح المتنبي- بالفخر والشكوى من الأيام التي لا تنيله مبتغاه، حتى ليقول للقادر:

عطفاً أميرَ المؤمنين فإننا ... في دَوْحةِ العَلْياء لا نتفرَّقُ
ما بيننا يومَ الفَخار تفاوتٌ ... أبداً كِلانا في المعالي مُعْرِقُ
إلا الخلافةَ مَّيزتْك فإنني ... أنا عاطِلٌ منها وأنت مطوَّق

وظل شعوره بأحقيته في الخلافة لا يفارقه طوال حياته، مما جعل أشعاره تُطْبع- كما طُبعت أشعار المتنبي- بالتذمر من الدهر، بل الثورة عليه دون أن يلم به شيء من يأس أو قنوط. وليس هذا ما يجمعه بالمتنبي فقط، فإنه يجمعه به أيضاً شعور عارم بالفتوة وقوة النفس والكبرياء والكرامة والأنفة والعزة، ولذلك كان شعرهما من خير ما يُرَبَّى به الشباب، إذ يدلع في أنفسهم الشعور الطاغي بالقوة وتمثل الأخلاق الرفيعة، على نحو ما نرى في هذه الأبيات من قصيدة:

لغير العُلا مني القِلَى والتجنُّبُ ... ولولا العُلا ما كانت في حبِّ أرغبُ
وإن تَكُ سِنِّى ما تطاول باعُها ... فلى من وراء المَجْدِ قلبٌ مُدَرَّبُ
وحسبيَ أني في الأعادي مبغَّضٌ ... وأنى إلى غُرِّ المعالى محبَّبُ
وللحِلْم أوقاتٌ وللجهل مثلها ... ولكنَّ أوقاتي إلى الحلم أقرب[1]
ولا أعرف الفَحْشاء إلا بوصفِها ... ولا أنطق العَوْرَاءَ والقلبُ مُغْضبُ[2]

---

(١) الجهل هنا: الغضب.

(٢) العوراء: الكلمة القبيحة.

وتموج أشعاره بمثل هذا الفخر الذي يُضْرم جذوة النفس ويوقدها إيقاداً ويدفعها دفعاً إلى النهوض بجلائل الأعمال. وجامعة ثالثة تجمعه بالمتنبي هي استشعار البادية وروحها، إحساساً منه بأنه -رضي الله عنهما- عربي أصيل، نفس إحساس المتنبي الذي دفعه إلى أن يجعل البدويات موضع نسيبه، كذلك صنع صنيعه الرضيُّ، فهو دائم التغزل بالبدويات، دائم الافتتان بهن والتغني بجمالهن وحسنهن الطبيعي، وله في ذلك أشعار بديعة من مثل قوله:

يا ظَبْيَةَ البانِ تَرْعَى في خمائلهِ	لِيَهْنِكِ اليومَ أنَّ القلبَ مَرْعاكِ
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشاربهِ	وليس يُرْويك إلا مَدْمَعُ الباكي
سَهْمٌ أصاب وراميه بذي سَلَمٍ	مَنْ بالعراق لقد أبعدت مَرْماكِ (١)
حكتْ لِحاظُكِ ما في الرِّيم مِن مُلَحٍ	يومَ اللِّقاء فكان الفَضْلُ للحاكي
أنتِ النعيمُ لقلبي والجحيمُ له	فما أمرَّكِ في قلبي وأحلاكِ

وهو نسيب رقيق كنسيب العذريين، بل ربما كان أكثر رقة، إذ تجري فيه نغمة من لأسى والحزن واللوعة وكأنما يبثُّ فيه يأسه من آماله في الخلافة، وكأنما يراها نفس هؤلاء البدويات اللائمي يتعثر في شباك هواهن، دون أن يقطف شيئاً من أزهار حبِّه. وإنما استطردنا كل هذا الاستطراد في الشريف الرضي ليطلع القارئ على روعة أشعاره، قبل أن نعرض لرثائه جده الحسين، وفي الديوان مراث كثيرة لأم الرضيِّ وأبيه ولبعض أساتذته وأصدقائه مثل ابن جني وأبي إسحق الصابئ، وله في جده الحسين خمس مراث، وهو يتسع أحياناً في بعضها فيجعلها مرثية عامة لآل البيت، ونكتفي بأن نعرض أهمها في رأينا، وهي آخر مراثية لجده، وأعتقد أنه أراد بها النُّواح عليه وأ، ينشدها الناحة في بغداد وكَرْبلاء، وهو يستهلها بقوله:

كَرْبَلا لازلتِ كَرْباً وبَلا	ما لَقِى عندكِ آلُ المصطفَى

(١) ذو سلم: موضع بالحجاز والسلم: شجر من العضاه.

ويصوِّر الموقعة وما سال فيها من دماء طاهرة ودموع جارية، والنساءَ اللائي كن مع الحسين يمسحن الرمل عن نحره الملطَّخ بالدماء، ولم تلبث الوحوش أن طعمت من أشلاء القتلى أرجلاً طالما قامت إلى الصلاة وأيْماناً طالما رُفِعَتْ إلى السماء ووجوهاً طالما تَبَتَّلَتْ إلى الله، وينشد:

يا رسولَ الله لو عاينتَهم ... وهمُ ما بين قَتْلَى وسِبَا
لرأتْ عيناك منهم منظراً ... لِلْحَشَا شَجْواً وللعَيْن قَذَى
ليس هذا لرسول الله يا ... أمَّةَ الطُّغْيانِ والبَغْيِ جَزَا
غارسٌ لم يَأْلُ في الغَرْسِ لهم ... فأذاقوا أهلَهُ مُرَّ الجَنَا
جَزَرُوا - جَزْرَ الأضاحِي - نَسْلَهُ ... ثم ساقوا أهْلَهُ سَوْقَ الإما [1]

وهو يصور ركب الحسين، أما الرجال فسفكت دماؤهم الذكية، وأما النساء فسيقوا سبيات محمولات على ظهور الإبل دون مهاد أو كساء يسترحن عليه، فيا للظلم ويا للقسوة، وهن مشعثات الشعور مكشوفات الوجوه والأعناق يهتفن باسم رسول الله، ولا من يشفق عليهم أو يرحم. ويقول الرضي: أهكذا يكون جزاء رسول الله في سبطه وآله؟ يغرس وتفتح لدينه الحنيف الأرض ولا يذوق أهله سوى الحنظل، بل إنهم ليذبحون ذبح الأضاحي، يذبح الرجال، وتساق النساء سبيات، ويتجه الرضي إلى جده الحسين منشداً:

يا قتيلاً قوَّ الدهرُ به ... عَمَدَ الدينِ وأعلامَ الهُدى
قتلوه بعد علمٍ منهمُ ... أنه خامسُ أصحاب الكِسا [2]
مرهقا يدعو ولا غَوْثَ له ... بأبٍ بَرٍّ وجَدٍّ مُصْطفى
وبأمٍّ رَفع الله لها ... عَلَماً ما بين نِسْوان الوَرَى

---

(١) الأضاحي: ذبائح عيد الأضحى. الإما: الإماء.

(٢) يشير إلى حديث ترويه الشيعة الإمامية: يقول إن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ألقى كساء عليه وعلى السيدة فاطمة الزهراء وعلي وابنيه الحسن والحسين، وقال: هؤلاء عترتي وأهل بيتي، وبذلك سموا أصحاب الكساء.

مَيِّتٌ تبكي له فاطمةٌ وأبوها وعليٌّ ذو العُلا

لو رسولُ الله يَحْيَا بعده قَعَدَ اليومَ عليه لِلْعَزَا

والقصيدة كلها لوعات وأنات على هذا النحو، وعني الرضى برصف كلماتها بحيث لا تعلو على أفهام العامة، ولتكون صالحة لكي يرددها الناحة. وجعلت هذه السهولة في ألفاظها بعض الباحثين يظن أنها منحولة على الرضى، وليست من الانتحال في قليل ولا كثير، إذ هي سهولة مقصودة لتخف على ألسنة الناحة والناس.

مِهْيار[1]

هو أبو الحسن مهيار بن مَرْزَوَيْهِ الدَّيْلميّ الفارسي الأصل، ولد على ما يظهر حوالي سنة ٣٦٠ للهجرة ويغلب أن يكون ميلاده بعدها بقليل، وليس لدينا معلومات دقيقة عن مسقط رأسه ونشأته، فهل ولد ببغداد وبها نشأ، وكان بها مجوس كثيرون، أو ولد في بلاد الديلم، وهاجر منها وحده أو مع أبيه؟. وأغلب الظن أنه ولد ببغداد وتربى بها وتثقف. ولا نعرف من كانوا أساتذته وتخرج على أيديهم، ويبدو أنه كان فيه ذكاء حاد جعله يحسن العربي سريعاً. ويروى أنه كان يسكن في الكرخ مستقر شيعة بغداد الإمامية، ولعل ذلك هو الذي أعطاه الفرصة لكي يدرس عقيدتهم، حتى إذا أسلم انتظم في سلكها.

ونظن ظناً أنه كان يحضر قب اعتناقه الإسلام دروس رأس الإمامية في زمانه محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ وكان يلقي دروسه في الكرخ. ويقول بعض مترجميه إنه أسلم على يد الشريف الرضى سنة ٣٩٤ ونظن ظناً أن إسلامه يسبق هذه السنة بشهادة كثير من قصائده المؤرخة في ديوانه، ونراه يذكر فضل أبي العباس الضبي عليه في إرشاده وهدايته إلى الإسلام، إذ يقول في إحدى مدائحه له:

هو المُنْقذي من شِرْك قومي وباعثي على الرُّشد أن أُصْفِي هوايَ محمَّدا

---

(١) انظر في ترجمة مهيار تاريخ بغداد ١٣/ ٢٧٦ والدمية ١/ ٢٨٤ والمنتظم ٨/ ٩٤ وابن خلكان ٥/ ٣٥٩ وعبر الذهبي ٣/ ١٦٧ والشذرات ٣/ ٢٤٢ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٦ والفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص٣٥٥.

وأترُكَ بيتَ النارِ يبكي شَرارُه … عليَّ دما إذ صر بيتيَ مسجدا

والمظنون أنه زار أبا العباس الضبي حين كان وزيراً بمدينة الري. على كل حال من الممكن أن يكون أسلم على يد الشريف الرضي. ولكن ليس من الضروري أن يكون تاريخ إسلامه صحيحاً. ويقال إن الرضي أعانه في أن يصبح كاتباً بدواوين الخلافة، ولا نعرف متى كان ذلك بالضبط، وأغلب الظن أن ذلك يسبق إسلامه، ودائماً يلقبه مترجموه بلقب الكاتب.

وإذا كنا ترددنا في أن يكون إسلامه على يد الرضى في سنة ٣٩٤ فمما لا يقبل شكاً أنه هو الذي رعاه أديباً، وخاصة أنه رأى عنده استعداداً حسناً، فمضى معه يثقفه ويدربه، حتى خرجه شاعراً بارعاً. والرضي بذلك يعد أستاذه الفني، فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه، وهو نسيج يلاحظ من جهتين: جهة معارضته لكثير من قصائد الرضى، يأخذ منه الوزن والقافية، وينظم على غراره. وجهة ثانية لعلها أهم هي تمثل اتجاهاته الشعرية، ونقصد اتجاهات الشكوى من الزمن والفخر والنزوع إلى التبدي أو النسيب والغزل بالبدويات، أما الشكوى فإنه يشكو كثيراً سوء بخته وأن الزمن لا ينيله ما يتمنى، بل يقف حجر عثرة دون أمانيه.

وكان الرضي يفخر بمحتده الشريف وعروبته العريقة، فبماذا يفخر مهيار؟ لقد اتجه بفخره في بواكير حياته نحو قومه، وبذلك استحال فخره شعوبياً ذميماً، على نحو ما يلقانا في مثل قوله:

أُعْجِبَتْ بي بين نادي قَوْمِها … أمُّ سَعْدٍ فمضت تسألُ بِي
قَوميَ استولَوْا على الدهرِ فَتيً … ومَشَوْا فوق رءوسِ الحِقَبِ
عمَّموا بالشمس هاماتِهِمُ … وبنَوْا أبياتهم بالشُّهُبِ
قد قَبَسْتُ المجد من خَيْرِ أبٍ … وقبستُ الدينَ من خيرِ نبي
وضممتُ الفخرَ من أطرافِهِ … سؤدُدَ الفُرْسِ ودينَ العربِ

وقد التقينا بهذا الصوت المنكر في كتاب العصر العباسي الأول عند بشار، وأخذ يخفت غير أنه كان يظهر من حين إلى حين، حتى إذا كان ابن قتيبة وجدناه يمزج بين الثقافة

الإسلامية العربية- كما أشرنا إلى ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني- وبين الثقافات الأجنبية، حتى يزيل الحواجز والفروق بين النوعين من الثقافات والحضارات، وحتى يقطع الطريق على الشعوبيين وما يدعونه من تفوق الفرس والروم على العرب في الحضارة والمدنية. ومع ذلك ظلت أصوات ضعيفة ترتفع من حين إلى حين، كصوت أبي عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني وزير السامانيين وكان يظهر الإسلام ويبطن الزندقة، فألف كتاباً حمل فيه على العرب وتبديهم حملات شعواء، صورها أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة، ناقضاً لها نقضاً شديداً. وكأنما وجد الجيهاني الفارسي في مهيار مستجيباً له، لا في هذه اليائية وحدها، بل أيضاً في قصائد أخرى. ونراه مع الزمن يتخلص من هذه النزعة الشعوبية، ويملأ شعره بالحنين إلى نجد وبدوياتها الفاتنات، مستلهماً في ذلك أستاذه الرضي، بمثل قوله:

يا نسيمَ الصُّبحِ من كاظِمةٍ	شَدُّ ماهِجْتَ الجوى والبُرَحا (١)
الصَّبَا! إن كان لابُدَّ الصَّبا	إنها كانت لقلبي أرْوَحا
يا نادمايَ بِسَلْعٍ هل أرى	ذلك المَغْبَقَ والمُصْطَبَحا (٢)
اذكرونا مثل ذِكْرانا لكم	رُبَّ ذِكْرى قرَّبتْ من نزَحا
واذكروا صَبًّا إذا غنَّى بكم	شَرِبَ الدَّمْعَ وعافَ القَدَحا
قد عرفتُ الهمَّ من بعدكمُ	فكأني ما عرفتُ الفَرَحا

وهذه القطعة وسابقتها من أروع شعر مهيار في البناء اللفظي، وهما لذلك لا توضحان خصائصه الفنية التي تحدثت عنها بالتفصيل في كتاب " الفن ومذاهبه في الشعر العربي" حيث أوضحت أثر نشأته الأعجمية في شعره وأن اللفظة الحادة كانت تضل منه، فكان يدور حول الفكرة دوراناً يصيب شعره أحياناً بغير قليل من الركاكة والإسفاف، وكان مع ذلك يطيل قصائده طولاً مسرفاً، مما جعل رقعتها تتسع أو قل رقعها، فيتضح فيها التلفيق

(١) كاظمة: موضع على الخليج العربي جنوبي العراق في الكويت.

(٢) سلع: جبل متصل بالمدينة.

وكثرة التكرار للكلمات وما يدخل في ذلك من الحشو والاعتراض. وحين أسلم أخذ يكثر في شعره من ذكر مناقب أهل البيت وثاء الحسين، ولم يكتف بذلك، كما كان يصنع أستاذه، بل أكثر أيضاً من سب الصحابة رضوان الله عليهم، ويروى أن أبا القاسم بن برهان النحوي قال له: يا أبا الحسن! انتقلت بإسلامك إلى النار من زاوية إلى زاوية، فقال له: وكيف ذلك؟ قال أبو القاسم: لأنك كنت مجوسياً وصرت تسب أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والمجوسي والرافضي في النار. وله من قصيدة يمدح فيها آل البيت، وقد بث في مطلعها شكواه من الزمن:

لَئِنْ نامَ دهريَ دون المُنَى ... فلي أُسْوَةٌ ببنى أَحْمَدِ

بأكرمِ حَيٍّ على الأرض قامَ ... ومَيْتٍ توسَّد في مُلْحَدِ

أتاكم على فَتْرَةٍ فاستقام ... بكم جائرين عن المَقْصِدِ

ووليَّ حميداً إلى ربِّهِ ... ومَنْ سَنَّ ما سنَّه يُحْمَدِ

وقد جعل الأمَر من بعده ... لِحَيْدَرَ بالخَبَرِ المُسْنَدِ

وسَمَّاه مَوْلِيَ بإقرارِ مَنْ ... لو اتَّبع الحقَّ لم يَجْحدِ

وواضح أن تعبيره عن حرمان الدهر له ما يتمناه بنومه عنه غير دقيق، وهو تعبير فاتر إن صح هذا التعبير، والأبيات الأربعة التالية في مديح الرسول عليه السلام، وهي تخلو من أي حرارة، وكأنها نثر لفقت ألفاظه وهو في البيتين الأخيرين يشير إلى ما تذهب إليه الشيعة من أن الرسول عليه السلام أوصى لعلي أو كما يسميه حيدراً بالخلافة يوم غد يرخم، إذ آخاه قائلاً- كما يروون-: علي مني كهرون من موسى، اللهم وال مَنْ والاه وعاد مَنْ عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله. والأبيات تخلو من العاطفة ومن اللذع والحد، ولذلك لا تكاد تؤثر في قارئها أي تأثير. وله في رثاء علي والحسين قصائد أخرى من أروعها لاميته، وفيها يقول:

وشهيدٍ بالطَّفِّ أبكَى السَّمَوَا ... ت وكادتْ له تزولُ الجبالُ

يا غليلي له وقد حُرِّم الما ءُ عليه وهْوَ الشراب الحلالُ
قُطِعَتْ وُصْلَةُ النبيِّ بأن تُقْـ ـطَعَ من آل بيتِهِ الأوصال
لم تُنَجِّ سنٌّ ولا الشُّـ ـبّانَ زُهْدٌ ولا نجا الأطفال
لهفَ نفسي يا آل طه عليكم لهفةً كلٌّ جَوًى وخَبال

وهو رثاء حار يمتلئ باللعوة والحسرة والنواح على الحسين ومن قتل معه من آل بيته. ولمهيار مراث أخرى في الحسين وآله تجمد فيها العاطفة فلا نار تتقد في الأحشاء ولا لهب يستعر في الأفئدة. وليس معنى ذلك أن مهيار لم يكن مخلصاً لعقيدته الإمامية، ولكن معناه ما قلته من أنه كان يعثر على ضالته من التعبير اللاذع أحياناً، وأحياناً يضل منه هذا التعبير، لأنه لم ينشأ في مهد عربي يمكنه دائماً من تملك السليقة العربية في التعبير والصياغة.

ابن أبي[1] الحديد

هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعروف بابن أبي الحديد، ولد في "المدائن" سنة ٥٨٦ لقاضيها وأحد العدول فيها، وبها نشأ وتلقى معارفه، ويقول ابن خلكان عنه وعن أخ له يسمى موفق الدين إنهما كانا فقيهين أديبين، لهما أشعار مليحة ". ويبدو أنه شب على الاعتزال والتشيع جميعاً، وكان لا يزال يغدو ويروح إلى بغداد وإلى حي الكرخ الشيعي خاص، ثم لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره نظم قصائده السبع العلويات، وهي في مديح علي بن أبي طالب وبيان فضائله، وفيها لا يبدو شيعياً إمامياً في هذه الحقبة من حياته، بل يبدو رافضياً غالياً في الرفض، إذ يخلع على

(١) انظر في ترجمة ابن أبي الحديد وفيات الأعيان ٥/ ٣٩١ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/ ٥١٩ ومعجم الألقاب لابن الفوطي ج٤ ق١ ص١٩٠ وذيل مرآة الزمان (طبع حيدر آباد) ١/ ٦٢ والتكملة لوفيات النقلة للمنذري (طبع النجف) ٤/ ٢٤٥ وقد طبعت قصائده السبع العلويات في إيران وطبعت مشروحة في صيدا بلبنان وطبعت قصائده المستنصريات ببغداد، وله مؤلفات مختلفة، من أشهرها شرح نهج البلاغة للإمام علي والفلك الدائر على المثل السائر.

الإمام علي صفات الله جل شأنه، وكأنه حل فيه وامتزج بذاته، تعالى الله علواً كبيراً عما يلج فيه من مثل قوله في علي أو كما يسميه حيدراً[1]:

والله لولا حَيْدَرٌ ما كانت الـ ـدُّنيا ولا جَمَعَ البريَّةَ مَجْمَعُ
من أجله خُلِقَ الزمانُ وضوَّءَتْ شُهُبٌ كَنَسْنَ وجَنَّ ليلٌ أدْرَعُ[2]
عِلْمُ الغيوبِ إليه غيرَ مدافَعٍ والصُّبْحُ أَبْيَضُ مُسْفِرٌ لا يُدْفَعُ
وإليه في يوم المعادِ حسابُنَا وهْو الملاذُ لنا غداً والمفْزَعُ

فعلي علة الوجود من أجله خلق الكون والزمان وأضاءت الشمس والكواكب وأظلم الليل وانتشرت دجنته، وهو علام الغيوب أو عالمها، وهو- يوم البعث- الذي سيحاسب الناس على ما قدمت أيديهم من خير أو شر. وكل هذا تجديف في حق الذات العلية، فلي ليس علة الكون والوجود، فمثله مثل البشر جميعاً، حقاً هو صحابي جليل، ولكن ذلك لا يرفعه على بشريته ولا يجعله سر الوجود ولا علة له، ومعاذ الله أن يكون علام الغيوب، وقد استأثر الله بعلم الغيب كما نصت على ذلك آيات الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى: (قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ) وقوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا). وبالمثل زعم ابن أبي الحديد أن الناس يعرضون على الإمام علي بن أبي طالب يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم، والحساب إنما هو لله وحده جل شأنه.

ويتمادى في علوياته الرافضة، فيتعرض بالبهتان على أول من صدق بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الرجال وأوثق الصحابة صلة به ورفيقه في الهجرة، على الصديق أبي بكر، ومعروف أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولاه أمور دين المسلمين من الحج بهم في السنة التاسعة للهجرة والصلاة بهم في مرضه ونرى ابن أبي الحديد يزعم افتراءً وبهتاناً أن الرسول أناب أبا بكر كي يقيم للناس الحج ثم عزله[3]، وهو لم يعزل إذ أقام الحج

(١) القصائد السبع العلويات مع شرحها (طبع صيدا بلبنان) ص١٠١.

(٢) كنسن: سرن، جن: دجا. أدرع: مظلم.

(٣) القصائد السبع العلويات مع شرحها ص٤٦.

فعلاً للناس. ومعروف أنه حين اشتد المرض بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، فصلى بهم سبع عشرة صلاة، وصلى الرسول عليه السلام مؤتماً به ركعة ثانية من صلاة الصبح، ثم قضى الركعة الباقية وقال: "لم يقبض نبي حتى يؤمه رجل من قومه". ومع تواتر هذه الولاية من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لأبي بكر الصديق على أمور المسلمين في الصلاة والحج وثبوتها ثبوتاً قاطعاً يزعم ابن أبي الحديد زعماً باطلاً أن الرسول عزل أبا بكر عن الصلاة[1]. كما عزله عن الحج. وكل هذا غلو في البهتان والرفض. ويترك المدائن إلى بغداد نهائياً في تاريخ غير معروف تماماً، ويبدو أنه تخلى عن رفضه ورجع إلى صوابه، إذ نراه يمدح الناصر، ثم يلزم الخليفة المستنصر العباسي ويدبج فيه مدائح عرفت بالمستنصريات، وقد بلغت خمس عشرة قصيدة نظمها في السنوات من ٦٢٩ إلى ٦٣١ وكان ألحق بدواوين الدولة وأصبح من موظفيها، وإنه لينقلب عباسياً ضد العلويين يحطب في حبل العباسيين ويدعو لهم، بمثل قوله في المستنصر:

يا بني هاشمٍ بكمْ يغفرُ اللّـ ـهُ الخطايا وَيْقبل الأعمالا

أنتمُ بالنبيِّ أولى فإنْ شَـ ـكَّ جهولٌ فَلْيقرأ الأَنْفالا

وإليكم إرثُ النبيِّ تناهى وإليكم سرُّ الإلهِ تعالى

وقد يقال إن البيت الأول عام في بني هاشم جميعاً علويين وعباسيين، غير أنه لا يلبث في البيت الثاني أن يصرح بأن العباسيين أحق بإرث الخلافة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لقوله تعالى في سورة الأنفال: (وَأُولُوا الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ) مشيراً بذلك إلى حكم الإسلام في الميراث وأن العم وهو العباس يحجب ابن العم وهو علي بن أبي طالب كما يحجب أبناء بنت الرسول، والعباسيون كما يقول في البيت الأخير الورث الحقيقيون للخلافة. وبمثل هذه الأبيات، بل بمستنصرياته جميعاً نقض رفضه، بل تشيعه عامة، حتى لنراه يقول في المستنصر:

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

وأنت الدَّهْرُ يخفضُ كلَّ عالٍ بقوَّتِه ويُمْسِكُ كلَّ هارِي [١]

ويُبْرِمُ ما يشاءُ بلا اعتسافٍ وينقض ما يشاء بلا اقتسارِ

وكأنه تمثل فيه ثانية غلوه السالف في علي بن أبي طالب، فجعله الدهر يخفض ويرفع ويعصم من السقوط ويبرم الأمور وينقضها نقضاً.

ولا يزال يعمل في دواوين الخلافة حتى يتوفى المستنصر ويخلفه ابنه المستعصم (٦٤٠-٦٥٦هـ). ويعزل من وظيفته سنة ٦٤٢ ويتولى أعمالاً مختلفة حتى يتوفى سنة ٦٥٦ وقيل بل سنة ٦٥٥ وكانت قد توثقت صلته بابن العلقمي وزير المستعصم وكان شيعياً فيستحثه على شرح نهج البلاغة ويصدع لرأيه، وهو في هذا الشرح يتردد بين مذهب أهل السنة حتى ليقول إنه ليس هناك أي نص صريح على خلافة علي للرسول عليه السلام [٢] ومذهب الزيدية إذ يذهب مثلهم إلى صحة إمامة المفضول مع وجود الأفضل [٣] ومذهب الشيعة الرافضة الذين يحاولون الغض من الشيخين العظيمين أبي بكر وعمر [٤]. ومعروف أن لهما عند الله الدرجة العظمى بما أديا للدين الحنيف من خدمات جلي، كتبت- ولا تزال تكتب- فيها المجلدات الضخام.

---

(١) هاري: متصدع يوشك أن ينهدم.

(٢) راجع شرح نهج البلاغة (طبعة أبو الفضل إبراهيم بدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) ٢/ ٥٩.

(٣) شرح نهج البلاغة ١/ ١٥٦.

(٤) انظر شرح نهج البلاغة ١٠/ ٢٢٦.

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم يَخْلُ شاعر من شعراء اليتيمة والدمية والخريدة ومن تلاهم على مر الحقب من بعض قصائد أو مقطوعات تَغَنَّى فيها بالحب، مصوراً هذه العاطفة الإنسانية التي تملك على النفوس أهواءها وأحاسيسها ومشاعرها. ويمتلئ تاريخ الشعر العربي بأبطال لهذه العاطفة، يعيشون للحب وآماله وآلامه، يتجرعون غصصه في صبر، مهما ألم بهم اليأس وما يطوى فيه من حزن. ومن أطرف الأشياء حقاً أن نقرأ شعر أحد هؤلاء الأبطال ومايعانون من وجد لا يشبه وجد وخطوب لا تدانيها خطوب. وهم دائماً من العشاق العذريين الذين يتعمقهم الحب ويستأثر بقلوبهم، ويفتنهم فتنة لا يستطيعون الخص منها، حتى لتصبح المحبوبة كأنها معبودة، فهم يحبونها، بل يقدسونها، ويقدمون لها الأشعار، بل التراتيل التي يتغنون فيها بسحرها سحراً يشغلهم عن كل شيء وعن كل متاع في الحياة إلا ما يكون من الغرام العنيف وما ينسج فيه العاشق بشعره من شباك الأمل والتضرع والاستعطاف. وهذا اللون من الحب العذري العفيف الذي يتحول في قلب صاحبه إلى ما يشبه جذوة من النار لا تنطفئ أبداً قديم في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، وأصبح ظاهرة عامة في بوادي نجد والحجاز طوال العصر الأموي، وظل حياً بقوة في العصرين: العباسي الأول والعباسي الثاني، وكانت ترافقه من قديم موجة من الغزل المادي اتسعت مع العصر العباسي الأول وما كان به من فنون اللهو والمجون على نحو ما يصور ذلك بشارو أبو نواس. غير أن الشعراء التالين حاولوا أن يخففوا من حدة هذا المجون والعبث، بما أشاعوا في غزلهم من عفة ومن نقاء وطهارة، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام والبحتري وابن الرومي وأضرابهم، ومع ذلك كانت لا تزال تظهر في بغداد وغير بغداد جماعات من الغزلين الماجنين. ولعل ذلك هو الذي دفع المتنبي في أوائل

هـذا العـصر إلى أن يهجـر في غزلـه المـرأة المتحـضرة، وكأنـه رآهـا أو رأى كثـيرات مـن الجـواري ببغـداد في أوائـل شـبابه يتهـالكن عـلى اللهـو ويـسرفن فيـه، فـصمم- كـما مـر بنـا- أن يتخـذ البـدويات الأعرابيـات موضـوعاً لغزلـه، حتـى يـرد إلى الغـزل في أيامـه العفـة والـسمو والنبـل والارتفاع عـن الجـسد والغريـزة التـي يـشترك فيهـا الإنـسان والحيـوان، وحتـى يـذيع فيـه أريـج الوجدان النقي الأفلاطوني الـبريء، كـما يـذيع فيـه شـذا الحنـان الـذي يكـتظ بـه الغـزل العـذري عند العرب ومـا يطـوى فيـه مـن حـرارة ولوعـة. وهـذا الـوتر مـن الغـزل البـدوي الطاهر الملتـاع الـذي شـده المتنبـي إلى قيثارتـه، تبعـه فيـه الـشريف الـرضي يـشده بـدوره إلى قيثـارة شـعره مستخرجاً منه ما لا يكاد يحصى من الأنغام كما أشرنا إلى ذلك في ترجمته، على شاكلة قوله:

خُذِى نَفسِي يا ريحُ من جانب الحِمَى ... ولاقِى به ليلاً نسيمَ رُبَى نَجْدِ

فإنَّ بذاك الجَوِّ حَيًّا عَهِدْتهُ ... وبالرغم مني أن يطولَ به عَهْدي

ولولا تدَاوِي القلب من ألم الجوَى ... بذكر تلاقينا قضيتُ من الوَجْد

وما شَرِب العُشَّاق إلا بَقِيَّتي ... ولا وَرَدُوا في الحبِّ إلا على وِرْدِي

فقـد انقطعـت الأسـباب بينـه وبـين محبوبتـه النجديـة، ولم يبـق مـن أمـل إلا أن تلتقـي نفـسه مـن جانـب الحمـى بقطـع مـن النـسيم المعطـر بـشذا صـاحبته، نـسيم ربي نجـد الـذكي، وإنـه ليـشعر بـآلام ثقـال بقبـه مـن أثـر الحـب وعذابـه وأوصـابه، آلام لـيس لهـا مـن دواء إلا دواء ذكريـات لقـائها، ولـولا هـذا الـدواء لمـات أسـى والتياعـا. ويـا لـه مـن عاشـق شرب كـأس الحـب، حتـى لم يبـق لغـيره منهـا سـوى الثمالـة، وكأنـه أب العـشاق أو كبـيرهم، فجمـيعهم إنـما يرد عـلى ورده وينهـل مـن بقيـة شربـه. وتبعـه تلميـذه مهيـار يـشد إلى قيثارتـه نفـس هـذا الـوتر، كما مر بنا في ترجمته، صاباً في أشعاره منه ألحاناً كثيرة من مثل قوله:

قُلْ لجِيرانِ الغَضَا آه على ... طيب عيْشٍ بالغَضَا لو كان داما

نَصِلُ العَامَ ولا ننساكُمُ ... وقُصارى الوَجْد أن نَسْلُخَ عاما

حَمِّلو ريحَ الصَّا نَشْرَكمُ ... قبل أن تحملَ شِيحاً وثُمامَا

وابعثوا أشباحكم لي في الكرَى　　إن أَذِنْتم لجفوني أن تناما

والغضا من أشجار نجد، وكذلك الشيح والثمام من نباتاتها ذات الرائحة الطيبة. والقطعة تفيض بالحنين لصاحبته وأهلها من جيران الغضا أو أهل نجد، فإنه لا ينساهم ولا يسلوهم، ولا يزال يأمل في أن تحمل ريح الصبا نشرهم العطر حتى يرد إليه روحه، ويتمنى أن يرى صاحبته ولو خيالاً أو شبحاً في النوم حتى تملأ نفسه بهجة وغبطة. ولصردر أشعار نجدية أو في نجد ومحبوباته بها بديعة، من مثل قوله في مطلع قصيدته الهائية التي أشرنا إليها في حديثنا عن شعراء المديح:

وقفنا صفوفاً في الديارِ كأنها　　صحائفُ ملقاةٌ ونحن سطورُها

يقول خليلي والظِّباءُ سَوَانِحٌ　　أهذى التي تَهْوَى؟ فقلتُ نظيرها

ويا عجبي منها يَصُدُّ أنيسُها　　وَيدْنو على ذُعْرٍ إلينا نَفُورها

ووالله ما أدري غداةَ نَظَرْنَنَا　　أتلك سهامٌ أم كئوسٌ تُديرهُا

فإن كُنَّ من نَبْلٍ فأين حَفيفُها　　وإن كنَّ من خمرٍ فأين سرورُها

أراكَ الحِميَ قُلْ لي بأيِّ وسيلةٍ　　وَصلتَ إلى أن قَبّلَتْك ثغورُها

وتصوير صردر نفسه وصحبه وهم وقوف بأطلال الديا كأنهم سطور بديع، ولا نكاد نمضي معه حتى نشعر بروعة التصوير ودقة المشاعر. فصواحبه والظباء جنس واحد يدنو وحشية مذعوراً ويصد أنيسه نفوراً، ولا يدري ما الذي أودعته ظباء الإنس- حين نظرن إليهم- قلوبهم وأفئدتهم، هل أودعتها نبلاً قاتلاً، أو كئوساً من خمر تلذ الشاربين. ويظل في حيرته ويتساءل إنها إن كانت نبلاً فأين حفيفها ودويها؟ وإن كانت كئوساً فأين سرورها ومتاعها. ويلتفت إلى شجر الأراك ويراهن يتخذن منه السواك، فيسأله مذهولاً كيف وصل إلى ثغورهن. وكلها حيرات تصور لوعات هذا العاشق المفتون، ومن بديع غزلياته قوله:

نُسائل عن ثُماماتٍ بِحُزْوَى　　وبانُ الرَّمْلِ يعلم مَنْ عَنَيْنا

وقد كُشِفَ الغِطاءُ فما نُبالي　　أصرَّحْنَا بذكركِ أم كَنَيْنا

بنفسي راميَاتٌ ليس تَفْنَى ... نصُولُ سهامهنَّ إذا رَمَينا

وأمسينا كأنا ما افترَقْنا ... وأصبحنا كأنا ما التقَيْنا

إنه يمشي على استحياء في ديار صواحبه بحزوي يسأل عن نبات الثمام، وكل شيء في الديار حتى ما بها من أشجار البان تعلم حقيقة أمره وخبيئة سره، فقد كشف الغطاء وذاع السر المخبوء. وإنه ليفدي بروحه من رمته بسهامها، ويقول إن سهامها لا تفني أبداً، فهي ما تني ترسلها على المعجبين والمحبين. والبيت الأخير حمة بديعة تصدق على كل شيء في الدنيا وكل أمل ضائع أو سيضيع.

وهذا الوجد في شعر الغزل البدوي وما يثير في النفس من حنين ومن ظمأ يرتوي إلى رؤية المحبوبة استغله المتصوفة منذ ظهوره للتعبير عن حبهم للذات الإلهية بما فيه من مواجد ومن لوعات، لوعات تلذع في الفؤاد كأنها نيران محرقة، فإنهم وجدوا فيه خير معبر عن تشوقهم لرؤية الذات الإلهية، وأني لهم!، فمضوا يتغنون به في حفلات الذكر المعروفة حين ينعقد الذاكرون لله في صفين متقابلين، ويقف منشد بينهما، يرتل أشعار الوجد والهيام تارة مما نظمه الصوفية وتارة مما نظمه الشريف الرضي ومهيار وغيرهما ممن تلاهما واستلهم طريقتها البدوية النجدية في الغزل، لما أحسوا في هذه الطريقة من الوجد والصبابة، بل من سعة النداء فيها، وهي سعة تلاحظ أيضاً في الغزل الصوفي، وكأن هذين الضربين من الغزل يلتقيان، وهو التقاء هيأ لأن يتأثر الغزل عامة بالشعر الصوفي، وأن يتيح ذلك الفرصة لظهور ما يمكن أن نسميه الشعر الوجداني الصافي، على نحو ما سنرى عند الحاجري والتلعفري.

ولابد أن نلاحظ أن وتر الغزل البدوي الذي شده المتنبي إلى قيثارته ظل الشعراء بعده لا في العراق وحده بل في جميع الأقاليم العربية يشدونه إلى قيثاراتهم حتى العصر الحديث، إذ وجدوا فيه فسحة للتعبير عن حبهم ووجدهم وما يثيران في القلوب من العواطف والأهواء. وقد تفجرت ينابيعه تفجراً في مقدمات المدائح النبوية التي أخذت تجري على كل لسان منذ القرن السابع الهجري. ومر بنا في الفصل الأول من هذا القسم حديث

طويل عن تغني الجواري والحرائر في بغداد لزمن أبي حيان التوحيدي، وما ذكره من أنه كان ببغداد أربعمائة وستون جارية ومائة وعشرون حرة يتغنين بأشعار غزلية تدلع الوجد والحنين واللوعة في قلوب الناس من المتصوفة وغير المتصوفة، فتتفتت قلوبهم وتتحدر دموعهم ويعلو نحيبهم، ومنهم من يسقط مغشياً عليه، ومن يلطم وجهه ويخرق ثيابه أو يمزقها، ومن يضرب الأرض بقدمه أو بجسده ويرغي ويزبد. وكان وراء هؤلاء المغنيات مغنون يعدون أو قل لا شك أنهم كانوا يعدون بالعشرات إن لم يكن بالمئات، كانوا يزلزلون الأرض- كما يقول أبو حيان- بأصواتهم الناعمة وألحانهم الرخيمة ودماثتهم الحلوة. وكل ذلك عمل على ازدهار شعر الحب وأغانيه.

وطبيعي أن يتكاثر شعراء الغزل في هذا العصر كما تكاثروا في العصور السابقة، وأن لا يقف ذلك عند شعراء القرنين الرابع والخامس وأن يتعداهم إلى شعراء القرنين السادس والسابع ومن جاء بعدهم، ومن أهم الشعراء الذين عاشوا للغزل وشعر الصبابة في القرن السادس الشاعر الملقب بالأبله [1] لقب بذلك لأنه كان فيه طرف بله، وقيل بل لأنه كان غاية في الذكاء فلقب بذلك على طريقة الأضداد، واسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله الموله أي الهائم صبابة وعشقاً، وحرفت الكلمة في بعض الكتب فقيل المولد بدلاً من الموله، وهو تحريف واضح. وذكره العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة، فقال: "هو شاب ظريف يتزيي بزي الجند، رقيق أسلوب الشعر حلو الصناعة، رائق البراعة، عذب اللفظ، أرق من النسيم. وكل ما ينظمه، ولو أنه يسير، يسير، والمغنون يغنون برائقات أبياته (مؤثرين لها) عن أصوات (أغاني) القدماء، فهم يتهافتون على نظمه المطرب، تهافت الطير الحوم على عذب المشرب". ثم قال أنشدني لنفسه من قصيدة سنة ٥٥٥ ببغداد:

زارَ مَنْ أَحْيَا بزورتهِ ... والدُّجَى في لَوْنِ طُرَّتهِ

يا لها من زورةٍ قَصُرَتْ ... فأماتَتْ طولَ جَفْوَتهِ

---

(١) انظر في ترجمة الأبله المنتظم والنجوم الزاهرة في سنة ٥٧٩ وابن خلكان ٤/ ٤٦٣ والوافي للصفدي ٢/ ٢٤٤ وعبر الذهبي ٤/ ٢٣٨ والشذرات ٤/ ٢٦٦.

آهِ من خَصْرٍ له وعلى رَشْفَةٍ من بَرْدِ رِيقَتِهِ

يا لَهُ في الحسن من صَنَمٍ كلُّنا من جاهليَّتِهِ

والكلمات محكمة، وتكاد تطير عن الشفاه طيراناً لخفتها، والدقة واضحة في تشبياته وطباقاته، وأيضاً في مراعاته للنظائر في الكلمات كما في البيتين الأخيرين، وقد جعل محبوبته صنماً يريد أنها معبودة لفتنتها وسحر جمالها وكأنها أعادت الناس إلى زمن الجاهلية، فكلهم عابد لها مسحور. والكلمات والأبيات معدة حقاً للغناء، إذ كان أستاذاً في زمنه من أساتذة الأغاني، ولذلك كان يتخاطف المغنون والمغنيات غزلياته. ويقول ابن خلكان: "جمع الأبله البغدادي في شعره بين الصناعة والرقة وله ديوان شعر بأيدي الناس" وقال ابن الجوزي في المنتظم كانت وفاته ببغداد سنة ٥٧٩ وقال غيره بل سنة ٥٨٠ ومن غزله البديع قوله في مطالع إحدى قصائده:

يا بَرْقُ إن تَخْفُ العقيقَ فطالما أغنتْه عنك سحائبُ الأجْفانِ

هيهات أن أنسى رُباك ووقفةً فيها أُغِيرُ بها على الغَيْرانِ

ومُهَفْهفٍ ساجي اللِّحاظِ حفظتُهُ فأضاعني وأطعتُه فعصاني

يُصْمِي قلوبَ العاشقين بمقلةٍ طَرَفُ السِّنان وطَرْفُها سِيَّان

ما قام معتدلاً يهزّ قوامَهُ إلا وبانَتْ خَجْلَةٌ في البانِ

وفي الأبيات انسياب مع جمال التصوير، بل مع التصوير المفاجئ، إذ نراه يخاطب البرق المختفي مع السحاب عن ديار صاحبته بأن سحائب الأجفان ودموع العيون حرية أن ترويها ويقول إنه حفظ صاحبته فأضاعته، وأطاعها فعصته، ويعقد صلة بين طرفها وطرف السنان، فكلاهما يصمي ويقتل، ويذكر أن قوام صاحبته لا يشبه قوام شجر البان في اعتداله فحسب، بل إنه حين يبصره شجر البان يسري فيه خجل وحياء شديد لحسن قوامه بالقياس إليه وجمال استوائه ومن أبياته السائرة قوله من قصيدة:

لا يعرفُ الشوقَ إلا مَنْ يُكابِدُهُ ولا الصَّبابَةَ إلا مَنْ يُعانيها

ولن نستطيع أن نمضي في عرض أشعار الغزلين لكثرتهم ونكتفي بالحديث عن ابن المعلم والحاجري والتلعفري، إذ هم أهم من نظم الغزل في العصر، وقد استطاعوا النفوذ فيه إلى ضرب جديد من الشعر الوجداني يكتظ بالشوق والوجد والحب المبرح الذي يستأثر بالقلوب والأفئدة.

ابن المعلم(١)

هو أبو الغنائم نجم الدين محمد بن علي المعروف بابن المعلم، ولد بقرية الهرث من أعمال واسط جنوبي العراق سنة ٥٠١ وتوفي بها سنة ٥٩٢ واستيقظت موهبته الشعرية مبكرة، فقصد بشعره حكام بغداد وبها اصطدم بشاعرها سبط بن التعاويذي بعامل التنافس. وكان كلما ألم ببغداد لا يلبث أن يفارقها إلى مسقط رأسه، وفيه يقول العماد الأصبهاني في الخريدة: " متقدم الهرب شعره الديباج الملمع المعلم، طرازه المعنى الممنع المحكم، فلفظه السوار ومعناه المعصم.. كلامه حلو حال، عال غال، صفو من الرنق خال.. فأين مهيار من أسلوبه! لو عاش شرب من كوبه". ويقول ابن خلكان: " كان شاعراً رقيق الشعر لطيف حاشية الطبع يكاد شعره يذوب من رقته.. وأكثر القول فيالغزل والمدح وفنون المقاصد، وكان سهل الألفاظ صحيح المعاني، يغلب على شعره وصف الشوق والحب وذكر الصبابة والغرام، فعلق بالقلوب واستشهد به الوعاظ واستحلاه السامعون". وأتاحت له رقة شعره الوجداني صلة وثقى بينه وبين أصحاب الشيخ أحمد الرفاعي، فكانوا يتغنون بغزلياته، ويرونها معيناً لا ينضب لاستثارة حبهم الصوفي، ويقول ابن خلكان: " سمعت جماعة من مشايخ البطائح (يريد أصحاب الرفاعي) يقولون: ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء (المتصوفة) المنتسبون إلى الشيخ أحمد الرفاعي وغنوا بها في سماعاتهم (يريد أذكارهم) وطابوا عليها، فعادت عليه بركة أنفاسهم.. وبالجملة فشعره يشبه النوح، ولا يسمعه من عنده أدنى هوى

---

(١) انظر في ترجمة ابن المعلم وأشعاره الخريدة (قسم العراق ٤/ ٢/ ٤٣٠ وابن خلكان ٥/ ٥ والوافي بالوفيات ٤/ ١٦٥ وعبر الذهبي ٤/ ٢٧٩ والشذرات ٤/ ٣١٠ والنجوم الزاهرة ٦/ ١٤٠ وانظر ص١٠٢.

إلا فتنه وهاج غرامه ". وملاحظة ابن خلكان أن شعر ابن المعلم يشبه النوح ملاحظة دقيقة توضح السبب الحقيقي في تعلق طائفة الرفاعيين به، لما يحمل من كثرة الوجد ولوعاته وحرارته التي لا تنطفئ في فؤاده أبداً، فهو دائماً يريد الوصال، ولا وصال على طريقة الصوفية، بل فراق متصل، يشقى به المحب ويبكي وينوح ولا مغيث ولا مخلص ولا معين ولا أمل في لقاء أو ما يشبه اللقاء، يقول:

لو قَضَى من أهل نَجْدٍ أَرَبَهْ ... لم يَهِجْ نَشْرُ الخُزَامي طَرَبَهْ

عَلِّلُو الصَّبَّ بأنفاس الصَّبا ... إنها تَشْفِي النفوسَ الوَصِبَهْ

فَهْي فيكم قديمٌ عَهْدُهُ ... ما صَباباتي بكم مُكْتَسَبَهْ

عن جفوني النومَ من بَعَّدَهُ ... وإلى جسمي الضَّنا مَنْ قَرَّبَهْ

فصِلُوا الطَّيْفَ إذا لم تَصِلوا ... مُسْتَهاماً قد قطعتم سَبَبَهْ

فهو لم يقض أرباً من صاحبته، وذلك هو مصدر لهفته ولوعته، وإنه ليتمنى أن تمر به أنفاس الصبا محملة بنشرها علها تشفيه من أوصابه وأوجاعه وتنقذه من كربه العظيم، وإنه ليكلف بها أشد الكلف، كلفاً كأنما فطر عليه، فهو يعذبه ويشقيه ويسهده ويضنيه، وإنه ليتمنى أقل التمني: أن يرى طيف المحبوبة ولكن أنى له، وهو لا ينام، بل يظل ليله – مثل نهاره – يحتمل ما لا يستطيع تحمله من آلام الحب الذي أصبح محنة، لا يستطيع قلبه أن يجد إلى التخلص منه سبيً. وينشد له العماد قطعة من كلم له سارت وأنجدت وغارت حتى شدا بها الشادي، وحدا بها الحادي، ووجد بها أرباب الغناء الغنى والوجد (١) وأصحاب القلوب الهوى والوجد، وهي مطلع لإحدى مدائحه وفيها يقول:

تَنَبَّهي يا عَذَباتِ الرَّنْدِ ... كم ذا الكَرَى؟ هبَّ نسيمُ نَجْدِ

مرَّ عَلَى الروضِ وجاء سَحراً ... يَسْحَبُ بُرْدَيْ أَرَجٍ وبَرْدِ

حتى إذا عانقتُ منه نَفْحَهُ ... عاد سَمُوماً والغرامُ يُعْدِي

---

(١) الوجد: اليسار والسعة.

واعجباً منى! أستشفى الصَّبا وما تزيد النارَ غَيْرَ وَقْدِ
أعَلِّلُ القلبَ ببانِ رامةٍ وما ينوب غُصُنٌ عن قَدِّ
وأسأل الرَّبْعَ ومَنْ لي لو وَعَى رَجْعَ الكلام أو سَخَا بِرَدِّ
أأقْتضى النَّوْحَ حماماتِ اللّوَى هَيْهاتَ ما عند اللِّوَى ما عِنْدي
بانوا فلا دار العقيق بعدهم دارٌ ولا عَهْد الحِمَى بعَهْدِ

والقطعة تكتظ بحب محروم يلذع فؤاد صاحبه لذعاً بنيرانه، وبينما هو في آلامه وغصصه التي يتجرعها محزوناً إذا نسيم نجد يهب محملاً بشذى عطر، يرد الروح، وكأنه رحيق الحياة، غير أنه لا يكاد يعانق منه نفحةً حتى يحس كأنما فارق كل ما كان به من برد ولطف وعاد سموماً، بل سماً. ويا للهول نسيم أرج بارد يصبح ريحاً سموماً ساخناً، وإنه ليزيد نار حبه وقداً واشتعالاً، ويتلفت يسأل الربع عن محبوبته، وليس عند الربع من جواب، وإنه ليئن وينوح ويطلب من حمامات اللوى أن تنوح وتئن معه، فهو أولى من اللوى بالأنين والنواح، إنه ليس عندها ما عنده من تباريح الغرام، فقد رحلت صاحبته، ولم تعد دار العقيق دارها ولا عهد الحمى بعهد لها. لقد ذهب منه كل شيء ولم يعد له إلا النواح والبكاء. وله من أخرى في فنها وحلاوتها وحسنها كما يقول العماد الأصبهاني:

أرُقيَّ وهو المحبُّ المستهامُ ما يُداوَى بالتعاويذ الغرامُ
قَصُرَتْ عن بُرْئِهِ أيدي الأَسَا كيف حَسْمُ الداء والداءُ عُقامُ[1]
يا لَدِيغَ الحدَقِ النُّجْلِ متى تجِدُ البُرْءَ وحاميهِ الحُسامُ
ودواءُ الحب في شَوْكِ القَنا مُتْ لَديغاً كُلُّ دِرْياقٍ سِمامُ
قل لِنُوَّام الغضَا عن ساهرٍ مَنْ تجافاه الهوى كيف ينام
غِبْتُمُ بالشمس عن ناظرهِ والضُّحَى مثلُ الدُّجَى كلُّ ظلام

---

(١) الأسا: المداواة والعلاج. عقام: لا يشفى منه.

فحبه مرض عضال لا يداوى بالتعاويذ والرقي، وقد عجزت عن برئه وشفائه أيدي الأسا والطب والعلاج، إنه داء لا يمكن الخلاص منه، وإنه للذيغ الحدق النجل الساحرة، وكل درياق له أو دواء إنما هو سم لا يدري المصاب به أيشرب رحيقاً شافياً أم سماً قاتلاً. ويتجه إلى أهل الغضا يشكو سهاده وجفاء محبوبه، فقد غابوا بشمسه عن بصره، وأصبح ضحاه مثل دجاه، وأظلمت الدنيا في عينيه، وأصبح كل شيء قطعاً من الظلام بعضها فوق بعض، وعبثا يرى نور محبوبته فقد أرخى الظلام من حوله سدوله ولم يعد هناك أمل في انفراجه، وهو يئن وينوح نواحاً لا ينقطع كما يقول ابن خلكان. ولعل في ذلك كله ما يصور كيف أن غزله الوجداني كان خليقاً أن تتداوله طائفة الرفاعيةالصوفية، لتعبر به عما يختلج في حنايا صدورهما وقلوبها من الحب الإلهي وكل ما يطوى فيه من وجد ولهفة ولوعة وظمأ لا ينتهي إلى رؤية الذات العلية، وكأنما مسته- كما تصور شيوخهم- بركة أنفاسهم، أو كما نقول كأنما مسته أنفاس وجدهم الرباني الحار، مما جعلهم يحفظون شعره ويتناشدونه، وينشده معهم الوعاظ في وعظهم. ويروى ابن خلكان أن الشاعر مر يوماً على ابن الجوزي وهو يعظ الناس وهم مزدحمون في مجلسه، وكان عجبه شديداً حين سمعه يستشهد على بعض إشاراته ببيت من شعره منوهاً به.

الحاجري(١)

هو أبو الفضل حسام الدين عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمارتكين بن طاشتكين الإربلي المعروف بلقبه الحاجري نسبة إلى الحاجر بلدة كانت بالحجاز أكثر من ذكرها في شعره، فنسب إليها. وهو إربلي الأصل والمولد والمنشأ، ويقول ابن خلكان إنه كان صاحبه، ومع ذلك لا يذكر لنا شيئاً عن زمن مولده ولا عن أسرته ونشأته، وكل ما يقول إنه جندي من أولاد الأجناد الأتراك، ويبدو أنه كان على شيء من اليسار، إذ لا نراه في ديوانه مشغولاً بممدوحين مختلفين يهديهم أشعاره، إلا ما كان من مدحة يستهل بها

---

(١) انظر في ترجمة الحاجري ابن خلكان ٣/ ٥٠١ والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٩٠ والشذرات ٥/ ١٥٦ وديوانه طبع طبعة سقيمة بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وذكر بروكلمان (٥/ ١٧) منه مخطوطات كثيرة، وهو حري بأن يحقق تحقيقاً علمياً.

ديوانه مدح بها الأمير ركن الدين أحمد بن الأمير شهاب الدين قراطايا بإربل، ولعله أراد أن يستل من نفسه ضغينة عليه، إذ جاء في مقدمة مدحته إنه كان السبب في مقتله، ويقول ابن خلكان إنه خرج من إربل في سنة ٦٢٦ بينما كان الحاجري معتقلاً في قلعتها لأمر يطول شرحه ولعل الأمير السالف هو الذي دبر له هذا الاعتقال، وله في ذلك أشعار يشكو فيها من حبسه مثل قوله:

قَيْدٌ أُكابِدُهُ وسِجْنٌ ضَيِّقُ ... يا ربِّ شابَ من الهمومِ المَفْرِقُ

ويذكر ابن خلكان أنه بلغه بعد ذلك خروجه من الاعتقال وأنه اتصل بخدمة الملك المعظم مظفر الدين كوكبوريّ والي إربل من قبل صلاح الدين منذ سنة ٥٨٦ وتقدم عنده وتزيا بزي الصوفية. وتوفي مظفر الدين سنة ٦٣٠ فغادر الحاجري إربل، وكأنه كان لا يزال يخشى بأس غريمه المذكور آنفاً، غير أن سرعان ما عاد إليها حين صارت في مملكة الخليفة المستنصر بالله وتولاها عنه الأمير شمس الدين أبو الفضائل باتكين، فأقام مدة قصيرة وهو لا يدري أن وراءه من يقصده واتفق أن خرج يوماً من بيته قبل الظهيرة، فوثب عليه شخص وضربه بسكين ضربة قاتلة توفي على إثرها في شوال سنة ٦٣٢ ويقدر ابن خلكان عمره بخمسين سنة. ويقول: " له ديوان شعر تغلب عليه الرقة، وفيه معان جيدة، وهو مشتمل على الشعر والدوبيت والمواليا، وقد أحسن فيها جميعاً مع أنه قل من يجيد في مجموع هذه الثلاثة، بل من غلب عليه واحد منها قصر في الباقي، وله أيضاً " كان وكان" واتفقت له فيه مقاصد حسان وهو شعر عامي، سنعرض له في غير هذا الموضع.

وأول ما نقرأ في ديوانه مطلع مدحته لابن قراطايا، وفيه يقول:

ما للدموع تسيلُ سَيْلَ الوادي ... أحَدَا بِرَكْبِ العامريَّة حادي

نعم استقلُّوا ظاعنين وخلَّفوا ... ناراً لها في القلب قَدْحُ زِناد [١]

ما كان أطيبَ للوداع عناقَنا ... لو لم يكن منا عناقَ بِعاد

(١) قدح الزناد: استخراج النار منه بضرب حجرين.

يا سائقَ الوَجْناءِ غيرَ مقصِّرٍ ... يطوي المفاوز من رُبًى ووهاد [(١)]

مالي إليك سوى التحية حاجةٌ ... تلقى سُعادَ بها ودارَ سُعاد

عَرِّجْ برامةَ إنَّ رامةَ منتهى ... أملي وغايةُ بُغْيتي ومرادي [(٢)]

يأيُّها الرَّشَأ الذي بلحاظهِ ... دَعَجٌ يصول به على الآسادِ [(٣)]

الله في كَبِدِي التي أحرقتَها ... عَبَثاً بجمرة خَدِّك الوقَّادِ

ويلي هذا الاستهلال غزل من هذا الطراز يكاد يستنفد الديوان جميعه بما فيه من مخمسات ودوبيتات أو رباعيات، وواضح أنه مرحلة جديدة للغزل بالبدويات الذي قرأناه عند المتنبي والشريف الرضي ومهيار، وكأن الحاجري استوعب غزلهم وتمثله تمثلاً نادراً، فإذا هو ينفذ مثل ابن المعلم إلى هذا الغزل الجديد الذي سميناه بحق شعراً وجدانياً، شعراً ينساب من معين ثر لا يزال يتدفق حاراً دون أي تكلف أو تصنع. وإن نار الحب لتتقد في قلبه وتسيه دموعه أنهاراً فقد فارقته صاحبته إلى رامة، وهو لا يملك إلا أن يرسل إليها بتحية رقيقة، وإنه ليذكر سهام عينيها الفاتنتين ويتضرع إليها مستعطفاً لكبده التي أحرقتها بجمرة خدها الوقاد، ونحس دائماً كأنما يتوجع حقاً من حريق فكل شيء من صاحبته يلهب صدره وقلبه بنار لا تخمد أبداً حتى الرضاب أو الريق، يقول:

ويلاه من بَرْدِ رُضَابٍ لها ... أشكو إلى العُذَّال منه الحريقْ

وهو في أثناء هذا الحريق الذي يأخذ فؤاده من كل جانب يلتاع لوعات ممضة، كان يروع منها دائماً، فيهتف منشداً أشعاره الوجدانية التي تكتظ بالحنين إلى رؤية صاحبته في رامة وغير رامة من منازل نجد والحجاز، مثل قوله:

إنَّ الأُلَى رحلوا غداة مُحَجَّرٍ ... ملئوا القلوبَ لواعجَ الأحزانِ

---

(١) الوجناء: الناقة الشديدة.

(٢) رامة: موضع بالبادية.

(٣) الدعج: اشتداد السواد والبياض في العين.

نزلوا برامةَ قاطنين فلا تَسَلْ ... ما حلَّ بالأغصان والغِزْلانِ
فلأبعثنَّ مع النسيم إليهمُ ... شكوى تَميل لها غُصونُ البان
يا عاذلي فيمن أحبُّ جهالةً ... عني إليك فليس شأنُك شاني
لِمْ لا أحِنُّ إلى الحجازِ صبابةً ... ويجودُ دمعُ العينِ بالهمَلان

فقد رحلت صاحبته عنه وتركته بحاجر يشكو آلام حبه ولواعج حزنه وأوجاعه، ونزلت رامة فأخجلت بقدها وجمال عينيها الأغصان والغزلان، ولم يعد له إلا أن يبعث إليها بالسلام مع النسيم، لعلها ترق له وتذكره، ويلتفت إلى عذوله ينهاه أن يتعرض له فليس من دربه، وليس ذلك من شأنه، ويتساءل إن كل محب ليصبو قلبه إلى الحجاز ونازليه، ويذرف الدمع مدراراً. لغة سهلة هي لغة الشعر الوجداني الذي ينساب في النفس انسياباً. وله قصيدة تفيض بحنين رائع صور فيها تصويراً بديعاً حزنه لفراق صاحبته كأقوى ما عرف الناس من الحزن للفراق بين المحبين قائلاً:

أأحبابَنا بِنْتُم عن الخَيْف فاشتكتْ ... لبُعْدكمُ آصَالُها وضُحاها
كأنكمُ يومَ الرحيلِ رحلتمُ ... بنومي فعيني لا تُصيب كَراها [1]
رعى الله ليلاتٍ بطيب حديثكم ... تقضَّت وحيَّاها الحَيا وسقاها
فما قلتُ إيهٍ بعدها لمسامرٍ ... من الناس إلا قال قلبيَ آها
متى تنقضي أيامُ ذلِّي وأَجْتَني ... ثمارَ وصالٍ قد حُرِمْتُ جَنَاها
وأستصحبُ القوم الذين بمهجتي ... لفقدهمُ نارٌ يَشِبُّ لَظاها

فهو لا يشكو فراقهم بل تشكوه مع الطبيعة، وإنه ليشكو من سهاده، فالنوم لا يلم ليلاً بطرفه، وهو يذكر ليلات سمره مع صاحبته ويدعو لها مذيباً في دعائه حنيناً حاراً، ويصور

---

(١) الكرى: النوم.

نفسه، فهو مع سمره أحياناً لا يزال قلبه يتوجع، وهو مع ابتساماته تملأ الهموم أحشاءه، وإنه ليتمنى أن يجتمع بصاحبته ويقتطف ثمار وصاله ويطفئ النار التي تستعر بفؤاده.

وله بجانب هذه الأشعار الوجدانية البديعة مخمسات بنفس الروح ونفس المعاني والوجد والصبابة كقوله في فاتحة مخمس:

خليليّ عُوجا بالغُوَيْر وكُثْبِهِ ... ولا تمنعا المشتاق من لَثْم تُرْبِهِ

هو الصبُّ يُصْبيه الهوى دون صَحبِهِ ... خُذَا من صَبا نَجْدٍ أماناً لقلبهِ

فقد كاد ريَّاها يطير بلبِّهِ

والغوير: ماء في بادية الشام، والديوان يطفح بأسماء المواضع والمنازل في نجد والحجاز، وفي ديوانه رباعية يذيب فيها وجده وحبه قائلاً:

حَيَّا وسَقَى الحِمَى سَحابٌ هامي ... ما كان ألذَّ عامَهُ من عامِ

يا علوةُ ما ذكرتُ أيامكمُ ... إلا وتظلَّمَتْ على الأيام

وقد نوه القدماء طويلاً بما في شعره من انسياب موسيقي رائع، وبلغ من إعجابهم به أن سموا ديوانه " بلبل الغرام الكاشف عن لثام الانسجام " وفي دار الكتب المصرية مخطوطة شعرية له باسم: " القصائد الحجازيات في مدح خير البريات " وهي مجموعة من المدائح النبوية، لم يضمن ديوانه منها شيئاً.

التَّلَعْفَرِيّ[١]

هو شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالتلعفري نسب إلى "تل أعفر" بين سنجار والموصل، ويروي ابن خلكان عنه أنه ولد بالموصل سنة ٥٩٣ وبها كانت نشأته وتربيته الأدبية. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، فرأى أن يمدح الحكام والأمراء على عادة الشعراء في عصره، ولم يكتف بأمراء موطنه، فقد اتجه بمديحه أيضاً إلى أمراء

---

(١) انظر في ترجمة التلعفري ابن خلكان ٧/ ٤٠، ٤٥ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢/ ٥٤٦ والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٥٥، ٣٧٢ والفلاكة والمفلوكون ص٢٦٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٣٤٩ وديوانه طبع قديماً في القاهرة وبيروت.

الشام، ولزم كثيرين منهم وخاصة الملك الأشرف موسى الأيوبي الذي ظل مستولياً على صولجان الحكم في دمشق من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٦٣٥ وكان يسبغ عليه كثيراً من العطاء الجزل، غير أن التلعفري كان مغرى بشرب الخمر والقمار، وكان الأشرف موسى يراجعه في ذلك كثيراً، ولم يكن يصبر عليهما أو يستطيع شيئاً من الصبر، وفي ذلك يقول:

أقلعتُ إلا عَنِ العُقارِ وتُبتُ إلا مِنَ القِمارِ

فالكأسُ والقَمْرُ ليس يخلو منها يميني ولا يساري

ولما أعيت الحيل الأشرف موسى معه أمره بمغادرة دمشق، فتركها إلى حلب وصاحبها الملك الناصر الأيوبي، فقربه منه، وجعله من جلسائه، وقرر له راتباً، راجياً أن ينوب ويتوب، غير أنه سرعان ما عاد إلى سيرته السيئة في دمشق، فكان يشرب ويقامر بكل ما يحصل عليه من مال، حتى قيل إنه قامر بثيابه ونعليه. وعرف ذلك الملك الناصر، فأمر أن ينادى في حلب من قبل السلطان: " من قامر مع الشهاب التلعفري قطعنا يده " فضاقت عليه حلب وأرضها بما رحبت وعاد إلى دمشق، وكان الملك الأشرف موسى قد توفي، وظل بها يستجدي ويقامر حتى ساءت حاله سوءاً شديداً، ورحل إلى مصر في هذه الأثناء إذ يقول ابن خلكان إنه لقيه بها سنة ٦٣٨ وعاد منها لا إلى دمشق ولا إلى حلب، بل إلى حماة وصاحبها الملك المنصور، فاحتفى به وأضفى عليه عطاءً وفيراً أتاح له بأخرة من حياته عيشاً كريماً، وظل بحماة حتى وفاته سنة ٦٧٥ وكان آخر ما تلفظ به من شعره قبيل موته:

إذا ما باتَ من تُرْبٍ فِراشي وبتُّ مجاورَ الربِّ الكريمِ

فَهَنُّوني أُصَيْحابِي وقولوا لك البُشْرَى قدمتَ على رَحيمِ

وليس في الديوان مدحة من مدائحه، إلا ما قد يشير إلى بعضها في الأبيات التي يختتم بها ما احتفظ به من بعض مطالعها، وبذلك يصبح الديوان كله غزلاً، وهو غزل من طراز غزل الحاجري، أو هو بعبارة أدق شعر وجداني يسيل رقة وعذوبة وسلاسة، وكأنه الماء

النمير حلاوة وصفاء ورشاقة ونعومة حتى ليشفع له فيما ابتلي به من القمار، وهو فيه يجري على هذا النمط الوجداني الرائع:

أيّ دَمْعٍ من الجفون أسالَهْ ... إذ أتتْه مع النسيم رِسالَهْ
سَلْ عقيقَ الحِمَى وقُلْ إذ تراه ... خالياً من ظِبائِه المختالَهْ
أين تلك المراشفُ العَسَلِيَّا ... تُ وتلك المعاطفُ العسَّالَهْ (١)
وليالٍ قضيتُها كلآلٍ ... بغزالٍ تغارُ منه الغَزالَهْ (٢)
بابليّ الألحاظِ والرِّيقِ والألـ ... ـفاظِ كلٌّ مُدامَةٌ سَلْسَالَهْ
وسقيم الجفون والخَصْر والعَهْـ ... ـدِ فكلٌّ تراه يشكو اعتلالَهْ
أوقعَ الوهمَ حينَ يَرْمِي فلَمْ نَدْ ... رِ يداهُ أم عَيْنُهُ النبَّالَهْ

والقصيدة كلها تموج بهذه الرقة والعذوبة مع الانسياب والتدفق، وكأننا بإزاء جدول يسيل شعراً ووجداً وهياماً، مع جمال القافية وحسن الألفاظ وطواعيتها للشاعر، وكأن كلاً منها تجذب صاحبتها تريد أن تعانقها عناق ذوى الرحم والقرابة. وتلك الألحاظ والريق والألفاظ لصاحبته جميعاً كأنها رحيق مسكر، وما أجمل جمعه بين سقم الجفون وفتورها وهو جمال وحسن فيها، وبين الخصر وسقمه أو نحوله وهو يستحب فيه، وأخيراً بين هذين السقمين وسقم عهد صاحبته فهي تدل عليه ولا تفي بوعدها، وهكذا يشكو كل سقمه واعتلاله. ودائماً يذكر الشعراء سهام العيون ويف تصمى الأفئدة، وهو يضم إليها سهام الأيدي الفاتنة، فلا يدري أحد من أين يأتي انبل أمن الأيدي أم من العيون، ويكرر كثيراً أن حاجبي صاحبته قوسان كبيران لا يزالان يرسلان النبل والسهام ويصوبانهما إلى العاشقين المفتونين. وله يصور ألم الفراق.

إني لأعجُب من محبٍّ مُشْغَفٍ ... عَيْشا له من بعد حَثِّ الأيْنُقِ

---

(١) العسليات: المنسوب إلى العسل، وأراد بالمعاطف القوام. العسالة: اللينة.

(٢) الغزالة: الشمس.

يأيُّها الحادي بِعَوْدِك سالماً ... ألا رثيتَ لشملنا المتمزِّقِ

أَرِحِ المطيَّ وها فؤادي فاقتبسْ ... وامْنُنْ عليّ وها دموعي فاسْتَقِ

ليسَ التعجبُ من رقادي- إذ مضى- ... فيه ولكنْ من جميعي إذ بَقِي

لدلالهِ ذُلِّي بهِ ولحبِّهِ ... وهواه ما يَلْقيَ الفؤادُ وما لقى

فهو يعجب من أن يعيش العاشق الولهان بعد فراق صاحبته، وإنه ليهتف بالحادي أن يريح مطيه، وإذا كان يريد ناراً فليقتبسها من فؤاده، أو ماء فليستق من دموعه التي تتدافع سيلاً مدراراً. ويأسى لبخته أو حظه إزاء صاحبته ولا يعجب من سهاده فيها، بل يعجب من أن يظل جميعه حياً يتنفس، وإنه ليتذلل ويضرع أسى ووجدا. وكل ذلك شعر وجداني وقف عليه التلعفري- مثل أستاذه الحاجري مواطنه- حياته وشعره، وله موشحة وحيدة مدح بها العزازي الشاعر الوشاح المصري احتفظ الديوان بها تامة وهي من نفس المعين الذي يستمد منه شعره الوجداني، على نحو ما يتضح من قوله في مطلعها:

ليس يُرْوِي ما بقبي من ظَمَا ... غيرُ بَرْقٍ لائحٍ من إضَمِ (١)

إن تبدَّى لك بانُ الأجْرَعِ (٢)

وأُثَيْلاتُ النَّقَا من لَعْلَعِ (٣)

يا خليلي قِفْ على الدار معي

وتأمَّلْ كم بها من مَصْرَعِ

واحترزْ واحْذَرْ فأحداقُ الدُّمَى ... كم أراقتْ في رُباها من دَمِ

وللحاجري موشح في ديوانه، ولكنه لا يبلغ جمال هذا الموشح في موسيقاه ورصف ألفاظه. وليس معنى ذلك أن التلعفري يتفوق على الحاجري في روعة شعره، فالحاجري

---

(١) إضم: الوادي الذي فيه المدينة المنورة.

(٢) أثيلات: شجر. النقا: القطعة من الرمل.

(٣) البان: شجر. والأجرع: الرملة الطيبة المنيت. لعلع: ماء بالبادية.

هـو الأسـتاذ وهـو الـذي مهـد الطريـق وعبـدها للتلعفـري، وهمـا جميعـاً يجليـان في غـزلهما تجليـة بديعـة. ويقـول ابـن تغـري بـردي عـن التلعفـري إنـه كـان يتـشيع، ولكنـه لم يفـسح لنحلتـه في شعره.

٢

شعراء اللهو والمجون

مر بنا في حديثنا عن المجتمع في الفصل الأول كيف أن الطبقة المترفة من الحكام والوزراء وعلية القوم كانت تنغمس في الترف، وكيف كان كثيرون منها يقبلون على اللهو واحتساء الخمر في مجالس أنس كانت لا تزال تنعقد في بغداد، وذكرنا من بين هذه المجالس مجلس الوزير المهلبي ومن كان يحضره من القضاة والفقهاء وكيف كانوا يطرحون الحشمة والوقار ويقبلون على القصف والخلاعة والرقص، وفي يد كل منهم طاس مملوء خمراً يعب منه عباً. ولم يكن جميع الوزراء مثل المهلبي، ولكن كثيرين منهم كانوا يقيمون هذه المجالس وإن لم يتسعوا مثله في اللهو والعبث، ويصور محمد بن أبي المطهر الأزدي في كتابه "حكاية أبي القاسم البغدادي"- الذي عرضنا له في غير هذا الموضع- بعض هذه المجالس في القرن الخامس الهجري وكيف كانت تعبق بالطيب على بساط الرياحين والورود وكيف كانت تهب للأنس رياح، سحابها الأقداح، وبرقها الراح، وقد نطقت ألسنة العيدان والنايات تسند غناء الجواري والمغنين بألحانها الشجية، ويطيل في وصف الخمر وأن منها ما كأنه عصر من خد الشمس، وما هو أصفى من الماء، وأرق من دمعة العاشق المهجور [(١)]. والكتاب إنما كتب في وصف المجون ببغداد لعصر مؤلفه، وينبغي أن لا نظن أنه يمثل صورة الحياة العامة، إنما هي صورة حياة طبقة خاصة هي الطبقة المترفة، وكان وراءها الشعب يكدح ويتصبب جبينه عرقاً كي تملأ هذه الطبقة بطونها وتملأ مجالسها بالشرب من الطاس والكاس. وحقاً كانت للشعب مواسم للهو والعبث، غير أنها قلما تعدت أعياد المجوس والنصارى مما عرضنا له ف يغير هذا الموضع.

على كل حال ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما كان ببغداد من اللهو والمجون، وأن نقصر ذلك على الفئة الأرستقراطية أما الشعب فحسبه منها ما كان يستمتع به من لهو في بعض الأعياد وخاصة أعياد الربيع، وظل ذلك طوال العصر ومن خير ما يصوره مقامة لظهير

(١) حكاية أبي القاسم البغدادي ص٤٥ وما بعدها.

الدين الكازروني المتوفى سنة ٦٩٧ عرض ليها لهذا الجانب من لهو البغداديين وخروجهم إلى الرياض وتنزههم في الحدائق والأنهار قائلاً: " أما زمان الربيع وأيام الوشى البديع فإنهم كانوا يصطحبون ويتجمعون ويتشالون (كأنهم إلى نصب يوفضون) فينزلون الجواري (السفن) في رهط من الجواري، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون إلى قصده.. ويخترقون أشجاره ويقطفون ثماره ونواره، ويفترشون رياضه وأزهاره وينزلون غيطانه وأنهاره، ثم تعزف القيان وتصطخب العيدان، وتصفق الغدران، وترقص الأغصان، وتميد الأفنان، وكلمادسع (امتلأ) الراووق (دن الخمر وطاسه) طاب المشوق.. وكلما طرب العود، زمجرت الرعود، وقد انتظموا في سلك الراحة، واجتمعوا للاستراحة، كذلك أياماً، لا يطعمون مناماً " (١) ولم تكن حانات بغداد في الكرخ ولا حانات المتنزهات وحدهما هما اللتان يجد فيهما عشاق المجون ما يصبون إليه من الخمور بل كانوا يجدونها أيضاً في الأديرة.

وبذلك كله ظلت الخمرية تتردد على ألسنة الشعراء، وظلوا يصوغونها، وكل منهم يحاول أن يأتي فيها بمقطوعة أو قصيدة بديعة، وقد نظمت كثير من الخمريات في مجالس الوزير المهلبي، ولعل جليسه القاضي أبا القاسم التنوخي كان المجلى بين ناظميها بمثل قوله في إحدى خمرياته (٢).

وراحٍ من الشمسِ مخلوقةٌ بَدَتْ لك في قَدَحٍ من نهارِ
هواءٌ ولكنه جامدٌ وماءٌ ولكنه غيرُ جارِ

وهو تصوير بديع أن يجعل الخمر شمساً أو قطعة منها وماء غير جار والكأس نهاراً وهواء جامداً. وكان كثيرون من أهل بغداد رجالاً ونساء يحفظون الخمرية لجمال تصويرها، يدل على ذلك ما حكاه ابن خلكان- في ترجمة صاحبها- عن الحسن بن عسكر الصوفي الواسطي قال: كنت ببغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة جالساً على دكة بباب أبرز للفرجة إذ جاء ثلاث نسوة فجلسن إلى جانبي، فأنشدت متمثلاً:

(١) انظر مقامة ظهير الدين الكازروني (طبع بغداد) ص٢٧.

(٢) انظر ترجمة القاضي التنوخي في ابن خلكان ٣/ ٣٦٦ والجواهر المضية ومعجم الأدباء ١٤/ ١٦٢.

هواءٌ ولكنه جامدٌ   وماءٌ ولكنه غيرُ جارِ

وسكتّ، فقالت إحداهن: هل تحفظ لهذا البيت تماماً؟ فقلت: ما أحفظ سواه، فقالت: إن أنشدك أحد تمامه وما قبله ماذا تعطيه؟ فقلت ليس لي شيء أعطيه، فأنشدتني الخمرية وزادت بعد البيت السابق:

إذا ما تأمَّلتَها وهْيَ فيهِ   تأملت نورا مُحيطاً بنارِ

فهذا النهايةُ في الابيضاضِ   وهذا النهاية في الاحمِرارِ

فحفظت البيتين منها. وإنما روينا ذلك لندل على ظرف الجواري في بغداد وأن سوق الخمريات كانت رائجة، ولذلك كان الشعراء يحاولون الإبداع فيها والإتيان بالمعاني المبتكرة الطريفة كقول البَبَّغاء في عتق الخمر [(١)]:

وعريقة الأنسابِ والشِّيَم   موجودةٌ والخلقُ في العَدمِ

هي آدمُ الكَرْم المولَّد في الـ   ـدُّنيا وحَوَّا الخمرِ في القِدمِ

ظهرتْ ونور الشمس في فلكٍ   من قبل خَلْق الصبح والظُّلَمِ

واشتُقّ معنى اسمِ السُّلافِ لها   من كونها في سالف الأمم

وبون بعيد بين هذه الخمرية وخمرية التنوخي في بعد الخيال والتصوير. ومن قديم يمزج الشعراء في الخمرية بين الحب ونشوة الخمر. ومن طريف ما كان يطرب الناس ببغداد لعهد أبي حيان التوحيدي غناء سندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد، وهي تتشاجى وتتدلل وتتمايل وتتكسر متغنية بهذه الخمرية [(٢)].

مجلسُ صَبَّين عَميدّيْنِ   ليسا من الحبِّ بِخِلْوَيْنِ

قد صيَّرا رُوحيْهما واحدا   واقْتَسماه بين جِسْمين

---

(١) اليتيمة ١/ ٢٦٢.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٧٣.

تنازعا كأسا على لذَّةٍ — قد مَزجاها بين دَمْعين

والكأسُ لا تحسنُ إلا إذا — أَدَرْتَها بين مُحِبَّيْن

ومن قديم أيضاً يمزج الشعراء بين النشوة بالخمر والنشوة بالطبيعة، إذ كانوا فعلاً كما مر بنا يشربونها على أبسطة الربيع وبين آسه ووروده وزهره، ونقلوا الأزهار إلى مجالسها، حتى تعبق بروائحها أو قل نقلوا الربيع بكل ما فيه نقلاً يأخذ بمجامع القلوب ويمتزج بالنفوس. فكان طبيعياً أن يتحدث الشعراء في خمرياتهم عن جمال الطبيعة وجمال الورود والرياحين في الربيع، وقرنوا إلى ذلك سقوط الثلج في الشتاء كقول الوزير المهلبي في إحدى خمرياته [١]:

الوردُ بين مضمَّخٍ ومضرَّجِ — والزهرُ بين مكلَّلٍ ومتوَّجِ [٢]

والثلجُ يهبطُ كالنِّثار فقُمْ بن — نلتذّ بابنة كَرْمةٍ لم تمزَجِ [٣]

وكان الغناء يرافق الخمر، كما أشرنا إلى ذلك، فعرضت خمريات كثيرة للغناء والخمر معاً، كما عرضت أخرى للغزل بالسقاة من الغلمان، وكثير منه كان يقصد به إلى التندر والدعاب في أثناء السكر. وكان الغزل بالغلمان لوناً من ألوان التماجن في العصر، وهو- لا شك- وصمة معيبة في جبين أصحابه.

ودفع التماجن إلى ظهور أشعار لا يستحي أصحابها من ذكر العورات والإسراف في الفحش، ونعجب الآن أن يتخذ ذلك ضرباً من الهزل والتسرية عن الناس، وكأنما أعياهم أن يسروا عن أنفسهم، فالتمس بعض الشعراء هذه التسرية التي تؤذي النفوس الكريمة. وكان شعراء هذا الهزل الماجن يمزجونه بفكاهات ونوادر ودعابات كثيرة، وكأنهم أحسوا أنه يجب تخفيف حدته، وأني لهم؟! فقد كان يمتلئ بسخف كثير، وسخفه ليس ناشئاً عن التورط في الخمر فحسب وإنما أيضاً عن التورط في وصف الفواحش والتصريح بالآثام في

---

(١) اليتيمة ٢/ ٢٣٧.

(٢) مضمخ: ملطخ بالطيب، مضرج: ملطخ بالحمرة.

(٣) النثار: ما ينثر في حفلات العرس والسرور من نقود أو حلوى.

غير استحياء. وكان الذي دفع إلى ذلك ابن سُكَّرة وابن الحجاج في القرن الرابع، غير أن شعراء الخمر أنفسهم من حولهما ومن بعدهما كانوا يترفعون عن هذا الدرك الأسفل من التصريح بالمآثم على نحو ما نرى في خمريات عبد الصمد (١) بن بابك المتوفى بعدهما سنة ٤١٠ وله من خمرية:

عُقارٌ عليها من دَم الصَّبِّ نَفْضَةٌ ... ومن عَبراتِ المستهام فَواقِعُ
معوَّدةٌ غَصْبَ العقولِ كأنها ... لها عند ألباب الرجال ودائع
تحيَّرَ دَمْعُ المُزْن في كأسها كما ... تحيَّرَ في وَرْد الخدود المدامع

وقد أبدع في تصوير فواقعها في كأسها بأنها عبرات شاربها العاشق الولهان، ويقول إنها استردت منه وديعتها، ففارقه عقله. ويصل بين امتزاج الماء باخمر المحمرة في كأسها وبين الدموع وتحدرها على خدود المحبوب الموردة، وله من أخرى:

يا صاحبيَّ امزُجا المُدام لنا ... كما يُضيء لنا من نورها الغَسَقُ
خمراً إذا ما نديمي همَّ يَشرَبُها ... أخشى عليه من اللألاء يحترق
لو رام يحلفُ أن الشمس ما غَربتْ ... في فيه كذَّبه في وجهه الشَّفَقُ

وخوفه على نديمه من الاحتراق في لألاء الخمر غريب، وأغرب منه دعواه أن الشمس غربت في فمه بدليل ما تتضرج به خدوده من حمرتها، وكأنها تركت عليها شفقه أو بصماتها الحمراء. ويظل الشعراء بعد ابن بابك ينظمون في الخمر متفننين في معانيها محاولين بكل جهدهم أن ينفذوا فيها إلى طرائف جديدة، على نحو ما يلقانا عند سبط ابن التعاويذي والحاجري والتلعفري وصفي الدين الحلي. وانحصرت موجة المجون والفحش بذلك عند

---

(١) انظر في ترجمة عبد الصمد اليتيمة ٣/ ٣٧٤ وابن خلكان ٣/ ١٩٦ وعبر الذهبي ٣/ ١٠٢ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٥ والشذرات ٣/ ١٩١. وله ديوان مخطوط. انظر بروكلمان ٥/ ٢٥.

ابن سكرة وابن الحجاج وترجعت عند خالفيهم وكادت تنحصر في شعر هزلي مضحك على نحو ما هو معروف عند صريع [1] الدلاء المتوفى بمصر سنة ٤١٢ من مثل قوله:

مَنْ مضَغ الأحجارَ أدمتْ فَكَّهُ ... فالضِّرْسُ لم تُخْلَق لتليين الحصَى

من قطَع النَّخْلَ وظلَّ راجياً ... ثمارَها فذاك مقطوعُ الرَّجَا

وقد يحاول شاعر من باب الدعابة محاكاة ابن حجاج أو ابن سكرة، غير أنه يخفف جداً من تماجنه وتعابثه بحيث لا يستخدم شيئاً من ألفاظ الفحش، إنما يكتفي ببيان عكوفه على الخمر وأنها كل لذته في دنياه، حتى إنه لا يستطيع أن يهجرها في ليالي رمضان قبل سحوره، وفي ذلك يقول ابن السوادي [2] من شعراء القرن السادس متماجناً:

الصَّبوحَ الصبوحَ في شعبانِ ... لا تُخِلُّوا به مع الإمكانِ

واسْقِنيها يوم الثلاثين في الشَّـ ... ـكِّ وبعد السُّحور قبل الأذانِ

وبعد أن تماجن طويلاً في القصيدة راجع نفسه وعاد يعلن حسن إسلامه وطاعة ربه وأنه براء من كل ما يصف به نفسه، قائلاً:

نِيَّتي غَيْرُ ما سمعتَ وما كا ... ن لساني عن نِيَّتي تُرْجماني

ومضى يذكر أن عدته في معاده شفاعة الرسول عليه السلام وعلي وفاطمة الزهراء والحسين، وبذلك محا كل ما جاء به في قصيدته من تماجن، مصرحاً بعقيدته الشيعية وما يعتقده الشيعة في شفاعة علي والسيدة فاطمة والحسن والحسين. وما دمنا بصدد التماجن فحرى بنا أن نتوقف قليلاً عند علميه في العصر: ابن سكرة وابن الحجاج.

---

(١) انظر في ترجمة صريع الدلاء تتمة اليتيمة للثعالبي ١/ ١٤ وابن خلكان ٣/ ٣٨٣ وعبر الذهبي ٣/ ١١٠ والشذرات ٣/ ١٩٧ وله ديوان مخطوط. انظر بروكلمان ٢/ ٦٥.

(٢) راجع في ترجمة ابن السوادي وشعره الخريدة (قسم العراق) ٤/ ١/ ٣٦٩ وابن خلكان ٣/ ٤٨١.

ابن سكرة[١]

هو أبو الحسن محمد بن عبد الله المعروف بابن سكرة البغدادي الهاشمي، وهو من سلالة علي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي المشهور، ويبدو أنه كان في يسار وسعة من المال وأنه عاش للمجون والخلاعة. ولسنا نعرف شيئاً عن نشأته وتربيته وحياته إلا ما يصفه به الثعالبي في اليتيمة من قوله: " هو شاعر متسع الباع، في أنواع الإبداع، فائق في قول الملح والطرف، أحد الفحول الأفراد، جار في ميدان المجون واسخف ما أراد.. ويقال إن ديوانه يربو على خمسين ألف بيت، منها في قينة سوداء يقال لها خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت، وكانت عرضة نوادره وملحه. وحكى بعض معاصريه أنه حلف بطلاق امرأته- وهي ابنة عمه- أنه لا يخلي بياض يوم من سواد شعره في هجاء خمرة، ولما علمت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفتل زوجها من صلاة الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلاه لزوم الغريم غير الكريم، فلا تفارقه ما لم يقرض ولو بيتاً في ذكرها وهجائها. وتدل الأشعار التي أنشدها له الثعالبي على شاعرية خصبة في الغزل وغير الغزل من مثل قوله:

حذَار من وَصْلِ مَنْ بليتُ بِهِ ... فقد لقيتُ الرَّدَى بِجَفْوتِهِ

دنوتُ منه كيما أقبِّلَهُ ... فلم تَدَعْني نيرانُ وَجْنَتِهِ

فقد جعل النيران المشتعلة في وجنات محبوبته وخدودها تدفعه دفعاً وترده رداً عنيفاً، ومن هذا النمط قوله متغزلاً:

منعتْني من مُقبَّلِهِ ... حين أدنو منه عَقْرَبُهُ

واستدارتْ فَهْيَ تَحْرُسُهُ ... من فمي بُخْلاً وتَرْقُبُهُ

---

(١) انظر في ترجمة ابن سكرة وأشعاره اليتيمة ٣/ ٣ وتاريخ بغداد ٥/ ٤٦٥ والمنتظم ٧/ ١٨٦ وعبر الذهبي ٣/ ٣٠ وابن خلكان ٤/ ٤١٠ والشذرات ٣/ ١١٧ ومرآة الجنان لليافعي ٢/ ٤٢٧ والوافي ٣/ ٢٠٨.

وكانت النساء تلوي على أصداغها خصلة من شعرها في شكل عقرب تزيناً وتجملاً، فاستغل ذلك حتى النهاية، إذ الخصلة مثل العقرب تستدير وترتفع في طرفها، وكأنها تراقب صاحبتها وتستعد للدغ من يقترب من خدودها. ولن نستطيع أن نروي شيئاً من فحشه في الغزل، ونكتفي بذكر بعض أبيات تصور مجونه دون أن تؤذي الذوق، من ذلك قوله:

ويومٍ لا يقاسُ إليه يومٌ   يلوحُ ضياؤه من غير نارِ
أقمنا فيه للذَّات سُوقاً   نبيع العقلَ فيها بالعُقارِ

فهو يعيش للإكباب على اللذات والانهماك في المجون والعبَ من الخمر وإنه ليقيم للمجون سوقاً يبيع فيه عقله بين وكس بدن زهيد من الخمر يفقده رشده، ومن قوله:

اشربْ فلليوم فضلٌ لو علمتَ به   بادرتَ باللهو واستعجلتَ بالطَّربِ
وردُ الخدودِ وورد الروض قد جُمعا   والغيم مبتسمٌ والشمسُ في الحُجبِ
لا تَحْبسِ الكأسَ واشْرب} ها مُشعْشَعةً   حتى تموت بها موتاً بلا سبب

وقد جعل كل شيء في الزمان والمكان يحث على اللهو والطرب، فقد اجتمعت الخمر وورد الخدود كما يقول وورود الرياض في يوم من أيام الشتاء الغائمة الباسمة. ويذكر أن ذلك كله يدعو لاحتساء الخمر حتى الموت موتاً بلا سبب، دعاب مقصودة، ومن قوله:

قد بدا الصبحُ مؤذناً بسُفورِ   وفَرى الفجرُ حُلَّةَ الدَّيْجُورِ[1]
فاسْقني قهوةً تترجم بالرِّقَّـ   ـةِ عن دمع عاشقٍ مهجورِ

فالخمر رقيقة رقة دمع العاشق لكثرة حياته المتساقطة من مآقيه. ولو عرف قيمة الملكة الشعرية التي رزقها لحفظ لها حقها ولم يسقط في شعر الفحش والمآثم، ولا لطخ أشعاره بهذا الدنس. وله هجاء كله سخرية ووخز كوخز الإبر. وكان واسع الخيال إلى درجة الوهم على نحو ما نرى في قوله:

---

(١) فري: شق. الديجور: الظلمة.

قيل: ما أعددتَ للبَرْ دِ فقد جاء بشدَّه
قلت: دُرَّاعَةُ عُرْيٍ تحتها جُبَّةُ رِعدَه

والدراعة: ثوب من صوف، وبلغ من وهم خياله أن جعل للعري دراعة وللرعدة من برد الشتاء جبة. وما أظنه كان يصور شيئاً من حقيقة حياته، فقد كان على غير قليل من اليسار. وكأنه في البيتين استعار من معاصريه هذا اللون من التفاقر وإظهار الخصاصة، وكان لهما شعراء معروفون هم شعراء الكدية، فجاراهما في بيتيه تظرفاً ودعابة. وقد توفي سنة ٣٨٥ للهجرة.

ابن الحجاج[(١)]

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد، نسب إلى جد له يسمى الحجاج، ويبدو أن أباه كان من العمال، وعني بتربية ابنه، فاختلف إلى مجالس الفقهاء والعلماء فضلاً عن مجالس الأدب، والتحق بالدواوين كاتباً ثم أصبح ضامناً لفرائض الصدقات بسقي الفرات مدة، ثم تولى حسبة بغداد فترة إلى أن عزل بأبي سعيد الإصطخري الفقيه الشافعي. وكان أكبر شعراء زمانه في التماجن والتعابث، وهو يخطو فيهما خطوات بعيدة بالقياس إلى ابن سكرة، حتى زعم الرواة والنقاد أنه " فرد زمانه في فنه الذي شهر به وأنه لم يسبق إلى طريقته، ولم يلحق شأوه في نمطه" وفيه يقول أبو حيان: " سخيف الطريقة بعد عن الجد، قريع (فحل) في الهزل، ليس للعقل من شعره منال، ولا له في قرضه مثال، على أنه قويم اللفظ سهل الكلام، وشمائله نائية بالوقار، عن عادته الجارية في الخسار، وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة، وإذا جد أقعى[(٢)]، وإذا هزل حكى الأفعى" ويقول صاحب اليتيمة: " هو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف[(٣)]، ولا يبن جل قوله إلا على سخف، فإنه من

---

(١) انظر في ترجمة ابن الحجاج وأشعاره اليتيمة ٣/ ٣٠ وتاريخ بغداد ٨/ ١٤ ومعجم الأدباء ٩/ ٢٠٦ والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان ١/ ١٣٧ وابن خلكان ٢/ ١٦٨ والشذرات ٣/ ١٣٦.

(٢) أقعى هنا: قعد ولم يتم جده.

(٣) سجف: ستر.

سحرة الشعر، وعجائب العصر.. وأشعاره وكلامه يمد يد المجون فيعرك بها أذن الحرم، ويفتح جراب السخف فيصفع قفا العقل، ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره، وتستملح الكبراء بنات طبعه.. ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء.. وهو عندهم مقبول الجملة غالي مهر الكلام، موفور الحظ من الإكرام والإنعام، مجاب إلى مقترحه من الصلات الجسام.. وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر. تحكم الصبي على أهله، ويعيش في أكنافهم عيشة راضية، ويستثمر نعمة صافية ضافية ". وإلى ذلك يشير في شعره مراراً، وأنه بناه على التماجن والفحش للتفكه والدعاب طلباً للكسب به، يقول:

لو جَدَّ شعري رأيتَ فيهِ | كواكبَ الليلِ كيف تَسْرِي
وإنما هَزْلُهُ مجونٌ | يمشي بِهِ في المعاش أمري

وقد عاش عيشة رفهٍ ويسارٍ حتى توفي سنة ٣٩١. وكان يكثر من نظم هذا الشعر الماجن حتى قالوا إن ديوانه يبلغ عشرة مجلدات، وكان يباع في حياته بخمسين ديناراً إلى سبعين، ولكثرة ما ملأه به من ذكر العورات والمقاذر قال فيه ابن سكرة الماجن حين سئل عن قيمته إن " قيمع بَرْبخ " أي بالوعة تحمل القاذورات وما ينضاف إليها. وإذا كان هذا حكم ابن سكرة فما بالنا بحكم الناس وراءه في عصره وبعد عصره. وقد دعا بعض أصحاب الحسبة في كتبهم إلى منع الغلمان والصبيان من حفظ أشعاره وأخذهم بالضرب إن هم حاولوا ذلك. وينبغي أن نشير إلى ما ذكره أبو حيان من أنه كان فيه وقار يخالف هذا الإغراق في التماجن، وكأنه كان تماجناً مقصوداً به إلى الإضحاك: إضحاك الرؤساء والكبراء، غير أنه تجاوز فيه حده. وكان حسبه ما لديه من القدرة من الفكاهة ليضحك الناس دون التردي في بالوعات الفحش وقاذوراته، ويصور تماجنه من بعض الوجوه قوله في مديحه لبختيار الحاكم البويهي لبغداد في عصره:

فدَيتُ وجهَ الأميرِ من قمرٍ | يجلو القَذَى نورُهُ عن البصَرِ
فَدَيتُ مَنْ وَجْهُهُ يُشَكِّكُنِي | في أنَّه من سُلالة البَشَرِ

إن زُلَيخا لو أبصرتْك لما ملَّتْ إلى الحشْر لذَّةَ النظرِ

ويستمر في مثل هذا التماجن. وهو لا يطيق الصبر حتى مع بختيار في تماجنه، إذ يمضي فيلطخ المدحة في أواخرها بشيء من قاذوراته. وكان شيعاً إمامياً، وكان يشوب تشيعه أحياناً بشيء من الغلو، وكان قريباً من نفس الشريف الرضي، فاختار من شعره قطعة تخلو من قذره وسخفه. ورثاه حين توفي رثاء حاراً، ومن خمرياته التي تخلو من فحشه وبذاءته قوله:

يا صاحبيّ استيقظا من رقدةٍ تُزْرِي على عقل اللبيبِ الأكْيَسِ

هذى المجرَّةُ والنجومُ كأنها نهرٌ تدفَّق في حديقةِ نَرْجسِ

قوما اسقياني قهوةً روميَّةً من عهد قيصرَ دَنُّها لم يُمْسَسِ

صِرْفاً تُضيف إذا تسلَّط حكمُها موتَ العقول إلى حياة الأَنْفُسِ

والصورة في البيت الثاني جيدة إذ جعل نهر المجرة يتدفق في حديقة نرجس، وجعل الخمر في البيت الأخير تميت العقول في رأيه، ولكنها تحيي النفوس. وله خمرية قالها في عيد المهرجان، وهي تخلو من مقاذره غير أن فيها تبجحاً شديداً باعترافه بعصيانه لربه لشربه الخمر مع ما جاء من تحريمها في الذكر الحكيم.

وكل ذلك كان يريد به التماجن والتعابث والإضحاك، وقد عاد في هذه القصيدة أو الخمرية يعلن أن رأس ماله كله خسران إلا ما كان من حبه لآل البيت وللرسول عليه السلام والإمام علي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين، وتكثر في أشعاره الكدية أو الشحاذة الأدبية، فهو يكثر من بيان فقره وحاجته، وأنه لا يجد المرق فضلاً عن اللحم، وأنه دائماً يأكل الخبز بالملح دون إدام فيجرح حلقه من خشونته، ودائماً لا يجد صوفاً يقيه برد الشتاء ولا خيشاً يقيه حر الصيف. وكل ذلك دعاب وفكاهة، فقد كانت الدنانير والدراهم تنسكب عليه من كل جانب.

٣

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

منذ ظهور الإسلام يعد الزهد والتقشف من صميم حياة المسلم، زهد في طيبات الحياة ومتاعها وإقبال على ما عند الله من ثواب الآخرة، وهو إقبال يوازن فيه المسلم بين نسكه وتعبده لربه وبين السعي لرزقه، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً. وهو يضع ثقته في الله ويتوكل عليه حق التوكل، ولا يرى في سعيه لكسب قوته ما يقلل من هذا التوكل أو تلك الثقة. وتلقانا في العراق مع العصر الأموي طوائف من النساك والعباد الزهاد، فالزهد والنسك قديمان في هذه البيئة، وأخذت تتسع موجة الزهد مع العصرين العباسي الأول والثاني. وظلت حادة في هذا العصر، ولا شك في أنها كانت أحد وأكثر اتساعاً وجمهوراً بل جماهير من موجة اللهو والمجون، فقد كانت هذه تكون تكون خاصة بالطبقة المترفة في الأمة ومن حف بها من المغنين والمغنيات والشعراء وأهل العبث. وكان الشعب لا يشترك في اللهو إلا في مواسم خاصة كأعياد المجوس والنصارى. أما موجة التقشف والنسك فكانت عامة يشترك فيها كثير من الطبقة العامة وجمهور أو جماهير الأمة، إذ كانت تغدو صباح مساء إلى المساجد تتلو القرآن وتسبح الله وتذكره ليلاً ونهاراً. وكان يغذي هذه الروح في المساجد وعاظ يزدحم الناس على مجالسهم.

ومن كبار الوعاظ ابن سمعون (١) المتوفى سنة٣٨٧ ويقول ابن خلكان: كان وحيد دهره في الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة " ومن قوله: "سبحان من أنطق باللحم، وبصر بالشحم، وأسمع بالعظم" إشارة إلى اللسان والعين والأذن، وإياه عنى الحريري في المقامة الرازية الحادية والعشرين بقوله في أوائلها: "رأيت

---

(١) انظر في ترجمة ابن سمعون ابن خلكان ٤/ ٣٠٤ وتاريخ بغداد ١/ ٢٧٤ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢/ ١٥٥ وصفة الصفوة ٢/ ٢٦٦ والوافي ٢/ ٥١.

بـالري ذات بكـرة، زمـرة في إثـر زمـرة، وهــم منتـشرون انتـشار الجـراد، ومـستنون (١) اسـتنان الجيـاد، ومتواصـفون واعظـاً يقـصدونه، ويحلـون ابـن سـمعون دونـه " ولم يكـن لـه نظـير في زمنه. وكانـت تعـاصره ميمونـة (٢) بنـت سـاقولة الواعظـة البغداديـة المتوفـاة سـنة ٣٩٣ وكـان لهـا لسان حلو في الـوعظ. وكـان قبلهـا وبعـدها كثـيرات زاهـدات، وكـان بعـضهم يعظـن وبعـضهم يحمل عنهن الحديث وقـد تـرجم ابـن الجـوزي في كتابـه " صـفة الـصفوة " لطائفـة كبـيرة مـنهن. وفي سنة ٤٩٦ توفي ببغداد واعـظ كبـير هـو أردشـير بـن منـصور " وبوعظـه حلـق أكثـر الـصبيان رءوسـهم ولزمـوا المـساجد وبـددوا الخمـور وكـسروا الملاهـي " (٣) ومـن كبـار الوعـاظ الزهـاد أبـو الوفـاء بـن عقيـل الحنـبلي المـار ذكـره ويقـول ابـن رجـب: " مـن معـاني كلامـه يـستمد أبـو الفرج بن الجوزي". وفي كـل بلـدان العـراق نلتقـي بأخبـار هـؤلاء الوعـاظ مثـل محمـد بـن عبـد الملـك الفـارقي (٤) المتـوفى سـنة ٥٦٤ وقـد تـرجم لـه العـماد ترجمـة ضـافية، ذكـر فيهـا مواعظـه ومناجياته لربه، وكان يضمنها أشعاراً في الزهد والوجد مثل قوله:

مَن كان في ظلماءِ ليلٍ سارياً ... رَصَدَ النجومَ وأوقدَ المِصْباحا

حتى إذا ما البدرُ أشرق نورُهُ ... ترك السِّراجَ وراقبَ الإصباحا

حتى إذا انجاب الظلامُ جميعهُ ... ورأى الضياء بأُفْقِهِ قد لاَحا

هجرَ المسارجَ والكواكبَ كلَّها ... والبدرَ وارتقبَ السَّنا الوضَّاحا

وهـي قطعـة صـوفية رمزيـة إذ يـشير إلى أن مـن أظلمـت عليـه الـدنيا في مطلبـه الأسـني مـن الاتـصال بربـه، يلجـأ إلى نجـوم فهمـه ومـصباح قريحتـه وسراجهـا، حتـى إذا بـدر الدرايـة والمعرفـة أشرق عـلى نفـسه هجـر ذلـك الـسراج وتلـك النجـوم وانتظـر الإصـباح والـسنا الوضاح فـرأى عـين اليقـين، ونهـل مـن معـين الحـب الإلهـي ورحيقـه المـصفى. وربـما كـان أكـبر

---

(١) مستنون من استن: جرى.

(٢) النجوم الزاهرة ٤/ ٢٠٩.

(٣) النجوم الزاهرة ٥/ ١٨٦.

(٤) انظر ترجمة محمد بن عبد الملك في الخريدة (قسم الشام) ٢/ ٤٣١ وما بعدها والمنتظم ١٠/ ٢٢٩ والوافي ٤/ ٤٤.

واعظ عرفته العراق في هذا العصر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ وقد وصف مجلس وعظه ابن جبير سنة ٥٨٠ وصفاً مسهباً قائلاً " شاهدنا صبيحة يوم السبت الثالث عشر من شهر صفر مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل عبد الرحمن بن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي في آخره على اتصال من قصور الخليفة.. وهو يجلس به كل يوم سبت، فشاهدنا مجلس رجل.. آية الزمان وقرة عين الإيمان رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتبا العليا إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة (يريد الوعظ) والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والرباعة، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر، فأما نظمه فرضي الطباع مهياري الانطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بقس وسحبان، ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئاً، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات.. فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلاً مبتدراً، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه درراً، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فقراً.. ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها.. وحدث ولا حرج عن البحر، وهيهات ليس الخبر عنه كالخُبْر. ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج وتردد النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعياً له، ومنهم من يغشى عليه، فيرفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويكذرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج (وسط) البحر، ونعتسف مفازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة. فالحمد له على أن من بلقاء من تشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله (١)".

---

(١) انظر رحلة ابن جبير وزيارته فيها لبغداد (طبع ليدن) ص ٢٢٠ ومصادر ترجمة ابن الجوزي مذكورة في صفحة ٣١٨.

وطبيعي أن ينهى هذا الوعظ الذي كانت تتدفق جداوله في المساجد الناس عن ارتكاب المعاصي وأن يدفع كثيرين دفعاً إلى الزهد في متاع الحياة وخيراتها فضلاً عن قمع النفس عن الشهوات وارتكاب المآثم. وكما كان لوعاظ فضل كبير في سيان هذه الروح كذلك كان لفقهاء الحنابلة نفس الفضل، فقد كانوا يؤلفون جمهوراً كبيراً ببغدد، وكثيراً ما كانوا يثورون طالبين إلى الدولة قلع المواخير وتتبع المفسين ومن يبيع النبيذ. وكثيراً ما نهضوا بأنفسهم فكبسوا الدور وأراقوا الأنبذة [١] وكانت الدولة لا ترى بداً من النزول على إرادتهم، وسيرهم كما يمثلها كتاب طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى وذيله لابن رجب تفوح دائماً بشذى الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا وملذاتها، ويستحيل ذلك عند كثيرين منهم إلى أشعار زاهدة وأخرى تفيض بوجد ملتاع. وكان هذا الوجد يصل بين الزهاد والمتصوفة على نحو ما مر بنا آنفاً في مقطوعة واعظ ميافرقين وزاهدها محمد بن عبد الملك.

وتمتلئ كتب طبقات المتصوفة بأشعارهم الصوفية الخالصة التي يصورون فيها عشقهم الإلهي ومكابدتهم معطلين لحواسهم وعقولهم بينما يتجلى الله في كل الموجودات، وهم سابحون في بحار الوجد وبين أمواجه، غارقون في آلام حبهم وأشجانه ودموعه، على نحو من يصور ذلك الشيخ أحمد الرفاعي صاحب الطريقة الرفاعية المشهورة في قوله: [٢]

إذا جَنَّ ليلي هامَ قلبي بذكركم ... أنوحُ كما ناحَ الحمامُ المطوَّقُ

وفَوْقِي سحابٌ يُمْطِر الهمَ والأسَى ... وتحتي بحارٌ بالأسى تتدَفَّقُ

وسبق أن عرضنا لشهاب الدين السهروردي البغدادي في الفصل الأول. وهو إمام صوفية بغداد ومقدمهم في القرن السابع الهجري، وولي عدة ربط للصوفية، وكان فقيهاً عالماً واعظاً، عقد مجلس الوعظ سنين، ويروى أنه أنشد يوماً في تضاعيف وعظه [٣]:

لا تسقني وحدي فما عوَّدْتَنِي ... أني أشِحُّ بها على جُلاَّسي

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ٢٤.

(٢) ابن خلكان ١/ ١٧٢.

(٣) ابن خلكان ٣/ ٤٤٦.

أنت الكريمُ ولا يليق تكرُّماً ... أنْ يَعْبُرَ النُّدَماءَ دَوْرُ الكاسِ

فتواجد الناس بذلك، وقطعت شعور كثيرة وتاب جمع كبير، وواضح أنه عبر بالخمر عن النشوة بالعشق الإلهي، ومن غزله الصوفي:

تَصرَّمَتْ وَحْشَةُ الليالي ... وأقبلتْ دَوْلَةُ الوِصالِ

تقاصرتْ عنكمُ قلوبٌ ... فيالَهُ مورداً حَلاَ لي

وهو يعبر عن فرحته الهنيئة بصلته أو اتصاله بربه، وكأنه تحقق له عالم الشهود أو عالم الفناء، فانجاب عنه الحجاب، وأضاءت مشكاة قلبه بنور ربه. وانبثقت من الشعر الصوفي منذ ابن دريد في أوائل القرن الرابع الهجري مدائح نبوية عطرة بالسيرة الذكية، وما نصل إلى القرنين السادس والسابع حتى يتكاثر هذا المديح ويزدهر، ونظن ظناً أنه كان للحروب الصليبية أثر في ذلك، فقد رأى المسلمون تعظيم الصليبيين لعيسى عليه السلام واهتمامهم بمولده وحربهم للدين الحنيف وصاحبه، وعرف الشعراء أنها حرب دينية يشنها الغرب على الرسالة النبوية ورسولها الكريم، فاستحثوا الناس للدفاع عن دينهم، بل لقد مضوا يستصرخونهم للذود عن وطنهم الإسلامي محاولين- بكل ما وسعهم- أن يحيلوهم شعلاً آدمية تشوي وجوه الصليبيين وتأتي عليهم كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. وفي الوقت نفسه مضوا يمدحون النبي الكريم بعرض سيرته وشذاها العطر ورفعوها شعارات بل لواءات، ليتجمع من حولها أبطال الإسلام والعرب ويقضوا على الصليبيين قضاء مبرماً. ولم يكتف بعض الشعراء بمدحتين أو مدائح معدودة للرسول، بل نظم في ذلك ديواناً مثل محمد بن أبي بكر بن رشيد الواعظ البغدادي فقد نظم في مديح الرسول عليه السلام ديواناً سماه القصائد الوترية في مدح خير البرية وهي تسع وعشرون قصيدة مقفاة على حروف المعجم، ونختار ثلاثة من الشعراء يمثلون الزهاد والمتصوفة ومداح الرسول عليه السلام، وهم على الترتيب ابن السراج البغدادي والمرتضى الشهرزوري والصرصري.

ابن السراج البغدادي(١)

هو جعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي المقرئ المحدث الأديب، ولد ببغداد سنة ٤١٧ أو في أول سنة ٤١٨ وقرأ القرآن وتلقن قراءاته وأقرأه سنين، وعني بالحديث النبوي ورحل في طلبه إلى مكة والشام ومصر، وخرج له الخطيب البغدادي خمسة أجزاء تسمى السراجيات، وله مصنفات مختلفة وكان شاعراً مطبوعاً، واستغل موهبته الشعرية في نظم كتب الفقه مثل كتاب المبتدى وكتاب مناسج الحج وكتاب الخرقي وكتاب التنبيه. وأهم كتبه وأشهرها كتاب مصارع العشاق، وهو في أخبار العباد والنساك، وبه أشعار كثيرة تفيض بوجد مبرح. وكان حنبلياً حمل عنه الحديث كما حملت القراءات ويقول ابن الجوزي " حدثنا عنه أشياخنا، وآخر من حدثنا عنه شهدة بنت الإبري، قال: وقرأت عليها كتابه المسمى بمصارع العشاق بسماعها منه " ويقول ابن خلكان عن شهدة: " بغدادية المولد والوفاة كانت من العلماء، وسمع عليها خلق كثير، واشتهر ذكرها وبعد صيتها (٢)". وقد جعل السراج كتابه "مصارع العشاق أجزاء، وكتب على كل جزء أبياتاً، من ذلك قوله على الجزء الأول:

هذا كتابُ مصارعِ العشّاقِ ... صَرَعَتْهُمُ أيدي نوًى وفِراقِ
تصنيفُ مَنْ لدغَ الفِراقُ فؤادَهُ ... وتطلَّب الراقي فعزَّ الراقي

وكان تقياً ورعاً يغلب عليه الزهد مع حسن الطريقة ومع الظرف ولطف الأخلاق. وأكثر أشعاره في نظم كتب الفقه كما مر بنا وفي الزهد، والتخلص من درك الهوى إلى ذرى الهدي، والترفع عن اللذات البدنية، والشهوات الدنية، ومن قوله:

أفلحَ عبدٌ عصى هواهُ ... وفاقَ في دينِهِ وكاسا (٣)

---

(١) انظر في ترجمة ابن السراج وشعره كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ١٢٣ والمنتظم ٩/ ١١١ ومعجم الأدباء ٧/ ١٥٣ وابن خلكان ١/ ٣٥٧.

(٢) ابن خلكان ٢/ ٤٧٧.

(٣) كاس: أصبح كيساً حكيماً حصيفاً.

ولم يَرُحْ مُدْمِناً لخمرٍ   يَنْهَلُ طاساً يَعَلُّ كاسا [١]

فهو يدعو الإنسان إلى عصيان هواه وأن يكون كيساً فلا يقع في الخطايا والزلات ويحفظ نفسه من الخمر أو المنكرات، وبذلك يرتقي في درجات الهدى بقمعه لشيطانه وأمانه من غائلته. وله شعر وجداني من مثل قوله يصور حنين ناقته لمنازلها في نجد والحجاز:

قضتْ وطَراً من أرض نَجْدٍ وأمَّتِ   عقيقَ الحِمَى مُرْخًى لها في الأزمَّةِ [٢]

وخبرَّها الروّادُ أنّ لحاجرٍ   حَياً نوّرَتْ منه الرياضُ فحنَّتِ [٣]

ولاح لها بَرْقٌ من الغَوْرِ مَوْهِناً   كشعلةِ نارٍ للطوارقِ شُبَّتِ [٤]

وغنّى لها الحادي فأذكَرها الحِمَى   وأيامَها فيهِ وساعاتِ وَجْرةِ [٥]

وقد شَرِكتْني في الحنين ركائبي   وزِدْنَ علينا رنَّةً بعد رنَّةِ [٦]

ألا ليت شعري هل تعود رواجعاً   ليالي الصِّبا من بعد ما قد تولَّتِ

والحنين يجري في الأبيات كما يجري الماء والخضرة في الأغصان النضرة، وقد جعل ناقته أو دابته نفسها تحن حنيناً لا ينقطع إلى منازلها، وهو حنين يضاعفه في نفسها ما يلوح لها من برق ليلاً صادراً من جانب الغور، وكأنه شعلة نار تستدعيها وتناديها من بعيد. كما يضاعف هذا الحنين شدو الحادي وغناؤه، فتذكر أياماً في وجرة وغير وجرة. ويصرح بأنناقته وركائبه تشركه في الحنين، بل تزيد عليه رنة بعد رنة، فيأسى لها ولنفسه، ويتمنى لو

(١) النهل: الشرب الأول. الطاس: إناء الخمر ومثله الكاس. العلل: الشرب الثاني.

(٢) أمت: قصدت.

(٣) حاجر: من منازل الحجاز. حيا: غيثاً.

(٤) الغور: غور تهامة وهو ما انحدر غرباً. موهناً: بعد نصف الليل. الطوارق: الضيوف.

(٥) وجرة: موضع بنجد.

(٦) الركائب: الإبل.

عادت ليالي الصبا وكيف تعود وقد تولت إلى غير مآب، ولم يبق إلا الوجد والحنين الذي يتقد في فؤاده بمثل قوله:

حَبَّذا نجْدٌ بِلادًا لم نجدْ	راحةً للقلب في أرضٍ سواها
فإذا ما لاحَ منها بارقٌ	هاج أشواقيَ أو هَبَّت صَباها
لستُ أنْسَى إذ سُلَيْمَى جارةٌ	تبذل الوُدَّ وتُصْفينا هَواها
أرسلتْ طيفَ كَرًى لكنَّه	زارنا والعين قد زال كَراها (١)

فنجد راحة نفسه ومسرة قلبه، وإنه ليذكر أيامها وما كان يغمره فيها من متاع وسعادة، حتى إذا لاحق برق أو هب نسيم صباً هاجت به أشواقه، وأعادت إليه ذكرى حبه لسليمي حين كانت تبادله الهوى والود. وقد ضاع كل هذا الحلم منه وضاع منه النوم، فلم يعد يستطيع أن يراها أو يرى طيفها، وهو يتجشم أهوال وجده ويحتمل آلامه، باكياً ذارفاً دموعه كما يقول:

بانَ الخليطُ فأدْمُعي	وَجْداً عليهم تَسْتهلُّ (٢)
وحَدا بهم حادي الفِرا	قِ عن المنازل فاستقلُّوا (٣)
قُلْ للذين تَرحَّلوا	عن ناظري والقلبَ حَلُّوا
ما ضرَّهم لو أَنْهلوا	من ماء وَصْلِهمُ وعَلُّوا

فأحبابه رحلوا وحبات دموعه لا تزال تتساقط على خدوده، وهل يملك سوى البكاء والدموع الغزيرة، لقد كان في حلم غمره وملأ عليه فؤاده، وأفاق منه على فراق أحبابه، وإنه ليعلن إن كانوا قد رحلوا وبعدوا عن مرأى عينه فسيظل وفياً للعهد، وسيظلون يحلون في سويداء قلبه. ويفضي إلى اليأس قائلاً: ما ضرهم لو أذاقوه وصلهم وجعلوه ينعم

---

(١) الكرى: النوم.

(٢) تستهل: تنصب.

(٣) استقلوا: ارتحلوا.

بـه مـراراً، ومـع ذلـك فـسيظل يـذكرهم بـل سـيظل حـبهم في قلبـه قويـاً حـاراً. ولـه وراء ذلـك أشعار مختلفة في مديح إمامه أحمد بن حنبل وأصحابه. توفي ببغداد سنة ٥٠٠ للهجرة.

المرتضى الشهرزوري(١)

هو أبو محمـد عبـد الله بـن القاسـم بـن المظفـر الـشهرزوري الملقـب بالمرتـضى، ولـد بالموصـل سنة ٤٦٥ وتوفي بهـا سـنة ٥١١ في أرجـح الأقـوال، أقـام ببغـداد مـدة يـشتغل بالحـديث والفقـه، ورجع إلى الموصل وتـولى بهـا القـضاء بجانـب مـا كـان يـنهض بـه مـن الـوعظ والتـذكير. وكـان صـالحاً تقيـاً ناسـكاً متعبـداً، ولم يلـبس خرقـة الـصوفية ولا لـزم رباطـاً مـن ربطهـم، ومـع ذلـك كان صوفياً كبيراً، صوفياً سـنياً، يـدل عـلى ذلـك أكـبر الدلالـة مـا تبقـى مـن أشـعاره واحتفظـت بـه الخريـدة للعـماد ووفيـات الأعيـان لابـن خلكـان، وروى لـه الأخـير قـصيدة صـوفية رائعـة، يقول في تضاعيفها:

لمعتْ نارُهم وقد عَسْعَسَ اللَّيْـ ... ـلُ وملَّ الحادي وحارَ الدليلُ (٢)

فتأملتُها وقلتُ لصَحْبي ... هذه النارُ نارُ ليلي فمِيلوا

وهْي تعلو ونحن نَدْنُو إلى أن ... حجزتْ دونها طلولٌ مُحُولُ (٣)

فدنونا من الطلول فحالتْ ... زفراتٌ من دونها وغَليلُ

قلت: منْ بالديار؟ قالوا جريحٌ ... وأسيرٌ مكَبَّلٌ وقَتِيلُ (٤)

فحَطَطْنا إلى منازِلِ قومٍ ... صرَعَتْهم قبل المَذَاقِ الشَّمولُ (٥)

قلت: أهلَ الهوى سَلامٌ عليكم ... لي فؤادٌ عنكم بكم مشغولُ

---

(١) انظر في ترجمة المرتضى وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ٢/ ٣٠٨ وابن خلكان ٣/ ٤٩ والشذرات ٤/ ١٢٤ ومـرآة الزمـان ٨/ ١٢١ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٣١.

(٢) عسعس: أظلم.

(٣) محول: مجدبة.

(٤) مكبل: مقيد.

(٥) الشمول: الخمر.

جئتُ كي أصْطَلي فهل لي إلى نا رِكمُ هذه الغداةَ سبيلُ

إنه لا يزال سارياً طوال الليالي يبحث عن نار الذات الإلهية، أو قل إنه يتخذ النار رمزاً لمنازل على عادة الشعراء الغزلين، ويراها من بعيد في الظلام الدامس وقد كل الحادي لطول السرى وحار الدليل المرشد، وإذا النار أو قبس منها يظهر فجأة، فينادي صحبه: رأيت نار ليلي فميلو، وكلما جد في السرى إليها ودنا منها علت وارتفعت إلى أن امتدت بينه وبينها طلول محول، ويحاول الدنو من الطلول وتحول بينه وبينها دموعه وزفراته الحارة. ولا يجد في الديار سوى العشاق، وهم كثيرون بين جريح ومغلول في القيود وقتيل. وينزل بين قوم شغفهم الحب الرباني، بل لقد صرعهم قبل أن ينتشوا به ويذوقوا خمره. ويسلم، ويقول إنه جاء يصطلي بالنار: نار الحب المشتعل، ويقولون له إن أحداً لا يبلغها ولا يصل إليها، فدونها أهوال وأمواج تجرفهم إلى طلولها. إنها نار تضيء لساري بالليل ولا تنال، ومنتهى الحظ أن يتزود اللحظ منها، وهم حيارى وقوف قد أصبحوا أشباحاً ناحلة وأنفاساً متلاشية، وكلما ذاقوا كأس يأس مريرة لمعت لهم كأس رجال حلوة، فيقولون: صبر جميل.

والقصيدة من أروع ما خلف الصوفية على مر الحقب، وقد أنشدها بكمالها ابن خلان، وقال إنما أثبتها كاملة، لأنها قليلة الوجود وهي مطلوبة، ويقول العماد في الخريدة: " وجدت من كلام القاضي المرتضى أبي محمد الشهرزوري رسالة سلك بها مسلك الحقيقة، وسبق أهل الطريقة، مشحونة بأبيات في رقة السلسال والشمول " وكأنه لم ينظم في التصوف فحسب، بل كتب أيضاً، غير أن العماد لم يعن بأن يروي شيئاً مما كتبه، إنما عني بما جاء في الرسالة من رقائق الغزل الصوفي من مثل قوله:

وعاودتُ قلبي أسأل الصبرَ وقفةً عليها فلا قلبي وجدتُ ولا صَبْري

وغابتْ شموسُ الوصل عني وأظلمتْ مسالكهُ حتى تحيَّرْتُ في أمري

والبيتان طريفان، فقد وقف بالديار فضاع منه قلبه وعز صبره، وغربت شمس الوصل وأصبحت جميع المسالك حوله مظلمة، وهو حائر لا يهتدي ولا يجد من ينقذه. إنه محب مهجور قد حرم وصله وخطف منه أو أسر قلبه، ويقول:

يا لَيْلُ ما جئتكمُ زائراً	إلا وجدتُ الأرض تُطوى لي
ولا ثنيتُ العزم عن بابكم	إلا تعثرتُ بأذيالي

فهو دائماً على عتبات الباب لا يدخل ولا ينعم بوصل ولا لقاء، ويمل الوقوف والانتظار، ولكنه لا يستطيع الإياب، كأنما شيء يمسك بتلابيبه، فكلما حاول الانصراف وأعياه الانتظار ورغب في الرجوع تعثر في أذياله فتسمر في مكانه، ومن قوله:

شكوتُ إليه ما بقلبي من الجوَى	فقالتْ: وهل أبقى الفِراقُ له قَلْبَا
فقلت: فهل لي في وِصالكِ مطمعٌ	فقالتْ: إذا ما شَمْسُنا طلعتْ غَرْبا
فقلت: فهل من زورةٍ يَجْتني بها	ثمارَ المنى ظمآنُ قد مُنِع الشُّرْبا
فقالت إذا ما غاب عن كلِّ مشهدٍ	وخاضَ حِياضَ الموت واستسهلَ الصَّعْبا
وأصبحَ فينا حائراً ذا ضلالةٍ	يُواصلنا بُعْداً ونهجرُه قُرْبَا

وهي محاورة بديعة بينه وبني محبوبته رمز بها إلى حبه الرباني، فمن يحب الذات العليا يفقد قلبه ولا يصبح له مطمع حقيقي في وصال ولا في زورة يقتطف فيها ثمار المنى وينهل معها من الماء ما يطفئ ظمأه إلا إن غاب عن كل مشهد في الوجود واقتحم حياض الردى لا يبالي، وحتى إن فعل فسيصبح حيران ضالاً الطريق يواصل من بعيد ويهجر من قريب. ومن قوله يشكو آلامه وعذابه في حبه الإلهي.

بقلبي منهمُ حُرَقُ	لها الأحشاءُ تحترقُ
ولا وصْلٌ ولا هَجْرٌ	ولا نومٌ ولا أرَقُ
فليتهمُ وقد قطعوا	ولم يُبْقوا عليَّ بَقُوا

فأفنى في محبَّتهم ... وريحُ محبَّتي عَبِقُ
كمثل الشَّمْعِ يُمْتِع مَنْ ... ينادمه ويَمَّحِقُ

فأحشاؤه تحترق، ولا وصل ولا هجر، ولا يأس ولا طمع، ولا نوم ولا أرق، ولا صبر ولا جزع، وإنه ليكتوي بنيران هذا الحب مؤملاً- على طريقة الصوفيين- أن تنمحي حواسه وأحاسيسه، حتى يفنى فناء مطلقاً في الذات العلية، فناء ينعدم فيه وجوده البشري انعدامً تاماً، كما ينعدم الشمع المضيء، وينمحق انمحاقاً خالصاً.

الصَّرْصَرِيّ(١)

هو جمل الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري، نسبة إلى صرصر: قرية قريبة من بغداد، ولد سنة ٥٨٨ وحفظ القرآن واختلف إلى دروس العلماء والفقهاء والمحدثين، وكان حنبلياً، ويصفه ابن تغرى بردي في كتابه النجوم الزاهرة بالإمام الأديب الرباني، ويقول كان من العلماء الفضلاء الزهاد العباد، كانت له اليد الطولى في النظم وشعره في غاية الجودة، ويقول الصفدي عنه " صاحب المدائح النبوية السائرة في الآفاق، ولا أعلم شاعراً أكثر من مدائح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أشعر منه، وشعره طبقة عليا.. يدخل شعره في ثمان مجلدات وكله جيد " ويقول القطب اليونيني وابن تغري بردي: إن مدائحه في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تقارب عشرين مجلداً. ولا يزال الديوان غير منشور وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه. ويذكر الصفدي أن بين مدائحه النبوية قصيدة التزم في كل حرف منها ظاءً وثانية التزم في كل حرف منها ضاداً وثالثة التزم في كل حرف منها زايا، وبالمثل بقية الحروف الصعبة، وقصيدة كل بيت منها يشتمل على حروف المعجم أو بعبارة أخرى الحروف الهجائية يقول الصفدي وهذا دليل القدرة والإطلاع والتمكن.

والصرصري في المدائح النبوية يعرض السيرة النبوية لعطرة مع بيان معجزات الرسول عليه السلام وانتصاراته على أعدائه ويشيد بصحابته وخدماتهم للإسلام وفي مقدمتهم أبو

(١) انظر في ترجمة الصرصري ومدائحه النبوية ذيل مرآة الزمان للقطب اليونيني (طبع حيدر آباد) ١/ ٢٥٧-٣٣٢ ونكت الهميان للصفدي ص٣٠٨ والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٦ والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب والشذرات ٥/ ٢٨٤.

بكر وعمر وعثمان وعلي، وبنوه بزوجاته أمهات المؤمنين وفي مقدمتهم السيدة خديجة والسيدة عائشة والسيدة حفصة. وهو يتراءى في نبوياته سنياً حنبلياً حتى ليعرض في بعضها لمديح ابن حنبل وأتباعه، ويروى له ابن تغري بردي أبياتاً من همزية نبوية يقول فيها:

يا هلالَ السرور يا قمرَ الأُنْـ ـسِ ونجمَ الهدى وشمسَ البهاءِ

يا ربيعَ القلوب يا قرَّة العَيْـ ـنِ وبابَ الإحسان والنَّعْماءِ

وهو يصدر في القصيدة عن محبة للرسول عليه السلام شغفت قلبه، حتى ليراه كل جمال في الوجود فهو الهلال والقمر والنجم والشمس والربيع وقرة العيون ومسرة النفوس وباب الإحسان والعطاء وكل نعماء، ويروي له الصفدي قطعة طويلة من مدحة خائية يقول في تضاعيفها:

يا خاتمَ الرُّسُل الكرامِ وفاتحَ الـ ـخيراتِ يا مُتواضعا شَمَّاخا

يا مَنْ رَستْ وسمتْ قواعدُ دينِهِ وبه هَوَى أسُّ الضلال وسَاخا

يا خيرَ مَنْ شَدَّ الرِّحالَ لقصدِهِ حادي المطيِّ وفي هواه أناخا

عَطْفاً على عَبْدٍ تعلَّق حُبَّكم طفلاً وفي صدقِ المحبَّة شاخا

وهو يكثر من المناجاة للرسول عليه السلام مستعطفاً ومتشفعاً به، ويبدو من القطعة الطويلة من أشعاره التي رواها القطب اليونيني أنه كان يصدر أحياناً عن نظرية الحقيقة المحمدية المعروفة، إذ ذهب إلى أزلية وجود الرسول وأنه مبدأ الوجود ومركزه. وليس في يدنا الديوان لنحكم على الصرصري حكماً دقيقاً في هذا الجانب غير أن هناك بعض إشعاعات من الفكرة نلتقي بها عند اليونيني مثل قول الصرصري عن الرسول:

هو سابقُ الأعيانِ إذ كُتِبَ اسْمُهُ بالعَرْشِ ثم استُودعَ الألواحا

فإذا كان قد أراد بسبقه الأعيان أن نوره يسبق الموجودات جميعاً من قبل أن تخلق أو تخرج إلى الوجود فإنه يكون مستمداً حينئذ من نظرية الحقيقة المحمدية، وبالمثل ما نجد

عنده من الحديث عن قدم نور الرسول عليه السلام، وأنه تنقل في صلب آدم والأنبياء من بعده، إذ يقول:

حَلَلْتَ صُلْبَ أبينا عند مَهْبطِهِ   وصُلْبَ نوحٍ وقد غَشَّى الوَرَى الزَّبَدُ[1]

وكنتَ في صلبِ إبراهيمَ مستترا   ونارُ نُمَرْودَ أشقى الخلقِ تتَّقِدُ[2]

وحاز نوركَ إسماعيلُ يُودِعهُ   أبناءَهُ الغُرَّ حتى حازه أُدَدُ[3]

ويمضي الصرصري فيذكر أن عدنان نال بهذا النور المنزلة الرفيعة، ومازال النور يتنقل حتى انعقد به على رأس هاشم إكليل فخر لا يشبهه إكليل. واتصل النور بعبد المطلب وابنه عبد الله، ولم تلبث أضواء النور أن انبثقت في المشارق والمغارب..

وكانت وفاة الصرصري سنة ٦٥٦ دخل عليه التتار في اكتساحهم لبغدد، وكان ضريراً فطعن بعكازه بطن واحد منهم فقتله، وقُتل شهيداً.

(١) غشى الورى الزبد: يشير إلى الطوفان المشهور زمن نوح عليه السلام.

(٢) النمرود: الملك الوثني الذي ألقى بإبراهيم الخليل في النار فكانت عليه برداً وسلاماً.

(٣) أدد: أبو قبيلة عربية، رمز به إلى العرب.

٤

شعراء الفلسفة والشعر التعليمي

يكثر الشعر على ألسنة المتفلسفة منذ الكندي، وفي الكتب الخاصة بتراجمهم من ذلك أسراب غير قليلة، وكثيراً ما كانوا ينظمون بعض معارفهم الفلسفية أو الطبية. وتلقانا في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة بعض وصايا طبية طريفة [١]، وكثيراً ما كانوا يعرضون للنفس والجسم والعلاقة بينهما في الحياة وبعد المات، على شاكلة ما أنشده أبو النفيس [٢] أحد متفلسفة القرن الرابع الهجري:

في النس والجسم إنْ فكرتَ معتبَرُ ... بل دون ذلك ضلَّ الرأيُ والفِكَرُ

وحار كلُّ لَبيبٍ في اتحادهما ... وتلك عَيْنٌ وهذا حكمةُ الأثَرُ

يا ليتَ شعري إذا الأبدانُ أضْمرها ... يَدُ البِلَى وحَواها التُّرْبُ والمدَرُ

هل للنفوس التفاتٌ نحو عالمها ... كما تلفَّتَ نحوَ المركزِ الحجَرُ

ليحصل الفوزُ في دار الخلود لها ... وتَنْتَفِي دونها الآفات والغِيَرُ

أم تضمحلُّ كما قد بان هَيْكَلُها ... ولا يُحَسُّ لها وِرْدٌ ولا صَدَرُ

هذا الذي صَدِئَتْ منه خواطِرُنا ... وليس يجلو صَدَاها العِلْم والخبَرُ

والأبيات تعرض مشكلة خلود النفس بعد الموت، فهل تفنى كما يفنى الجسد، أو تنفصل عنه إلى عالمها: عالم الخلود، وهي مشكلة حارت فيها من قديم العقول، فهذا الجسم مادي محسوس يفنى بموت صاحبه، وهذه لا تحس ولا ترى إلا بأثرها وبث الحياة في الجسم، حتى إذا فارقته انتقل إلى عالم العدم والفناء، فهل يكون مصيرها نفس مصيره، أو أنها تحيا حياة جديدة خالدة في الملأ الأعلى. إنها مشكلة محيرة في رأي أبي النفيس يطبق

---

(١) ابن أبي أصيبعة ص٣٩٠.

(٢) صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي السجستاني (بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ـ طبع طهرا) ص٣٥٩.

عليها ظلام غامر لا يرفعه علم ولا خبرة، والأبيات تمضي فتجعل علم الحقيقة بذلك للواحد الأحد. وإذا تصفحنا كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وجدنا به متفلسفين عراقيين كثيرين يجيدون نظم الشعر، مثل ابن التلميذ (١) المتوفى سنة ٥٦٠ ومن شعره في ابنه سعيد:

حُبِّي سعيداً جوهرٌ ثابتٌ ... وحبُّه لي عَرَضٌ زائِلُ
بهِ جِهاتي السِّتُّ مشغولةٌ ... وهْو إلى غيري بها مائلُ

والجهات الست هي اليمين واليسار والأمام والخلف والأعلى والأسفل، يريد أنه مشغول بابنه بكل كيانه وكل عواطفه ومشاعره، وقد جعل حبه له جوهراً ثابتاً بينما حب سعيد ابنه له عرض زائل، ومن قوله:

كانتْ بُلَهْنِيَةُ الشَّبيبة سكرةً ... فصحوتُ واستأنفتُ سيرةَ مُجْمِلِ
وقعدتُ أرتقبُ الفناءَ كراكبٍ ... عَرف المحلَّ فبات دون المنزلِ

والصورة في البيتين بديعة، فقد صحا من سكرة الشباب واستأنف سيرة معتدل فاضل، وقعد ينتظر دوره ومماته، وكأنما هو راكب يعرف منزله ويبيت دونه بقليل، ولابد من الوصول. وكان ابن التلميذ يكثر من الشعر ومثله البديع الإصطرلابي وهبة الله بن الفضل ومحمد بن المجلي المعروف بالعنتري وابن هُبَل.

ومر بنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن كثيرين من شعراء بغداد عنوا باستحداث نمط شعري جديد هو الشعر التعليمي، في مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذي ترجم كليلة ودمنة شعراً ونظم قصائد طويلة في الفقه والمنطق والتاريخ ومبدأ الخلق. ويستمر هذا النمط الجديد في العصر العباسي الثاني على لسان ابن الجهم وابن المعتز وابن دريد، حتى إذا كنا في هذا العصر اتسعت موجته وشملت جميع أنواع المعارف والعلوم. ومر بن في ترجمة ابن السراج أنه نظم أربعة كتب فقهية. ويذكر ابن الجزرى في كتابه طبقات

---

(١) انظر في ابن التلميذ وشعره معجم الأدباء ١٩/ ٢٧٦ وابن أبي أصيبعة ص٣٤٩ وابن خلكان ٦/ ٦٩.

القـراء أن أبـا الخطـاب بـن الجـراح عـلي بـن عبـد الـرحمن المتـوفى سـنة ٤٩٧ نظـم كتابـاً في القـراءات (١)، ونظـم الحريـري صـاحب المقامـات ملحـة الإعـراب في النحـو وأبوابـه وقواعـده وهـي مطبوعـة. ونظـم ابـن أبي الحديـد فـصيح ثعلـب وهـو مطبـوع، ونظـم فخـر الـدين بـن الفـصيح مـدرس العربيـة في المستنـصرية المتـوفى سـنة ٧٥٥ كتـاب الكنـز في الفقـه والـسراجية في الفرائض وقـصيدة طويلـة في القـراءات (٢)، وهـو بـاب يطـول ويتـسع إن نحـن حاولنـا حـصر مـا نُظم مـن العلـوم والمعـارف عـلى حـر الحقـب لهـذا العـصر، ونقـف قلـيلاً عنـد شـاعر متفلـسف وشاعر تعليمي، وهما على الترتيب ابن الشبل البغدادي وابن الهبارية.

ابن الشِّبْل البغدادي (٣)

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بـن يوسـف بـن أحمـد بـن الـشبل، مولـده ومنـشأه ببغـداد وبهـا تـوفي سـنة ٤٧٤ ومـن المؤكـد أنـه اختلـف إلى مجـالس المتفلـسفين في زمنـه، مـن أمثـال يحيـى بـن عدي، وأخذ عنهم كـل مـا كـانوا يعرفونـه مـن فلـسفة وطـب وفلـك وتنجـيم، ويقـول يـاقوت: "كـان متميـزاً بالحكمـة والفلـسفة خبـيراً بـصناعة الطـب أديبـاً فاضـلاً وشـاعراً مجيـداً.. وهـو صاحب القصيدة الرائية التـي نـسبت إلى الـشيخ الـرئيس ابـن سـينا وليـست لـه، وقـد دلـت عـلى علـو كعبـه في الحكمـة والإطـلاع عـلى مكنوناتهـا وقـد سـارت بهـا الركبـان، وتـداولتها الـرواة" وهو يستهلها بقوله:

بِربِّك أيها الفلكُ المُدَارُ ... أَقَصْدٌ ذا المسيرُ أم اضطرارُ

مدارُك قُلْ لنا في أيِّ شَيءٍ ... ففي أفْهامِنا منك انْبِهارُ

وفيك نَرى الفضاءَ وهل فضاءٌ ... سوى هذا الفضاء بِهِ تُدَارُ

---

(١) غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٥٤٨.

(٢) النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٧٧ والعزاوي ١/ ٣٢٧.

(٣) انظر في ترجمة ابن الشبل وشعره الدمية ١/ ٣٥٢ ومعجـم الأدبـاء ١٠/ ٢٣ وابـن أبي أصـيبعة ٣٣٣. وفـوات الوفيـات ٢/ ٣٩٣ وسماه محمد بن الحسن بن عبد الله ابن الـشبلي وذكـر أن وفاتـه كانـت في سـنة ٤٧٣ وراجـع الـوافي بالوفيـات ٣/ ١١.

وعندك تُرْفَعُ الأرواحُ أم هل | مع الأجساد يُدْرِكها البَوارُ
وموجٌ ذي المجرَّةُ أم فِرِنْدٌ | على لُجَجِ الدروع له مَدارُ
وَطوْقٌ للنجوم إذا تبدَّى | هلالُكَ أم يَدٌ فيها سِوارُ
وأفلاذٌ نجومُك أم حَبابٌ | تؤلِّف بينه لُجَجٌ غِزَارُ
وتُنْشَرُ في الفضَا ليلاً وتُطْوَى | نهاراً مثلما يُطْوَى الإزارُ

ومعروف أن من الفلاسفة من كانوا يذهبون إلى أن العالم يديره الفلك دورة مقصودة له، وكان هناك من يذهبون إلى أن للكواكب تأثيراً بعيداً في حياة الناس وكل أحوال العالم. وواضح أن ابن الشبل يصور حيرة لا قرار لها حول الملك وحركته، فهل هي اضطرارية من قبل الذات العلية أو هي اختيارية، ويتساءل في أي شيء مداره وحركته. وهل ترفع الأرواح إلى عالمه العلوي أو تفنى مع الأجساد في العالم السفلي، وهذه المجرة التي تتدفق ليلاً في السماء بالنور هل هي موج من الأضواء كموج البحر أو هي أثر تموجات ضوئية تلمح كما يلمح تموج الضوء في صفحة الفرند أو السيف، وهل الهلال طوق معلق للنجوم أو سوار يلمع في يد على صفحة السماء، والنجوم هل هي أفلاذ وأرواح أو هي حباب طافٍ على سطح السماء كحباب الماء، إنها تنشر ليلاً وتطوى نهاراً. فما أعظم ذلك من لغز كبير، بل ألغاز كبيرة، يقف الإنسان إزاءها مبهوتاً يتملكه الدهش وتتملكه الحيرة، حيرة يضل بين لججها ولا يمكنه أن يرسو على شاطئ، لأن أحداً لا يملك الجواب ولا يعرفه، ويمضي ابن الشبل في عرض هذه الألغاز:

ودهرٌ ينثرُ الأعمارَ نَثْراً | كما للوردِ في الروضِ انتثارُ
ودنيا كلما وضعتْ جَنيناً | غَذَتْهُ من نوائبها ظُؤارُ [١]
هي العَشْواءُ ما خَبطتْ هَشيمٌ | هي العَجْماءُ ما جَرحت جُبَارُ [٢]

---

(١) ظؤار: المرجعة لابن غيرها.

(٢) جبار: هدر لا قصاص فيه ولا غرم.

فمن يومٍ بلا أمسٍ ويومٍ   بغير غدٍ إليه بنا يُسارُ

فهذا الدهر. يسقط الأعمار كما تسقط الورود في الروض وتذبل وتفارقها النضرة والحياة، وهذه الدنيا كلما وضعت جنيناً لم ترضعه، بل تركته لظؤار أو مرضعة ترضعه النوائب والخطوب، وما الدنيا؟ إنها عشواء لا تبصر، وكل ما تخبطه من الأنفس يصبح هشيماً، إنها لعجماء خرساء كل ما تجرحه يهدر ولا يصلح أبداً، وما الحياة في رأي ابن الشبل إلا يوم بدون أمس يسبقه ويوم بدون غد يلحقه، إنها مأساة كبرى، سببها ذنب آدم وعصيانه ربه وأكله من الشجرة، فأخرج من الفردوس ثم أهبط إلى الأرض، ويصور ذلك ابن الشبل قائلاً:

لقد بلغَ العدوُّ بنا مُناهُ   وحَلَّ بآدمٍ وبنا الصَغارُ (١)

فيالكِ أكلةً مازال منها   علينا نقمةٌ وعليه عارُ

نُعاقَبُ في الظهور وما وُلدنا   ويُذْبَحُ في حَشَا الأمِّ الحُوارُ (٢)

ونخرجُ كارهين ما دَخلْنا   خروجَ الضَّبِّ أخرجه الوِجارُ (٣)

وكان وجودُنا خيراً لو أنَّا   نُخَيَّرُ قبله أو نستشارُ

أهذا الداءُ ليس له دواءٌ   وهذا الكَسْرُ ليس له انجبارُ

وهو يقصد بالعدو إبليس وأنه بلغ في بني الإنسان كل مناه من الغواية والضلال فحل بآدم وبهم الهوان والصغار، فيالها أكلة إثم ويا له ذنب جرم!. ويعود ابن الشبل إلى أساه وحزنه على أبناء جنسه، فقد يعاقبون وهم أجنة في أحشاء أمهاتهم فيموتون، ومن يولد وتمتد به الحياة يخرج منها كرهاً خروج الضب من جحره. وهكذا نجيء ونخرج دون اختيار، وإن هذه الحياة كلها بأسرارها وألغازها لداء يعز دواؤه، وهذا الموت إنه لكسر لا

---

(١) الصغار: الذل والهوان.

(٢) الحوار: ولد الناقة لحظة وضعه ويريد الجنين.

(٣) الوجار: جحر الضب وغيره. والضب: من جنس الزواحف، يكثر في صحراء الجزيرة العربية.

يمكن انجباره. ويمضي فيتحدث عن انقضاء الحياة الدنيا وتحطمها كما يصور ذلك القرآن الكريم إذ تتكور الشمس وتتناثر الكواكب وتنفطر السموات وتذهل كل مرضعة عن ابنها وتسير الجبال وتسجر البحار، ويقول إن في ذلك كله لعبرة وعظمة لأولى الألباب. وله مرثية بديعة في أخيه أحمد يقول في تضاعيفها:

يا أخي عاد بعدك الماءُ سُمًّا — وسَموماً ذاك النسيمُ الرُّخاءُ

كيف أرجو شفاءَ ما بي وما بي — دون سُكْناي في ثَراك شِفاءُ

شَطْرَ نفسي دفنتُ والشَّطْرُ باقٍ — يتمنَّى ومن مُناه الفَنَاءُ

إن تكن قَدَّمْته أيدي المنايا — فإلى السابقين تَمْضِي البِطاءُ

إنما الناس قادمٌ إثْرَ ماضٍ — بَدْءُ قومٍ للآخَرِين انتهَاءُ

والمرثية كلها بكاء وأنين، وتفكير في الموت، موت الأحباب واندلاع الحزن بعدهم والبكاء، مع ما يخلفون من غصص تعترض بالشجى في الحلوق. ويقول إنما نحن بين ظفر وناب من خطوب كأنها سباع ضارية، ويأسى للإنسان وغدر الدنيا به واستردادها في المساء ما وهبته في الصباح، وكأن الإنسان يعيش في حلم أو كأنما يعيش بدون عقل، فليست تعقل الدنيا إزاء هذا الفساد الذي يعم كل شيء في الكون من أحياء وغير أحياء. وفي الحق أن الفلسفة عمقت تفكيره، وقد جمع إليها شاعرية خصبة وحساً دقيقاً مرهفاً.

ابن الهَبَّارِيَّة[١]

هو أبو يَعْلَى محمد بن محمد بن صالح بن الهبارية العباسي، نسب إلى هبار جده لأمه، ولد ونشأ ببغداد، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وكان خبيث اللسان، فلم يكد يسلم من هجائه أحد، وفيه يقول العماد الأصبهاني: " من شعراء نظام الملك (وزير ألب أرسلان وابنه ملكشاه) غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف، وسبك في قالب ابن الحجاج

(١) انظر في ترجمة ابن الهبارية وأشعاره كتاب خريدة القصر (قسم العراق) ٢/ ٧٠ وابن خلكان ٤/ ٤٥٣ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢١٠ والوافي ١/ ١٣٠ ولسان الميزان ٥/ ٣٦٧ والشذرات ٤/ ٢٤.

وسلك أسلوبه وفاقه في الخلاعة والمجون، والنظيف من شعره في نهاية الحسن " ويقول ابن تغرى بردي: "كان فيه إقدام بالهجو على أرباب المناصب"، ومرت بنا في حديثنا عن الهجاء في الفصل السابق إشارة إلى قصيدة له في هجاء أرباب الدولة في عهد ملكشاه السلجوقي. وحتى راعيه نظام الملك لم يسلم من لسانه، ويقال إنه حين سمع هجاءه له أمر بأن يصرف رسمه أو راتبه مضاعفاً، وعدت تلك منة من نظام الملك دالة على مكارم أخلاقه وسعة حلمه. وأشعاره مليئة بالهجو إلى حد الإقذاع، حتى ليهجو الإنسانية جميعاً قائلاً:

خُذْ جملةَ البَلْوَى ودعْ تفصيلَها ... ما في البريَّة كلِّها إنسانُ

وجعلته صلته بنظام الملك يقيم بجواره مدة طويلة في أصبهان عاصمة ألب أرسلان وملكشاه، ويبدو أن مقامه لم يستمر بها طويلاً بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٥، ولم يعد إلى بغداد، بل اتجه إلى كرمان وأقام بها إلى أن توفي سنة ٥٠٤.

ولسنا نريد الحديث عن ابن الهبارية وهجائه ومديحه، وإنما نريد الحديث عن شعره التعليمي فقد نهض بعملين كبيرين فيه: أولهما نظمه لقصص كليلة ودمنة، وقد سماه " نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمن " وهو على غرار نظم أبان من وزن الرجز المزدوج، فكل بيت فيه يتفق شطراهما في قافية واحدة. وفي فواتحه ما يدل على أنه نظمه في كرمان، وقد نوه بنظم أبان للقصص، وأبان يتفوق عليه في جودة شعره وإن كان عمله سقط من يد الزمن إلا ما رواه منه الصولي في ترجمته له بكتابة الأوراق، ونتائج الفطنة مطبوع في بومباي من قديم.

والعمل الثاني من شعره التعليمي ديوان الصادح والباغم، والصاد: رافع صوته بالطرق والباغم خافض الصوت في لين، والديوان أراجيز قصصية مزدوجة: أو قل كثرته قصص ثم يليها وعظ خلقي وحكم متعاقبة. وقد طبع الديوان في القاهرة وبيروت ولكنو في الهند. وهو يستهله بالحمد لله والصلاة على رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويقول:

هذا كتابٌ فيه علمٌ وأدبْ ... يفوق أنواع القريض والخُطَبْ

عملتهُ لسيِّد الملوكِ ومومئل الملهوف والصُّعْلوكِ

فجاء مثل الذهب المسبوكِ سلكتُ نَهْجا ليس بالمسلوك

وضعتُه مخترعاً معناهُ لملكٍ ما خاب مَنْ رجاه

ويصرح باسم الملك وهو صدقة بن منصور الأسدي صاحب الحلة المتوفى سنة ٥٠١ وقد مضى يمدحه طويلاً، حتى إذا تم الديوان سيره إلهي من كرمان مع ولده فأجزل صلته وأسنى جائزته. ويمضي ابن الهبارية في الديوان بعد تقديمه لصدقة ومديحه فيذكر مناظرة بين هندي وفارسي استمع إليها في أحد أسفاره، وفيها يفتخر كل منهما لوطنه، أما الهندي فافتخر باختراع بلاده للشطرنج ووضعها لكليلة ودمنة، وأما الفارسي فافتخر باختراع بلاده للنرد. وتتوالى القصص، وقليل منها الذي يشبه كليلة ودمنة في جريانه على ألسنة الحيوانات والطير. ونقرأ قصة الناسك واللص الفاتك، والبعير والجمال والتاجر، وامرأة الراعي، وامرأة التاجر، والذئب والغزالة، إلى غير ذلك من قصص تعليمية أراد بها ابن الهبارية العظة والعبرة. غير أن هذا الصوت القصصي في الديوان لا يلبث أن ينقطع، ويحل محله صوت آخر، ليس فيه شيء من القصص، إذ يتحول ابن الهبارية مربياً يقدم النصائح في السياسة ومعاملة الناس وفي الزهد وعلو الهمة والنهي عن الظلم والأمر بالعدل، وكأن ابن الهبارية نفسه فقد إيمانه بعمله القصصي الأدبي، ولعل ذلك ما جعل الأدباء بعده ينصرفون عن مجاراته في هذا العمل الفني، وكان حرياً أن تأخذ القصص مجرى كبيراً في الشعر العربي، غير أن النموذج الذي وضعه ابن الهبارية كان من الضعف– في رأيي– بحيث لم يمهد تمهيداً حسناً لهذا الاتجاه الكبير، ونراه يختم الديوان بقوله:

هذا كتابٌ حَسَنٌ تحار فيه الفِطَنُ

أنفقتُ فيه مُدَّه عشرَ سنين عِدَّه

بيوتُه ألفانِ جميعها معاني

ولعل ابن الهبارية بالغ في قصة السنوات العشر، ومع ذلك كله لابد أن نبقي له على شيء من الإحسان، فقد كانت ملكته الشعرية خصبة، وساق له العماد وابن خلكان كثيراً من الأشعار البديعة، وحقاً ليست من الأشعار التعليمية، ولكنها تدل على براعته الشعرية.

٥

شعراء شعبيون

قد يظن من هذا العنوان أن من شعراء العصر من كانوا شعبيين ومن كانوا غير شعبيين، والحق أن صفة الشعبية هذه تشمل كل فنون الشعر وكثرة الشعراء، أما فنون الشعر فإنها جميعاً كانت تصور حياة الشعب، فالمديح يصور انتصاراته ويصور مطامحه في الحاكم العادل، ويصور الهجاء الأخلاق الذميمة التي يرى الشعب تنحيتها عن المجتمع وأفراده، وشعر الغزل كان يصور في كثير من جوانبه العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة، بينما شعر الزهد كان يصور من بعض جوانبه حياة الشظف والحرمان، وحتى شعر اللهو كان يصور أيضاً من بعض جوانبه قصف الشعب في أعياده.

فليس هناك انفصال بين فنون الشعر العربي والشعب، وكذلك ليس هناك انفصال بين الشعراء والشعب، فقد كان جمهورهم من طبقاته الدنيا، وكانوا يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها، ويصدرون عنها في أشعارهم. ولابد أن نلاحظ أنه كانت هناك عوامل مهمة عملت على وصل الشعر العربي بشعوبه في بغداد وغير بغداد وفي مقدمتها أن الثقافة كانت عامة، وكانت حقاً للجميع، إذ كانت تلقى في المساجد يومياً، يلقيها كبار العلماء، والناس يتحلقون من حولهم، وكل يجد ما يريد من لغة ونحو ومن فقه ومن قراءات ومن حديث نبوي ومن دروس أدبية يروى فيها الشعر ويعرض العلماء لما فيه من فنون البلاغة والنقد.

لم تكن هناك حواجز ولا أسوار تفصل بين أي فرد من أفراد الشعب وبين الغذاء بكل ما يريد من ألوان الثقافات شعراً وغير شعر. وقد أتاح ذلك لكثيرين في مراحل متأخرة من حياتهم أن يصبحوا علماء في هذا الفن أو ذاك. ولم يبن يشترط فيمن يحضر حلقات العلماء والأدباء أي شرط، ولذلك كان يحضرها كثير من الأميين، وأتاح ذلك لنفر منهم أن يصبحوا شعراء. ومن يرجع إلى كتب التراجم يصادفه من حين إلى آخر شاعر أمي أو شاعر من أصحاب الحرف والصناعات، نذكر منه الخباز الموصلي، وله ترجمة في كتاب

اليتيمية [1] للثعالبي، وفيه يقول: " من عجيب شأنه أنه كان أمياً، وشعره كله ملح وتحف وغرر وطرف"، وانتظامه في اليتيمية يدل على أنه كان من شعراء القرن الرابع للهجرة، وقد أشار إلى أميته في بعض شعره قائلاً لبعض خصومه:

بالغتَ في شَتْمي وفي ذَمِّي   وما خشيتَ الشاعرَ الأمّي
جرَّبتَ في نفسك سُمّاً فما   أحمدتَ تجْرِيبَكَ للسُّمِّ

وكان يحفظ القرآن الكريم، فاقتبس من آياته مراراً وتكراراً، وكأنما جعل ذلك خاصة فنية له تميزه من نظرائه، كقوله متغزلاً:

كأنَّ يميني حين حاولْتُ بَسْطَها   لتوديع إلفي والهوى يذْرِف الدَّمْعا
يمينُ ابن عمرانٍ وقد حالتِ العَصَا   وقد جُعلتْ تلك العَصَا حيَّةً تَسْعَى
وقائلةٍ هل تملكُ الصبرَ بعدهم   فقلت لها: لا (والذي أخرجَ المَرْعَى)

وهو في البيت الثاني يقتبس قوله تعالى في سورة طه عن عصا موسى بن عمران عليه السلام حين ألقاها فحالت أو تحولت: (فإذا هي حيةٌ تَسْعى) واقتبس في البيت الثالث آية سورة الأعلى: (والذي أخرج المرعى). ويقوال الثعالبي إنه " كان يتشبع ويتمثل في شعره بما يدل على مذهبه " وينشد طائفة من أشعاره الشيعية. ويلقانا في الخريدة شاعر أمي ثان هو نباته [2] الأعور الإبري، وكان هجاء خبيث اللسان شغوفاً بهجو أحد العلويين وفيه يقول:

شريفٌ أصلُه أصلٌ حميدٌ   ولكنْ فعلهُ غيرُ الحميدِ
ولم يخْلُقْه ربُّ العَرْش إلا   لتنعطفَ القلوبُ على يزيد

وهو يريد يزيد بن معاوية عدو العلويين والشيعة. ويلقانا كثيرون من أصحاب الحرف يشغفون بالشعر ويصادف فيهم ملكات خصبة فيصبحون من شعراءه النابهين مثل السري

---

(١) انظر ترجمة الخباز البلدي وأشعاره في اليتيمة ٢/ ٢٠٨ وقد حقق شعره ونشره ببغداد صبيح رديف.

(٢) راجع ترجمة نباتة الأعور وأشعاره في الخريدة (قسم الشام) ٢/ ٣٠٦.

الرفاء الذي تقدمت ترجمته في الفصل الماضي، ومثل الزاهي أبي القاسم علي بن إسحق بن خلف البغدادي وكان قطاناً وكانت دكانه في قطيعة الربيع، وقد عرضنا له بين شعراء التشيع في الفصل الماضي، وأنشد له ابن خلكان البيتين التاليين المعروفين في كتب البلاغة وفيهما يصف البنفسج [١]:

ولا زَوَرْدِيَّةٍ تَزْهو بِزُرْقَتِها ... بين الرياض على زُرْق اليواقيتِ

كأنها فوق قاماتٍ ضَعُفْن بها ... أوائل النار في أطراف كِبْريتِ

وقرن البنفسج الذي ترف أوراقه الرطبة ويترقرق الماء في غصنه بلهب نار في أعواد كبريت جافة يدل على قدرة خيالية بديعة. ومما أنشده له ابن خلكان قوله:

وبيضٍ بألحاظ العيون كأنما ... هَزَزْنَ سيوفاً واسْتَلَلْنَ خناجرا

سَفَرْنَ بدوراً وانْتَقَبْنَ أهلَّةً ... ومِسْنَ غصونا والتَفَتْنَ جَآذِرا [٢]

وأطلعْنَ في الأجياد بالدرِّ أنجماً ... جُعِلنَ لحبَّات القلوب ضَرائرا

والتقسيم في البيت الثاني بديع فقد جعلهن حين سفرن عن وجوههن بدوراً وحين انتقبن وظهرت جباههن أهلة، وحين تبخترن غصوناً وحين التفتن جآذر، وبذلك ومثله عد شاعراً مبدعاً. ولا ريب في أن مشاركة ذوى الحرف والأميين في شعر العصر دليل قوي على صلته بالشعب، فأبناؤه جميعاً يشاركون فيه حتى الأميون الذين لا يقرءون ولا يكتبون.

ولم تقف مشاركة العامة في الشعر عند هذا الحد، فقد أخذ يظهر بينهم شعراء لا ينظمون شعراً فصيحاً، وإنما ينظمون شعراً ملحوناً بلغتهم العامية، وأخذ ذلك يظهر بوضوح منذ القرن السادس الهجري، وخير كتاب يصور هذا الجانب كتاب العاطل الحالي والمرخص الغالي لصفي الدين الحلي، وفيه يتحدث صفي الدين بالتفصيل عن الفنون

---

(١) ابن خلكان ٣/ ٣٧٢.

(٢) سفرن: كشفن عن وجوههن، انتقبن: لبسن النقاب، مسن: تبخترن، الجآذر جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية.

العامية، المواليا والزجل والقوما والكان وكان، ويقول إن الثلاثة الأخيرة ملحونة أبداً، أما المواليا فقد تكون معربة وقد تكون ملحونة، ويقول إن أول من اخترعها أهل واسط اقتطعوها من بحر البسيط وجعلوها معربة مثله، ومعروف أن وزنها " مستفعلن فاعلن مستفعلن فَعْلُنْ " وهي أربعة شطور بقافية واحدة، ويقول صفي الدين إن أهل واسط تغزلوا بها ومدحوا وهجوا، والجميع معرب، إلى أن وصل إلى البغاددة فلطفوه ولحنوه وسلكوا فيه غاية لا تدرك، ويذكر من أمثلة المواليا المعربة قول الخباز البغدادي في مديح الصاحب بن الدباهي (أحد متولي الخراج فيما يبدو):

بِكم قُرى نَهْرِ عِيسى أصبحتْ كالمُدْن   أيْ باذلين القِرَى أي عاقرين البُدْنْ (١)

ولو تشاءوا بأطراف الرماح اللَّدَنْ   صَيَّرتُمُ الأُسْد تحرثْ في مكان الفُدْنْ (٢)

ومع أن صفي الدين يعد هذه المواليا من الجزل المعرب إلا أنها لم تخل من اللحن كما هو واضح في جزم الفعلين المضارعين " تشاءوا وتحرث". ويتحدث صفي الدين بالتفصيل عن الزجل وظهوره في الأندلس وكبار أعلامه ويطيل في بيان ما يدخله من اللحن عادة أو ضرورة، ويقول لأهل بغداد خاصة أزجال رقيقة بألفاظ لطيفة على اصطلاح لغتهم وجاري ألسنتهم على قاعدة اللحن المختص بهم، ويذكر طائفة من زجالي بغداد على رأسهم علي بن المراغي، ويذكر مطلع زجل له على هذا النمط:

لما أسرتم فؤادي   أطلقتُ دمعي المَصُونْ

وصرتُ فيكم أغالي   جُهْدي ولي تُرْخصونْ

وواضح أن المطلع غير ملحون. والفن العمي الثالث الذي تحدث عنه صفي الدين فن الكان وكان، وهو يتكون من أدوار كل دور أربعة شطور، وتشترك شطور المنظمة الثانية والرابعة بكل دور في قافية واحدة مردفة قبل حرف الروى بأحد حروف العلة ودائماً الشطر الأول في كل بيت أطول من الثاني. اخترعه البغداديون كما يقول صفي الدين ثم

---

(١) أي: يا ، القرى: الضيافة ، البدن: النوق والبقر التي تذبح قرباناً أو للضيوف.

(٢) اللدن: اللينة: كناية عن حدة قطعها ، الفدن: الثيران.

تداوله الناس في البلاد. ويذكر أنه سمي بذلك لأن البغداديين أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه سوى الكايات والخرافات، فكان قائله يحكي ما كان وكان. واتسع طريق النظم فيه على يد كبار الوعاظ من أمثال ابن الجوزي في أواخر القرن السادس وشمس الدين محمد بن أبي بكر بن رشيد صاحب القصائد الوترية وشمس الدين محمد بن أحمد الكوفي في القرن السابع. ويقول صفي الدين إنهم نظموا فيه المواعظ والرقائق والزهديات والأمثال والحكم فتداولها الناس وصارت حتى عصره تستحضر في المذاكرات ويذاكر بها في المحاضرات، وينشد من الكان وكان غزلي موجهة في الطيور، وفي تضاعيفها:

طَيْري الذي كانْ إلْفي لو	رِدْت مِثْلو ما حَصَلْ
وهوُ عليَّ معوَّدْ	وأنا عليه معتادْ
إذا قلعْ من عندي فما	تزال عيني مَعُو
واعْرِفْ مطارو وأَقْعُد	في البُرْج بالمرصادْ

والمنظومة طويلة والشاعر يتخذ لغزله رمزاً: طيراً نصب له شبكاً فصاده وفرح واتخذه إلفاً له. ويمضي فيصور كيف أن طيره أو طائره إذا حط في برج لغيره لا يزال يرقبه، ومع أنه يعرف من ينزل عندهم كما يعرف جميع رفاقه يسامحه، وحين يأتيه يرضى عنه وينسى خصاله، ويقول إن الماضي: ماضي الناس جميعاً لا يعود. وربما شرد منه أسبوعاً بطوله، ثم أتاه ليلة الجمعة فاستقبله خير استقبال. والمنظمة طريفة كما هو واضح.

والفن العامي الرابع القوما، ويقول صفي الدين إن له وزنين: وزناً مثل الرباعية يتكون من أربعة شطور، يتحد أولها وثانيها ورابعها في القافية ويختلف الثالث، ومعروف أن هذا الوزن يخرج من بحر البسيط، وأن الشطر فيه إما مستفعلن فعلن وإما مستفعلن فاعلن. أما الوزن الثاني فيقول صفي الدين إن الدور فيه يتكون من ثلاثة شطور أو كما يسميها ثلاثة أقفال مختلفة الوزن تفقة القافية، والشطر الأول أقصر من الثاني، والثاني أقصر من الثالث، ويذكر أن البغداديين اخترعوه في دولة العباسيين برسم السحور في شهر رمضان واشتقاق اسمه من قول المسحرين في آخر كل دور منه: " قوما للسحور " ينبهون بذلك رب المنزل

ويمدحونه ويدعون لـه، فـأطلق عليـه اسـم " قومـا " وصـار علـماً لـه. ويـذكر صـفي الـدين إنـه قيـل إن أول مـن اخترعـه ابـن نقطـة برسـم الخليفـة النـاصر (٥٧٥-٦٢٢هـ) ويعـود فيقـول: الصحيح أنـه اخـترع مـن قبلـه وكـان النـاصر يطـرب لـه وجعـل لابـن نقطـة رسـماً في كـل سـنة وحدث أن توفي وكان لـه ابـن يحسن القومـا، فأخـذ أتبـاع والـده في أول ليلـة مـن ليـالي رمـضان وتغنى على مسمع من الناصر:

يا سيد الساداتْ	لَكْ بالكرمْ عاداتْ
أنا بُنيّ ابْن نُقْطَهْ	وأبى تعيش أنت ماتْ

فأعجب الخليفـة منه هـذا الاختـصار واستحـضره وخلـع عليـه وفـرض لـه ضـعفي مـا كـان لأبيـه. والقومـا هنـا مـن الـوزن الأول الـذي ذكـره صـفي الـدين، وقـد ذكـر منـه منظومـات تحتوي أكثر من عشرين دوراً. ومثل للنوع الثاني من القوما بقوله:

داوى عُضالَكْ [1] بَعْدنا واتْرُكْ نضالَك	بالرَّغم كانْ تركَكْ لنا لا بالرِّضا لَكْ
دام العَنا لَكْ إِشْ تُرى في العشق نالَكْ	ما نال أحدْ من بَعْد أحبابُو مَنالك

وينبغـي أن نعـرف أن هـذه الفنـون الأربعـة العاميـة لم يكتـب لهـا أن تكـون الترجمـان الـدقيق عـن مـشاعر الـشعوب العربيـة في بغـداد وغـير بغـداد، فقـد ظلـت في مرتبـة دانيـة، وظـل ينظـر إليهـا عـلى أنهـا إنـما تـصلح للهـزل أكثـر منهـا للجـد، وبـذلك ظـل الـصولجان للـشعر الفـصيح وظل مهوى أفئدة العـرب في كـل مكـان، كـما ظـل ترجمانـاً صـادقاً عـن كـل مـا يـأملون ويـألمون وكـل مـا يلـم بهـم مـن ابتهـاج وابتئـاس، حتـى لنجـد أصـحاب الكديـة والـشحاذة الأدبيـة يؤثرونـه عـلى الـشعر العـامي، لمـا لـه مـن تـأثير بعيـد في نفـوس الـسامعين، ونقـف قلـيلاً عنـد الأحنف العكبري كبيرهم في بغداد.

---

(١) الداء العضال: الذي لا طب له ولا دواء.

الأحنف العكبري[١]

هو أبو الحسن عقيل بن محمد الملقب بالأحنف العكبري، ظريف الشعراء المكدين ببغداد وهم شعراء كانوا ينسبون أنفسهم إلى بني ساسان الفارسيين تظرفاً، ويعيشون على الكدية أو الشحاذة الأدبية، يطوفون من بلدة إلى بلدة. وفيه يقول الصاحب بن عباد: "لو أنشدتك ما أنشد نيه الأحنف العكبري لنفسه، وهو فرد بني ساسان اليوم بمدنة السلام (بغداد) لامتلأت عجباً من ظرفه وإعجاباً بنظمه". ومن قوله يفتخر بمهنته وما اختاره لنفسه من الكدية والشحاذة:

ألا إني بحمد اللَّـ ... ـه في بيتٍ من المَجْدِ
بإخواني بني ساسا ... نَ أهل الجِدِّ والجَدِّ[٢]
لهم أرضُ خُراسانَ ... فقاشانَ إلى الهند
إلى الرومِ إلى الزَّنْج ... إلى البُلْغارِ والسِّنْدِ
قَطَعْنا ذلك النَّهْجَ ... بلا سيفٍ ولا غِمْدِ
ومَنْ خاف أعاديهِ ... بنا في الرَّوْع يَسْتَعْدى

وهو يفتخر بانتسابه إلى هذا البيت الكبير بيت بني ساسان أو بيت الشحاذة الأدبية ويصور تطوافه وتطواف إخوانه الساسانيين، فقد قطعوا البلدان من خراسان وقاشان في إيران إلى الهند، ومن أرض الروم والبلغار إلى أرض الزنج والسند، كل ذلك بدون أي عدة حربية، لأن أحداً يعترضهم، إذ هم شحاذون لا يملكون شيئاً. وتنبه الصاحب بن عباد إلى ما يشير إليه البيت الأخير، فقال: لهذا البيت معنى بديع: يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل والمروءة إذا وقع أحدهم في أيدي قطاع الطريق وأحب التخلص قال: أنا مُكْدِي

---

(١) انظر في ترجمة الأحنف وأشعاره تاريخ بغداد واليتيمة ٣/ ١١٧ والنجوم الزاهرة ٤/ ١٧٣.

(٢) الجد بفتح الجيم: الحظ.

(أي لا يملك شروى نقير) فانظر كيف غاص، وأبرز هذا المعنى المعتاص، ويشكو الأحنف الفقر وتطوفه في الأرض مراراً في شعره بمثل قوله:

عشتُ في ذِلَّةٍ وقلة مالِ ... واغترابٍ في معشرٍ أَنْذَالِ

بالأماني أقول لا بالمعاني ... فغِذائي حلاوةُ الآمال

وطبيعي أن تمر عليه أوقات رخاء وتعقبها أوقات شدة حين يقل ماله ولا يجد حوله من يسعفه فيشعر بالغربة ونكدها ومرارتها وما يداخلها من حرمان، ويحس كأنه يعيش ويتغذى بالآمال، وقد ضيق عليه الخناق. وكثيراً ما يشكو همه وبؤسه وتعاسته حتى ليقول:

العنكبوتُ بنَتْ بَيْتاً على وهنٍ ... تأوى إليه ومالي مثلهُ وَطَنُ

والخنفساءُ لها من جنْسِها سكنٌ ... وليس لي مثلها إلفٌ ولا سكنُ

فليس له بيت حتى ولا بيت واه كبيت العنكبوت، بيت يجعله يشعر أن له وطناً يأوى إليه، فهو شريد، وحتى الخنفساء لها سكن ولها إلف، وهو لا إلف له ولا سكن. وهذه الأبيات وما يماثلها كان يتخذها وسيلة لترق له القلوب وتمد إليه الأيدي بالعطاء. وشعره كشعر أمثاله من هذه الطائفة يخلو من التنميق والمحسنات البديعية، إذ هو شعر الطبيعة والفطرة ولذلك لا يلقانا فيه أي حلية أو زينة. وقد توفي سنة ٣٨٥. وفي رأيي أن شعر الكدية والشحاذة الأدبية هبط بعد زمنه، إذ شغلت مكانه المقامات عند بديع الزمان والحريري.

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

تنوع النثر:

رأينا في العصرين العباسي الأول والثاني كيف تنوع النثر تنوعاً واسعاً، فكان هناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر الأدبي، وكانت هناك المناظرات والمواعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبي، وكانت هناك الرسائل الشخصية والسياسية، وكل هذه الأنواع مضت تزدهر في عصر الدول والإمارات بالعراق وخاصة في القرن الرابع والخامس للهجرة. ولا نبالغ إذا قلنا إنهما كانا أزهى القرون في العصر بالقياس إلى النثر وفنونه، فقد بلغ العقل العربي كل ما كان يرجى له من نضج، إذ ظل المترجمون ينقلون إليه قبل ذلك كل ما كان عند الأمم القديمة من معارف، وظل يتغذى بها وينمو ولم يلبث أن شارك فيها وأصبح للعرب علماؤهم ومتفلسفاتهم، وظل يقطع أشواطاً ومراحل حتى بلغ القمة في مطالع هذا العصر.

وكانت قد بقيت للترجمة بقية، وهي تدل بوضوح على ما نقوله، فقد كانت انتقلت من الترجمة الحرفية إلى الترجمة بالمعنى على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني، وإذا رجعنا إليها وإلى أصحابها في هذا العصر لاحظنا أنهم انتقلوا بها نقلة واسعة نحو العناية بالأداء والصياغة، حتى لكأن المترجمات توضع في العربية ابتداء، فلا عوج ولا أمت في صيغة، بل مع الرونق وحسن الأداء، ونضرب مثلاً للمترجمين عيسى بن زرعة البغدادي المتوفى سنة ٣٩٨ وفيه يقول أبو سليمان المنطقي السجستاني: " هو آخر من يرتضى نقله لكتب الحكيم أرسطاليس: البسائط والجوامع.. وكتاب جالينوس " منافع الأعضاء وغيره من الكتب". ويذكر مثلاً لما ترجمه من كلام أرسطاليس على هذا النمط (١):

(١) انظر في الفقرة التالية المترجمة كتاب منتخب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي السجستاني (طبع طهران) ص٣٣٣.

"الإنسانية أفق، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع، ودائر إلى مركزه، إلا أن يكون مؤوفاً (معلولاً) في طبيعته، مخلوقاً بأخلاق بهيمية، ومن رفع عصاه عن نفسه، وألقى حبله على غاربه، وسيب هواه في مرعاه، ولم يضبط نفسه عما تدعوه إليه طبيعته، وكان لين العريكة لإتباع الشهوات الرديئة، فقد خرج عن أفقه، وصار أرذل من البهيمة بسوء إيثاره".

ولو أننا لم نعرف أن هذه الفقرة مترجمة عن أرسططاليس ما تنبهنا إلى ذلك لصياغتها العربية المحكمة، وما يجري فيها من رونق الصياغة الأدبية كما هو واضح في مثل قوله: "ومن رفع عصاه عن نفسه، وألقى حبله على غاربه، وسيب هواه في مرعاه". وهي استعارات وكنايات بيانية. وأرسطاليس في الفقرة يشير إلى ما ذهب إليه من أن الإنسان مكون من طبيعة هي البدن وما يتصل به من الملذات، وهي تصلح وتفسد، وأيضاً من النفس التي لا تبلى والتي يترقى بها الإنسان ويكمل. وابن زرعة يترجم حقاً، ولكنها ترجمة أشبه بأن تكون من إنشائه ابتداء، ولذلك تصبح الفقرة، وكأنها وصية أو نصيحة لواعظ- كما لاحظ أبو سليمان المنطقي السجستاني- يريد بها للإنسان أن يصلح من طبيعته الأمارة بالسوء ولا يستجيب إلى شهواتها ومآربها المادية. ولم ينقلها مترجم يعرف العربية فحسب، بل ترجمها أديب يتذوق أساليب العربية ويفقه دقائقها وخصائصها البيانية، ويشيد ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء ببلاغة كثيرين منهم ومن العلماء بالرياضيات والطبيعيات، ويسوق لهم أشعاراً كثيرة.

وشملت هذه الصياغة المحكمة الفلسفة، ويخيل إلى الإنسان أنها كانت قد أصبحت في القرنين الرابع والخامس للهجرة قوتاً أو غذاء عاماً للشعب، بحيث لم تقتصر على الطوائف العليا والوسطى في المثقفين، بل اتسعت حتى احتوت الطوائف الدنيا، وذكرنا في الفصل الثاني دليلاً قوياً على ذلك هو أن جماعة إخوان الصفا السرية التي كانت تدعو في البصرة إلى المذهب الإسماعيلي لجأت إلى الفلسفة والعلوم في صنع رسائل اتخذتها وسيلة لنشر هذا المذهب، ولو أنه استقر في نفسها أن العلوم والفلسفة معاً يرتفعان عن مدارك العامة ما لجأت إلى هذه الوسيلة ولعرفت منذ أول الأمر أنها وسيلة قاصرة فكفت عنها، أما وقد تمادى إخوان الصفا فيها ومضوا يدسون رسائلهم في دكاكين الوراقين ببغداد والبصرة فإن

ذلك دليل حي على تعلق العامة بمعرفة الفلسفة، وسنرى عما قليل مناظرة بين زعيمهم المقدسي والحريري في دكان حمزة الوراق بشارع الوراقين في بغداد، تتناول الأسس والغايات التي من أجلها كتبت رسائل إخوان الصفا، وقد عمل المقدسي ورفيقه زيد بن رفاعة على إذاعتها ونشرها ببغداد.

وأخرى ألممنا بها في فصل الثقافة وهي تدل على أن الفلسفة أصبحت في القرن الرابع الهجري شائعة مشتركة بين الناس أو قل بين البغداديين، وهي كثرة المنتديات التي كانت تثار فيها مسائلها، وكان وراءهم آخرون دونهم في الرتبة، يؤمون داره كل يوم. وكان كثيراً ما يلقى سؤال وتدور حوله محاورة كبيرة، كل متفلسف يرى فيها رأياً يدلي به، ثم يكون الأي الأخير لأبي سليمان، وكأنه المنارة الهادية. وقد استطاع أحد تلاميذه وهو أبو حيان التوحيدي- كما مر بنا- أن يجمع طائفة كبيرة من هذه المحاورات الفلسفية، وسماها المقابسات أي المحاورات، وكأنما ارتضى لها كلمة المقابسة لتدل على أن كل من كان يحضر الندوة ويحاور فيها كان يقتبس من فكر صاحبه. وكأنما استحال بينهم الفكر الفلسفي إلى ما يشبه ناراً كل يقبس منه حسب استطاعته، وقد بلغت المقابسات مائة وستاً في نحو أربعمائة صفحة كبيرة، وهي أشبه بدائرة معارف فلسفية تضم مباحث عميقة في الإلهيات والطبيعيات والنفس والعقل والأخلاق والأدب والبلاغة. ويمكن أن ندخل متفلسفة القرن الرابع في هذه الندوة وغيرها في دائرة الفارابي وتلاميذه، فقد مضوا جميعاً في إثره يعنون بالإلهيات وبمنطق أرسطو وبالنفس والعقل متأثرين بنظرية الفيض التي بثتها الأفلاطونية الحديثة، وهي مبثوثة في كلام أبي سليمان وتلميذه النوشجاني، وقد عرض لها الأخير في المقابسة السادسة والثلاثين ولا نرى أحداً يراجعه مما يدل على إيمانهم بها جميعاً. وفي مواضع كثيرة من المقابسات نرى أبا سليمان وغيره من تلاميذه يرفعون من شأن الدين، وقد حاول هو وبعض مريديه مراراً وتكراراً أن يدفعوا الفكرة أو النظرية التي قامت عليها رسائل إخوان الصفا، وهي الوصل بين الفلسفة والشريعة، كما مر بنا في فصل الثقافة ونقضوها عليهم نقضاً، وصور أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة رد أبي سليمان

عليهم [1]، وهو رد مفحم رائع أوضح فيه أن مرد الشريعة إلى الله والوحي ومرد الفلسفة إلى الرأي والعقل، ونعرض جانباً من رده لنرى قدرته البيانية، يقول:

" الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي وباب المناجاة، وشهادة الآيات وظهور المعجزات، على ما يوجبه العقل تارة، ويجوزه تارة، لمصالح عامة متقنة، ومراشد تامة مبينة، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه (كالبعث) ولابد من التسليم للداعي إليه والمنبه عليه، وهناك يسقط لم؟ ويبطل كيف؟ ويزول: هلا، ويذهب لو وليت في الريح، لأن هذه المواد عنها محسومة واعتراضات المعترضين عليها مردودة، وارتياب المرتابين فيها ضار، وسكون الساكنين إليها نافع.. وأساسها على الورع والتقوى، ومنتهاها إلى العبادة وطلب الزلفى. ليس فيها حديث المنجم في تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك.. ولا حديث صاحب الطبيعة الناظر في آثارها.. ولا فيها حديث المهندس.. ولا فيها حديث المنطقي.. فعلى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشريعة.. وكما لم نجد في هذه الأمة من يفزع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها، كذلك أمة عيسى عليه السلام، وهي النصارى، وكذلك المجوس.. فأين الدين من الفلسفة؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل؟.. وبالجملة النبي فوق الفيلسوف والفيلسوف دون النبي، وعلى الفيلسوف أن يتبع النبي وليس على النبي أن يتبع الفيلسوف، لأن النبي مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه. ولو كان العقل يكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء، على أن منازل الناس متفاوتة في العقل وأنصباءهم مختلفة فيه، فلو كنا نستغني عن الوحي بالعقل كيف كنا نصنع؟ وليس العقل بأسره لواحد منا وإنما هو لجميع الناس.. والنبي يقول أمرت وعلمت وقيل لي وما أقول شيئاً من تلقاء نفسي، والفيلسوف يقول رأيت ونظرت واستحسنت واستقبحت، والنبي يقول: معي نور خالق الخلق أمشي بضيائه، وهذا يقول معي نور العقل أهتدي به، والنبي يقول: قال الله تعالى وقال الملك، وهذا يقول قال أفلاطون وسقراط...".

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٦-١٨ وانظر في أبي سليمان ص٢٨٥ السابقة.

وواضح أن أسلحة أبي سليمان من المنطق والتفلسف أسلحة حادة، فقد فصل بوضوح بين الدين أو الشريعة وبين الفلسفة، فالدين مرجعه الوحي والفلسفة مرجعها العقل، والدين مرجعه لله والفلسفة مرجعها آراء الفلاسفة، وهي تتفاوت وتختلف باختلافهم، والشريعة مستغنية عن الفلسفة بكل فروعها. والنبي فوق الفيلسوف، والشريعة تدعو إلى التقوى والورع ولا شأن للفلسفة بذلك. ولعل وصل إخوان الصفا بين الشريعة والفلسفة هو الذي دفع أبا سليمان وغيره من أفراد مدرسته إلى مهاجمة المتكلمين، لأنهم صدروا في مباحثهم الكلامية كثيراً عن هذا الوصل وما يتصل به من التوفيق، وكأن أبا سليمان أحس أنهم هم المسئولون عن هذا العمل المغرض الذي يراد به الدعوى إلى المذهب الإسماعيلي الشيعي الغالي غلواً شديداً، ولذل مضى يهاجمهم مهاجمة عنيفة- كما نقل عنه أبو حيان في المقابسات- قائلاً إنهم يعتمدون على الجدل والمغالطة ومحاولة إسكاتالخصم والإيهام مع قلة تأله وسوء ديانة. ومن المؤكد أن وصفهم بقلة التأله وسوء الديانة فيه مبالغة، وقد يكون اتفق له منهم من رأى فيه انحرافاً عن الدين، وكان ينبغي أن لا يعمم حكمه. على كل حال إنما أردنا بما اقتبسناه من كلامه عن إخوان الصفا والوصل بين الشريعة والفلسفة أن ندل على أن لغة المتفلسفة في العصر صبغت بأصباغ أدبية واضحة، إذ يعرف أبو سليمان كيف يصطفي ألفاظه، وكيف يجري فيها ترادفاً بديعاً يجعل لوقعها على الآذان جمالاً، وكيف ينسق عباراته ويأتي بها قصيرة متلاحقة. ونقرأ في المقابسات قطعاً فلسفية أدبية للكثيرين من تلاميذه ورفاقه مثل النوشجاني الذي نراه يستدل على الحياة بعد الموت على هذا النمط [1].

" إذا كان صنف من أصناف الموجود في حكم المعدوم لخساسته، ونقصه وتهافته، وفساد طبيعته، وطموس ضيائه، وقبح صورته، وانمحاء بهجته، وخمود شعاعه، وفقد تمامه، وتقطع نظامه، واستيلاء رذيلته، وبطلان فضيلته، فلا تنكر أن يكون في مقابلته وبإزائه صنف آخر من المعدوم في حكم الموجود لصحة صورته، ونفاسة جوهره، وكمال فضيلته،

(١) المقابسات (طبعة بغداد): المقابسة السادسة والأربعون وانظر في النوشجاني المقابسات ٢٩، ٣٦، ١٠٦.

وظاهر عفته، وبهاء هيئته، وغلبة عدالته، ونقاء سنخه، وصفاء سوسه(١)، وطهارة ذاته، وظاهر زينته، ودوام نضرته، وتناسب جملته وتفصيله، وسائر ما لا يحيط القول به.. فإنك متى حويت هذه المعاني.. اكتنفتك الخيرات عاجلاً، والسعادات آجلاً. فتكون حينئذ موجوداً وإن عدمت، وباقياً وإن فنيت، وحاصلاً وإن فقدت، وثابتاً وإن نفيت، وحياً وإن مت، وظاهراً وإن بطنت، وجلياً وإن خفيت، وواضحاً وإن أشكلت، وشاهداً وإن غبت، وقادراً وإن عجزت.. هنالك تصل إلى غنًى بلا قنية(٢)، وتنطق بلا عبارة، وتفعل بلا آلة، وتصيب بلا مشورة، وتعقل بلا مقدمة، وتبقى بلا آفة.. وتسعد بلا شوب. إلهية ورثتها من البشرية، وربوبية وصلت إليها بالعبودية ".

ويمضي النوشجاني فيقول لمنكر الحياة بعد الموت إنك إنما تنكرها حين تنظر إلى شخص في إسار الحس وقشور البدن مع فساد العقيدة والعكوف على الشهوات المهلكة، فتقول متى يكون لهذا رجوع وحياة بعد الموت؟ وكان حرياً به أن يباين هواه ويختار الحق ويؤثر الخير إذن تكون السعادة غايته، والأبد نعته ونهايته. وصياغة النوشجاني رائعة بما فيها من جمال الجرس في الأداء الناشئ عن قصر العبارات وحسن انتخاب الألفاظ وما يجري فيها من ترادف بديع وقدرة على التناسق في الكلمات والصيغ وسيلانها، بل تدفقها، بالفكر الصافي الخالي من الشوائب. وهو ما نقوله إن النثر الفلسفي في هذا العصر التقى بالأدب والتمتع في أثنائه وعلى حواشيه، فغدا يروع السمع ما يروع الفكر والذهن.

وطبيعي في هذه الأثناء أن تزدهر المناظرات، وأن تشيع في كل مجلس وبين العلماء والأدباء، وقد اشتهر مجلس المهلبي ببعض مناظرات بين الحاتمي والمتنبي على نحو ما يوضح ذلك الحاتمي في رسالته " الموضحة " واشتهر عضد الدولة البويهي بما كان يعقد من مناظرات بين العلماء في مجالسه، ويحدثنا القاضي عياض في ترجمته(٣) للباقلاني عن مناظرته بحضرة عضد الدولة للأحدب رئيس معتزلة بغداد حول تكليف ما لا يطاق، ومناظرته

---

(١) السوس السنخ: الأصل.

(٢) القنية: ما يكتسب من المال ويقتنى.

(٣) انظر هذه الترجمة في نهاية كتاب التمهيد للباقلاني (نشر دار الفكر العربي بالقاهرة) ص٢٤٦.

بحضرته أيضاً لأبي إسحق النصيبيني رئيس معتزلة البصرة حول رؤية الذات العلية. وكانت المناظرات لا تزال ناشبة بين أصحاب الطب وغيره من علوم الأوائل حتى لنجد طبيباً بغدادياً في القرن الخامس الهجري هو ابن بطلان يرحل إلى مصر لمناظرة ابن رضوان الطبيب المصري والحوار معه[1]. وما لنا نذهب بعيداً ومنتدى أو ندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني في القرن الرابع الهجري كانت تعج بالحوار والجدال في كل فروع الفلسفة ومسائلها الدقيقة. ولم تكن المناظرات تقتصر على الندوات أو على المساجد، بل كانت أيضاً تجرى في الأسواق وخاصة سوق الوراقين حيث يلتقي أصحاب المذاهب والآراء، فتنشب بينهم معارك الجدل والمناظرة، من ذلك المناظرة الطريفة التي حكاها أبو حيان بين شخص يسمى الحريري كان يأخذ بشيء من الفلسفة والفكر الدقيق وبين المقدسي أبي سليمان محمد بن معشر البيستي الرازي مخرج رسائل إخوان الصفا كما أسلفنا في فصل الثقافة، ولذلك نسبها إليه أبو سليمان المنطقي السجستاني كما مر بنا، وكان لا يزال يُرَى ببغداد في ندوته، وفي شارع الوراقين. وكان الرأي العام السائد هناك يعارض نظريته في التوفيق بين الشريعة والفلسفة، ولعلهم كانوا يعرفون مقصده الذي نبهنا إليه مراراً، وكانوا يتعرضون فله فلا يراهم أهلاً للجواب، حتى كان يوم - وهو يتجول في الوراقين - تعرض له فيه الحريري غلام ابن طرارة وهيجه بما أورد عليه من أدلة، مما جعله يندفع قائلاً[2]:

الشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحاء، فالأنبياء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم أو حتى يزول بالعافية ولا شيء وراء العافية، وأما الفلاسفة فيطبون للأصحاء وبذلك يفيدونهم كسب الفضائل التي تؤهلهم للحياة الإلهية. وإن كسب المريض بعض الفضائل فليست فضائله من جنس فضائل الصحيح، إذ الأولى (فضائل المريض) تقليدية والثانية برهانية، والأولى مظنونة والثانية مستيقنة، والأولى جسمية والثانية روحانية، والأولى دهرية والثانية زمانية. وقال إننا جمعنا بينهما لأن الشريعة لا

---

(١) راجع القفطي ص٢٩٨، ٤٤٤ وابن أبي أصيبعة ص٣٢٥ وما بعدها.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١١ وما بعدها.

تعترف بالفلسف بينما الفلسفة تعترف بها لأن الشريعة عامة والفلسفة خاصة فجمعنا بينهما لأن العامة قوامها الخاصة، كما أن الخاصة تمامها بالعامة.

وأخذ الحريري ينقض أفكاره فكرة فكرة مبيناً ما فيها من فساد، فقال له إن كلامك يخالف الواقع، إذ لا يوجد طبيبان: طبيب للمرض وطبيب للصحة، بل ذلك شيء خارج عن العادة، فدائماً الطبيب يُعنى بحفظ الصحة ودفع المرض، وإذن سقطت تلك الفكرة المضللة. ونقض عليه ما زعمه من أن الفضيلة الدينية تقليدية والفلسفية برهانية، فقال له إن الدينية برهانية لأنها صادرة عن الوحي ولذلك تستقيم مع أي برهان، أما الفضيلة الفلسفية فهي التقليدية، لأن مدارها على رأي الشخص فيوافقه أو يخالفه آخر، فهي لا تثبت ولا تستقر بحال. ويعجب الحريري أشد العجب من جعل المقدسي الشريعة من باب الظن وهي بالوحي، والفلسفة من باب اليقين وهي من الرأين. ويقول له: إنك غالطت وموهت إذ زعمت أن الفضيلة الدينية جسمية والفضيلة الفلسفية روحانية، إذ الصحيح العكس لأن الشريعة وحي من الله والفلسفة من قبل أشخاص ذوى أجسام، وهي تناقش الأجسام والأعراض. ويسأله إنك تقول إن الفلسفة للخاصة فلماذا تحاولون جمع العامة لها، بينما تقولون الشريعة للعامة، فلم تجمعون بين متفرقين؟ إنه لجهل أي جهل. وبالمثل يقول له إنك تذكر أن الشريعة تجحد الفلسفة، فلماذا تريدون حملها عليها قسراً. وبذلك أخرسه. وقد عاد يسأله أي شريعة تريدون وصلها بالفلسفة، ولماذا تعنون بالتوفيق بينها وبين الدين الحنيف، بينما في المتفلسفة نصارى ومجوس ويهود. ويصارحه بأنه لا يرى من إخوان الصفا من يقوم بأركان الدين ويتقيد بالكتاب والسنة ويراعاي معالم الفريضة ووظائف النافلة، ويتساءل أين كان الصحابة والتابعون من الفلسفة؟ ويعلن إليه أن هذه المحاولة من التوفيق بين الشريعة والفلسفة إنما هي كيد للدين القويم، حاوله من قبلهم كثيرن فباءوا بالخذلان والخسران المبين. ويذكر له طائفة كبيرة من معجزات الرسل، ويدعو المقدسي وصحبه إلى الإيمان بالشريعة دون تأويل ولا تدليس ولا تعليل ولا تلبيس.

والحرير إنما هو شخص أشبه بأن يكون من العامة، ولذلك عرضنا مناظرته مع المقدسي لندل على مدى ما حظي به العقل العربي في القرن الرابع من قدرة على الاستنباط والتعليل وتحليل الأفكار وتشعيبها ونقضها من أساسها نقضاً. واستمرت هذه الحركة الفكرية الفلسفية خصبة مثمرة حتى منتصف القرن الخامس، ثم أخذت تتراجع موجاتها إلى الوراء، أو قل أخذت حدتها تخف، بسببين: أولاً لانتشار التصوف وتعلق العامة به، وخاصة بعد أن وجهه أبو نصر السراج الطوسي والقشيري نحو التصوف السني، ويعم هذا التصوف منذ القرن السادس الهجري بعد ظهور الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ الرفاعي، ولا يلبث الدراويش أن ينتشروا في العراق وغير العراق، وثانياً لأنه أتيح للسنة ونصرتها على الفلسفة عالم كبير هو الغزالي الذي كان لحملاته العنيفة على الفلسفة والمتفلسفة أكبر الأثر في انصراف الناس عنها، وكان هو نفسه صوفياً سنياً، فدعم التصوف السني إلى أقصى حد، وأصبحت كفته هي الراجحة طوال قرون متطاولة.

وقد مضت خطابة الوعظ تزدهر في العصر على نحو ما مر بنا في حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية، وأخذت تكثر أدعية ومناجيات مختلفة للذات العلية، ويكفي أن نذكر من كتبها كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي، وهو مطبوع، وجميعه دعاء واستغفار وتضرع إلى الله وتوبة وطلب للهداية واتباع سبيل الرشاد. وتلقانا من حين إلى آخر أدعية ومناجيات بديعة، من ذلك دعاء[1] لمحمد بن عبد الملك الفارقي المار ذكره في الفصل الماضي. وأخذت توضع كتب كثيرة في التصوف وفي القصص والحكايات عن أصحابه، من أهمها كتاب اللمع في التصوف وفي القصص والحكايات عن أصحابه، من أهمها كتاب اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء المذكور آنفاً المتوفى سنة ٣٧٨ وهو من طوس وحين ورد على بغداد أفردت له غرفة خاصة في جامع الشونيزي وأعطى رياسة الدراويش، وكتاب قوت القلوب لأبي طالب[2] المكي

---

(١) خريدة القصر (قسم الشام) ٢/ ٤٣٣.

(٢) راجع في أبي طالب تاريخ بغداد ٣/ ٨٩ وابن خلكان ٤/ ٣٠٣ والوافي ٤/ ١١٦ وميزان الاعتدال ٣/ ٦٥٥ والشذرات ٣/ ١٣٠ ولسان الميزان ٥/ ٣٠ ومرآة الجنان ٢/ ٤٣٠.

الوافد على بغداد امتوفى بها سنة ٣٨٦. ويلقانا من كتب القصص كتاب حكايات المشايخ الجعفر[1] الخلدي المتوفى سنة ٣٤٨ ومر بنا في حديثنا عن ابن السراج البغدادي بين شعراء الصوفية كتابه " مصارع العشاق" وهو يزخر بأخبار وأقاصيص عن العباد والنساك.

وأخذت تؤلف كتب قصص عامة، على نحو ما نرى عند أبي علي المحسن[2] التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ وله ثلاثة كتب قصصية، هي: كتاب " المستجاد من فعلات الأجواد" وهو أقاصيص عن مجموعة كبيرة من الأجواد أو الكرماء الماضين، وهو مطبوع، و"نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة" وهو أقاصيص وأخبار عن معاصريه وهو أيضاً مطبوع، ثم كتاب الفرج بعد الشدة وهو مطبوع، وهو أقاصيص ونوادر وأخبار وأمثال ولابن مسكويه كتاب أقاصيص سماه " أنس الفريد " سقط من يد الزمن. وأخذ بعض الكتاب يحاولون تقليد بديع الزمان الهمذاني في مقاماته، وفي مقدمتهم أبو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا الذي ذكرناه في فصل الثقافة بين علماء البلاغة في القرن الخامس الهجري، وهو سابق للحريري، وقد ألف تسع مقامات بطلها واحد وهو اليشكري، ورواتها متعددون، وتدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية، وهي مطبوعة من قديم في إستانبول مع ثلاثين مقامة لأبي العلاء أحمد بن أبي بكر بن أحمد الرازي من أدباء القرن السادس وقد حاكى بها مقامات الحريري وأهداها إلى أبي حامد الشهرزوري المتوفى سنة ٥٨٦، وكان يعاصره ابن الجوزي الذي مر ذكره في غير موضع، وله خمسون مقامة، غير أنه لم يجعل لها بطلاً من الأدباء الشحاذين أصحاب الكدية، وإنما نحا بها نحو الوعظ، على طريقة الزمخشري في مقاماته الوعظية. وربما كانت أهم المقامات التي ألفت في القرن السادس بعد مقامات الحريري مقامات يحيى بن سعيد بن ماري النصراني البغدادي المتوفى سنة ٥٨٩ وتسمى المقامات المسيحية لنصرانيته، وهي ستون مقامة ضاهى بها مقامات الحريري. ونلتقي في أواخر القرن السابع بالمقامات الزينية لمعد بن نصر الله بن رجب الجزري المعروف بابن

---

(١) انظره في تاريخ بغداد ٧/ ٢٢٦ وبروكلمان ٤/ ٧٥.

(٢) راجع ترجمته في اليتيمة ٢/ ٣٤٥ وتاريخ بغداد ١٣/ ١٥٥ ومعجم الأدباء ١٧/ ٩٢ والمنتظم ٧/ ١٧٨ وابن خلكان ٤/ ١٥٩ والنجوم الزاهرة ٤/ ١٦٨ والشذرات ٣/ ١١٢.

الصيقل المتوفى سنة ٧٠١ وهي خمسون مقامة، فرغ من تأليفها سنة ٦٧٢. ويخلفه كثيرون يؤلفون مقامات مفردة أو بضع مقامات مجموعة. وتظل مقامات الحريري في الذروة، لا يبلغ شأوه فيها أي أديب بعده، وسنفرد له كلمة نعرض فيها لمقاماته.

وتكثر في العصر كتب الأدب التهذيبي، وتتخذ مجريين: مجرى فلسفياً فكرياً على نحو ما نرى في كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه، ومجرى عملياً تربوياً مثل كتاب أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي المار ذكره وهو مقسم إلى خمسة أبواب: باب في فضل العقل وذم الهوى، وباب في أدب العلم، وباب في أدب الدين، وباب في أدب الدنيا، وباب في أدب النفس، وكل باب ينقسم إلى فصول، وفي كل فصل تذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار التي تحث على الفضائل وتنهي عن الرذائل. وكان هذا الكتاب مقرراً للمطالعة في المدارس الثانوية وما أجدره أن يعود إليها لتربية النشء على الأخلاق القويمة. وتكثر كتب الأدب التهذيبي بعد هذا الكتاب ولكنها لا تبلغ مبلغه في النفع والفائدة.

وتموج اليتيمة والخريدة بالرسائل الشخصية أو الإخوانية، وتتكاثر كثرة مفرطة، في الشكر والثناء والتهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتهادي والتعزية، وعادة تدور حول معان محدودة، ولكن الكتاب يتفننون في تطويلها، وبذلك يستحيل المعنى الضئيل النحيل إلى ما يشبه خيطاً أو حبلاً تعلق عليه سجوف من السجع والجناس وفنون البديع تكدس فيها أكداساً، وتكدس معها تعقيدات بصور كثيرة تارة بجلب بعض المصطلحات العلمية وخاصة منذ القرن الخامس وما بعده، وتارة باتخاذ حرف واحد تبنى عليه الرسالة. وللحريري رسالتان إحداهما سينية كل كلماتها من ذوات السين، والثانية شينية كل كلماتها من ذوات الشين، وقد قلده الحَصْكفي[1] يحيى بن سلامة خطيب ميا فارقين المتوفى سنة ٥٥١ فصنع رسالة سينية، وحاول الإغراب أكثر فصنع رسالة من الحروف المهملة

---

(١) انظر في الحصكفي الخريدة (قسم الشام) ٢/ ٤٧١ وما بعدها والمنتظم ١٠/ ١٨٣ والسبكي ٧/ ٣٣٠ وابن خلكان ٦/ ٢٠٥ ومعجم الأدباء ٢٠/ ١٨ وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي (الطبعة الثامنة بدار المعارف) ص٣٠٤ وبدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من رسائله.

وخطبة ليس في حروفها حرف منقوط، وكان شغوفاً بالجناس وصنع المنعكس منه بحيث تشتق كل كلمة من أختها على هذه الشاكلة:

"النفس بعقود التذرع حالية، ولقعود التعذر حائلة، ومن الودائع المعجزة مالية، وإلى الدواعي المزعجة مائلة، وفي بحار الحمد راسية، وفي رحاب المدح سارية".

ويستمر بهذه الصورة، فكل كلمة في السجعة الأولى تعود في السجعة الثانية مقلوبة معكوسة في هيئتها وبنيتها وصورتها، فعقود تتحول إلى قعود والتذرع إلى التعذر وحالية إلى حائلة. وهي مهارة تحيل الرسالة إلى ما يشبه العمل المطبعي الذي يؤديه عمال المطابع من جمع الحروب بعضها إلى بعض من أول الكلمة إلى آخرها تارة ومن آخرها إلى أولها تارة ثانية جمعاً يصور مهارة، ولكنها مهارة لفظية أشبه باللعب. ونلتقي بمعاصر للحصكفي، هو الحيص بيص البغدادي المار ذكره بين الشعراء وفيه يقول العماد الأصبهاني: "له رسائل ومكاتبات معدول بها عن الفن المعتاد والأسلوب المعروف" يقول: وهي كثيرة، وسأورد منها نبذاً يستدل بها على الباقيات، وتدل النبذ على أنه كان يحشد فيها أوابد اللغة وشواردها وشواذها متقعراً فيها أبعد تقعر، وهو تقعر لا يفيد حسناً ولا جمالاً، وإنما يضيف صعوبات لغوية، وكأن الرسالة مجموعة من الألغاز، وكلما فك القارئ فيها لغزاً لقيه لغز جديد، لا يقل عنه تكلفاً وإغراباً. وقد استطاع أبو السمح[1] سعيد بن سمرة أن يؤلف على نمط الحريري لا رسالة سينية أو شينية، بل أن يؤلف رسائل كل رسالة منها كلماتها على حرف من حروف المعجم. ونصبح منذ القرن السادس حقاً بإزاء رسائل شخصية معقدة غاية التعقيد، وحتى المحسنات البديعية مثل الجناس استحالت بدورها عقداً، وكأنما فارقت كل ما كانت تزدان به من حسن وجمال. وحرى بنا أن نتحول إلى الحديث عن كتّاب الرسائل الديوانية.

(١) انظر في ترجمته الخريدة (قسم العراق) ٢/ ٢٦٣.

٢

كتّاب الرسائل الديوانية

كانت الدواوين طوال هذا العصر كثيرة ومتنوعة، فكان هناك ديوان الخليفة وديوان الزمام الخاص بالشئون المالية وديوان الضياع والعقار وديوان الجيش وديوان النفقات وديوان الأوقاف وديوان التركات وديوان الجوالي أو الجزية الخاص بأهل الذمة وديوان السلة الذي تحفظ فيه الكتابات الديوانية، وأهم من هذه الدواوين جميعاً ديوان الإنشاء الخاص بالرسائل الصادرة عن الخليفة وحاكم بداد العام، وعُني البويهيون بهذا الديوان منذ استيلائهم على بغداد فاتخذوا له بعض النابهين من الأدباء، وكثيراً ما كان يقوم عليه وزيرهم، وأول من نهض بأعبائه في عهدهم وكان له ذكر حسن أبو محمد المهلبي[1] الذي وزر لمعز الدولة البويهي منذ سنة ٣٣٩ وكان شاعراً كاتباً وأنشد الثعالبي في يتيمته طائفة من شعره، أما نثره فاكتفى فيه بفصول قصيرة تدل على أنه كان يسجع في كتاباته، والسجع في ديوان بغداد قديم منذ عصر المقتدر ما مر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني، وقد مضى كتاب الدواوين بعد عصره جميعاً يسجعون. ويظل المهلبي ناهضاً بالوزارة والكتابة حتى وفاته سنة ٣٥٢. وأهم كتاب البويهيين ببغداد بعده أبو القاسم عبد العزيز[2] بن يوسف، وفيه يقول الثعالبي: " كان أحد المقدمين في الآداب والكتابة والبراعة، والكفاية وجميع أدوات الرياسة، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدوداً في وزرائه، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده ". ويورد الثعالبي مقاطع من رسائله السلطانية يشيع فيها السجع على عادة كتاب الدواوين في عصره. وبدون ريب أكبر كاتب للرسائل الديوانية زمن البويهيين أبو إسحاق الصابئ وسنخصه بكلمة عما قليل. وعني السلجوقيون مثل البويهيين بديوان الإنشاء وحين دخلوا بغداد وجدوا عليه العلاء بن

---

(١) انظر في المهلبي وترجمته اليتيمة ٢/ ٢٢٣ والمنتظم ٧/ ٩ ومعجم الأدباء ٩/ ١١٨ والشذرات ٣/ ٩ وكتب التاريخ العامة في سنة وفاته.

(٢) راجعه في اليتيمة ٢/ ٣١٢.

الموصلايا فقد كان كاتب الديوان العزيز أو ديوان الخلافة منذ سنة ٤٣٢ ورأوا أن يظل عليه، ومضت عشرات من السنين وهو على ديوان الإنشاء حتى قضى نحبه، وسنخصه هو الآخر بكلمة مفردة. وأهم من تولوا الديوان بعده في العصر السلجوقي سديد الدولة أبو عبد الله محمد(١) بن عبد الكريم الأنباري منشئ ديوان الخلافة لعصر خمسة من الخلفاء هم المستظهر والمسترشد والراشد والمقتفى والمستنجد الذين تولوا الخلافة من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٥٨ وهي سنة وفاة سديد الدولة، وبذلك ظل كاتب الإنشاء نيفاً وخمسين سنة ويقال إنه عمر حتى قارب التسعين، ولم يسجل العماد ولا صبح الأعشى للقلقشندي شيئاً من نثره. وخلفه على ديوان الإنشاء ابنه محمد(٢) بن محمد بن عبد الكريم، وظل قائماً عليه حتى توفي بدوره سنة ٥٧٥. وربما كان أهم من ولوا هذا الديوان في عهد الخليفة الناصر لدين الله يحيى(٣) بن زبادة المتوفى سنة ٥٩٤ وقد أشاد به ابن خلكان ونوه طويلاً قائلاً: "انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك.. وخدم الديوان من صباه إلى أن توفي عدة خدمات، وكان مليح العبارة في الإنشاء جيد الفكرة حلو الترصيع لطيف الإشارة، وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب التسجيع، وله رسائل بليغة ". وقد احتفظ القلقشندي برسالة(٤) له كتب بها عن الخليفة الناصر إلى الطواشي طغرل صاحب إقطاع البصرة، وقد بلغ الخليفة أنه نزح عنها مفارقاً لطاعته عندما طلب من ديوانه بعض المال، وهو في الرسالة يحاول إثناءه عن خلع الطاعة ويذكر أن الخليفة سيتلقاه بالصفح والقبول، وفيها يقول:

"ولولا أن الأيام صحائف العجائب، ولا يأنس بمتجدداتها إلا من حنكته التجارب، لم أصدق هذه الحركة، وإني ما أراها إلا عثرة من جواد وعورة على كماله، وإلا فمن أين يدخل الزلل على ذلك الرأي السديد والعقل الراجح والفكر الصائب.. والفائت لا كلام

---

(١) انظر الخريدة (قسم العراق) ١/ ١٤٠ والمنتظم ١٠/ ٢٠٦ والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٦٤ والشذرات ٤/ ١٨٤.

(٢) انظره في الخريدة (قسم العراق) ١/ ١٤١ وابن الأثير في وفيات سنة ٥٧٥.

(٣) انظر ترجمة ابن زيادة في معجم الأدباء ٢٠/ ١٦ وابن خلكان ٦/ ٢٤٤ ومرآة الجنان ٦/ ٢٤٤ والشذرات ٤/ ٣١٨.

(٤) صبح الأعشى (طبع دار الكتب المصرية) ٨/ ٢٦٩.

فيـه، غـير أن العقـل يقـضي باسـتدراك الممكـن وتلافيـه، بـالانحراف عـن الهـوى إلى الـرأي الصادق، والرجوع عن تأويل النفس إلى مراجعة الفكر الناضج ".

وتمضي الرسالة على هـذا النحـو، لا يـدخل الـسجع فيهـا عـن تكلـف أو تعمـل، بـل لا بـأس بما يأتي منه عفـواً دون تعمـد الإتيـان بـه ومحاولـة جلبـه مـع كـل عبـارة وصـيغة. وأكـبر الظـن أن ابن زبادة كان شـذوذاً بـين كتـاب الإنـشاء قبلـه وبعـده، فقـد كـانوا غرقـى في الـسجع ومحـسنات البـديع إلى آذانهـم. ولم نعـرض للعـماد الأصـبهاني، وكـان كاتبـاً بليغـاً، لأن حياتـه الأدبيـة إنـما تتكامـل لـه في ظـل نـور الـدين وصـلاح الـدين، إذ عمـل في دواويـنهما، فحـرى أن يوضـع بـين كتـاب الرسـائل الديوانيـة في الـشام ومـصر، مـع مـن عاشـوا في ظـل هـذين البطلـين العظيمـين. ونمـضي إلى أيـام المغـول ويلقانـا عطـا ملـك الجـويني المتـوفى سـنة ٦٨١ وكـان رئـيس الـديوان ببغداد، وقـد اهـتم بـه، فوظـف فيـه طائفـة مـن الكتـاب المجيـدين، مـنهم بهـاء(١) الـدين الإربـلي المتــوفى ســنة ٦٩٢ وشرف(٢) الــدين عــلي بــن أمــيران المتــوفى ســنة ٦٩٣. ويلقانــا في صــبح الأعـشى كاتبـان يكتـب كـل مـنهما رسـالة باسـم بوكـدار بـن هولاكـو الـذي مـر بنـا في الفـصل الأول أنه أسـلم في سـنة ٦٨١ وحـسن إسـلامه، وتـسمى باسـم أحمـد. أمـا الرسـالة الأولى فكتبهـا الفخـر بـن عيـسى الموصـلي عـن الـسلطان أحمـد إلى الملـك المنـصور قـلاوون صـاحب الـديار المـصرية في جمـادى الأولى سـنة ٦٨١ يخـبره فيهـا بـما أتـم الله عليـه مـن نعمـة الإسـلام، وهـو يفتتحه على هذا النمط(٣):

" إلى سلطان مصر، أمـا بعـد فـإن الله سـبحانه وتعـالى يـسابق عنايتـه، ونـور هدايتـه، قـد كـان أرشـدنا في عنفـوان الـصبا وريعـان الحداثـة إلى الإقـرار بربوبيتـه، والاعـتراف بوحدانيتـه، والـشهادة لمحمـد عليـه أفـضل الـصلاة والـسلام بـصدق نبوتـه، وحـسن الاعتقـاد في أوليائـه الـصالحين مـن عبـاده وبريتـه (فمـن يُـرِدِ الله أن يَهْدِيَـه يَـشْرَحْ صَـدْره للإسـلام) فلـم نـزل نميـل إلى إعـلاء كلمـة الـدين، وإصـلاح أمـور الإسـلام والمـسلمين، إلى أن أفـضى إلينـا بعـد أبينـا

(١) انظر ترجمته في فوات الوفيات ٢/ ١٣٤ وعند العزاوي ١/ ٢٥٩.

(٢) راجعه في الحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى جواد ـ طبع بغداد) ص٤٨٠ وعند العزاوي ١/ ٢٦٠.

(٣) صبح الأعشى ٨/ ٦٥.

الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك، فأضفى علينا من جلاليب ألطافه ولطائفه، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه ".

ونمضي الرسالة بهذه الصورة من السجع والصياغة الجيدة. والرسالة مؤرخة بأواسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة وكتب الرد في رمضان سنة ٦٨١ ناصر[1] الدين شافع بن علي بن عباس كاتب الإنشاء عن السلطان المنصور قلاوون. وقد ذكر السلطان أحمد بن هولاكو في رسالته- كما هو واضح- إسلامه وأيضاً أنه حرم على عساكره الغارات على البلاد، وتقول الرسالة إن في اتفاق السلاطين صلاح العالم، ومن كتاب الإنشاء في القرن الثامن يحيى[2] بن عبد الرحمن الجعبري الملقب بنظام الدين المتوفى سنة ٧٦٠ وكان يكتب عن السلطان بوسعيد (٧١٦-٧٣٦هـ). ويبدو أنه رحل إلى مصر ودمشق بعد وفاة السلطان، ثم عاد إلى بغداد، وأعيد إلى وظيفته في كتابة الإنشاء عن حكامها إلى وفاته. ويلقانا في أواخر القرن التاسع الغياث[3] البغدادي عبد الله بن فتح الله كاتب الإنشاء ببغداد، ولا نعود نسمع عن كاتب مهم في هذا العصر، فسرعان ما دخلت العراق في حكم الدولة العثمانية، وكانت لا تهتم بديوان الإنشاء في بغداد، فضعف شأنه إلى أبعد حد. ولعل من الخير أن نتوقف قليلاً عند أهم كتاب الدواوين في العصر: أبي إسحق الصابئ والعلا بن الموصلايا وضياء الدين بن الأثير.

أبو إسحاق[4] الصابئ

---

(١) صبح الأعشى ٧/ ٢٣٧.

(٢) ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر ٥/ ١٩٢.

(٣) العزاوي ١/ ٢٧٧.

(٤) انظر في ترجمة الصابئ اليتيمة ٢/ ٢٤١ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢/ ٢٠ وابن خلكان ١/ ٥٢، ٤٤٥ وصوان الحكمة ص٣٤٢ وتاريخ الحكماء للقفطي ص٧٥ والشذرات ٣/ ١٠٦ والإمتاع والمؤانسة ١/ ٦٨ والمقابسات لأبي حيان (انظر الفهرس) وصبح الأعشى ٦/ ٤٨٣ و١٤/ ٣٦٠ (راجع الفهرس) وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي (الطبعة الثامنة) ص٢١٧.

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابئ المكنى بأبي إسحاق، أصل آبائه من حران، ولد ببغداد سنة نيف وعشرين وثلثمائة، وبها نشأ وتثقف وتأدب، ولزم فيها مواطنيه الحرانيين وأخذ ما عندهم من الطب والرياضة والهندسة وعلم الفلك، ويقول القفطي: له مؤلف في المثلثات. ويبدو أنه أحس في نفسه مبكراً بنزوع شديد نحو الأدب وأن يصبح من كتاب الدواوين، فأخذ يكب على النصوص الشعرية والنثرية، وحفظ القرآن الكريم، وكان شاعراً ففتحت له الأبواب وتعرف عليه الوزير المهلبي، وأعجب به، فاصطنعه لنفسه، وأحضره مجالس أنسه، ولم يلبث أن قلده ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ حتى إذا توفي المهلبي سنة ٣٥٢ وصادر معز الدولة البويهي أمواله قبض على أبي إسحاق الصابئ فيمن قبض عليه من أصحابه وخلصائه. واستعطف معز الدولة بقصائد جعلته يعفو عنه ويعيده إلى عمله في ديوان الرسائل. وظل قائماً عليه طوال عهد ابنه عز الدولة بختيار، وكان قد نشب خلاف بينه وبين ابن عمه عضد الدولة البويهي، وكان الصابئ في أثناء ذلك يكتب باسمه مكاتبات إلى عضد الدولة تؤلمه، وحدث أن تقرر الصلح بينهما ذات مرة، فطلب بختيار إلى الصابئ أن يكتب نسخة يمين يستوفي فيه الشروط على عضد الدولة حق الاستيفاء، ولم يجد عضد الدولة حينذاك بداً من حلف اليمين، وعرف أن أبا إسحاق الصابئ كاتبه، فحقد ذلك عليه. وتطورت الظروف، ونشبت حرب بين بختيار وعضد الدولة سنة ٣٦٧ وسقط بختيار في ميدانها صريعاً واستولى عضد الدولة على بغداد والعراق. وسرعان ما اعتقل الصابئ وزج به في غياهب السجون. ومازال بعض كبار رجال الدولة يشفعون له، فقال عضد الدولة: ليصنف كتاباً في أخبار آل بويه، فأخذ في تصنيف كتاب " التاجي " وهو في السجن، ونقل إلى عضد الدولة أنه سئل عما يصنع، فقال: أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها، فحنق عليه حنقاً شديداً، وصمم أن يرميه تحت أرجل الفيلة ليقتل أشنع قتلة، وعاد كبار رجال الدولة يتشفعون له، فعفا عنه إلا أنه ظل مبعداً في أيامه. حتى إذا توفي عضد الدولة سنة ٣٧٢ عاد إلى تولي ديوان الإنشاء وظل يليه إلى وفاته سنة ٣٨٤. وقالوا إنه كان يتولى نقابة الصابئة في بغداد وإنه كان شديد الإيمان بدينه الوثني، وحاول عز الدولة مراراً أن يدخله في الدين الحنيف فكان يعتذر. وكان

يصوم شهر رمضان مع المسلمين. وظل الحكام البويهيون ووزراؤهم يرتضون أن يكون على رأس الديوان أحد الصابئة عبدة الكواكب والنجوم، وكأنهم تسامحوا معه لتفوقه في الكتابة، يقول الثعالبي أنه " أوحد العراق في البلاغة ومن به تثنى الخناصر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية في البراعة والصناعة " ويقول أبو حيان التوحيدي: " نظمه منثورة، ومنثورة منظومة، إنما هو ذهب إبريز كيفما سبك فهو واحد. وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد، وما ماثله فيها إنسان " وقد نشر شكيب أرسلان مختارات من رسائله بلبنان في مجلدين، وهي مطبوعة بطوابع السجع والمحسنات البديعية، وفيها يقتبس كثيراً من آي القرآن الكريم، ويضمنها أحياناً بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار القديمة والحديثة، وكان يطيل في التحميدات أول الرسائل حتى ليظن قارؤه أنه من جلة المسلمين، كقوله في مطلع إحدى رسائله:

" الحمد لله العلي العظيم، الأزلي القديم، المتفرد بالكبرياء والملكوت، المتوحد بالعظمة والجبروت، الذي لا تحده الصفات، ولا تحوزه الجهات، ولا تحصره قرارة مكان، ولا يغيره مرور زمان، ولا تتمثله العيون بنواظرها، ولا تتخيله القلوب بخواطرها، فاطر السموات وما تظل، وخالق الأرض وما تقل ".

وهو يستمر في هذا التحميد طويلاً، ولو لم نعرف أن الصابئ كاتبه لظنناه أحد الكتاب المسلمين المثقفين بثقافة الاعتزال، المؤمنين بوحدانية الله وتنزيهه عن الشبه بالمخلوقات، فلا يحصره مكان ولا زمان ولا تحده جهات ولا صفات، إذ ليس بجسم ولا عرض، فالعيون لا تتمثله والخواطر لا تتخيله، مبدع السموات والأرض. وفي هذه السطور من التحميد ما يوضح قدرته على السجع، وهو لا يكتفي فيه بالروي الذي يجمع بين نهايتي السجعتين، بل يحاول أن يوازن بين ألفاظ كل سجعتين في عدد حروفها وحركاتها وسكناتها، وكأن الرسالة صفوف موسيقية متقابلة، فكلمة " العلي العظيم " يليها " الأزلي القديم " وكلمة "المتفرد بالكبرياء والملكوت" يليها " المتوحد بالعظمة والجبروت" وتتوالى السجعات، فكل سجعة تسمع في تاليتها جرسها الموسيقى، مع المهارة في اصطفاء الألفاظ. واقرأ له

هذه القطعة من رسالة على لسان عز الدولة.. حاول فيها أن يستعطف عضد الدولة وأن يرده إلى ما بينهما من صلة الرحم:

" إن من أعظم محن هذا البيت أن تزول منابت فروعه عن منابت أصوله، وأن تؤتي مراسي أوتاده من ذوائب عروشه، وأن تدب بينهم عقارب المشاحنة، وتسري إليهم أراقم المناقشة، وتنبث الدواهي فيهم من ذاتهم، وقد كانت محسومة من أضدادهم وعداتهم ".

وإنما تمثلنا بهذه القطعة لنشير إلى أنه كان في أحيان قليلة لا يلتزم السجع بين كل عبارة وتاليتها، ومع ذلك كان يلتزم فيها الموازنة الصوتية الدقيقة بين كلمات الصيغتين المتجاورتين حتى يتلافى ما نقصها من تماثل الروي في نهايتها. ومر بنا أن أبا حيان أشار إلى أن له فنوناً من الكلام لم يسبقه إليها أحد، ولعله يشير بذلك إلى بعض رسائل هزلية له، وهي ليست رسائل سلطانية ولا إخوانية جادة، إنما هي رسائل أراد بها إلى الإضحاك وإدخال شيء من السرور والسعادة على قارئه، من ذلك رسالة رواها ابن خلكان كتبها رداً على رقعة وصلت إليه من شخص، كان أهدى إليه جملاً، وذكر ذلك في رقعته، وفيها يقول:

" ذكرت حملاً (كبشاً) جعته جملاً.. فلما أن حضر رأيت كبشاً متقادم الميلاد، من نتاج قوم عاد، قد أفنته الدهور، وتعاقبت عليه العصور.. فبانت دمامته، وقصرت قامته، وعاد ناحلاً ضئيلاً، بالياً هزيلاً، بادي الأسقام، عاري العظام.. لا تجد فوق عظامه سلباً، ولا تلقى يدك منه إلا خشباً، قد طال للكلا فقده، وبعد بالمرعى عهده، لم ير القت إلا نائماً، ولا الشعير إلا حالماً.. وقلت أذبحه ليكون وظيفة للعيال.. فأنشدني وقد أضرمت النار، وحدت الشفار:

أُعيذها نظراتٍ منك صادقةً   أن تحسب الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمُ[1]

---

(١) البيت للمتنبي من قصيدته التي عاتب فيها سيف الدولة الحمداني. والضمير في أعيذها يعود إلى نظرات يقول له: أعيذ نظراتك البصيرة أن تخدعك فلا تفرق بين شاعرك وغيره من حاسديه الذين يتظاهرون لك بمثل مودته تمويهاً وخداعاً.

ثم قال: وما الفائدة من ذبحي، ولست بذي لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمي، ولا ذي جلد يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمي، ولا ذي صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصت (أذهبت) وبري ".

وليست الفكاهة شيئاً سهلاً، فقليلون هم الذين يحملون هذه الروح، وهي تدل على ظرفه وأنه كان لطيف المحضر حلو الحديث، ولذلك قرب من نفوس معاصريه. وسجعه في هذه الرسالة التي يجدر بنا أن ندخلها في حيز الرسائل الأدبية مكتمل الأداء الموسيقى، وهو قصير قصراً تسري فيه العذوبة والرشاقة. وقد تطول السجعة كما في السجعات الثلاث الأخيرة، ولكنه يحتال عليها باكتمال الملاءمة الصوتية بين كلمات كل سجعة وتاليتها وكأننا بإزاء معادلات موسيقية تامة. وللصابئ رسالة أدبية هزلية أخرى تحتل في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ست[1] صفحات كبيرة، وهي صورة عهد بالتطفل كتبه على لسان متطفل بغدادي كبير في عصره كان يسمى عليكا إلى متطفل ناشئ، يسمى علي بن عُرْس الموصلي، وهو يستهله بأن عليكا عهد إلى تلميذه بإحياء سنته وحفظ رسومه من التطفل على أهل بغداد وما يتصل بها من أرباضها (ضواحيها) وأكنافها في سوادها وأطرافها لما توسمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم، ويأخذ في سد وصاياه في شكل أوامر وفرائض يجب أن يتبعها ابن عرس، من ذلك أنه:

" أمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه، وسمقط الأمراء والوزراء بسراياه.. وأمره أن يتبع ما يعرض لموسرى التجار، ومجهزي الأمصار، من بنيان الدار، والعرس والإعذار (الختان).. وربما صبروا على تطفيل المتطفلين، وأغضوا على تهجم الواغلين (المعنين في التطفل) ليتحدثوا بذلك في محافلهم الرذلة، ويعدوه في مكارم أخلاقهم النذلة.. وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم.. وأمره أن يتعهد أسواق المسوقين، ومواسم المتابعين، فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها، وأطعمة قد احتشد مشتريها، اتبعها إلى المقصد بها، وشيعها إلى المنزل الحاوي

---

(١) صبح الأعشى ١٤/ ٣٦٠.

لها، واستعلم ميقات الدعوة.. وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين، فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم، ومأدبة تعمهم.. حمل عليها حملة الحوت الملتقم، والثعبان الملتهم، والليث الهاصر، والعقاب الكاسر.. وأمره أن يروض نفسه، ويغالط حسه، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً، ويطوي دون كشحاً، فإن أتته اللكزة في حلقه، صبر عليها في الوصول إلى حقه، وإن وقعت به الصفعة في رأسه، صبر عليها لموقع أضراسه، وإن لقيه لاق بالجفاء، قابله باللطف والصفاء".

والعهد بديع، وهو يصور حياة المتطفلين المتسكعين ببغداد، وكانت قد نشأت منهم طبقة كبيرة احترفت الأدب واتخذته وسيلة للشحاذة الأدبية، وهم أهل الكدية، وقد تحدثنا عنهم في غير هذا الموضع مصورين كيف كانوا يتخذون الشعر الفكه لتصوير إفلاسهم وبؤسهم تصويراً يبعث السرور في نفوس سامعيهم. ولا ريب في أن أهل بغداد ظلوا يضحكون طويلاً كلما قرءوا عهد أبي إسحق الصابئ السالف أو تذكروه، وسجعه فيه متكامل الأداء الموسيقى، سواء قصره أو طوله، إذ يبغي به دائماً أن يلذ الآذان، حين تنصت إليه لذة موسيقية بديعة.

العلاء[(١)] بن الموصَلايَا

هو أمين الدولة أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصلايا البغدادي، ولد سنة ٤١٢ ببغداد وبها كان منشؤه ومرباه، ونشأ نصرانياً، وأقبل على دراسة الأدب وحفظ نصوصه من الشعر والنثر، كما أقبل على حفظ القرآن الكريم حتى يعد نفسه مثل أبي إسحاق الصابئ ليكون موظفاً بالدواوين، وسرعان ما بهر الناس بأدبه، ولم يلبث الخليفة القائم (٤٢٢-٤٦٧هـ) أن جعله كاتب الإنشاء بدار الخلافة سنة ٤٣٢ وظلت له هذه الوظيفة في عهد المقتدى (٤٦٧-٤٨٧هـ) والمستظهر (٤٨٧-٥١٢هـ) حتى توفي سنة ٤٩٧ وبذلك شغلها خمساً وستين سنة. وأتم الله عليه في أثناء ذلك نعمته، فأسلم وحسن

---

(١) انظر في ترجمته وما استشهدنا به من نصوصه الخريدة (قسم العراق) ١/ ١٢٣ والمنتظم ٩/ ١٤١ ونكت الهميان ص٢٠١ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٨٩ وابن خلكان ٣/ ٤٨٠ وصبح الأعشى ٦/ ٤٠٤، ٤١٥، ٤٥٣، ١٠/ ٣١، ٢٣٤، ٢٩٤.

إسلامه، واختلف من ترجموا له في زمن إسلامه، فالعماد الأصبهاني يقول إنه كن في زمن القائم، ويقول ابن خلكان إنه كان في زمن المقتدى ويعين السنة بأنها كانت سنة ٤٨٤. ونميل إلى الأخذ برأي العماد لأنه ظل طويلاً ببغداد. وقد كف بصر العلاء في آخر حياته فكان ابن أخته هبة الله بن الحسن يكتب الرسائل عنه. وظل جاهه يزيد عند المقتدى كل يوم حتى ضم إلى رياسته لديوان الرسائل النيابة في الوزارة وظل يضمهما في عهد المستظهر. ويقول العماد عنه: " كان بليغ الإنشاء، سديد الآراء، رسائله تعبر عن غزارة فضله ووفور علمه " ويقول الصفدي: "أحد الكتاب المعروفين الذين يُضْرَب بهم المثل ".

وقد احتفظ كتاب صبح الأعشى للعلاء في جزئه السادس بثلاث رسائل: رسالة بشارة بالنصر على البساسيري في منتصف القرن الخامس حين قضى عليه طغرلبك، وهي موجهة من الخليفة القائم إلى صاحب غزنة، ورسالة ثانية موجه من الخليفة القائم أيضاً إلى شخص عينه وزيراً له ورسالة ثالثة موجهة منه إلى أتسز. وبالمثل احتفظ صبح الأعشى في جزئه العاشر بثلاث رسائل أخرى، أولاها عهد ليوسف بن تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب، وهو موجه إليه من الخليفة القائم، ومعروف أن يوسف ابن تشافين إنما تسلطن على الأندلس في سنة ٤٨٥ بعد وفاة القائم بنحو ثمانية عشر عاماً، فإما أن يكون العهد خاصاً بسلطنته على بلاد المغرب، وإما أن يكون موجهاً إلى يوسف من الخليفة المقتدى الذي تسلطن يوسف على الأندلس في عهده أو من الخليفة المستظهر تاليه في الخلافة منذ سنة ٤٨٧ والعهد طويل، إذ يقع في نحو أربع عشرة صفحة، ويشتمل على عشرين آية قرآنية، مما يدل بوضوح على حفظ ابن الموصلايا للقرآن وأنه كان يقبس من أضوائه في رسائله مثل الصابئ. والرسالة الثانية موجهة من القائم إلى ابن جهير حين استوزره وأرخ القلقشندي الرسالة بسنة ٤٧٢ وكان القائم قد توفي منذ خمس سنوات، ومعروف أن القائم استوزر ابن جهير مرتين: مرة سنة ٤٥٥ ومرة سنة ٤٦١ وظل في الوزارة حتى توفي القائم، وأقره الخليفة المقتدى على الوزارة سنين، ثم عزله. وبذلك يكون التاريخ الذي أرخ به القلقشندي هذه الرسالة الثانية غير دقيق. والرسالة الثالثة موجهة من القائم إلى جاثليق النصارى النسطوريين في صورة عهد بحياطته هو وأهل ملته في نفوسهم

وأمـوالهم وبـيعهم وديـارهم ومقـار صـلاتهم، عـلى أن تؤخـذ الجزيـة- وكانـت أشـبه بـضريبة دفاع- مـن رجـالهم ذوى القـدرة دون النـساء ومـن لم يبلـغ الحلـم، ولا تؤخـذ إلا مـرة واحـدة في الـسنة. والعهـد يجعـل الجـاثليق النـسطوري لا رئيـساً للنـساطرة المـسيحيين الـشرقيين فحـسب، بـل أيـضاً للـروم واليعاقبـة في بغـداد وسـائر البلـدان الإسـلامية، فهـو بطـرك النـصارى العـام. ويلفتنـا في العهـد لابـن تاشـفين وفي الرسـالة الموجهـة إلى ابـن جهـير وكـذلك في الرسـالة التـي تبـشر بالنـصر عـلى البـساسيري أن ابـن الموصـلايا يطيـل في الحمـد لله، والـصلاة عـلى رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتجرى الصلاة في رسالة البساسيي على هذا النمط:

" الحمـد لله الـذي اخـتص محمـد (صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم) برسـالته وحبـاه، وأولاه مـن كرامته ما حـاز لـه بـه الفـضل وحـواه، وبعثـه عـلى حـين فـترة مـن الرسـل، وخـلاء مـن واضـح الـسبل، فجاهـد بمـن أطاعـه مـن عـصاه، وبلـغ في الإرشـاد أقـصى غايتـه ومـداه.. إلى أن دخـل النـاس في الـدين أفواجـاً، وسـلكوا في نـصرته جـدداً (طريقـاً) واضـحاً ومنهاجـاً، وغـدت أنـوار الـشرع ضـاحكة المباسـم، وآثـار الـشرك واهيـة الـدعائم، ومناهـل الهـدي عذبـة صـافية، فـصلى الله عليـه وعـلى آلـه الطـاهرين وأصـحابه المتخبـين، وخلفائـه الأئمـة الراشـدين، وسـلم تـسليماً ."

ولعـلي لا أخطـئ إذا قلـت أنـه أسـلم مبكـراً عـلى الأقـل في منتـصف القـرن الخـامس حـين كتبـت هـذه الـصلاة في رسـالة البـساسيري لا كـما ذهـب ابـن خلكـان إلا أنـه أسـلم سـنة ٤٨٤. وواضـح أن الـسجع كـان يـسيل عـلى قلمـه، وكـان يعنـي فيـه باصـطفاء ألفاظـه وأن تـروع بجرسها الأسماع على نحو ما نرى في الفقرة التالية من عهد يوسف بن تاشفين:

" وأمـره الخليفـة أن يعـدل في الرعايـا قبلـه، ويحلهـم مـن الأمـن هـضابه وقللـه، ويمـنحهم مـن الاشـتمال، مـا يحمـي بـه أمـورهم مـن الاخـتلال.. ويـضفي عـلى المـسلم مـنهم والمعاهـد (الـذمي) مـن ظـل رعايتـه مـا يـساوي فيـه بـين القـوي والـضعيف، ويلحـق التليـد مـنهم بـالطريف، ليكـون الكـل وادعـين في كنـف الـصون، راجعـين إلى الله تعـالى في إمـدادهم بـالتوفيق وحـسن الطاعـة والعـون، وأن ينظـر في مظـالمهم نظـراً ينـصر الحـق فيـه، ويـنشر علـم العدل في مطاويه.. مليناً لهم في ذلـك جانبـه، ومبينـاً مـا يظـل بـه كاسـب الأجـر وجالبـه، جامعـاً

لهم بين العدل والإحسان، وجاعلاً أمر الله تعالى في ذلك متلقى بالطاعة الواضحة الدليل والبرهان، قال الله تعالى: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).

وهو يلتزم السجع على هذا النحو في رسائله، محاولاً بكل ما استطاع أن يصفي ألفاظه من الشوائب، ويخليها من جميع الأدران حتى تروق السامع، وحتى يبلغ من التأثير فيه كل ما يريد، وهو يستتم تأثيره بما يختم به فقره في هذا العهد وفي غيره من رسائله بما يورد من آيات الذكر الحكيم التي تضيء بأشعتها الكلام وتجذب إليه القلوب والأفئدة.

ضياء[1] الدين بن الأثير

هو ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر شمالي العراق سنة ٥٥٨ لأسرة تعنى بعلوم الشريعة واللغة، ووجهه أبوه لحفظ القرآن الكريم، وفرغه للدراسة كما فرغ أخويه: المبارك وعز الدين صاحب كتاب الكامل في التاريخ. وانتقل ضياء الدين مع أبيه إلى الموصل سنة ٥٧٩ وفيها أتم دراسته للعلوم الإسلامية واللغوية والبلاغية، وأكب على حفظ الأحاديث النبوية والأشعار القديمة والحديثة وخاصة أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي. ولما أحس أنه كملت له أدواته في الكتابة قصد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧ ووصله به القاضي الفاضل وزيره، فعمل في دواوينه نحو أربعة أشهر، ثم طلبه الأفضل نور الدين من أبيه صلاح الدين، ولبى طلب ابنه، فانتقل إلى العمل معه بنفس راتبه، واتخذه لنفسه مستشاراً ووزيراً. وتوفي صلاح الدين، فصارت دمشق للأفضل، وكلف ضياء الدين بتدبير شئونها، فأساء التدبير والمعاملة مع أهلها، حتى هموا بقتله. وتتطور الظروف ويصبح الأفضل سلطاناً على مصر، فيلحق به سراً في صندوق مقفل عليه خوفاً من الدمشقيين أن يقتلوه. يظل نور الدين في مصر عاماً ويأخذها منه عمه العادل ويعوضه منها قلعة على الفرات تسمى سميساط.

---

(١) انظر في ضياء الدين وترجمته ابن خلكان ٥/ ٣٨٩ والحوادث الجامعة (طبع بغداد) ١٣٦ وعبر الذهبي ٥/ ١٥٦ ومرآة الجنان ٤/ ٩٧ والنجوم الزاهرة ٦/ ٣١٨ والشذرات ٥/ ١٨٧ وانظر كتابنا: البلاغة: تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص٣٢٣.

ويخرج ضياء الدين وراءه مستتراً إلى ولايته الجديدة، ويقيم عنده مدة، ثم يفارقه لى غير مآب في سنة ٦٠٧ ويرحل إلى أخيه السلطان الظاهر صاحب حلب، ولا يطول مقامه عنده، فيولي وجهه نحو الموصل، ولا تستقيم حاله، ويفارقها إلى إربل سنة ٦١١ ولا يستقر بها، بل سرعان ما يخرج منها إلى الموصل، وبها يلقى عصاه منذ سنة ٦١٨ إذ يصبح كاتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود حتى نهاية حياته، ويحدث أن يرسله في سنة ٦٣٧ إلى بغداد في بعض المهام، فيدركه بها الموت.

وحظي ضياء الدين عند الأسلاف بشهرة عظيمة لروعة أسلوبه في رسائله ويقول ابن خلكان أنها كانت تشغل مجلدات، والمختار منها- كما يقول- مجلد واحد. وربما كان أهم منها في سبب شهرته كتابه: " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" وفيه صور الصناعة اللفظية وما يتصل بها من المحسنات البديعية، والصناعة المعنوية وما يتصل بها من صور البيان، موضحاً توضيحاً تاماً ما يحتاج الكاتب إلى العكوف عليه واستيعابه وتمثله من اللعوم اللغوية والبلاغية والأشعار وأمثال العرب وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي مع معرفة الأحكام السلطانية وخاصة أحكام الخلافة والولايات وما يتصل بذلك من الفقه. وبلغ من إعجاب بعض الأسلاف بالكتاب أن قالوا: " إن المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام ". وله بجانبه كتب أخرى، منها كتاب الوشى المرقوم في حل المنظوم، وقد أفرد فيه فصلين لبيان الاستعانة بآيات القرآن الكريم والحديث النبوي في الرسائل.

وكتاب المثل السائر يضع تحت أعيننا طريقته وخصائصه في رسائله الديوانية، وهو يعنى فيها قبل كل شيء بالسجع وتوشيته بالصور البيانية والمحسنات البديعية، مع نثر ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي فيها وحل أبيات الشعر. وعادة يسوق في الكتاب أمثلة كثيرة من كتاباته يصور بها جوانب من صناعته في رسائله، من ذلك استيحاؤه آيات سور الرعد والذاريات والصافات، وهي: (اللهُ الذي رفع السَّموات بغير عَمَدٍ ترونها) (وفي السماءِ رِزْقُكم وما توعدون) (وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ) إذ يقول في إحدى رسائله واصفاً غبار الحرب:

"وعقد العجاج[١] شفقاً فانعقد، وأرانا كيف رفع السماء بغير عمد، غير أنها سماء بنيت بسنابك الجياد، وزينت بنجوم الصعاد[٢]، ففيها ما يوعد من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق، ومنها تقذف شياطين الحرب لا شياطين الاستراق ".

ويعرض علينا أمثلة من اقتباسه للحديث النبوي وألفاظه في رسائله، فمن ذلك ما روي عن الرسول عليه الصلام من أنه في غزوة حنين أخذ قبضة من التراب وألقاها في وجوه الكفار قائلاً: " شاهت الوجوه ". ونقل ذلك ابن الأثير إلى إحدى رسائله واصفاً الانتصار على العدو وسحق جنوده قائلاً: " أخذنا بسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في النصر الذي نرجوه، ونبذنا في وجه العدو كفاً من التراب، وقلنا: شاهت الوجوه ". ويورد ضياء الدين أمثلة كثيرة من حله للأشعار، من ذلك بيت المتنبي الذي يصفه فيه استنقاذ سيف الدولة لقلعة الحدث من الروم وتجديد بنائها وتمزيق العدو شر ممزق، إذ يقول:

وكانَ بها مثلُ الجنونِ فأصبحتْ ... ومِنْ جُثَثِ القَتْلَى عليها تَمَائِمُ

وقد نثره ضياء الدين في وصف معركة مماثلة قائلاً: " وكأنها كان بالبلدة جنون، فبعث لها من عزائمه عزائم، وعلق عليها من رءوس القتلى تمائم ". ومن ذلك بيت البحتري:

سُلبوا وأشرقتِ الدماءُ عليهمُ ... محمَّرةً فكأنهم لم يُسْلَبُوا

فقد نثره في فصل من جملة رسالة تتضمن البشرى بهزيمة الكفار ومحقهم محقاً لم يبق منهم ولم يذر. والفصل يجري على هذا النمط:

" سلبوا وعاضتهم الدماء عن اللباس، فهم في صورة عار وزيهم زي كاس، وما أسرع ما خيط لهم لباسها المحمر، غير أنه لم يجيب[٣] عليهم ولم يزر، وما لبسوه حتى لبس الإسلام شعار النصر، الباقي على الدهر، وهو شعار نسجه السنان الخارق، لا الصنع

---

(١) العجاج: الغبار.

(٢) الصعاد: الرماح.

(٣) جيب الثوب: جعل له جيباً وهو فتحته العليا.

الحاذق، ولم يغب عن لابسه إلا ريثما غابت البيض[١] في الطلي والهام[٢]، وألف الطعن بين ألف الخط واللام ".

والفصل يدل على مهارة ضياء الدين في السجع، وهي مهارة كتب بها مجلدات، كما أسلفنا من الرسائل الديوانية. ونراه في المثل السائر يحمل على الأسجاع الغثة التي تحيل الكلام رصفاً لألفاظ وحشداً لكلمات دون أن تحمل شيئاً من المعاني الطريفة المبتكرة، بحيث لا يلذ السجع الفكر كما لا يلذ السمع.

وينوه ابن خلكان ببعض صوره واستعاراته في أسجاعه، ويضرب لذلك بعض الأمثلة، منها قوله في وصف النيل وقت زيادته وفيضانه في رسالة من رسائله: " وعذب رضابه فضاهى جنا النحل[٣]، واحمر صفيحه فعلمت أنه قتل المحل[٤] ". وضياء الدين يشير إلى طمي النيل، وكأنه في رأيه دماء الجدب، وهي حقاً صورة رائعة. وجعلته عنايته بالمعاني والصور المبتكرة يؤلف كتابه " المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء " كما جعلته عنايته بحل الشعر والاقتباس من آيات القرآن والأحاديث النبوية يؤلف كتابه: " الوشي المرقوم ".

وفي الحق أن ضياء الدين بن الأثير كان من الكتاب المجيدين، ولم تحفظ العراق بعده بكاتب ديواني على مثاله أو مثال أنداده السابقين. وحرى بنا أن نترك كتاب الدواوين إلى أدباء العصر النابهين: أبي حيان التوحيدي، وابن مسكويه، والحريري.

---

(١) البيض: السيوف.

(٢) الطلى:الأعناق، والهام: الرءوس.

(٣) الرضاب: الريق ورغوة العسل، جنا النحل: عسله.

(٤) المحل: الجدب.

٣

أبو حيان(١) التوحيدي

هو أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، وقد اختلف في مسقط رأسه وتاريخ مولده ووفاته، فقيل مسقط رأسه شيراز بفارس، وقيل نيسابور بخراسان، وقيل واسط بجنوبي العراق، وقيل بغداد، وهو القول الراجح في رأينا، إذ ذكر كثير من مترجميه أن أباه كان يبيع نوعاً من التمر ببغداد يعرف باسم التوحيد، وعليه حمل شراح المتنبي قوله:

يترشَّفن من فمي رشفاتٍ هنَّ فيه أَحْلَى من التوحيدِ

وكأنه هو وأباه نسبا إلى هذا التمر. وخطأ ما ذهب إليه ابن حجر وغيره ممن ترجموا له من أن نسبته إلى التوحيد تعني أنه من أهل العدل والتوحيد أي من المعتزلة، إذ القدماء لا ينسبون إليهم هذه النسبة، وإنما يقولون هذا معتزلي وذاك غير معتزلي، وسنرى عما قليل أبا حيان من ألد خصومهم وخصوم المتكلمين عامة، فليس بصحيح أنه منهم ولا أنه منسوب إليهم، إنما هو ابن بائع متجول ببغداد كان يبيع تمر التوحيد. وفي هذا ما يشير بوضوح إلى أنه كان بغدادياً ومن أسرة متواضعة. وتاريخ مولده بالدقة غير معروف، إنما يعرف بالتقريب، إذ روى ياقوت رسالة له مؤرخة بشهر رمضان سنة ٤٠٠ ذكر فيها أنه في عشر التسعين، وإذن فيغلب أن يكون مولده في العقد الثاني من القرن الرابع بين سنتي ٣١٠ و٣٢٠. ويقال إنه في السنة المذكورة كان قد ألقى عصاه في شيراز وظل بها حتى توفي، ويتأخر بعض مترجميه بوفاته إلى سنة ٤١٤. وليس في المصادر القديمة نص على جنسيته أو

---

(١) انظر في أبي حيان وترجمته معجم الأدباء ١٥/ ٥ وابن خلكان ٥/ ١١٢ وشد الإزار لمعين الدين الشيرازي ٥٣ والمنتظم ٨/ ١٨٥ والسبكي ٥/ ٢٨٦ وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٢٣ وميزان الاعتدال للذهبي ٢/ ٣٥٥، ٤/ ٥١٨ ولسان الميزان لابن حجر ٦/ ٣٦٩ وروضات الجنات ٧١٤ وكتبت عنه في العصر الحاضر مؤلفات وبحوث كثيرة لعبد الرزاق محيي الدين وإحسان عباس وزكريا إبراهيم ومحمد كرد علي في الجزء الثامن من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وأحمد أمين في تقديمه لكتاب الهوامل والشوامل وزكي مبارك في كتابه النثر الفني وإبراهيم الكيلاني في مقدمتيه لثلاث رسائل ولكتاب مثالب الوزيرين ومحمد توفيق حسين في تقديمه لكتاب المقابسات وبروكلمان ٤/ ٣٣٥ ودائرة المعارف الإسلامية.

على أصله، واختلف المعاصرون من قائل إنه فارسي، ومن قائل إنه عربي، ويرجع عروبته اعترافه- كما جاء في ترجمة ياقوت له- بأنه لم يكن يعرف الفارسية، وكرر ما يشير إلى ذلك في المقابسة الثانية من كتابه " المقابسات " وفي المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه " الهوامل والشوامل ". وأيضاً فإنه يدافع عن العرب بقوة- دفاع العربي الأصيل- ضد الشعوبيين من معاصريه أمثال الجيهاني، ويرفعهم مكاناً علياً، كما يرفع لغتهم على كل اللغات لبيانها الرائع على نحو ما يلقانا في الليلة السادسة من ليالي كتاب الإمتاع والمؤانسة.

وليس بين أيدينا شيء واضح عن طفولة أبي حيان ومرباه ومنشئه، وطبيعي أن تكون طفولته عادية وأن يختلف إلى الكتاب مثل لداته يحفظ القرآن الكريم والشعر ويتعلم الخط والحساب، وأكبر الظن أن أباه لاحظ فيه مخايل ذكاء منذ نعومة أظفاره، مما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء في المساجد، وكانت مفتوحة ومهيأة لكل من أراد لوناً من ألوان المعرفة. ويذكر أبو حيان طائفة كبيرة من أساتذته في كتاباته، منهم في النحو واللغة أبو سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ وفي البلاغة والبيان علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٦ وفي الفقه أبو حامد المرو روذي المتوفى سنة ٣٦٢ وفي الحديث أبو بكر الشافعي صاحب الغيلانيات المتوفى سنة ٣٥٤، وفي التصوف جعفر الخلدي تلميذ الجنيد المتوفى سنة ٣٤٨ وفي الفلسفة وعلوم الأوائل يحيى بن عدي تلميذ الفارابي المتوفى سنة ٣٦٣ وأبو سليمان المنطقي السجتاني الذي مر ذكره، وقد تعرف به في مجلس يحيى بن عدي وانعقدت بينهما صداقة وثيقة، حتى إذا استقل أبو سليمان بندوة أو مجلس كمجلس يحيى بن عدي أصبح أبو حيان من رواده، بل من ملازميه ومسجلي ما يدور بحضرته. وكان من أكبر الأسباب في اتساع ثقافته وأنها شملت كل علم وفن احترافه الوراقة أو نسخ الكتب بالأجرة للناس، فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب في كل فن وفي كل علم، وانطبع كثير مما كتبه في ذهنه وحافظته سواء أكان نثراً أو شعراً. واشتهر بشغفه بكتب الجاحظ وتوفره على تصحيحها وخاصة كتاب الحيوان، فكان ما يكتبه منه يعد نسخاً نفيسة في عصره ويدر عليه مكافأة جزيلة، كما جاء في مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة، بل لا شك في أن كل ما كان يكتبه كان يجزى عليه الجزاء الحسن.

وتظل حياة أبي حيان مجهولة لنا حتى أوائل العقد السادس من القرن، إلا ما نعرفه عنه من أنه كان وراقاً، يعيش من نسخ الكتب، ونراه يذهب إلى الحج في سنة ٣٥٣ ويتعرف في مكة على جماعة من الصوفية، منهم ابن الجلاء والحراني، وفي كتاباته روايات وأخبار نسبها إليهما. وعاد إلى بغداد في سنة ٣٥٤ والتقى فيها ببعض المتصوفة. ويبدو أنه أنس في نفسه شيئاً من القدرة الأدبية، فرأى أن يقصد إلى ابن العميد في الري لعله يجد لنفسه عملاً عنده، أو لعله يوصي به أولي الأمر في خراسنان. ويظل بعيداً عن بغداد منذ سنة ٣٥٥ حتى سنة ٣٥٨ إذا عاد إليها خالي الوفاض بعد أن طال وقوفه بباب ابن العميد. وكان تعرَّف في هذه الرحلة الطويلة إلى ابن مسكويه ويعمل من أعلام الهندسة والرياضة هو أبو الوفاء المهندس. وطبيعي أن يعود أبو حيان إلى عمله في الوراقة ونسخ الكتب.

ويحدث في سنة ٣٦٣ أن تشتد مظالم الدولة للرعية بما ترهقها به من الضرائئ وأن تثور الطبقات البائسة المحرومة، واستفحل أمر العيَّارين وسيطروا على بغداد ونهبوا كثيراً من الدور خاصة دور الأغنياء، وكان مما نهبوه دار التوحيديّ، فقد أخذوا كل ما كان بها من ذهب وثياب وأثاث وكل ما كان جمعه منذ أيام صباه كما يقول هو نفسه في الجزء الثالث من كتابه الإمتاع. ولعل هذا ما جعله يهاجم العيَّارين لا في هذا الكتاب وحده، بل أيضاً في كتاب الصداقة والصديق، بل إنه يهاجم العامة جميعاً حتى يقول في الليلة السادسة عشرة من كتاب الإمتاع: "طلب الرفعة بينهم ضَعَةٌ والتشبه بهم نقيصة". وهو استعلاء غريب على العامة من رجل أُسْرَته منهم ونشأ بينهم. وأهم من ذلك أنه يعترف بما أكسبته الوراقة من ذهب وثياب وأثاث، ومع ذلك نراه هاجياً لهذه المهنة أشد الهجاء ثالباً لها أشد الثلب حتى ليسميها "حرفة الشؤم". وهو يضيف إلى ذلك شكوى مرة من البؤس، مما جعل كل من كتبوا عنه في هذا العصر يَرْثون لبؤسه وفقره، معللين ذلك بأنه كان يعيش على الوراقة، مع أنه كان يعيش منها في عصره بعض كبار العلماء دون شعور بالبؤس، بل كان منهم من يكتفي بالقليل مما ينسخ في حدود حاجته على نحو ما يَرْوِي ياقوت في ترجمته للسيرافي أستاذ أبي حيان في النحو واللغة من أنه كان لا يخرج إلى مجلسه في القضاء بين الناس أو في محاضرة طلابه حتى ينسخ عشر وراقات بعشرة دراهم بقدر مئونته يومياً. وطبعاً لم يكن أبو

حيان وأمثاله من المحترفين للوراقة يكتفي بمثل هذه الورقات القليلة. وكان يحيى بن عدي أستاذه في علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة يحترف الوراقة على نحو ما يروي القفطي في ترجمته، كما مر بنا، وكان يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة. فالوراقة لم تكن مهنة بائسة كل هذا البؤس الذي تصَّوره المعاصرون من شكوى أبي حيان المستمرة من الضنك وضيق العيش. وفي رأينا أن بؤسه كان بؤساً نفسيًّا أكثر منه بؤساً مادياً، فقد كان يرى كثيرين ارتفعوا في الحياة وهم دونه في الثقافة والمعرفة والأدب والكتابة، فكان يشعر بضجر شديد وبشقاء لا حد له يملأ قلبه حسرة ولوعة، وظل هذا الشعور يلازمه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته.

على كل حل لم تمنحه الوراقة راحة ولا رضا ولا طمأنينة، ولعله من أجل ذلك فكر أن يضيف إليها بعض مؤلفاته يكتبها أو يهديها باسم بعض الأعيان أو بعض ذوي المناصب الكبرى، وأيضاً فإن ذلك لم يَعُدْ عليه بشيء من طمأنينة النفس وراحة الفؤاد فظل يشعر التعاسة والقلق المضني.. ومن أوائل ما ألفه كتابه "البصائر والذخائر" الذي نشره الدكتور إبراهيم كيلاني بدمشق في ستة أجزاء، ويقول التوحيدي في مقدمته إنه ابتدأ فيه سنة ٣٥٠ وانتهى منه في سنة ٣٦٥ كما يقول إنه استقاه من كتابات الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم من أعلام الأدب في القرن الثالث الهجري. والكتاب على طريقة الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، ويحمل كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال النساك وأشعار الشعراء وكلام حكماء الفرس واليونان والهند، مما قرأه أبو حيان في أثناء نسخة للكتب من كل لون وللدواوين القديمة والحديثة وفيه كثير مما سمعه من أساتذته ومعاصريه. وليس له فيه إلا جودة الاختيار وإلا مقدمته التي يدعو فيها إلى الزهد في الحياة الدنيا الزائلة. وهي نزعة كانت تمس نفسه في الأربعينيات على ما يظهر، وكذلك في الخمسينيات من عمره وبعد ذلك، وهي التي دفعته إلى الحج، غير أنها لم تكن تتعمقه، ولذلك نراه يطلب الدنيا فيذهب إلى الرَّيِّ وأرَّجان وافداً على أبي الفضل بن العميد، ويرجع بخفي حنين. ويدور الزمن ويتولى الوزارة ابنه أبو الفتح، ويزور بغداد ويتناقل الناس أخبار عطاياه للعلماء وفي مقدمتهم السيرافي وأبو سليمان المنطقي، ويشد أبو حيان

الحال إليه في الرّ سنة ٣٦٦ راجياً أن يعوضه ما نهبه نه العيَّراون منذ ثلاثة سنوات، ويقدم إليه رسالة رواها ياقوت تكتظ بملق مسرف غاية الإسراف وإلحاح شديد في السؤال وطلب النوال، حتى لكأنه من أهل الكُدية والشحاذة الأدبية. وما كان أغناه عنها، فإن أبا الفتح قابلها بالإعراض، وكان أبو حيان يسرع دائماً إلى الهجاء والذم، فربما بلغه عنه شيء منهما على الأقل يتصل بأبيه أبي الفضل بن العميد الذي أزورَّ عنه. وتتطور الحوادث سريعاً، ويفتك مؤيد الدولة البويهي بأبي الفتح ويخلفه الصاحب بن عباد، فيعرض عليه أبو حيان خدماته، ويكلفه بالوراقة له والنسخ، ويظل ناسخاً له مدة ثلاث سنوات حتى سنة ٣٧٠. وكان يُحضره مجالسه وعلى موائده، فيتدخَّل فيما يكون من حديث ببجاحة وزهو وتعلم مما ملأ نفس الصاحب عليه حَنَقاً وموجدة، فبرم به الصاحب برماً شديداً، وأبو حيان لا يتراجع، بل يزداد وقاحة. ولا يبعد أن يكون أبو حيان قد أخذ يسلُّ عليه لسان، وأن شيئاً من ذمه نُقل إليه. على كل حال فسد ما بينهما فساداً من الصعب إصلاحه أو رّتْقه. وأخذ الصاحب يجفوه ويصدُّه عن مجالسه صداقبيحاً. وليس ذلك فحسب فقد حرمه من مكافأته على ما ينسخ، إذا حبس عنه أجره، ولكما لقيه تجهَّم له، ما أضطر أبا حيان أن يرحل عنه بعد عمل متواصل لمدة ثلاث سنين دون أن يأخذ منه كما قال درهماً أو ما قيمتة درهم. وبمجرد أن عاد أبو حيان إلى بغداد انتقم منه ومن أبي الفضل ابن العميد شر انتقام بتأليفه فيهما كتابه "مثالب الوزيرين" الذي نشره بدمشق الدكتور إبراهيم الكيلاني، وهي صحف هجاء لاذعة أشد اللذع للوزيرين الكاتبين المشهورين، إذ تحامل عليهما تحاملاً مسرفاً وتجني عليهما تجنياً قبيحاً، محاولاً بكل ما استطاع أن يسلبهما ما اشتهر به في الناس من الفضائل. ونصيب الصاحب في هذا الهجاء المقذع أكثر من نصيب أبي الفضل بن العميد، لأن جرح أبي حيان منه كان أبعد غَوْراً وأشدَّ إيلاماً.

ويعود أبو حيان جريحاً كسيراً إلى بغداد وإلى حرفته في الوراقة، ويشقق عليه ابن مسكويه وصديقه أبو الوفاء المهندس، لما تجرَّع من حرمان مرير، ومدَّ إليه يدَ العون أبو الوفاء. أما ابن مسكويه فإنه ارتضى منه أن يؤلف معه كتابه "الهوامل والشوامل" والهوامل أسئلة لأبي حيان في الفلسفة والطبيعة والسلوك واللغة، والشوامل إجابات بديعة ابن

مسكويه، وقد نشره أحمد أمين والسيد صقر في القاهرة ومعروف أن ابن مسكويه كان يلازم عضد الدولة، فلابد أن يكون قد نزل معه بغداد حين استولى عليها من ابن عمه بختيار سنة ٣٦٧ وكان أبو حيان غائباً في الرَّيّ، حتى إذا عاد وجد ابن مسكويه وكان قد تعرف به قديماً حينت نزل الريَّ زمن أبي الفضل بن العميد. والمظنون أن حوار الهوامل والشوامل لم ينعقد بينهما حينئذ، وإنما انعقد في بغداد بعد مجئ أبي حيان من لدن الصاحب كاسف البال مقروح الكبد، يؤكد ذلك أننا نجد ابن مسكويه يحاول أن يفرِّج عنه الغم الذي ملأ قلبه وما انطوى عليه من الإحساب بالبؤس واليأس المرير من الزمان والإخوان، إذ لا جظ مَساربَ ذلك في حنايا نفسه وجوانب أسئلته، فقال له في مطلع أجوبته: "انظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأسَّ، أو إلى الصابرين معك وتسلَّ، فلعمر أبيك إنما تشكو إلى شاك وتبكي على باك، ففي كل حلق شجيً وفي كل عين قَذًي". فالناس كلهم شاكون باكون مثل أبي حيان، وكلهم يعترض في حلقه ما يكاد يغصُّ به، وحسبه أن يكون له في الناس قدوة وأسوة. وكأن ابن مسكويه أراد بالكتاب أن يكون فيه سلوان لأبي حيانَ، ينسبه همومه ولو إلى حين. ومع تقديمه هذه الهدية الفكرية لأبي حيان نجده يهاجمه في الليلة الثانية من كتابه الإمتاع، ويبدو أن سبب تهجمه عليه ما نعته به أبو حيان من أنه كان شحيحاً شُحًّا شديداً، وكأن أبا حيان لم يجد عنده ما كان يأمله من العون على ما كان يتجَّرعه من الصاب والعلقم.

أما أبو الوفاء المهندس فكان نعم الصديق لأبي حيان، وكان قد تعرف عليه قديماً ووعده بالسعي في صلاح حاله، وحين لقيه بعد عودته من لدن الصاحب أرعاه بصره كما يقول أبو حيان وأعاره سمعه، وبدأ فتوسط له عند القائمين على بيمارستان بغداد، فعيَّنوه راعياً لبعض شئونه. وأهم من ذلك أنه قَرَّبه من ابن سَعْدان أحد كبار رجال الدولة البويهية، فكلَّفه ينسخ كتاب الحيوان للجاحظ، وأخبره زيد بن رفاعة في سنة ٣٧١ أن أبا حيان يفكر في صنع رسالة عن الصداقة والصديق، فشجع ابن سعدان أبا حيان على إنجازها غير أنه لم ينجزها تواً، بل ظل يراجعها ويزيد فيها حتى نشرها سنة أربعمائة، وهي أقوال وأشعار مجموعة على طريقته في كتابه البصائر والذخائر، ولا يكاد يكون له فيها سوى المقدمة وحديث عن ندماء

ابـن سـعدان وحـسن اختيـاره للـمادة التـي كـوَّن منهـا الموضـوع، والرسـالة طُبعـت بإسـتانبول والقـاهرة. ويتـسم الـزمن فـترة لابـن سـعدان مـن سـنة ٣٧٢ حتـى سـنة ٣٧٥ إذ يـصبح وزيـراً لصمـصام الدولـة البـويهي ويتخـذ لـه مجلساً علمياً فلـسفياً أدبيـاً للحـوار لـيلاً في كـل مـا يتـصل بالإلهيـات والطبيعيـات والأخـلاق وعلـم الكـلام واللغـة والـشعر وقـد ذكـر أبـو حيـان العلـماء والمتفلسفة الـذين كـانوا يتحـاورون في هـذا المجلس بكتابـه "الإمتـاع والمؤانـسة" وقـد نـشره أحمـد أمين وأحمـد الـزين في ثـلاث مجلـدات بالقـاهرة. وجعـل ابـن سَـعْدان أبـا حيـان واسـطة عقـد هـذا المجلس، فأزال مـن نفـسه غـشاوات الكآبـة التـي كانـت قـد تراكمـت فيهـا طـوال سـنوات وقوفـه بـأبواب الـوزراء: لأبي الفـضل بـن العميـد وابنـه أبي الفـتح والـصاحب بـن عبـاد، وسـأله صـديقه أبـو الوفـاء أن يـسجل في كتـاب أطـراف المسائل التـي تناولهـا حـواره مـع ابـن سـعدان، فـألف لـه كتـاب الإمتـاع مقتـصراً فيـه عـلى مـا دار في سـبع وثلاثـين ليلـة، وعـادة يعـرض الـوزير سـؤالاً ويأخـذ أبـو حيـان في الإجابـة، وقـد يطلـب إليـه في موضـوع أن يكتـب فيـه رسـالة حتـى يوفيـه حقـه، وقـد ينقـل إليـه منـاظرة طويلـة دارت في سـوق الـوراقين أو دارت في عهـد وزيـر آخـر مثـل منـاظرة الـسيراقي ومتـى بـن يـونس في النحـو والمنطـق بجلـس الـوزير ابـن الفـرات سـنة سـت وعـشرين وثلثمائـة، وقـد رواهـا أبـو حيـان كاملـة في الليلـة الثامنـة. وعـرض الحـوار جوانـب مـن حيـاة البغـداديين كجانـب الغنـاء واللهـو. ولـيس في الكتـاب مـا يـدل عـلى أنـه ألِّـف بعـد فتـك صمـصام الدولـة البـويهي بـابن سـعدان سـنة ٣٧٥ ويغلـب أن يكـون أبـو حيـان أبتـداء تأليفـه في حياة الوزير، وأتمه بعـد وفاتـه، ذكـرى عزيـزة لـه ولمجلـسه العلمـي الفلـسفي الرائـع الـذي لم يبلـغ مبلغه مجلس أي وزير أو حاكم بويهي في زمنه.

وعـلى نحـو مـا سـجل أبـو حيـان حـواره مـع ابـن سـعدان في الإمتـاع والمؤانـسة سـجَّل في كتاب المقابسات أطـرف مـا دار مـن حـوار في نـدوة أبي سـليمان المنطقـي السجـستاني، ومـرَّ بنـا في غير هذا الموضـع حـديث طويـل عـن المقابـسات وعـن أبي سـليمان، ونـرى أبـو حيـان يـصرِّحُ في المقابـسة الخامـسة والثلاثـين أنـه يكتبهـا ووراءه خمـسون عامـاً ويـذكر في المقابـسة الحاديـة والستين أنه قـرأ عـلى أبي سـليمان كتـاب الـنفس ببغـداد سـنة ٣٧١، ويتحـدث في المقابـسة الثانيـة والخمـسين عـن شـخص تـوفي سـنة ٣٨٦ وهنـاك مقابـسة هـي المقابـسة الثانيـة والثمانـون

اختلفت المخطوطات في تاريخ إملاء أبي سليمان لها على تلاميذه، هل هي سنة إحدى وسبعين أو هي سنة إحدى وتسعين. وإن صح التاريخ الأخير كان زمن المقايسات وإلقائها يمتد طويلاً من نحو سنة ٣٠ حتى سنة ٣٩١ وإلا فقد امتد يقيناً حتى سنة ٣٨٦.

وليست المقابسات جميعها من إملاء أبي سليمان فكثير منها من إملاء من كانوا يحضرون ندوته من المتفلسفة ورجال الفكر. ويذكر أبو حيان في المقابسات الثانية والرابعة والواحدة والتسعين أنه حرَّر كلام أبي سليمان وغيره من أهل الندورة فأخلاه مما كان فيه من اضطراب اللفظ وزيْغ التأليف، ويقول إنه استنفد الطاقة في تنقية الألفاظ من الشوائب، حتى يسلم التعبير. وجعل ذلك بعض المعاصرين يتسع في الظن، فيقول إن صياغة المقابسات وغيرها من النصوص التي يحكيها أبو حيان عن المتفلسفة إنما هي من صنيعه، وإن أبا سليمان وغيره من جُلسائه إنما لهم المعنى وحده. وقد يؤكِّد ذلك بالقياس إلى أبي سليمان خاصة ما وصفه به أبو حيان في الليلة الثانية من كتابه "الإمتاع" بأن في لسانه لُكْنة ناشئة عن عجمته وما ذكره عنه من أن في عبارته تقطعاً في السياق، غير أن ما نعرفه عن أبي حيان من أن أحداً لم يسلم من لسانه يجعلنا نشك فيما قاله عن أستاذه. ولعلي لا أجاوز الحق إذا قلت إن المقابسات في جملتها من كلام أبي سلمان ورفاقه نَصًّا ولَفْظاً. ومما يؤكد ذلك أن من يرجع إلى المقابسة السابعة عشرة المنسوبة لابن سوار المشهور باسم ابن الخمّار المتفلسف يجدها بنَصِّها ولفظها في كتاب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي ٣٣٥ ومثلها المقابسة الثانية والأربعون المنسوبة إلى نفس المتفلسف فإنها بنفس اللفظ والنص في صوان الحكمة ص٣٥٣. والمقابسة التاسعة والعشرون المنسوبة إلى النوشجاني موجودة بلفظها ونصها في صوان الحكمة ص٣٤١. وبنفس أبي سليمان في كتابه صوان الحكمة وفي رسائله التي ألحقها به الدكتور بدوي يملك بوضوح زمام العربية ويصدر عن ملكة بيانية جيدة. ونحن لا ننفي عن أبي حيان جهده في تنسيق المقابسات وتصحيحه أو إصلاحه بعض عباراتها، ولكن هذا لا يعني ما قيل من أن اللفظ أو الصياغة في المقابسات له، والمعنى لأبي سليمان وصحبه، فصياغتها ولفظها أيضاً لهم إلا ما أدخله أبو حيان في بعض التغييرات وبعض

الحذف أو الزيادات أحياناً. وقد طُبع كتاب المقايسات طبعات مختلفة في بومباي والقاهرة وبغداد.

وتمضي مع أبي حيان بعد وفاة ابن سعدا، ويبدو أنه عاد بعده إلى عملين: الوراقة وتأليف بعض الكتب والرسائل وأهم كتاب أخرجه بأخرة من حياته كتاب الإشارات الإلهية المطبوع في القاهرة وبيروت، وأكثره مكتوب في صورة رسائل موجهة إلى بعض الضالين عن طريق الهداية الإلهية وإلى بعض السالكين وإلى مجموعة من المتصوفة. وتتخلَّلُ ذلك مناجيات وأدعية وابتهالات تصوِّر استشرافه إلى الملأ الأعلى. وقد يهبط من هذا المكوت إلى تصوير ما استشعره سنوات طوالاً من الضياع والحرمان والشكوى من الناس شكوى مريرة حتى ليتجه إلى ربه في رسالته رقم "يه" قائلاً: "اللهم إليك أشكو ما نزل بي منك، وإياك أسأل أن تعطف عليّ برحمتك، فقد- وحقِّك- شددتَ الَشاق، وضيَّقت الخِناق، وأقمت الحرب بين وبينك". ومثل هذا الإحساس بالتمرد على الخالق إنما بلغ ذروته، حتى أصبح إحساساً بالحرب كما يقول، في عهود وقوفه بأبواب الوزراء: أبي الفضل بن العميد وابنه أبي الفتح والصاحب بن عباد. ولذلك نظن ظناً أن الإشارات الإلهية مثلها مثل كثرة كتبه لم تؤلف في عام واحد ولا في أعوام قليلة، فبعضها يرجع إلى الستينيات من حياته إن لم يكن إلى الخسمينيات، وبعضها متأخر في السبعينيات من حياته وبعد السبعينيات يدل على ذلك ما يجري في كلامه من هجر للدنيا وترهاتها وتعلق بالله ووقوف طويل ببابه في طلب العفو والرجاء في نعيمه، وعيناه تعتصرها الدموع، وقلبه يتحرق شوقاً لاكتحال بصره بنور ربه.

وحاول الدكتور عبد الرحمن بدوي في تقديمه للكتاب أن يربط بين مناجيات أبي حيان في الإشارات وبين مزامير دواد وبعض آيات الأناجيل وأولى من ذلك في رأينا الربط بين مناجياته والمناجيات المبثوثة في عيون الأخبار لابن قتيبة، فمصادرها عنده مصادر إسلامية لا أجنبية. وهي تدل بقوة على تعمق الدين الحنيف في فؤاده وصفاء جوهره الروحي. أما ما ردده ابن الجوزي والذهبي وغيرهما- ونقله عنهم السبكي في طبقاته- من أنه كان

زنديقاً كبيراً، فهو بهتان عليه أي بهتان، وقد دافع عنه السبكي، وقال إن الذهبي حَمل عليه، كما حمل على المتصوفة جميعاً، وهي حملة ظالمة.

والحق أنه كان سنياً شديد التمسك بالسنة ولعل هذا هو السبب المهم الذي جعل يهاجم المعتزلة والأشاعرة والمتكلمين مهاجمة عنيفة، حتى ليقول فيهم عامة في الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع: "لم أر متكلماً في مدة عمره بكى خشية أو دمعت عينه خوفاً أو أقلع عن كبيرة رغبة.. جَذَ الله عروقهم واستأصل شأفتهم" ويفضِّل الأميين عليهم ويقول إنهم أتقى الله عز وجل واذكر للمعاد وأيقن بالثواب والعقاب، ويَسْلقُ الباقلاني الأشعري العظيم بلسان حاد. وهي طبيعة أبي حيان حين يهجو يُسِفُّ في هجائه إسفافاً شديداً، حتى لنراه يصف الباقلاني بأنه على طرائق الملحدة. وربما كان من أسباب حملته على المتكلمين- بجانب أنه سنى- ما أشرنا إليه في غير هذا الموضع من أنهم كانوا يصلون بين الفلسفة والدين، وكان هو وأستاذه أبو سليمان يرون الفصل بينهما، حتى لا يتسلل الإسماعيلية وغيرهم عن طريق هذا الوصل، كما مرَّ بنا، إلى مذاهبهم ونحلهم الباطلة. وكان يهاجم الشيعة كما هاجم المتكلمين وكانت الدولة البويهية الحاكمة لبغداد شيعية، فلم يجاهرهم بالهجوم، بل اتبع طريقة أخرى: أن يكتب رسالته التي سماها رسالة السقيفة، وينسبها إلى أبي بكر وعمر زاعماً أنهما وجَّهاً بها إلى علي بن أبي طالب لبيان أنه دون أبي بكر منزلة في استحقاق الخلافة. وقد نشرها بدمشق إبراهيم الكيلاني مع رسالتين أخريين: أولاهما في علم الكتابة والثانية في بيان أنواع الحياة على نحو ما كان يتصورها المتفلسفة في عصر أبي حيان. وله رسالة في بيان ثمرات العلوم نشرت ملحقة بكتاب الصداقة والصديق المطبوع في القاهرة وبها تعريفات للعلوم المختفة.

ووراء كل ما قدمنا لأبي حيان كتب ورسائل أخرى سقطت من يد الزمن، فلم تصلنا، منها رسالة سماها "الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي" وأكبر الظن أنه يقصد بها- إن صحت نسبتها إليه- النسك والعبادة لمن لا يستطيعون إلى الحج سبيلاً. وذكر ياقوت رسالة له كتبها إلى أحد أصدقائه سنة أربعمائة وفيها يذكر أنه أحرق كتبه، لما فقد من الولد النجيب والصديق والحبيب والتابع الأديب، ونظن أنه لم يحرف جميع كتبه، وإنما

أحرق طائفة منها يريد أن ينشرها في الناس، ولعله لم يرتض أن تنسب إليه وعلى كل حال كتبه المهمة كانت قد ذاعت وشاعت نُسَخُها في الناس، فلم يؤثر إحراقه لها- إن كان قد أحرقها- شيئاً. وكأن هذا الإحراق كان مَعْلَماً قوياً على طريق حياته التي أخذ يمضيها في شيراز منذ هذا التاريخ متجهاً بكيانه وروحه إلى بارئه، مناجياً له وداعياً، مع اتخاذه لنفسه حلقة يروي فيها الناسُ عنه- كما ذكر السبكي- الحديثَ النبوي حتى وفاته.

وأبو حيان يُعَدُّ أكبر أدباء العراق في هذا العصر من القرن الرابع الهجري إلى القرن الثالث عشر، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته، إذ تناول فيه- كما في كتابه الإمتاع والمؤانسة- كثيراً من جوانب التفلسف والفكر العميق في الإلهيات والطبيعيات والإنسان والأخلاق والنفس، فأدبه ليس لفظياً، قَعْقعة ولا طِحْن، بل هو أدب يحمل زاداً كبيراً من المعاني، وقد أشار مراراً في الإمتاع وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعني بالمعاني كما يُعْنَى بالألفاظ، وهو شيء طبيعي لمن تمثل مثله ثقافة زمنه على اختلاف ألوانها، فقد استوعبها استيعاباً رائعاً، وصدر عنها في كتاباته صدوراً طبيعيًّا، كما يصدر الضوء عن الشمس. وأداه ذلك إلى أن ينفصل عن موجة السجع التي سادت الكتابات الأدبية في أيامه، إذ رأى فيها طلبا للفظ أو الألفاظ واستعلاء لها على المعاني، بل قل تحيُّفا وانتقاصاً، فأزورَّ عنها. وكانت المكتبة العربية قد ألقت بكنوزها بين يديه في أثناء وراقته ونَسْخه، فراعة أسلوب الجاحظ وأدبه، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتي والمعاني، مستخدماً أسلوب الازدواج الذي عُرف به، وقد يتخلله في الحين البعيد بعد الحين السجعُ، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه، فاستقر هذا الأسلوب في نفس أبي حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته. ويبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتي لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند الجاحظ. وهو يتسع اتساعاً واضحاً في أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتي، ولْنقرأ هذه الفقرة في فاتحة الرسالة التي توسل بها إلى أبي الفتح بن العميد.

"اللهم هيِّئْ لي من أمري رشداً، ووفِّقني لمرضاتك أبدا، ولا تجعل الحِرْمان عليَّ رَصَداً، أقول وخير القول ما أنعقد بالصواب، وخير الصواب ما تضمن الصدق، وخير الصدق ما

جلب النفع، وخير النفع ما تعلق بالمزيد، وخير المزيد ما بدا عن شكر، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق".

وقد بدأ أبو حيان الرسالة بالسجع وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج، معادلاً بين كل عبارة وتاليتها معادلة صوتية دقيقة، وليس ذلك فحسب، فإنه يستغل قدرته الفكرية في تفريع الجمل بعضها من بعض، إذا بدأ بالصواب وجعله ينتهي بالتوفيق. ونحس كثيراً إزاء ازدواجات أبي حيان وتفريعاته كأنما يريد أن يكتسح بها قارئه اكتساحاً، دون أن يستطيع تخلصاً أو إفلاتا. وكان عجباً له أن هذه الرسالة التي كتبها لأبي الفتح لقيت منه إعراضاً، وعرف أن السبب في ذلك أنها لم تكتب بلغة السجع لغة معاصريه، إنما كتبت بأسلوب الجاحظ، فرأى أن يدافع عن هذا الأسلوب بقوة مما جعله يكتب رسالة في تقريظ الجاحظ، فرأى أن يدافع عن هذا الأسلوب بقوة مما جعله يكتب رسالة في تقريظ الجاحظ يشيد فيها به وبفنه. ولا يروعنا عنده ظاهر هذا الأسلوب وما يتخلله من السجع أحياناً إنما يروعنا فيه أيضاً ما شفعه به من تلوينات عقلية تتداخل في جميع أوعيته الصوتية، ونقصد الشراب السائغ الذي تحمله هذه الأوعية من المعاني الغزيرة حين تحدث عن موضوع من الموضوعات، فإذا هو يستقصيه من جميع أطرافه، ولا يكاد يترك فيه فكرة ولا خاطرة. ويكفي لبيان ذلك كتابه "مثالب الوزيرين" الذي يقع في نحو ثلثمائة وستين صحيفة، إذ لم يترك جانباً فيهما إلى مزقه تمزيقاً، وخاصة الصاحب بن عباد، وإنه ليعتذر عن ثلبه وذمه بمثل قوله في الكتاب:

"رماني عن قوسه مُعْترقا[1] فأفرغت ما كان عندي على رأسه مغيظاً، وحرمني فازدريته، وحقرني فأخزيته، وخصَّني بالخيبة التي نالت مني، فخصصته بالغِيبة التي أحرقته، والبادي أظلم، والمنتصف أعذر، وكنت كما قال الأول:

وإن لساني شَهْدُهُ يُشْتَفَى بِهِ   أَجَلْ وعلى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلْقَمُ

---

(١) معترقاً: أي حتى نفذ السهم من اللحم إلى العظم.

ولئن كان منعني ماله الذي لم يبق له، فما حَظر عليّ عِرْضه الذي بقى بعده، ولئن كنت انصرفتُ عنه بِخُفَّيْ حُنيْن، لقد لصق به من لساني وقلمي كل عار وشَنار (١) وشَنْن، ولئن لم يرني أهلاً لنائله (٢) وبِرِّه، إني لأراه أهلاً بقول الحق فيه، ونثِّ (٣) ما كان اشتمل عليه من مخازيه، ولئن كان ظن أن ما يصير إليّ من ماله ضائع، إني لأوقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قولي شائع. والمنصف في الحكم يَعْذر المظلوم، ويلوم الظالم".

وواضح في الفقرة أن أبا حيان يعتمد في أسلوبه المزدوج على المقابلات، فهو يقابل بين صنيع الصاحب به وصنيعه بالصاحب في كل عبارتين متواليتين. وهو يتسع في ذلك هنا وفي كثير من جوانب كتاباته، يرفده في ذلك ذهن خصب حافل بالمعاني المتقابلة فلا يكاد المعنى يدوِّنه قلمه حتى يسيل معه مقابله. وشيء من ذلك كان عند الجاحظ وقد صورناه في حديثنا عنه بكتابنا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ولكن الجاحظ لا يبلغ فيه هذا المبلغ الذي نجده عند أبي حيان فقد كانت ثقافته، وخاصة الثقافة الفلسفية، أوسع بحكم تقدم العصر، فغزر فكره إلى أقصى حد، وكان لسانه يطاوعه ولا يتأبى عليه شيء من التعبير، فاتسعت المقابلات عنده واتسع توليد المعاني بل فيضانها من نبع متدفق لا يتوقف رِفْدُه ولا مدده.

ونراه في الإشارات يصور إحساسه في أواخر حياته بالغربة التي طالما أمضته والتي وصفها في مقدمة رسالته: الصداقة والصديق، إذ لم يبق له مؤنس ولا صاحب ليطيل في الإشارات في وصفه للغريب إذ يمتّد في ست صفحات لَبّته فيها الألفاظ ولَبَّتْه المعاني بمثل قوله:

"قد قيل الغريب مَنْ جفاه الحبيب، وأنا أقول: بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب من حاباه الشَّرِيب (٤)، بل الغريب من نودي من قريب، بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل الغريب من

---

(١) شنار: شنعة

(٢) نائل: عطاء.

(٣) نث: نشر.

(٤) الشريب: المشارك في الشرب.

ليس له من الحق نصيب.. والغريب من غربت شمس جماله، واغترب عن حبيبه وعذّاله.. والغريب مَنْ إن حضَر كان غائباً، وإن غاب كان حاضراً.. والغريب من إذا ذُكر الحق هُجر، وإذا دعا إلى الحق زُجِر، وإذا قعد لم يُزَرْ.. الغريب مَنْ إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا حوله.. الغريب من إذا أقبل لم يوسَّع له، وإذا مرض لم يُسْأَلْ عنه.. الغريب من إن زار أُغلق دونه الباب، وإن استأذن لم يُرْفع له الحجاب.. الغريب ليلة أسَف، ونهاره لَهَف، وغَداؤه حَزَن، وعَشاؤه شَجَن، وسِره عَلَن، وخوفه وطن".

وهي كلمات من سيل الغربة الذي تدفق في صفحات الإشارات، وكأنما هو سيل ليس له آخر من المعاني التي صيغت في أسلوب الأزدواج. وغَلَبَ السجع في هذه الكلمات، وهو يَكْثُر في الإشارات كثرة لا نراها في كتبه الأخرى، مما يدل على أنها حقاً آخر كتاباته. ونجد فيها نفس الحرارة التي لا تغيب أبداً عن كتابات أبي حيان لا في شبابه ولا في هرمه. وارجع إلى فكر أبي حيان الخصب في هذه الكلمات وما يصوره من ضروب الغربة، حتى لتشمل الغربة النفسية لمن لم يغترب، بل لمن يواصله الحبيب وينعم بوصله. وبذلك بَثَّ في كلامه معاني إنسانية عميقة، وهي تجري في كتاباته، وقد ختم حديثه عن الغريب بقوله:

"دع هذا كله. الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعياً إليه، ل الغريب من تهالك في ذكر الله متوكلاً عليه، بل الغريب من توجه إلى الله قالياً لكل من سواه، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرِّضاً لجَدْواه". فحتى الصوفي غريب، ولعله أولى بالشفقة والعطف من جميع الغرباء حوله. ومن أروع الأشياء حقاً أدعيته ومناجياته لربه في الإشارات من مثل قوله:

"اللهم رَوِّح صدورنا بنسيم وُدِّك، واغمُرْ أرجاء قلوبنا بغوامر من رِفْدك، وأذِقْنا حلاوة بِرِّك، وجُدْ علينا بك، وخَلِّ بيننا وبينك، وجَلِّ أبصارنا إليك.. واجعل أرواحنا مغارس معرفتك، وألسنتنا قواطف وصفك ونعتك، في قدرتك وحكمتك، وإذا عَطِشْنا فَروِّنا، وإذا ضعفنا فقوِّنا، وإذا أعْوَجَجْنا فسوِّنا، وإذا اعتللنا فداوِنا، وإذا كَدِرنا فصَفِّنا، وإذا دَنِسْنا فَنقِّنا.. وإذا بنَّا منك فصِلْنا بك"

وخصائصه التي صورناها واضحة في هذا الدعاء، فهو يعتمد فيه على الازدواج ومعادلاته الموسيقية، هو وما قد يلتحم معه من السجع، كما يعتمد على التفريعات في المعاني والتوليدات والمقابلات والاستعارات مما يروع قارئة روعة شديدة، بل مما يمتع سمعه وعقله وقلبه متعة هنيئة.

٤

ابن[1] مسكويه

هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه، واضطربت المصادر القديمة في مسكويه هل هو اسم جده أو هو اسمه، فذكر ياقوت في ترجمته وكذلك القفطي في تاريخ الحكماء أن مسكويه اسمه، وقال ابن خلكان في ترجمة ظهير الدين الروذراوري إنه أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه. وجعلت المصادر الأخرى لترجمته مسكويه اسم جده، وهو الذي يتبادر من اتفاق المصادر على أن اسمه أحمد بن محمد، وكأن اسم جده غلب عليه أحياناً. ويقول ياقوت إن مسكويه كان مجوسياً وأسلم وكان عارفاً بعلوم الأوائل معرفة جيدة، وكأنه خلط بين الحفيد والجد، فالمجوسية للجد والمعرفة بعلوم الأوائل للحفيد.

وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأة ابن مسكويه ومرباه فضلاً عن مولده ومسقط رأسه، وأكبر الظن أنه ولد حوالي سنة ٣٢٠ للهجرة لا سنة ٣٣٠ كما ظن مرجليوث في مقدمته لكتاب تجارب الأمم، إذ نراه يعمل مع المهلبي وزير معز الدولة البويهي منذ سنة ٣٤٥ حتى وفاته سنة ٣٥٢ والمعقول أن يلتحق بالعمل في دواوينه وهو في نحو العشرين على الأقل. ونسبه بعض من ترجموا له إلى الري، وقد تكون مسقط رأسه وموطن آبائه. ويبدو من صلته المبكرة بالمهلبي وعمله معه ببغداد أنه إما أن يكون منشؤه ومرباه فيها بحيث أتيح له فرصة تعرفه على المهلبي، وإما أن يكون قد نزلها في شبابه لاستكمال ثقافته. وتدل كتبه ومؤلفاته على أنه كان فيه نزوع للإطلاع على كتب الأدب والتاريخ وعلوم

---

(١) انظر في ابن مسكويه وترجمته تتمة اليتيمة ١/ ٩٦ ومعجم الأدباء ٥/ ٥ وابن خلكان ٥/ ١٣٧ وروضات الجنات للخوانساري ٣٦ وتاريخ الحكماء للقفطي ٣٣١ وابن أبي أصيبعة ٣٣٠ ورسائل الخوارزمي وصوان الحكمة ص٣٤٦ وما بعدها والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان ١/ ٣٥ ومقدمة أحمد أمين للهوامل والشوامل وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بورص ١٥٨ ومقدمة مرجليوث لكتاب تجارب الأمم والتراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ترجمة د. بدوي ص٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية في مادة ابن مسكويه وكتاب ابن مسكويه: فلسفته الأخلاقية ومصادرها لعبد العزيز عزت (طبع القاهرة) ومقدمة د. عبد الرحمن بدوي لكتابه الحكمة الخالدة.

الأوائل، ولابد أنه اختلف في بغداد إلى كثير من الأساتذة هذه العلوم. ونظن ظناً أنه اختلف مع لداته إلى يحيى بن عدي ومجالسه التي كان يحاضر فيها تلاميذه في تلك العلوم، كما اختلف إلى حلقات شيوخ مختلفين في اللغة والتاريخ، ثم التحق بالعمل مع المهلبي، ونراه في كتابه تهذيب الأخلاق يصرح بأنه مرت عليه فترة كان يعكف فيها على اللذات الجسمانية ويستكثر من المطاعم والملابس والزينة وأنه تدرج إلى فطام نفسه بعد الكبر واستحكام العادة وأنه جاهد نفسه جهاداً عظيماً حتى استخلصها من مطالب النفس الشهوانية وارتقى بها إلى مطالب النفس الناطقة أو العاقلة من الفضائل. وأغلب الظن أن هذا الاسترسال في اللذات إنما كان في عهد المهلبي الذي مر بنا انهماكه في الغناء والقصف وشرب الخمر وأنه كان يعقد بقصره لذلك ليلتين في كل أسبوع. ولابد أن ابن مسكويه كان يحضر هذا المجلس من حين إلى آخر، واندفع فيما اندفع فيه المهلبي من اللهو، حتى إذا توفي وصادر معز الدولة أمواله وقبض على بعض حواشيه ولى ابن مسكويه وجهه نحو الري ووزير ركن الدولة هناك أبي الفضل بن العميد، فأقامه خازناً على مكتبته. وربما كان في ذلك ما يدل على أنه عُرف بثقافة واسعة تشمل كل علم وكل فن، ولذلك اتخذه ابن العميد مشرفاً على مكتبته ينظمها ويضيف إليها روائع الكتب لزمنه في مختلف العلوم والفنون. وتعرف عليه أبو حيان التوحيدي حين وفوده على ابن العميد. وقال إنه رآه يهتم بعلم الكيميا دون غيره من علوم الأوائل، وأكبر الظن أن أبا حيان بالغ في قوله، فقد كان ابن مسكويه يهتم بعلوم الأوائل جميعاً كما يتضح من مديحه لأبي الفضل بن العميد في الجزء السادس من كتابه تجارب الأمم، إذ يقول عن شغفه بهذه العلوم: " فأما علم المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرتها " وطبيعي وابن مسكويه خازن كتبه أن يكون له بها نفس اهتمامه. وكان يعهد إليه بتربية ابنه أبي الفتح وتعليمه. ولما توفي أبو الفضل سنة ٣٦٠ وتحولت مقاليد الوزارة إلى أبي الفتح ظل خازناً لكتبه وأعلى منزلته. ويقبض على أبي الفتح سنة ٣٦٦ ويتحول ابن مسكويه إلى عضد الدولة البويهي، مؤملاً العمل عنده فيتخذه خازناً لكتبه، ويجعله من ندمائه المقربين إليه، حتى إذا استولى على بغداد سنة ٣٦٧ تحول معه إليها. وأخذ يعني – منذ هذا التاريخ على

الأقل- بمجالس المتفلسفة ومصاحبتهم، فكان لا يكاد يفترق عن ابن الخمار المتفلسف الذي مر ذكره، كما كان يلم أحياناً بمجلس أبي سليمان المنطقي السجستاني ويستمع إلى ما فيه من محاورات بين متفلسفة عصره. أما زعم أبي حيان بأنه أعطاه شرحاً لإيساغوجي وقاطيغورياس لأبي القاسم غلام أبي الحسن العامري سنة ٣٧٢ فلا يغض من شأنه كما أراد، بل لعله يدل على رغبته في الإطلاع على كتب الفلسفة. وظل بعد وفاة عضد الدولة في السنة المذكورة يعمل مع ابنه صمصام الدولة (٣٧٢-٣٧٦هـ) ثم مع ابنه الثاني بهاء الدولة (٣٧٩-٤٠٣هـ) ويبدو أنه تحول مع صديقه ابن الخمار إلى بلاط خوارزم شاه مأمون بن مأمون إذ يذكر أنهما خدماه مع جملة من الأطباء منهم ابن سينا، ويغلب أن يكون ذلك في أوائل القرن الخامس الهجري. وحدث بينه وبين ابن سينا شيء من الجفوة، حتى ليذكر القفطي أن ابن سينا قال إنه حاضره في مسألة فاستعادها كرات دون أن يفهمها، ويصفه بأنه كان عسر الفهم. وفي رأينا أن ابن سينا تجنى عليه، ما تجنى عليه أيضاً أبو حيان في كلمته عنه بكتابه الإمتاع إذ قال إنه " عيي بين أبيناء ". وكتبه تشهد بفصاحته وذكائه. وبأخرة من حياته ترك خوارزم إلى أصفهان وعاش حتى بطلت حركته وبلغ من الكبر عتيا، فقد توفي عن نحو ماة عام سنة ٤٢١. وكان شيعياً إمامياً يعتقد بعصمة الإمام على نحو ما ذكر ذلك في خواتيم كتابه الفوز الأصغر.

وابن مسكويه يعد في الصفوة من فضلاء عصره وأجلائه، يقول الثعالبي في وصفه: "إنه في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر" ويذكر له طائفة من أشعاره تدل على براعته الشعرية وإحسانه في صنع الشعر ونظمه، غير أنه لم يتفرغ له ولم يجعله وكده وهمه. وكان ناثراً بليغاً كما يتضح من تراسله مع الخوارزمي وبديع الزمان. وفي رسائل الخوارزمي رسالة يعزيه فيها عن زواج أمه بعد وفاة أبيه، مما يؤكد أن صداقة كانت ناشبة بينهما، وربما رجعت إلى أيام شبابه. وفي ترجمة ياقوت له رسالتان متبادلتان بينه وبين بديع الزمان، يتنصل البديع في أولاهما من شيء بلغ ابن مسكويه عنه بعد مودة وثيقة كانت بينهما، ورد عليه ابن مسكويه فاسحاً في تنصله ومشيداً ببلاغته. ولم يجعل ابن مسكويه التراسل الأدبي صناعته، إذ كان يهتم بالتأليف وبرسالة خلقية كبرى جرد نفسه لها في

معظم كتاباته وتأليفاته، ويذكر له القفطي من كتبه المتصلة بالطب كتاباً في الأدوية المفردة، وذكر له كتاباً في الأطعمة.

وأول ما نقف عنده من كتبه كتابه " تجارب الأمم " وهو في التاريخ العام من الطوفان حتى سنة ٣٦٩ مع أنه عاش بعد ذلك طويلاً كما مر بنا، ويقال أنه وصل به حتى وفاة عضد الدولة صاحبه سنة ٣٧٢. ويبدو من مقدمة الكتاب ومن نفس اسمه أنه أراد به أن يتخذه الناس وخاصة الملوك والحكام والقواد عظة وعبرة، مما يرون فيه من أحداث التاريخ وتجاربه، فمقصده مقصد أخلاقي، وهو المقصد الأسمى الذي ابتغاه في تآليفه على نحو ما سنرى عما قليل. وللكتاب أهمية تاريخية بعيدة، وقد سقط من يد الزمن أكثر أجزائه، ونشر منه القسم الأخير الخاص بالقرن الرابع الهجري وهو فيه يعرض تاريخ البويهيين الذين خدم في دولتهم عرضاً عادلاً منصفاً دون تحيز، ومما يدل على ذلك موقفه من صديقه أبي الفضل بن العميد حين كف يده عن مساعدة المتطوعين لجهاد الروم الذين أقبلوا من خراسان في حماسة بالغة حين جاءهم النبأ المشئوم باستيلاء الروم على ثغري المصِّيصة وَطَرسوس في شمالي الشام، إذ وفدوا على أبي الفضل بن العميد في الري سنة ٣٥٤ يطلبون المال للميرة والسلاح، فردهم رداً منكراً، وكأنه خشي منهم مكيدة فسلط عليهم جنوده، ففرقوا جموعهم، ويأسى لذلك ابن مسكويه قائلاً: " لو أن هؤلاء المتطوعين لجهاد الروم- وكانوا يبلغون نحو عشرين ألفاً- أعطاهم ابن العميد المال الذي طلبوه لانضمت إليهم في الطريق أعداد ضخمة من الغزاة المجاهدين ولنكلوا بالروم نكالاً شديداً، لكن لله أمراً هو بالغه ". فصداقته لأبي الفضل بن العميد لم تمنعه من تسجيله عليه هذه الوصمة في تاريخه، ويبدو أن ابن مسكويه فرغ من تأليفه لهذا الكتاب التاريخي الذي كان يقع في ست مجلدات إما في حياة عضد الدولة وإما بعد وفاته مباشرة لأنه لم يذكر فيه شيئاً عن خلفائه من أبنائه.

وهذا المقصد الأخلاقي من العبرة والعظة الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب التاريخي الضخم دفعه أيضاً إلى تأليف كتابه " جاويدان خرد " أي العقل الأزلي، وقد اختار له اسماً فارسياً، مما يدل على أنه ألف مبكراً، وهو لا يزال في الري بخدمة أبي الفضل بن العميد

وابنه، وربما كان أول مصنفاته، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن بدوي باسم الحكمة الخالدة، وهو يصور في ابن مسكويه منزعاً إنسانياً واضحاً، إذ يجعل العقل الإنساني وما ينتجه من الحكم فوق كل جنس وكل أمة، بدليل ما جمعه في الكتاب من حكم الفرس والهند والعرب والروم الشرقيين، مما يثبت أن العقل الإنساني واحد مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة بالإنسان، ومهما اختلفت الظروف الطبيعية والاجتماعية.

وقد شغل ابن مسكويه نفسه بالأخلاق حتى عد من أئمة نظرياتها ومباحثها، وهو يعرض لها في ثلاثة كتب، هي الفوز الأصغر وتهذيب الأخلاق والهوامل والشوامل. أما الفوز الأصغر فقد تناول فيه ثلاث مسائل كبرى، وجعل كل مسألة في عشرة فصول، والمسألة الأولى تتصل بالإلهيات، وهي في إثبات الصانع وأنه واحد أزلي ليس بجسم وأنه واجب الوجود ليس بمتركب ولا متكثر ولا متحرك مما يؤكد أنه إنما يعرف بطريق السلب دون الإيجاب، وأيضاً فإن الله أبدع الأشياء لا من شيء. والمسألة الثانية تتصل بالنفس وأحوالها وأنها ليست بجسم ولا عرض وأنها تدرك المحسوسات والمعقولات وأنها ليست الحياة بل هي التي تعطي الحياة، وهي لا تبطل ولا تموت، ولها حال من الكمال تكون بها سعادة الإنسان عن طريق الحكمة النظرية والأخرى العملية التي تحصل بها الهيئة الفاضلة التي تصدر عنها الأفعال الجميلة. وإذا عاق هذه الحكمة عائق فإنه يتدنى في حال من النقص يكون فيها شقاؤه. ويوضح هنا توضيحاً رائعاً كيف أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع، إذ لم يخلق خلق من يعيش وحده من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء، فكلها تتم لها حياتها خلقة وإلهاماً، أما الإنسان فلا تتم له حياته إلا بالتعاون والتعاضد في كل ما يتعلق به من المطعوم والملبوس والمشروب. ويحمل على الزهاد الذين يحرمون المكاسب لأنهم يعتمدون على الناس في ضرورات أبدانهم ويطلبون معونتهم ولا يعاونونهم بشيء، وهم بذلك- في رأيه- جائرون ظالمون. والمسألة الثالثة في النبوات، وقد بدأ فصولها بالحديث عن مراتب الموجودات في العالم التي تسري فيها الحكمة ويظهر التدبير المتقن، وهي النبات والحيوان والإنسان. وكل نوع في هذه الموجودات الثلاثة لا يزال يترقى حتى يصل إلى صورة النوع الذي يليه، فالنبات لا يزال يرقى حتى نرى أرفعه

يقبل صورة الحيوان على نحو ما يرى في أشجار النخيل ففيها المذكر والمؤنث وتحتاج إلى التلقيح كالسفاد في الحيوان، والحيوان لا يزال يرقى حتى يقبل صورة الإنسان في القرود وما يماثلها في الخلقة الإنسانية. وهي تقترب في التمييز وقبول المعارف من الزنج وأشباههم. وبالمثال لا يزال يرقى الإنسان حتى يبلغ وجوداً أعلى من الوجود الإنساني وهو وجود الملائكة. ومن هنا أو في هذه الدائرة يظهر الأنبياء. وواضح أن فكرة ترقي الموجودات عند ابن مسكويه تشبه نظرية أهل النشوء والارتقاء، مما يدل على روعة تفكيره وأصالته.

وخص ابن مسكويه نظريته الأخلاقية بكتاب مفرد هو تهذيب الأخلاق، وهو كتاب نفيس إلى أقصى حد ونظريته فيه تقوم على المزج بين الروح الإسلامية كما يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية وبين آراء فلاسفة اليونان: أرسطو وجالينوس وأفلاطون وكذلك آراء الكندي والفارابي وما قرأه من حكم الفرس والهنود والعرب وما تلقفه من تجارب الحياة. وهو يستهله بتعريف النفس وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً، ويستدل على أنها ليست جسماً بأنها تقبل صور الأشياء المتناقضة بينما الأجسام لا تقبل إلا صورة واحدة كالطول والعرض والبياض والسواد، ثم هي تدرك المحسوسات والمعقولات وتميز المدركات الحسية والعقلية الصحيحة والخاطئة. ويلاحظ - كما لاحظ الفلاسفة قبله - أن للنفس ثلاث قوي: قوة شهوانية وقوة غضبية وقوة عقلية. ويقول إن الغرض من كتابه إصابة الخلاق الشريف الذاتي لا العرضي عن طريق المال أو السلطان أو المكاثرة والمغالبة. ويمضي فيما وُضع الكتاب من أجله وهو بيان نظريته الخلقية عن الخير وكيف أنه غاية الإنسان من وجوده حتى يحصل على الفضائل، وهو لا يحصل عليها إلا إذا طهرت نفسه من الشهوات الجسمانية والنزوات البهيمية ويفرق بين الخير والسعادة، فالخير عام للبشر جميعاً والسعادة خاصة بكل إنسان حسب ما يحقق لنفسه من المآرب العقلية وغير العقلية. ولما كان الخير كثيراً ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعه وجب أن تنهض به جماعة كثيرة، حتى يتوزعوه، ولذلك يجب على الناس أن يحب بعضهم بعضاً لأن كلاً منهم لا يتحقق كماله إلا بغيره. ويرى أن الأجناس الكبيرة للفضائل أربعة هي

الحكمة والعفة والشجاعة والعدل، ويأخذ في بيان أنواع كل جنس من هذه الأجناس ملاحظاً نظرية الأوساط الأخلاقية عند أرسطو، وهي أن الفضيلة دائماً تقع بين رذيلتين. ويأخذ برأي جالينوس القائل بأن الناس أقسام ثلاثة: أخيار بالطبع وهم قلة، وأشرار بالطبع لا يمكن أن يتحولوا أخياراً وهم كثرة، ووسط بين الطرفين، وهم قابلون لأن يكونوا أخياراً بالتأديب أو أشراراً أيضاً بالتعليم، وقد ينتقلون إلى الخير بمصاحبة الأخيار وبالمثل إلى الشر بمصاحبة الأشرار. وينقل عن أرسطو أن الشرير قد ينتقل إلى الخير بالتأديب. ويعرض للشريعة وأنها هي التي تقوم الناشئة وتعودهم الأفعال الخيرة، ويقول إن كمال الإنسان في اللذات المعنوية لا في اللذات الحسية، وإن من الواجب أن تربى الناشئة على أحكام الشريعة ثم تنظر في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الأحكام والآداب في أنفسها. ويدلي بفصل طويل في تأديب الناشئة والصبيان يقتبس أكثره من بروسن ويتحدث عن طائفة من الآداب في المطاعم وغيرها، ويطيل في الحديث عن الخير والسعادة وفرق ما بينهما مما أشار إليه، ويفيض في بيان الفضائل. ثم يتحدث عن التعاون والاتحاد، وفي رأيه أنه لا يمكن أن تقوم جماعة بدون المحبة، وأن علم الأخلاق إنما هو علم الإنسان بما يجب عليه في الجماعة، وبها تفسر الأخلاق، فليس هناك خلق فاضل لا يكون محوره الجماعة، ومن هنا كانت الأفعال الدينية لا توصف بأنها خلقية وكانت العبادة تخرج عن علم الأخلاق. ومن آرائه الطريفة أن أحكام الدين الحنيف تؤلف مذهباً خلقياً يقوم على حبة الإنسان للإنسان، ولذلك كانت العبادات دائماً تتطلب الجماعة على نحو ما هو معروف عن الندب لصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة واشتراك الناس في أداء فريضة الحج. وهكذا تقوم شريعتنا على الأنس والمحبة، وفي الذروة من المحبة محبة الله وتليها محبة التلاميذ لأساتذتهم ثم محبة الأبناء لآبائهم. ويقف عند الصداقة طويلاً مبيناً آدابها، ثم يتحدث أحاديث طريفة عن أمراض النفس وأسبابها وعلاجها وكيف أن الإنسان في حاجة إلى أن يعرف عيوب نفسه، ويعرض طائفة من الرذائل كالتهور والغدر والغضب.

وكان هذا الكتاب النفيس يدرس للناشئة في كثير من البلدان العربية في هذا العصر وشطر من العصر الحديث، وحرى بنا أن نعود إلى دراسته لهم في المدارس الثانوية، حتى

نمدهم بخير زاد لتقويم سلوكهم وتربيتهم تربية خلقية سديدة. وكثيرون يظنون أن قوام نثرنا الرسائل الرسمية والشخصية!

وحسبنا هذا الكتاب لنرى منه خطأ هذه الفكرة وأن في العربية كتباً نثرية نفيسة لا تمتد صفحاتها في أسجاع قلما تحوي غذاء فكرياً، بل تمتد في أسلوب مرسل وتشتمل على زاد من غذاء خلقي تربوي رائع.

ومر بنا أننا نظن ظناً أن ابن مسكويه ألف هذا الكتاب قبل أن يعرض عليه أبو حيان أسئلته الكثيرة التي أجاب عنها في الهوامل والشوامل، وظننا أن ابن مسكويه أجاب أبا حيان عن أسئلته الكثيرة بعد رجوعه بخفي حنين من لدن الصاحب ترويحاً عن نفسه الجريح، ونقول الآن إن كتاب تهذيب الأخلاق هو الذي دفع أبا حيان إلى أن يعرض أسئلته الكثيرة على عالم الأخلاق وفيلسوفها كما اتضح في هذا الكتاب، وأيضاً كما اتضح في الفوز الأصغر، فقد ألفه ابن مسكويه هو الآخر قبل الهوامل والشوامل بدليل أنه ذكره في بعض صحفه.

ويكمل كتاب الهوامل والشوامل نظرات ابن مسكويه الأخلاقية. والكتاب مجموعة من المسائل الهوامل التي تحتاج إلى إجابة، جمعها أبو حيان، وقد بلغت مائة وخمساً وسبعين مسألة، وجهها إلى الفيلسوف الأخلاقي ابن مسكويه، فأجاب عليها إجابات شوامل، وهي موزعة بين مسائل خلقية ولغوية وأدبية وعلمية. وإجابات ابن مسكويه تصوره حقاً متفلسفاً ومفكراً كبيراً، وقد أعجب الأستاذ أحمد أمين في تقديمه للكتاب بإجابة بديعة من إجاباته رد بها على سؤال أبي حيان هل تأتي الشريعة بما يخالف العقل ويأباه كذبح الذبائح مثلاً؟ فقد رد على هذا السؤال قائلاً:

" ليس يجوز أن ترد الشريعة من قبل الله تعالى بما يأباه العقل ويخالفه، ولكن الشاك في (مثل) هذه المواضع لا يعرف شرائط العقل وما يأباه، فهو أبداً يخلطه بالعادات، ويظن أن تأبى الطباع من شيء هو مخالفة للعقل. والعقل إذا أبى شيئاً فهو أبدي الإباء له لا يجوز أن يتغير في وقت.. وأمر العادة قد يتغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان.. وذبح الحيوان

ليس من الأشياء التي يأباها العقل وينكرها بل هو من الأشياء التي تأباها بعض الطباع والعادة ".

ويذكر ابن مسكويه أن ما يعرض للإنسان من كراهية ذبح الحيون إنما هو لمشاركته له في الحيوانية وأنه يخطر بباله أنه ربما أصابه نفس المكروه بجامع الحيوانية بينه وبين الحيوان. ولا يزال ابن مسكويه بتعمق في الإجابة موضحاً أن الشريعة لا تخرج عن مقتضى العقل بحال. ونذكر طرفاً من إجابة مسكويه عن مسألة خلقية سألها أبو حيان، وهي إذاعة الأسرار مهما ضرب عليها من حجب الكتاب، يقول:

قد تبين في المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين إحداهما معطية والأخرى آخذة. فهي بالقوة الآخذة تستثيب (تسترجع) المعارف وتشتاق إلى تعرف الأخبار، وبها يوجد الصبيان أول نشئوهم محبين لسماع الخرافات، فإذا اكتملوا أحبوا معرفة الحقائق. وهذه القوة هي انفعال وشوق إلى الكمال الذي يخص النفس، وهي بالقوة المعطية تفيض على غيرها ما عندها من المعارف، وتفيده العلوم الحاصلة لها، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة. وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض. فكل إنسان يحرص بإحدى قوتيه على الفعل، وهو الإعلام، وبالأخرى على الانفعال، وهو الاستعلام.. فقد ظهر السبب الداعي إلى إخراج السر، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتاقت بإحدى قوتيه إلى الاستعلام، واشتاقت بالأخرى إلى الإعلام لم ينكتم سر بتة. وهذا تدبير إلهي عجيب، ومن أجله نُقلت الأخبار القديمة وحفظت قصص الأمم، وعني المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته ".

ويمضي ابن مسكويه فيذكر أن صاحب السر ينبغي أن لا يستودع إلا القادر على نفسه والقاهر لنزواتها، وأن إخراجه من جملة شهوات النفس وأن حفظه لذلك يحتاج مجاهدة شديدة. وهذه الإجابة توضح كيف كان عقل ابن مسكويه خصباً وكيف كان حافلاً بالآراء الطريفة، وهو يعرضها في أسلوب جزل مصقول ليس فيه أي صعوبة ولا أي عوج أو التواء. وقد روى ياقوت في ترجمته نسخة وصية له طريفة يعاهد فيه الله على العفة والشجاعة والحكمة وما يتفرع عن ذلك من شيم نبيلة رفيعة.

٥

الحريري(١)

هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري، كان أبوه من أثرياء " المشان "، وهي قرية قريبة من البصرة، وقد ولد له سنة ٤٤٦ وبها كان منشؤه ومرباه. ثم سكن البصرة في حي بني حرام الفزاريين، وأخذ يختلف إلى علماء عصره، يأخذ عنهم الحديث والفقه والأدب، ويسميهم، ويعددهم، السبكي في طبقاته. ويذكر مترجموه أنه تولى وظيفة الخبر في ديوان الخلافة بالبصرة، وهي وظيفة تشبه وظيفة مصلحة الاستعلامات في عصرنا، ولا يعرف بالضبط متى تقلدها ولا متى عهد إليها بها، وظل في هذه الوظيفة إلى وفاته سنة ٥١٦ وظلت بعده في أبنائه حتى آخر عهد المتقى بالله (٥٣٠-٥٥٥هـ). ولم تمنعه الوظيفة من أن يعكف على الأدب واللغة، بل أن يفرغ لهما، فيكتب مجموعة من الرسائل، وآيته الرائعة: المقامات، وينظم من الشعر ما يتيح له أن يكون من أصحاب الدواوين، ويؤلف كتابه المعروف "درة الغواص في أوهام الخواص" وهو مطبوع مراراً وواضح من عنوانه أنه فيه يسجل أغلاط المتأدبين مما يشيع على ألسنة العامة، وإن كان قد بالغ في ذلك حتى عد بعض الكلمات الفصيحة غير صحيحة. ولشهاب الدين الخفاجي شرح عليه طبع في إستانبول، ومر بنا في غير هذا الموضع أن لتلميذه الجواليقي تكملة ألحقها بالكتاب وهي مطبوعة. ويؤلف الحريري أيضاً ملحة الإعراب، وهي منظومة في النحو شرحها شرحاً جيداً، وهي مطبوعة في القاهرة مراراً. وكان لا يزال يختلف بين عمله في البصرة وضياعه في المشان وبين بغداد دار الخلافة وملتقى العلماء والأدباء. ومما يدل على أنه كان يختلف إلى بغداد منذ

---

(١) انظر في الحريري وترجمته الأنساب للسمعاني ١٦٥ب وخريدة القصر (قسم العراق) ٢/ ٥٩٩ ومعجم الأدباء ١٦/ ٢٦١ وابن خلكان ٤/ ٦٣ وإنباه الرواة ٣/ ٢٣ وتذكرة الحفاظ والسبكي ٧/ ٢٦٦ وشذرات الذهب ٤/ ٥٠ واللباب ١/ ٢٩٥ ومرآة الجنان ٣/ ٢١٣ والعبر في خير من عبر ٤/ ٣٨ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٢٥ وروضات الجنات ٥٢٧ ونزهة الأنباء لابن الأنباري ص٣٧٩ وشرح الشريشي على المقامات الحريرية، وهو مطبوع في مصر مراراً، وهو شرح نفيس وتكتظ رفوف المكتبات بشروح للمقامات لا تزال مخطوطة. وراجع فيه وفي مقاماته كتابنا (المقامة) طبع دار المعارف ص٤٤ والفن ومذاهبه في النثر العربي ص٢٩٢.

أواخر القرن الخامس ما أنشده له العماد الأصبهاني في مديح سعد الملك وزير السلطان محمد شاه السلجوقي الذي صلبه وقتله سنة ٥٠٠ للهجرة. ويقول السبكي إنه حدث في بغداد بجزء من حديثه وبمقاماته.

وكان الحريري لا يباري في الأدب والبلاغة والفصاحة، وتعد مقاماته آية براعته التي ليس لها لاحقة مماثلة وكأنها أغلق الأبواب بكلتا يديه بعده، فلم يستطيع أحد أن يجاريه أو يبلغ مبلغه في تلك المقامات، ويشهد بذلك الزمخشري قائلاً:

أقسم بالله وآياتِه ومَشْعَرِ الحج وميقاتِه

إن الحريريّ حريٌّ بأن نكتب بالتِّبْر مقاماتِه

ويقول السمعاني عنه: " لم يكن له في فنه نظير في عصره، ولو قلت إن مفتتح الإحسان في شعره كما أن مختتم الإبداع في نثره، وأن مسير الحسن تحت لواء كلامه، كما أن مخيم السحر عند أقلامه، لما زلقت من شاهق الإنصاف، إلى حضيض الاعتساف". ويقول العماد الأصبهاني: " طلعت ذكاء(١) ذكائه في المغرب والمشرق، وامتلأت ببضائع فوائده، ونواصع فرائده، حقائق المشئم والمعرق.. حريري الوشي، عراقي الوشم(٢)، لؤلؤي النظم، كلامه يتيمة البحر، وتميمة النحر، ودرة الصدف، ودرى السدف(٣).. قد أعجز الفصحاء بصناعته، وأبر(٤) على البلغاء ببراعته ". ويقول الرواة إنه كان بخيلاً دميم الخلقة والهيئة، تقتحمه العين، وكان يعتاد نتف لحيته، والناس على الرغم من ذلك يزدحمون عليه لسماع مقاماته وإجازتهم بروايتها. ويقال إنه أجاز لسبعمائة طالب أن يرووها عنه، وفي ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته في عصره من منزلة أدبية رفيعة.

والمقامات أقاصيص قصيرة تصور مواقف متنوعة لأديب متسول يحتال ببيانه وفصاحة لسانه على الناس، فيلقون إليه بالدراهم والدنانير. وهي تزخر بحركة تمثيلية، غير أنها لا

---

(١) ذكاء: شمس.

(٢) الوشم: النقش.

(٣) السدف: الظلم.

(٤) أبر: غلب.

تتسع لتصوير حياة مجتمعها، فقد كانت غاية الحريري منها غاية بيانية بلاغية فحس، واستطاع أن يحقق هذه الغاية إلى أبعد مدى. ويزعم الرواة أن سبب صوغه لها ما حكاه عن نفسه من أنه كان جالساً في مسجد بني حرام في البصرة فدخل شيخ رث الهيئة، كان شحاذاً أديباً فسلم ثم سأل، فأعجبت الحاضرين فصاحته وحسن بيانه، فسألوه عن كنيته فقال أبو زيد، وسألوه عن موطنه، فقال من سروج، وهي بلدة قرب حران شمالي العراق، فعمل الحريري المقامة المعروفة باسم الحرامية، وهي المقامة الثامنة والأربعون، ونسبها إلى أبي زيد السروجي المذكور، واشتهرت فبلغ خبرها - فيما يقال - أنو شروان بن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢-٥٢٩هـ). فأشار عليه أن يضم إليها غيرها، فأتمها خمسين مقامة. ويقال بل إنه حين عاد إلى البصرة صنع أربعين مقامة، ورجع إلى بغداد، فأعجب بها الأدباء، وطلبوا إليه أن يؤلف على غرارها مقامة امتحاناً له، فظل أربعين يوماً لا يفتح عليه بشيء، فعاد إلى البصرة، وألف عشر مقامات، وأصعد بها إلى بغداد فعرف الأدباء فضله. وقال بعض حساده إنها من صناعة شخص كان استضافه، فمات عنده. وقال حساد آخرون إن البدو أخذوا جراباً لمغربي من بعض القوافل كانت به هذه المقامات، وتصادف أن اشتراه منهم الحريري فنسبها إلى نفسه!.

وكل ما قدمنا قصص غير صحيحة، وفي مقدمتها قصة تشجيع أنوشروان بن خالد له وبعثه على تأليفها، فإنه تولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريري، وكذبها ابن خلكان بطريق آخر إذ قال إنه رأى نسخة من المقامات بخط الحريري نفسه كتب بخطه على ظهرها إنه صنفها للوزير جلال الدين بن صدقة وزير المسترشد وقد وزر له في أول خلافته سنة ٥١٢ وكأنه هو الذي أشار إليه في مقدمة المقدمات بقوله: " فأشار من إشارته حكم وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع " يريد البديع الهمذاني ومقاماته. وتوقف الشريشي في شرحه إزاء هذه العبارة، وكأنه أراد أن يدحض كل ما قيل من أن المقامات ألفت في عهد المسترشد بإشارة أحد وزيريه: ابن صدق أو ابن خالد، فقال إنها إنما ألفت بإشارة الخليفة المستظهر (٤٨٧-٥١٢هـ) وبدأ الحريري تأليفها سنة ٤٩٥ واستغرقت منه نحو عشر سنوات حتى سنة ٥٠٤.

واتسعت الأسطورة بأبي زيد، أديب المقامات الشحاذ، فقيل إنه نحوي يسمى المطهر بن سلار، ونرى كتب تراجم النحاة تترجم له ذاكرة أنه صاحب الحريري الذي أنشأ المقامات على لسانه، وتقول إنه روى عنه أرجوزته " ملحة الإعراب " وربما كان المطهر شخصية حقيقية، ودخل الوهم منه على النحاة، فظنوا أنه أبو زيد السروجي. ومن المؤكد أن أبا زيد في المقامات شخصية خيالية اخترعها خيال الحريري ليحوك من حولها حيل أديب متسول. وقد سمى روايته الحارث بن همام يعني به نفسه أخذاً من الحديث النبوي: " دلكم حارث وكلكم همام" أي كاسب كثير الاهتمام. ومن المؤكد أيضاً أنها بناء متكامل، لم يعد مجزأ ولا قطعة تلو قطعة، ويتضح ذلك من طريقة الحريري في عرضه المقامة الأولى، إذ جعلها لتعريف أبي زيد بروايته، بينما جعل الأخيرة، وهي ذات الرقم الخمسين، لتوبة أبي زيد من حرفة الشحاذة وحيلها الكاذبة وندمه على ما تقدم من ذنوبه، ويغيب عن روايته، ولا يزال يبحث عنه حتى يجده في بلدته سروج وقد تحول ناسكاً متصوفاً مستغرقاً في عبادة ربه. وسمى المقامات فيما عدا ثلاثاً منها باسم البلدان التي تنقل فيها أبو زيد من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه. ونرى الحريري يذكر في مقدمتها مقصده منها إذ يقول: " أنشأت خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها به من الآيات، ومحاسن الكنايات ورصعته فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية، والفتاوى اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهية". ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القصص لذاته، وإنما قصد فيها إلى أفانين من النثر فضلاً عما التزمه من السجع. وكان ذوق التصنع عم في الكتابة، فلم يقف الكتاب عند السجع والمحسنات البديعية، بل أخذوا يضيفون إلى ذلك عقداً غريبة يصعبون بها المرور إلى السجع، حتى يثبتوا براعتهم الأدبية، وما نكاد نلم بالمقامة السادسة، حتى نراه يخلب ألباب الناس برسالة تتوالى كلماتها: كلمة حروفها منقوطة وكلمة حروفها غير منقوطة، حتى إذا كانت المقامة المغربية السادسة عشرة عرض عقدة أو لعبة غاية في العسر تسمى ما لا يستحيل بالانعكاس كقوله. " لُمْ أخا مَلّ " فإن العبارة تقرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها، ومضى

يعرض طائفة كبيرة من مثل هذه العبارة نثراً وشعراً، مما ملأ الحاضرين به إعجاباً شديداً. وفي المقامة القهقرية التالية جاء بطائفة كبيرة من الحكم تقرأ الألفاظ فيها لا الحروف طرداً وعكساً مثل " مع اللجاجة تلغى الحاجة " فإنها يمكن أن تقرأ "الحاجة تلغى مع اللجاجة ". ويسمى المقامة السادسة والعشرين باسم الرقطاء لأنها تتألف من كلمات تتوالى حروفها بالتبادل بين النقط وعدمه مثل " نائل يديه فاض، وشح قلبه غاض". وفي المقامة الثامنة والعشرين نرى أبا زيد يخطب خطبة كل كلماتها غير منقوطة، ويعود إلى نفس اللعبة في المقامة التالية. وكل هذه عقد غريبة كان يمكن أن تخنق المقامات خنقاً لولا ما امتاز به نسج الحريري من عذوبة ورشاقة. وكانت لعبة الألغاز شاعت في العصر، فأفرد لها مقاماته: السادسة والثلاثين والثانية والأربعين والرابعة والأربعين. وخص النحو بالمقامة الرابعة والعشرين، إذ عرض فيها اثنتى عشرة مسألة نحوية، وأفرد للفقه مقامتين: الخامسة عشرة والثانية والثلاثين. وقلما يعني بعرض شئون عصره السياسية والاجتماعية إلا أشياء طفيفة هنا وهناك، فقد كان مشغولاً بعرض الأمثال والكنايات وألفاظ اللغة الغريبة، على أن تكون مقبولة لا تصك الأسماع ولا تستثقلها الأفواه. وهو يكثر في مقاماته من الآيات القرآنية ومن أشعاره الجيدة ومن المحسنات البديعية وخاصة الجناس. وطبيعي أن تتعدد فيها المواقف ويتنوع معها وصفه، فتارة يصف روضة أو فلاة أو بحراً أو سوقاً، وتارة ثانية هو زاهد متعبد يكثر من وعظه بمثل قوله:

" ابن آدم ما أغراك بما يغرك، وأضراك (أجرأك) بما يضرك، وألهجك بما يطغيك، وأبهجك بمن يطريك.. لا بالكفاف تقتنع، ولا من الحرام تمتنع، ولا للعظات تستمع، ولا بالوعيد ترتدع.. يعجبك التكاثر بما لديك، ولا تذكر ما بين يديك.. أتظن أن ستترك سدى، وأن لا تحاسب غداً.. كلا والله لن يدفع المنون، مالٌ ولا بنون، ولا ينفع أهل القبور، سوى العمل المبرور، فطوبى لمن سمع ووعى، وحقق ما ادعى (ونهى النفس عن الهوى) وعلم أن الفائز من ارعوى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى) ."

والمواعظ والأدعية الإلهية كثيرة في المقامات، ودائماً تعرض في مثل هذه الأسجاع الخفيفة التي تطير عن الأفواه في عذوبة ورشاقة. وبينما يلقانا أبو زيد في بعض النوادي واعظاً إذا هو يتحول من حين إلى حين ماجناً مع ندامى يحتسي العقار ويخلع الوقار. ولكن من الحق أن ذلك قليل في المقامات، وقد أراد به الحريري إلى الفكاهة والدعابة، وهما واضحتان عنده في مقامات عدة، وخاصة حين يظهر أبو زيد مع ابنه أو مع زوجته مختصمين إلى أحد القضاة أو الحكام على نحو ما نرى في المقامة الإسكندرانية، إذ تنكر في زي شيخ هرم خبيث تجره بعنف امرأة معها طفل نحيل ضئيل، وتقدما إلى القاضي وكانا قد عرفا أنه أحضر مال الصدقات ليوزعه على الفقراء وذوى الحاجات، ولم تلبث المرأة أن بادرت إليه قائلة:

" أيد الله القاضي، وأدام به التراضي، إني امرأة من أكرم جرثومة، وأطهر أرومة، ميسمى الصمون.. وخلقي نعم العون، وبيني وبين جاراتي بَوْن، وكان أبي إذا خطبني نباة المجد، وأرباب الجد، سكتهم وبكتهم، وعاف وصلتهم وصلتهم، واحتج بأنه عاهد الله تعالى بحلفة، أن لا يصاهر غير ذي حرفة، فقيض القدر لنصبي ووصبى، أن حضر هذا الخدعة نادى أبي، فأقسم بيه رهطه، أنه وفق شرطه، وادعى أنه طالما نظم درة إلى درة، فباعهما ببدرة (مال كثير) فاغتر أبي زخرفة محاله (كيده) وزوجنيه قبل اختبار حاله، فلما استخرجني من كناسي (بيتي) ورحلني عن أناسي، ونقلني إلى كسره (بيته) وحصلني تحت أسره، وجدته قعد جثمة (لا يفارق البيت) وألفيته ضجعة (عاجزاً) نومة... ومزق مالي بأسره، وأنفق مالي في عسره.. ولي منه سلالة، كأنه خلالة، وكلانا ما ينال منه شبعة، ولا ترقأ له من الطوى (الجوع) دمعة، وقد قدته إليك، وأحضرته لديك، لتعجم (لتختبر) عود دعواه، وتحم بيننا بما أراك الله ".

وتمضي المقامة على هذا النمط الفكه، ويرد الشيخ بقصيدة طويلة يدعى فيها أنه لا يشق غباره في العلم والشعر، وأنه طالما اكتسب الأموال بدرر كلامه، غير أن سوق الأدب كسدت، لانقراض جيل الكرام، مما اضطره إلى بيع كل ما يملك هو وزوجته، حتى لقد باع-

كارهاً والدموع تترقرق في عينيه- جهازها وكل ما دخلت به من أثاث ورياش أو ثياب فاخرة. وتنتهي المقامة بعطف القاضي على الشيخ وزوجته وفرضه لهما في الصقات حصة.

والمقامات يشيع فيها الجناس والمحسنات البديعية، كما تشيع فيها العذوبة، ويخيل إلى قارئ الحريري في مقاماته كأنها جمع العربية كلها في كنانة أو حقيبة ثم نثر ألفاظها بين يديه، وأخذ يختار منها وينتخب أروع ما عرفت لغتنا من أساليب مسجوعة، وكأنما كان يعزفها على قيثارة عزف ملحن مبدع، مما جعل معاصريه ومن جاء بعدهم يتخذونها النموذج النثري الذي لا يجاري في غرس ذوق العربية في نفوس الناشئة وكل ما يطوى في هذا الذوق من إحساس بجمال الصياغة الأدبية النثرية. ومر بنا في الفصل الثاني من هذا القسم الخاص بالعراق أن لابن الخشاب البغدادي المتوفى سنة ٥٦٧ مبحاً لغوياً فيما زعمه من أغلاط الحريري في مقاماته وأن لابن بري اللغوي المصري المتوفى سنة ٥٨٢ رداً عليه انتصر فيه للحريري.

وكان للحريري بجانب مقاماته مجموع رسائل، لم تحتفظ به يد الزمن، غير أن العماد في خريدته وياقوت في معجمه احتفظا ببعض رسائله، وأطال العماد الأصبهاني في قطف منتخبات كثيرة من هذه الرسائل شغلت منه في ترجمته له نحو أربعين صحيفة، وقد سجل منها هو وياقوت رسالتين اشتهرتا في عصر الحريري وبعد عصره، اختار كلمات الأولى منها من ذوات السين ولذلك سميت السينية، واختار كلمات الثانية من ذوات الشين، ولذلك سميت الشينية. والتكلف فيهما واضح لالتزام كلمات بعينها، وكأنه فيهما يحجل في قيود ثقيلة. غير أن ما وراءهما من رسائل يشهد له بسلاسة سجعه وحسن رصفه في رسائله شأنه في مقاماته، كقوله في وصف جواب أو رسالة من أحد أصدقائه:

" وصل الجواب.. وخلته كتاب الأمان، من الزمان، فتلقيته كما تتلقى يد الإنسان، صحف الإحسان، وصكاك العطايا الحسان. لا: بل كما تتلقى أنامل الراح (الكف) كاسات الراح (الخمر) من أيدي الصباح (الفاتنات) في نسمات الصباح، ومازلت أتمتع بحلي ودرر، ووشي وحبر (حرير) وملح وزهر.. فلله ما جمع فيه من أنوار ونوار (زهر) ونضير (جميل) ونضار (ذهب) وتحسين وإحسان، ومعين (ماء عذب) ومعان ".

وواضح ما في هذا السجع من خف ورشاقة بما يحتويه من مهارة في انتخاب ألفاظه وتقصير عباراته بحيث يتمع الألسنة كلامه حين يجري عليها متدفقاً في عذوبة، كما يمتع الآذان حين تستمع إلى جرسه ونبراته، حتى ليشعر قارؤه أن متاعاً موسيقياً خلاباً يصب في حنايا سجعه، متاعاً يلذ الآذان والقلوب والأفئدة.